

آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي

(٢)

العذب النمير

من مجالس الشنقيطي في التفسير

للشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي

١٣٢٥ - ١٣٩٣

تحقيق

خالد بن عثمان السبت

إشراف

بكر بن عبد الله أبو زيد

المجلد الأول

وقف

مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية

دار عالم الفوائد

للنشر والتوزيع

آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي

(٢)



العذب النمير

من مجالس الشنقيطي في التفسير

للشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي

١٣٢٥ - ١٣٩٣

تحقيق

خالد بن عثمان السبت

إشراف

بكر بن عبد الله أبو زيد

المجلد الأول

وقف

مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية

دار عالم الفوائد


بسم الله الرحمن الرحيم



مؤسسة سليمان بن عبدالعزيز الراجحي الخيرية
SULAIMAN BIN ABDUL AZIZ AL RAJHI CHARITABLE FOUNDATION

الطبعة الثانية

١٤٢٦هـ

دار عالم الفوائد
للنشر والتوزيع
مكة المكرمة ص.ب ٢٩٢٨
هاتف ٥٥٠٥٢٠٥ فاكس ٥٥٤٢٣٠٩

الصف والإخراج دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع

«فنحن ــ أيها الإخوان ــ نذكر هذه المناسبات ؛ لأننا نعلم أن القرآن العظيم هو مصدر العلوم ، وله في كل علم بيان ، فنتطرق الآية من وجوهها ، وقصدنا انتفاع طلبة العلم ؛ لأن القرآن أصل عظيم تُعرف به أصول التخريج ، والنحو ، وأصول الفقه ، والتاريخ ، والأحكام إلى غير ذلك من جميع النواحي ، فنحن جرت عادتنا بأن نتطرق الآية من جميع نواحيها بحسب الطاقة ؛ لينتفع كل بحسبه» . اهـ.

محمد الأمين الشنقيطي

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فأحمد الله ـ تعالى ـ أولاً على ما وفَّق من إخراج هذا التفسير ليكون عونًا لإخواننا المسلمين على فهم كتاب الله ـ تعالى ـ وتدبر معانيه، كما أثني عليه وأحمده على ما يسَّر من مراجعته بعد طبعته الأولى، واستدراك ما ينبغي استدراكه من الأخطاء الطباعية وغيرها من العبارات التي لم نتمكن من كتابتها في الطبعة الأولى لضعف التسجيل، حيث حصلنا على نسخة جديدة تُعد أكثر وضوحًا من النسخة السابقة في بعض المواضع، كما تميزت ببعض الزيادات التي من أهمها:

١ ـ ما أثبتُّه عند تفسير الآية (١١٤) من سورة الأنعام، وذلك في عدة صفحات.

٢ ـ تكملة تفسير الآية (٦٧) من سورة التوبة وما بعدها إلى الآية (٧٠) من السورة نفسها، في أكثر من عشرين صفحة.

هذا وأسأل الله العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يتقبل هذا العمل ويجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجزي خير الجزاء كل من أعان على إخراجه برأي أو استدراك أو فائدة أو مراجعة أو طباعة أو غير ذلك. وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

خالد بن عثمان السبت

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا الكتاب مبارك، أي: كثير البركات والخيرات، فمن تعلّمه وعمل به غمرته الخيرات في الدنيا والآخرة؛ لأن ما سماه الله مباركاً فهو كثير البركات والخيرات قطعاً. وكان بعض علماء التفسير يقول: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا، تصديقاً لقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢] ونرجو أن يكون لنا مثل ذلك في الدنيا. وهذا الكتاب المبارك لا ييسر الله للعمل به إلاّ الناس الطيبين المباركين، فإنه كثير البركات والخيرات؛ لأنه كلام رب العالمين؛ إذا قرأه الإنسان وتدبّر معانيه ففي كل حرف عشر حسنات في القراءة، إذا تدبر معانيه عرف منها العقائد التي هي الحق، وعرف أصول الحلال والحرام، ومكارم الأخلاق، وأهل الجنة وأهل النار، وما يصير إليه الإنسان بعد الموت، وما يسبب له النعيم الأبدي، وما يسبب له العذاب الأبدي، فكله خيرات وبركات؛ لأنه نور ينير الطريق التي تميّز بين الحسن من القبيح، والنافع من الضار، والباطل من الحق، فهو كله خيرات وبركات، من عمل به غمرته الخيرات والبركات في الدنيا والآخرة، وأصلح له الله الدارين».

محمد الأمين الشنقيطي



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب تبياناً لكل شيء، والصلاة والسلام على القائل: «**ألا إني أُوتيتُ القرآنَ ومثلَه معه**»[١].

وعلى صحابته المروي عنهم: (إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في كتابه)[٢] . . . الأثر، الموعودِين بالحسنى؛ وأتباعِهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فلقد تصفحت ما كتبه فضيلة الشيخ د. خالد بن عثمان السبت (حفظه الله) وقام به من جهد ينبىء عن علو همة ورغبة في الخير، وقد ظهر في الذي وقفت عليه من عمله أمانة علمية، وتجشم للصّعاب.

وإذا كانت النفوسُ كباراً تعبتْ في مرادِهَا الأجْسَامُ[٣]

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٣١)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، حديث رقم: (٤٥٨٠) (١٢/ ٣٥٤)، والبيهقي في السنن (٩/ ٢٣٢)، وفي الدلائل (٦/ ٥٤٩)، وابن حبان (١/ ١٠٧)، والدارقطني (٤/ ٢٨٧)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٨٣)، والطحاوي في شرح المعاني (٤/ ٢٠٩)، وابن عبد البر في التمهيد (١/ ١٥٠)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ٢٦٣)، وانظر: صحيح أبي داود (٣٨٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم: (١١١) (١/ ٢٠٤). وأطرافه في (٣٠٤٧، ٣٩٠٣، ٦٩١٥) من قول علي (رضي الله عنه).

(٣) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه (بشرح البرقوقي ٤/ ٦٤).

وأخبرني بقيامه بسماع الأشرطة عدة مرات أولاً، ثم عهد بنسخها ثانياً، ثم قام بتوثيق المعلومات ثالثاً. وهي معلومات غزيرة ومتنوعة، مما يتطلب الوقت الكثير والبحث المتواصل، والتأمل والتحري، مما يكلف المرء عناءً هو عند طلبة العلم من أشهى المتع، كما قال الشاعر:

وتَمَايُلي طَرَباً لحلِّ عَوِيْصةٍ ... في الدرسِ أَشْهى من مُدَامَةِ سَاقِ[١]

وكما قال الشيخ:

أَبِيْتُ مُفكراً فيها فَتَضْحَى ... لفَهْمِ الفَدْمِ خَافِضَةَ الجَنَاحِ[٢]

وكان الشيخ (رحمه الله) يوظف جميع معارفه لفهم القرآن.

وقد كفاني مؤنة ذلك الشيخ خالد. وقد أخذ القوس باريها.

ونحن طلبةَ العلم وتلاميذ الشيخ (رحمه الله)، مَنْ منا يستطيع أن يقوم بخدمة كتبه أو أشرطته أو محاضراته على الوجه الصحيح، فلا ينبغي أن يتوانى في القيام بذلك، والعلم رَحِمٌ بين أهله.

رحمة الله على الشيخ، وجزى الله الشيخ خالداً بالخير. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، والسلام.

عبد الله بن محمد الأمين الشنقيطي

٢٠/ ٢/ ١٤١٨هـ

---

(١) البيت للشافعي، وهو في ديوانه ص ٦٤.

(٢) البيت ضمن أبيات للشيخ أوردها الشيخ عطية (رحمه الله) في ترجمته (وهي مطبوعة في آخر الأضواء ص ٣١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمة

الحمد لله الذي جعل في كل زمانٍ فترةٍ من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون مَنْ ضَلَّ إلى الهدى، ويَصبرون منهم على الأذى، يُحيُون بكتاب الله الموتى، ويُبَصِّرُون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيَوْه، وكم من ضال تائه قد هدَوْه، فما أحسن أثرَهم على الناس، وأقبح أثرَ الناس عليهم. ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مُجْمِعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يُشَبِّهُون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين[1].

(١) مقتبس من كلام الإمام أحمد (رحمه الله) في مقدمة الرد على الزنادقة والجهمية، ص ٦. وأورد نحوه ابن وضاح في كتاب البدع والنهي عنها ص ١٠ عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بغير إسناد.

أما بعد:

فإن القرآن العظيم هو مأدبة الله (عز وجل)[1]، فيه نبأ ما قبلنا، وخبر ما بعدنا، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، وهو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تَرَكَه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو الصراط المستقيم الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أُجِرَ، ومن حكم به عَدَلَ، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم[2].

ولقد بين النبي ﷺ حروف القرآن كما بيَّن ما قد يَخفى من

---

(١) اقتباس من حديث ابن مسعود (رضي الله عنه) مرفوعاً وموقوفاً، والصحيح وقفه، وقد أخرجه ابن المبارك في الزهد ص ٢٧٢، وأبو عبيد في فضائل القرآن (١/ ٢٤٠)، والدارمي (٢/ ٣٠٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٤٨٢)، وعبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٧٥)، وسعيد بن منصور في سننه (تحقيق الحميد ١/ ٤٣)، والحاكم (١/ ٥٥٥)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٣٨)، والمروزي (مختصر قيام الليل ص ١٥٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٠ ـ ١٣١) والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٢٥، ٣٤٣)، وابن حبان في المجروحين (١/ ١٠٠)، والخطيب في الجامع (١/ ١٠٧)، وابن الجوزي في العلل (١/ ١٠١ ـ ١٠٢)، وذكره الذهبي في الميزان (١/ ٦٦).

(٢) مقتبس من حديث رُوي مرفوعاً وموقوفاً، ولا يصح رفعه، وقد أخرجه جماعة من أصحاب المصنفات كما في: سنن الدرامي (٢/ ٣١٢، ٣١٣)، مسند الإمام أحمد (١/ ٩١)، مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٢)، سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل القرآن، حديث (٢٩٠٦)، (٥/ ١٧٢)، المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٨٤)، وابن نصر في قيام الليل (المختصر ص ١٥٧)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٢٦)، وانظر: شرح السنة (٤/ ٤٣٧، ٤٣٩)، مجمع الزوائد (٧/ ١٦٤).

معانيه؛ إذ إنَّ بِعْثته تدور على ذلك، كما أخبر (تعالى) عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: آية ٤٤].

وإنما المقصود من إنزال القرآن فهمه والعمل به، ولم ينزل من أجل القراءة فحسب ــ مع أنها مطلوبة ــ كما لا يكفي فهم معانيه من غير العمل به، ولا يمكن العمل به من غير فهم معانيه.

وطريق فهم القرآن هي تدبر ألفاظه ومعانيه، والتفكر فيها، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: آية ٨٢]، وقال (تعالى): ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: آية ٢٤]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: آية ٢٩].

كما أن فهمه يحصل بتطلب تفسيره من كلام العلماء الراسخين في هذا الباب الشريف، الشارحين لآيات القرآن الكريم، والمبينين لمدلولاتها، سواء كان الأخذ عنهم مشافَهةً، أو عن طريق مصنفاتهم.

وإن من العلماء الأفذاذ الذين بلغوا شأواً عظيماً في علم التفسير، العلاَّمة المفسرَ الأصوليَّ محمد الأمين الشنقيطي (رحمه الله)، وهو وإن كان من المتأخرين، إلا أن سماع كلامه في التفسير يُذكر سامعه بالأئمة المتقدمين.

ومعلوم أن التأخر والمعاصرة لا يُطَفِّفَانِ حق العالم إذا كان متحققاً في العلم. فـ «ليس لقِدَمِ العهدِ يُفَضَّلُ القائل[1]، ولا لِحِدْثَانِ

(١) هكذا ضبطه القرافي وجماعة (القائل) بالقاف، وذهب الزبيدي وجماعة إلى أنه بالفاء (الفائل) من: فال رأيه إذا ضعف. انظر: تاج العروس (١/ ٢٩).

عهدٍ يُهْتَضَمُ المُصيب، ولكن يُعطى كلٌّ ما يستحق»[١].

ذلك أن نتائج الأفكار لا تنقضي لانقضاء عصر بعينه؛ بل لكل عالم ومتعلم من ذلك حظ بحسب إِخَاذِهِ، وليس ثَمَّةَ ما يمنع أن يُدخر لبعض المتأخرين ما لم يُوهب لبعض المتقدمين، وعليه فلا عبرة بقول بعضهم: «ما ترك الأول للآخِر»!! فإن هذه الكلمة بالغة الضرر بالعلم؛ لكونها قاطعة للآمال عن تحصيله والإضافة فيه، كما لا يخفى. ولكن ينبغي أن يُقال: «كم ترك الأول للآخر». والشيء إنما يُستجاد ويُسترذل لجودته ورداءته لا لتقدم قائله أو تأخره[٢].

قال أبو محمد بن قتيبة (رحمه الله) في مقدمة (الشعر والشعراء): «ولم أسلُك فيما ذكرتُه من شعر كل شاعر مختاراً له سبيلَ من قلَّد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرتُ إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتَقَدُّمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرتُ بعين العدل على الفريقين، وأعطيتُ كلاً حظَّه، ووفرت عليه حقَّه، فإني رأيتُ من علمائنا من يستجيدُ الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيَّره، ويُرْذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله، ولم يَقْصُرِ الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مُشْتَركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كلَّ قديم حديثاً

(١) ما بين الأقواس « » من كلام المبرد في «الكامل» (١/ ٤٣).

(٢) انظر: كشف الظنون (١/ ٣٩)، ولأحمد بن فارس (رحمه الله) كلام مفيد في هذا الموضوع نقله الأُستاذ عبد السلام هارون (رحمه الله) في مقدمة التحقيق لكتاب (المقاييس في اللغة) (١/ ١٥ ـ ٢٠).

في عصره، وكلَّ شَرَفٍ خارجيَّةٌ[١] في أوَّله، فقد كان جرير والفرزدقُ والأخطل. . . وأمثالهم يُعَدُّون مُحْدَثين، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا بِبُعْدِ العهد منهم، وكذلك يكون مَنْ بعدهم لِمَن بَعْدَنَا، فكل من أتى بحَسَنٍ من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولا حداثة سنه؛ كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه». اهـ[٢].

وقال في مقدمة (عيون الأخبار): «وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المُحدَثين، إذا كان متخيَّرَ اللفظ لطيفَ المعنى لم يُزْرِ به عندنا تأخُّرُ قائلِه، كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدُّمُه، فكل قديم حديث في عصره، وكل شرف فأوله خَارجيَّة، ومن شأن عوام الناس رفع المعدوم، ووضع الموجود، ورفض المبذول، وحب الممنوع، وتعظيم المتقدم وغفران زلته، وبخس المتأخر والتجني عليه، والعاقل منهم ينظر بعين العدل لا بعين الرضا، ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم». اهـ[٣].

وقال ابن مالك (رحمه الله) في مقدمة التسهيل: «وإذا كانت العلوم مِنَحاً إلـٰهية، ومواهب اختصاصية، فغير مُستبعد أن يُدَّخَرَ لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين»[٤]. اهـ.

---

(١) الخارجيَّة: خيل لا عِرْقَ لها في الجودة، فتُخرَّج سوابق، والخارجي: الذي يخرج ويشرف بنفسه من غير أن يكون له قديم، وتقول: «خرجت خوارج فلان» إذا ظهرت نجابته. انظر اللسان (مادة: خرج) (١/ ٨٠٨)، القاموس (مادة: خرج) ص ٢٣٧.

(٢) الشعر والشعراء ص ٢٣ ــ ٢٤.

(٣) عيون الأخبار (١/ م ــ ن).

(٤) المساعد على تسهيل الفوائد (١/ ٣).

وقال الزبيدي (رحمه الله) في مقدمته لشرح القاموس: «وكأني بالعالم المُنصف قد اطلع عليه فارتضاه، وأَجَال فيه نَظْرَةَ ذي عَلَقٍ فاجتباه، ولم يلتفت إلى حُدوث عهده وقرب ميلاده؛ لأنه إنما يُستجَاد الشيء ويُستَرذل لجودته ورداءَته في ذاته لا لِقِدَمِه وحُدوثه، وبالجاهل المُشِطِّ قد سمع به فسارع إلى تمزيق فروته وتوجيه المَعَاب إليه... والذي غَرَّهُ أنه عَمَلٌ مُحْدَثٌ ولا عمل قديم، وحسبك أن الأشياء تُنْتَقَدُ أو تُبَهرجُ لأنها تَليدةٌ أو طَارِفَةٌ». اهـ[1].

وقد أحسن القائل[2]:

قل لمن لا يرى المعاصر شيئاً ... ويرى للأوائل التقديما
إن ذاك القديم كان حديثاً ... وسَيُمْسِي هذا الحديث قديما

والشيخ الأمين (رحمه الله) عالم متضلع في فنون عدة من أبرزها التفسير. وقد مضى قوله في سياق ترجمته: «لا توجد آية في القرآن إلا درستها على حدة». اهـ.

وللشيخ (رحمه الله) كتاب في تفسير القرآن بالقرآن يُعد من أحسن التفاسير وأجودها.

وإذا كان علم التفسير معدوداً في جملة العلوم الضرورية، وكان الشيخ الأمين بهذه المنزلة من الرسوخ فيه، فحق على طلبة العلم أن يُعنوا بما تركه الشيخ (رحمه الله) في هذا الباب.

وإن من هذه التركة النفيسة: عشرات من الأشرطة الصوتية التي تحوي كثيراً من دروس الشيخ (رحمه الله) في التفسير.

---

(١) تاج العروس (١/ ٥).

(٢) البيتان في كشف الظنون (١/ ٣٩)، إضاءة الراموسي (٢/ ١٠٩)، تاج العروس (١/ ٢٩).

وقد كنتُ أَعْجَبُ من إغفال كتابتها وإخراجها للناس مقروءة كي يعم الانتفاع بها؛ ذلك أن تلك الأشرطة يصعب الانتفاع بها بسبب عدم وضوحها في الغالب، سواء من جهة ضعف التسجيل آنذاك، أو من جهة سرعة الشيخ (رحمه الله) في الإلقاء. فصح العزم على إخراج ذلك خدمة لكتاب الله (تعالى)، ووفاءً للشيخ المفسِّر (رحمه الله تعالى).

ولا يخفى أن مثل هذا الأمر يتطلب جهداً كبيراً من ناحيتين:

الناحية الأولى: صعوبة كتابة محتويات الأشرطة لما سبق.

الناحية الثانية: صعوبة توثيق المادة العلمية التي يوردها الشيخ (رحمه الله)؛ ذلك أن درسه حافل بالمعلومات المختلفة من شتى الفنون، من تفسير، ولغة، وإعراب، وسيرة، وتاريخ، وأصول، وقراءات، وغير ذلك.

ومما يزيد التوثيق صعوبة أن الشيخ (رحمه الله) لا يُعنى بالعزو إلى كتب التفسير أو أعلامه، الأمر الذي قد لا يتميز معه بعضُ ما أخذه من غيره مما فتح الله به عليه.

لمحة عن دروس الشيخ (رحمه الله) في التفسير[١]:

درَّس الشيخ (رحمه الله تعالى) التفسير في أماكن متعددة، منها:

---

(١) انظر ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، للسديس ص ٦٩، ترجمة الشيخ (رحمه الله) الملحقة في آخر الأضواء ص ٣٩ ـــ ٤٨.

١ ــ المسجد النبوي، وقد أتم فيه تفسير القرآن كاملاً، وتوفي ولم يتم الثانية، وهي هذه[١].

وقد كان هذا الدرس يُعقد في كل يوم على مدار العام. كما ذكر ذلك بعض تلامذته الذين لازموا درسه في التفسير منذ عام (١٣٦٩هـ).

ثم صار الدرس مقتصراً على الإجازة الصيفية منذ سنة (١٣٧١هـ) حين انتقل الشيخ (رحمه الله) إلى الرياض في ذلك العام. فكان الشيخ (رحمه الله) يعود إلى المدينة النبوية ــ في الإجازة ــ ويواصل هذا الدرس في مسجد رسول الله ﷺ.

وقد استمر الأمر على ذلك إلى أن انتقل الشيخ (رحمه الله) إلى المدينة النبوية مرة ثانية عام (١٣٨١هـ) ليُدرِّس في الجامعة الإسلامية.

وفي سنة (١٣٨٥هـ) صار وقت الدرس مقتصراً على شهر رمضان فقط؛ فكان يتوقف سائر العام، فإذا جاء رمضان أكمل التفسير من حيث وقف في العام قبله وهكذا.

وقد استمر الأمر على هذا الحال إلى وفاة الشيخ (رحمه الله) عام (١٣٩٣هـ).

وكان درسه في رمضان يبدأ بعد صلاة العصر مباشرة ويستمر إلى قرب أذان المغرب، وربما كان وقت الدرس قصيراً لعارض، كما وقع للشيخ (رحمه الله) عند تفسيره لسورة الأعراف، فبعد أن فرغ من الكلام على الآية رقم (٩٧) منها توقف معتذراً بقوله: «وقد نقتصر

---

(١) تجد ذلك صريحاً عند تفسير الآية رقم (٩٩) من سورة الأعراف.

الآن على هذه الكلمات القليلة لأن البارحة أخذنا دواء أثَّر علينا، فمعي الآن بعض الأثر». اهـ.

٢ ـ دار العلوم بالمدينة النبوية، وذلك في عامي (١٣٦٩ و ١٣٧٠هـ) إلى أن انتقل الشيخ (رحمه الله) إلى الرياض.

٣ ـ المعهد العلمي، وكليتي الشريعة، واللغة العربية بالرياض. وذلك لما انتقل إليها عام (١٣٧١هـ)، وبقي على ذلك إلى عام (١٣٨١هـ) حين انتقل إلى المدينة النبوية.

٤ ـ الجامعة الإسلامية. حيث دَرَّس فيها التفسير والأصول إلى أن توفي، إضافة إلى آداب البحث والمناظرة كما سيأتي في ترجمته.

٥ ـ في بيته في مدينة الرياض، أو بعد انتقاله إلى المدينة النبوية (وهي دروس خاصة لبعض تلامذته).

يقول تلميذه الشيخ عطية (رحمه الله): «ولم يكن لي معه (رحمه الله) من وقت مُعَيَّن، مع كثرة الإخوان الدارسين عليه، المقيمين معه في بيته، إلا وقت واحد، هو ما بين المغرب والعشاء، لمدة سنتين دراسيتين ونحن بالرياض، قرأت خلالهما تفسير سورة البقرة»[1]. اهـ.

---

(١) ترجمة الشيخ (رحمه الله) لتلميذه الشيخ عطية (رحمه الله) في آخر الأضواء (٩/ ١٤).

منهج الشيخ (رحمه الله) في تدريس التفسير[١]:

كان لدرس الشيخ (رحمه الله) في التفسير من حيث التوسع وعدمه ــ كما ذكر أحد تلامذته[٢] ــ ثلاثة أحوال:

الأولى: الإسهاب والتوسع. وعلى هذه الحال كانت دروسه في المسجد النبوي.

الثانية: التوسط بين التوسع والاقتضاب. وهذه حال دروسه في الجامعة في الأحوال العادية.

الثالثة: الاقتضاب الشديد. وهو المرور السريع على بعض المفردات في الآية، والإشارة السريعة إلى بعض معانيها، وكان يلجأ إلى ذلك في آخر السنة الدراسية عندما يرى أنه لا يمكن إكمال المنهج المقرر بأسلوب الحالة الثانية.

وسوف أقتصر في الكلام هنا على الحالة الأولى؛ لأنها هي التي تتعلق بغالب المادة التي بين أيدينا.

لقد كان درس الشيخ (رحمه الله) يمتاز بتسخير جميع علوم العربية وغيرها من العلوم الإسلامية في تفسير كتاب الله (تعالى)، ومحاكمة الآراء والمعاني التي تقال في الكلمة أو الآية إلى ما غلب في القرآن نفسه، ثم تفسيره بالسنة، ثم بما ورد عن السلف، مع التعمق في فهم ذلك بالأساليب العربية[٣].

---

(١) انظر: ترجمة الشيخ لتلميذه الشيخ عطية (رحمه الله) في آخر الأضواء (٩/ ٤٠)، علماء ومفكرون عرفتهم (١/ ١٨١)، ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، للسديس ص ٢٢٢.

(٢) معارج الصعود إلى تفسير سورة هود ص ١٤.

(٣) المصدر السابق ص ١١.

كانت حلقة الدرس تفتتح بآي من السورة المقصود تفسيرها، يتلوها أحد التلاميذ ـ وهي بمعدل خمس آيات تقريباً ـ فإذا فرغ القارىء شرع الشيخ في التفسير مبتدئاً بالمناسبة بين الآية وما قبلها في بعض الأحيان، ثم يعرض للمفردات اللغوية بحيث يعرض معانيها واشتقاقاتها وكل ما يتصل بها من قريب أو بعيد، مستعيناً على ذلك بما لا يحصى من شواهد اللغة[١]، ومن ثم يتناول العلائق التركيبية بين المفردات، فيعرض لضروب القراءات الواردة فيها مع عزوها وتوجيهها، كما يذكر وجوه الإعراب وما تقرره من المدلولات، فإذا انتهى من ذلك صرف الأذهان إلى الاستنباط الفقهي، مع ذكر الخلاف والأدلة والترجيح، مستعيناً على ذلك بكل ما يتطلبه المقام من علوم اللسان، والبيان، والأصول، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وما يتصل بذلك من العموم والخصوص والإطلاق والتقييد، ولا يفوته أن يربط بعض المعاني ببعض الوقائع المشابهة على صورة تُثري المعرفة، وتعمق أسباب الإقناع.

وإذا كان المضمون قصصياً عمد إلى عناصر القصة، فاستخرج عبرها، وكشف نُذُرها، وقاس ما فيها من صور الماضي على ما يعايشه الناس من أحداث الحاضر[٢]، فكان كثير الربط بين هذا

---

(١) وربما كانت بعض تلك الشواهد تحمل معاني غير مستحسنة، وقد برر الشيخ (رحمه الله) إيرادها بقوله: «وقصدنا بهذا الكلام الخبيث بيان لغة العرب، لا المعاني الخسيسة التافهة؛ لأن معاني لغة العرب يُستفاد منها ما يعين على فهم كتاب الله وسنة رسوله، وإن كان مُفْرَغاً في معاني خسيسة تافهة، فنحن نقصد مطلق اللغة لا المعاني التافهة التي هي تابعة لها». اهـ من كلامه على الآية رقم (٢) من سورة الأعراف.

(٢) علماء ومفكرون عرفتهم (١/ ١٨١).

وهذا، فتجده يتحدث عن أسباب ضعف المسلمين اليوم، وعن الموقف من الحضارة الغربية، ولزوم الأخذ بأسباب القوة، وأسباب النصر والتمكين... وغير ذلك مما تجده في مواضعه من هذه الدروس.

وهكذا حينما يعرض لغزوة من الغزوات فإنه يستطرد في ذكر تفاصيلها المختلفة، وقد قال (رحمه الله) عند تفسير الآيات المتعلقة بغزوة حنين من سورة براءة: «ونحن دائماً في هذه الدروس إذا جاءت غزوة من مغازي رسول الله ﷺ في الآيات القرآنية نفصلها ونذكر تفاصيلها لتمام الفائدة، كما أوضحنا فيما مضى غزوة أُحد في سورة آل عمران، وغزوة بدر في سورة الأنفال، وسيأتي في سور القرآن العظيم أكثر مغازيه ﷺ». اهـ.

وإذا كانت الآية المفسرة مما يتعلق به بعض المبتدعة فإنه ينبه على ذلك ثم يستطرد في الرد عليهم، وقد قال عند تفسير الآية رقم (١٠٧) من سورة الأعراف حين عرض لشبهة الجبر والقدر: «ونحن في هذه الدروس دائماً نبين كيفية رد هذه الشبه». اهـ.

وكان (رحمه الله) كثيراً ما يعرض السؤال الذي يتوقع انقداحه في أذهان السامعين ثم يجيب عنه، وقد قال عند تفسير الآية رقم (٣٧) من سورة التوبة: «إن من عادتنا التي نجري عليها في هذه الدروس أن نتعرض لما نظن أنه يسأل عنه طلبة العلم». اهـ وهذا تجده مبثوثاً في هذا التفسير في ما يقرب من سبعين موضعاً.

وكثيراً ما يقرن الشيخ ذلك كله بالوعظ والتذكير بالاستعداد للآخرة واستحضار المراقبة لله (عز وجل).

وقد يستطرد في بعض الأحيان في قضية واحدة تستغرق الدرس كله ــ وهذا قليل فيما وقفت عليه ــ كما فعل عند الكلام على قوله (تعالى) من سورة الأعراف: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: آية ١٢] حيث أطال في الرد على ابن حزم في رده القياس، كما ستقف على ذلك في موضعه من سورة الأعراف.

وكذلك عند الكلام على قوله (تعالى) من السورة نفسها: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: آية ٥٤] حيث بسط الكلام على مسألة الصفات.

وكذا في تفسير قوله (تعالى): ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: آية ٥٧] حيث أطال النَّفَس في الرد على أهل الفلك.

وربما أحال إلى بعض كتبه، كما نرى ذلك عند كلامه على المجاز أثناء تفسير الآية رقم (٢١) من سورة براءة.

ومما يُذكر في هذا المقام مما يدل على غزارة تلك الدروس بالعلم، أن الشيخ (رحمه الله) حينما عُرض عليه درسه السابق المتعلق بالرد على ابن حزم في إنكار القياس ــ مُفرَّغاً من الشريط المسجَّل بعد سنة من إلقائه ــ وسمعه الشيخ بصوته، قال: «لولا أني أسمع صوتي بأذني وأنت ــ يعني تلميذه الشيخ عطية ــ أتيتني بها مكتوبة؛ ما صدقت أن شخصاً يقول هذا ارتجالاً»[١].

(١) ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، للسديس ص ٢٢٢.

ولمَّا راجعه أحد تلامذته في تخفيف مستوى الدرس، أجاب بقوله: «إن الله يفتح على المرء ما لم يكن يتوقع، ثم إن المسجد يجمع عجائب من أجناس مختلفة، ويكفيني واحد يحمل عني ما بَلَّغْتُ مما عندي»(١). اهـ.

وقد نبه الشيخ (رحمه الله) على ذلك عند الكلام على قوله (تعالى) من سورة براءة: ﴿لَا يَسْتَـْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾... [التوبة: آية ٤٤] لما تكلم على بعض النواحي الإعرابية واللغوية المتصلة بالآية، فقال بعد ذلك: «ونحن نذكر هذه الأشياء العربية، وإن كان أكثر المستمعين لا يفهمونها؛ لأنَّا نريد أن تكون هذه الدروس القرآنية يستفيد منها كل الحاضرين على قدر استعداداتهم، والله يوفق الجميع للخير». اهـ.

وذكر (رحمه الله) بعض التحقيقات اللغوية في موضع آخر، ثم عقب ذلك بقوله: «فنحن ـ أيها الإخوان ـ نذكر هذه المناسبات؛ لأنَّا نعلم أن القرآن العظيم هو مصدر العلوم، وله في كل علم بيان، فنتطرق الآية من وجوهها، وقصدنا انتفاع طلبة العلم؛ لأن القرآن أصل عظيم تُعرف به أصول التصريف، والنحو، وأصول الفقه، والتاريخ، والأحكام، إلى غير ذلك من جميع النواحي، فنحن جرت عادتنا بأن نتطرق الآية من جميع نواحيها بحسب الطاقة لينتفع كل بحسبه»(٢). اهـ.

وقال عند تفسير قوله (تعالى): ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾... [التوبة: آية ٣٤]: «ونحن ـ عادةً في هذه

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ذكره عند تفسير الآية (١٠١) من سورة الأعراف.

الدروس ــ إذا مررنا بآية من كتاب الله هي أصل باب من أبواب الفقه نتعرض إلى مسائل الكبار، ونبين عيونها ومسائلها التي لها أهمية». اهـ.

ولم يكن الشيخ (رحمه الله) يترك الحديث عن الأحكام المتعلقة بالآية نظراً لأن موضوعها قد عُطِّل أو كاد في هذا العصر أن يُعطَّل، فنجده عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ ﴾... [الأنفال: الآية ٤١] يقول: «وهذه الآية الكريمة من سورة الأنفال قد تضمنت أحكاماً كثيرة من أحكام الجهاد، ومن أحكام الغنائم، وقد يحتاج لها المسلمون؛ لأنا نرجو الله (جل وعلا) أن يرفع علم الجهاد ويقوي كلمة لا إلـٰه إلا الله، وأن تخفق رايات المسلمين في أقطار الدنيا فيحتاجون إلى تعلم ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أحكام الجهاد. ولما كان القرآن العظيم هو مصدر جميع العلوم؛ لأنه الكتاب الذي حوى جميع العلوم، وكانت أصول جميع الأشياء كلها فيه أردنا هنا أن نبين جُملاً من الأحكام التي أشارت إليها هذه الآية الكريمة». اهـ.

وقد ينسى الشيخ (رحمه الله) مسألة يرغب في عرضها عند تفسيره للآية فيستدرك ذلك في الدرس الذي يليه ويتكلم عليها قبل أن يشرع في تفسير الآيات التي بعدها كما وقع عند تفسير الآية رقم (٣٧) من سورة براءة. ولربما وقع له ذهول عن أحد الأقسام التي هو بصدد الحديث عنها فلا يذكره، ثم ينبه على ذلك في مناسبة أخرى تماثلها، كما في كلامه على مادة (بَيَنَ) والمعاني التي تأتي لها في حال لزومها وتعديها، فقد تكلم عليها في سبعة مواضع، ثلاثة في الأنعام وأربعة في الأعراف، وقد قال عند كلامه عليها في الموضع

السادس وذلك ضمن تفسير الآية رقم (١٠١) من سورة الأعراف: «وقد ذكرنا فيما مضى في الكلام على قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾[الأنعام: الآية ١٥٧] تصريف هذه الكلمة وما جاء من أمثلتها في القرآن ببعض أمثلتها، وكان ذلك الذي ذكرنا هنالك سقط منه قسم نسياناً، وكنا نتحرى إن جاءت لها مناسبة أخرى أن نبين القسم الذي سقط من كلامنا سهواً لئلا يضيع على بعض طلبة العلم الذين يسمعون هذه الدروس. . .» إلى آخر ما ذكره (رحمه الله).

ومع هذه الغزارة في المعلومات؛ فقد كان الشيخ (رحمه الله) حين يُلقي درسه كالسيل المنحدر؛ فهو يُسرع في الإلقاء، وتتوارد عليه هذه المعلومات المتنوعة، التي تمده بها تلك الذاكرة النادرة، فيضع كل معلومة في موضعها، فتأتي متسقة مترابطة، كل ذلك في لغة عالية، لا لحن فيها ولا سوقية[١].

ومع هذا الإسراع في العرض، بالإضافة إلى ذلك الكم الهائل من المعلومات المتنوعة، مع ما في ضمن ذلك من عزو للقراءات إلى قارئيها، والأحاديث إلى مخرجيها، والأقوال والمذاهب الفقهية لأصحابها، والأشعار والشواهد لقائليها، إلى غير ذلك مما عرض له في هذا التفسير؛ فإنك مع ذلك كله يندر أن تقف له على غلط مُحَقَّق، وقد تتبعت كل ما يذكره في هذا التفسير بغية توثيقه فهالني قوة ضبطه وحفظه وإتقانه. ولعل من الطريف أن أذكر أن الشيخ (رحمه الله) عند كلامه على القراءات في معرض تفسيره للآية رقم (٦١) من سورة براءة أخطأ فنسب قراءة الخفض في قوله

(١) انظر: علماء ومفكرون عرفتهم (١/ ١٨٢).

تعالى: ﴿ورحمةٍ﴾ إلى الكسائي، فترددت في التعليق على ذلك لما عهدته من ضبطه وحفظه، ثم وجدته بعد أن جاوزها وتكلم على بعض المسائل يرجع ويقول: «وأما على قراءة حمزة الذي قرأ ﴿ورحمةٍ﴾ بالخفض ـ هو حمزة لا الكسائي ـ أما على قراءة حمزة. . .» إلى آخر ما ذكر.

ولربما عزا الحديث إلى بعض المصنفات فتطلبته فيه مرة بعد مرة بشتى الطرق المعروفة في تخريج الحديث حتى إذا كدت أن أجزم بعدم وجوده فيه وجدته بعد ذلك في غير مظانه.

هذا، وقد جرى كثير من المفسرين على إيراد الأدلة والتفصيلات المختلفة عند أول مناسبة تعرض لهم، ثم إذا تكرر نظائر لذلك فإنهم يكتفون بالإشارة لما حرروه في الموضع المتقدم، وهذا أمر يفيد في اختصار حجم الكتاب بلا ريب وإن كان يؤثر على القارىء كما لا يخفى، وقد جرى على هذه الطريقة الشيخ نفسه في كتابه أضواء البيان. وأما الطريقة الثانية وهي أن يبين ما احتاج إلى بيان في كل موضع وإن كان ذلك متكرراً، فهذه الطريقة أنفع للقارىء من التي قبلها خاصة في التفسير، يقول الشيخ عبدالرحمٰن بن سعدي (رحمه الله): «اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني في معانيها ولا أكتفي بذكري ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه ﴿مَثَانِيَ﴾ ثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام وجميع المواضيع النافعة لحِكَم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف وصلاح

الظاهر والباطن وإصلاح الأمور كلها». اهـ[١]. ثم إن الحاجة لذلك تعظم إذا كان التفسير درساً يُلقى في سنين متطاولة في مواسم معينة مع ما بينها من التباعد في المدة وما يحصل مع ذلك من النسيان لدى السامعين إضافة إلى تجدد الكثير من الوجوه في كل مرة؛ ولذا جرى الشيخ (رحمه الله) في هذا التفسير على بيان الآية من جميع الوجوه مع صرف النظر عن كون ذلك يقع متكرراً، فنجده يبين أن ﴿لَعَلَّ﴾ تأتي لمعنى التعليل في جميع القرآن إلا في موضع واحد؛ يذكر ذلك في أحد عشر موضعاً، وينبه على الفرق بين النبأ والخبر في تسعة مواضع، كما نجد بعض القضايا يكررها في ثمانية مواطن كبيان الفرق بين الخوف والحزن، ولزوم الحمل على ظاهر القرآن إلا لدليل، وأن الشيء قد يُقصر على بعض أفراده؛ لأنهم المنتفعون به، وقضية الحكم بغير ما أنزل الله، وأن علم الغيب يختص بالله (عز وجل)، وهناك بعض المسائل التي تكررت في سبعة مواضع كالكلام على أطوار خلق الإنسان، وأن الله خلق الخلق ليختبرهم في إحسان العمل، وشرحَ الأُسس الثلاثة التي يُبنى عليها الاعتقاد في باب الأسماء والصفات، والرد على القدرية القائلين بأن الله لم يشأ الكفر والمعاصي، والمناظرة المشهورة التي وقعت بين أبي إسحاق الإسفرائيني والقاضي عبد الجبار المعتزلي في القدر، وغير ذلك مما تكرر هذا التكرر في هذا التفسير، وأما القضايا التي تكررت دون ذلك فهي كثيرة لا أطيل بذكرها، علماً بأن ما بأيدينا من هذه الدروس إنما يمثل أجزاء قليلة من هذا التفسير المبارك، فكيف لو وُجد كاملاً؟

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٨.

موقفه من الروايات الإسرائيلية:

إن المطالع لكتب التفسير يجد أن عامتها لم يسلم من دخول الروايات الإسرائيلية على تفاوت بينها في ذلك، فمن مُقِلٍّ ومن مُسْتكثر، مع أن التفسير في غُنية عنها، إلا أن كثيراً من المفسرين قد أَوْلِعُوا بالتتبع لتفاصيل لا طائل تحتها ولا فائدة في معرفتها، كما نبه الشيخ (رحمه الله) على ذلك عند تفسير الآية رقم (٧٣) من سورة البقرة؛ ولذا نرى الشيخ في هذه الدروس لا يكاد يُورد شيئاً منها إلا ما ندر، ثم ينبه على ذلك بعد إيراده أو قبله، كما قال عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأعراف: «وستأتي قصة الرجل في سورة الصافات؛ لأن الله ذكر في الصافات قصة رجل وأجملها، والمفسرون يبسطونها ويشرحونها؛ إلا أن شرحهم لها وبسطها من القصص الإسرائيلية التي لا يُعوَّل عليها. . .». اهـ. ثم أورد القصة، وكما في كلامه على الآية رقم (١٦٨) من سورة الأعراف حيث يقول: «وجرت عادة المفسرين أن يذكروا قصة غريبة عنهم في آية ذكرناها قبل هذا من سورة الأعراف. ثم ذكر الآية والقصة المشار إليها ثم عقب ذلك بقوله: هكذا يقولون، وتكثر هذه القصة. . . في كلام المفسرين عند هذه الآية الكريمة، وقد ألمحنا بالآية ولم نذكرها لأنها لم يثبت عندنا فيها شيء». اهـ، وهكذا عند كلامه على الآية رقم (١٧٥) من سورة الأعراف حيث ذكر بعض الأقوال التي مُعَوَّلُها على الإسرائيليات ثم عقب ذلك بقوله: «وكل هذه إسرائيليات» ثم نقل كلاماً من قبيل الإسرائيليات وعقبه بقوله: «وهذه إسرائيليات لا معول عليها يذكرها المفسرون» ثم نقل كلاماً لبعضهم من ذلك القبيل وعقبه بقوله: «وغير هذا من روايات كثيرة إسرائيلية يحكيها المفسرون في تفسير

هذه الآية من سورة الأعراف لا طائل تحتها ولا دليل على شيء منها». اهـ.

وهذا يُعد مزية لهذا التفسير كما لا يخفى.

وكان من عادته (رحمه الله) أن يختم الدرس بدعاء يُؤَمِّنُ عليه مَنْ حضر، وقد علل ذلك بقوله عند تفسر الآية رقم (٥٥) من سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾: «ونحن وإن كنا نعلم أن الإخفاء في الدعاء أفضل من [الجهر] به وندعو غالباً في هذا المجلس دعاءً ظاهراً، قصدنا به أن يسمعنا إخواننا ويُؤَمِّنُون لنا فنكون مجتمعين على الدعاء في هذا الشهر المبارك، ولو أسررنا الدعاء لما سمعوه ولما أَمَّنُوا لنا، والمُؤَمِّن أحد الداعِيَيْن...» إلى آخر ما ذكر.

القيمة العلمية لهذه الدروس:

يمكن أن أُلخص الكلام على هذه القضية في الأمور الآتية:

١ ـ علو كعب صاحبها في العلم، ورسوخه في التفسير، الأمر الذي يجعل لاختياراته وترجيحاته قيمة معتبرة.

٢ ـ غزارة المادة العلمية التي احتوتها هذه الدروس[١]؛ فهي ـ كما

---

(١) وإذا أردت أن تعرف حقيقة ذلك فاعلم أن هذا القدر الذي وقفنا عليه من هذا التفسير المبارك لا يمثل إلا أجزاء قليلة من القرآن لا تتجاوز الأربعة، ومع ذلك تجد فيها من الأحاديث والآثار ـ من غير المكرر ـ ما يقارب الخمسمائة، وفيها من الأشعار والشواهد والمنظومات ما يزيد على ستمائة بيت، وفيها من القراءات ما يقارب خمسين ومائتي قراءة، وأكثر من عشرين ومائة فرع فقهي، وفيه نحو هذا الكم من المسائل المتعلقة بالعقيدة، كما تجد فيه أكثر من سبعين قاعدة من القواعد المتنوعة، وما يقرب من سبعين إشكالاً أجاب عنها، إضافة =

سبق ــ تشتمل على معلومات كثيرة مستقاة من مُختلف العلوم المحتاج إليها في التفسير، منها ما هو موجود في بعض كتب التفسير، ومنها ما هو مفرق في كتب تتعلق بفنون أخرى كتاريخ ابن جرير، وفتح الباري، وكتب اللغة وغيرها، إضافة إلى بعض الفوائد والشواهد التي تلقاها الشيخ (رحمه الله) عمن أخذ عنهم العلم.

٣ ــ تجد في هذه الدروس كثيراً من الاستنباطات العلمية التي تَوَصَّل إليها الشيخ بعد اطلاع واسع، وفهم ثاقب، ونظر صحيح.

٤ ــ من الأمور الجلية في هذه الدروس أن الشيخ (رحمه الله) حينما يلقيها ليس هو مجرد ناقل يسرد ما قرأ فحسب، بل نجده ينقل كلام العلماء، ويقارن بين تلك المنقولات ويناقشها، ويختار منها ما يترجح لديه.

٥ ــ في هذه الدروس تقف على نموذج رفيع من توظيف القواعد والضوابط العلمية في الفهم والاستنباط والترجيح. وهذا من أنفع الأمور التي يحتاج إليها طالب العلم.

٦ ــ تشتمل هذه الدروس على بيان مواطن العبر في القرآن، وربط ما جاء فيه بحياة الناس وواقعهم؛ فالشيخ لا يشرح الآيات على أنها تخاطب قوماً ذهبوا وقضوا، بل يبينها بطريقة تجعل السامع يعيش معها كلمة كلمة، وآية آية، حتى يدرك أنه مخاطب بها.

= إلى ما يذكره من الفروق المتنوعة وهي تقارب الخمسين فرقاً، فضلاً عن القضايا الإعرابية والصرفية والبلاغية وغير ذلك.

٧ ـ يتعرض الشيخ (رحمه الله) في هذه الدروس لتحليل كل كلمة في الآية، ويبين معناها وما تدل عليه، كما يبين أصل مادتها وهكذا. فهو لا يترك شاردة ولا واردة إلا ويتكلم عليها غالباً.
وبهذا تدرك فرقاً جلياً بين هذه المادة التي بين يديك وبين ما ذكره الشيخ (رحمه الله) في كتابه (أضواء البيان)؛ إذ أنه في (الأضواء) لا يتعرض لتفسير جميع الآيات، بل يتكلم على بعضها، كما لا يتطرق إلى تفسير جميع الألفاظ في الآية التي يفسرها؛ ذلك أنه قصد من تأليفه أمرين اثنين ـ كما صرح بذلك في مقدمته[١] ـ هما:

١ ـ بيان القرآن بالقرآن.

٢ ـ بيان الأحكام الفقهية في جميع الآيات المُبَيَّنَة.

وقفة مع تسجيل دروس الشيخ (رحمه الله):

يبدو أن دروس الشيخ (رحمه الله) في الكلية لم تكن تُسجل صوتياً؛ إذ يقول أحد تلامذته في الكلية: «ولم نكن في ذلك الوقت نفكر في إحضار مسجل للصوت لأسباب: منها كبر حجم المسجلات، حيث يصعب حملها مع حمل الكتب، ومنها أنها تحتاج إلى أشرطة كثيرة قد يصعب على الطالب شراؤها، لقلة النفقة»[٢]. اهـ.

أما في المسجد النبوي فقد كانت تلك الدروس تسجل صوتياً، وبين أيدينا مجموعة منها تُعد بالعشرات.

---

(١) انظر: الأضواء (١/ ٥ ـ ٦).

(٢) معارج الصعود ص ١٢.

يقول أحد تلامذة الشيخ: «ومرة من المرات أحصيت أربعين مسجلاً للصوت تُسجل دروسه»[١]. اهـ.

إلا أن من المؤسف أن المتداول بين أيدينا منها يُعد ضئيلاً مقارنة بكثرة تلك الدروس! والظاهر أن جميع الدروس المسجلة في المسجد النبوي والمتداولة إنما هي من المرة الثانية من المرتين اللتين فسر فيهما الشيخ (رحمه الله) القرآن، وقد مات ولم يتمها وقد صرح (رحمه الله) بذلك عند تفسير الآية رقم (٩٩) من سورة الأعراف.

هذا وقد تطلبت ما سُجِّل من تلك الدروس العامرة فوقع لي منها سبع نسخ[٢]، في كل نسخة منها زيادات ــ ولو يسيرة ــ قد سقطت من النسخ الأُخرى، وبعد استعراض محتوياتها والمقارنة بينها صنعت من مجموعها نسخة مُكمَّلة تحوي جميع التفسير المسجل في تلك النُّسخ، وبهذا أمكن التخلص من كثير من المسح والانقطاع في التسجيل الواقع في كل نسخة مما وقفت عليه من تلك الدروس المسجلة، ثم رقمتها ترقيماً خاصاً وهو ما سأذكره قريباً ــ إن شاء الله تعالى[٣] ــ.

---

(١) نقله صاحب كتاب: جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف ص ٦٩.

(٢) بعد المقارنات بين هذه النُسخ وتكرار سماعها تبين لي بما لا يدع مجالاً للشك أنها تدور على نسخة واحدة في الأصل قد سُجِّلت منها، وهي نسخة الشيخ عطية (رحمه الله) إلا أن قلة العناية بالتسجيل أدى إلى هذا التفاوت، والله المستعان.

(٣) ولتسهيل الوقوف على هذه النسخة بعثت بنسخة منها للمكتبة الصوتية في المسجد النبوي، كما تجدها أيضاً في تسجيلات البخاري بمكة، بالإضافة إلى بعض المواقع في الشبكة العنكبوتية، مثل:

١ ــ موقع رسالة الإسلام http://www.islammessage.com. =

ذكر محتويات الأشرطة التي أمكن الوقوف عليها:

إن مجموع ما بأيدينا من هذه الأشرطة المتعلقة بالتفسير يبلغ ستة وسبعين شريطاً موزعة على خمس سور من القرآن الكريم هي: (البقرة، الأنعام، الأعراف، الأنفال، التوبة) وإليك عرضاً لمحتوياتها تفصيلاً.

أولاً: من سورة البقرة: وهي ثلاثة أشرطة:

الشريط رقم [١] فسر فيه الآيات: (٤٥) ـ (٥٣).

الشريط رقم [٢] فسر فيه الآيات: (٥٤) ـ (٥٩)، (٦٧) ـ (٦٩).

الشريط رقم [٣] فسر فيه الآيات: (٦٩) ـ (٧٩).

= ٢ ـ موقع السلفيون http://www.alsalafyoon.com.

* تنبيه: عند تصحيح طباعة هذا الكتاب وقفت على نسخة صوتية جديدة لهذه الدروس تفضل بها الشيخ الدكتور بسام الغانم فوجدت فيها بعض المادة التي ذهبت من النسخ الأخرى بسبب انقطاع التسجيل أو المسح، فألحقتها في مواضعها من الكتاب، وهي إجمالاً على النحو التالي:

١ ـ زيادة بقدر سطرين ضمن تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

٢ ـ زيادة بقدر ثلاثة أسطر ضمن تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

٣ ـ زيادة بقدر ورقتين ضمن تفسير الآية السابقة.

٤ ـ زيادة بقدر خمسة أسطر ضمن تفسير الآية (٤٨) من سورة الأعراف.

٥ ـ زيادة بقدر ثلاثة أسطر ضمن تفسير الآية (٥٢) من سورة الأعراف.

٦ ـ زيادة كثيرة بقدر شريط لمدة ساعة تقريباً ضمن تفسير الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

٧ ـ زيادة بقدر نصف سطر ضمن تفسير الآية (٦٨) من سورة الأعراف.

٨ ـ زيادة بقدر سطر ضمن تفسير الآية (٨١) من سورة الأعراف.

وهذه الأشرطة ليست ضمن سلسلة دروس الشيخ (رحمه الله) في المسجد النبوي؛ وإنما سجلها تلميذه الشيخ عطية سالم (رحمه الله) في منزل الشيخ (رحمه الله) حين أقعده المرض عن إلقاء درسه في الجامعة، فكان هذا التسجيل للطلبة تعويضاً لهم من انقطاع الشيخ (رحمه الله) عنهم.

ثانياً: من سورة الأنعام:

الشريط رقم [١] فسر فيه الآيات: (٣٣) ـ (٣٨).

الشريط رقم [٢] فسر فيه الآيات: (٣٨) ـ (٤٢)، نصف الآية (٤٣) قوله: ﴿تَضَرَّعُواْ﴾.

الشريط رقم [٣] فسر فيه الآيات: (٤٣) ـ (٤٨).

الشريط رقم [٤] فسر فيه الآيات: (٤٩) ـ (٥٣).

الشريط رقم [٥] فسر فيه الآيات: (٥٣) ـ (٥٧).

الشريط رقم [٦] فسر فيه الآيات: (٥٧) ـ (٥٩)، (٧٤).

الشريط رقم [٧] فسر فيه الآيات: (٧٤) ـ (٨٢).

الشريط رقم [٨] فسر فيه الآيات: (٨٣) ـ (٨٩).

الشريط رقم [٩] فسر فيه الآيات: (٩٠) ـ (٩٣).

الشريط رقم [١٠] فسر فيه الآيات: (٩٣) ـ (٩٧).

الشريط رقم [١١] فسر فيه الآيتين: (٩٨) ـ (٩٩).

الشريط رقم [١٢] فسر فيه الآيات: (١٠٠) ـ (١٠٢).

الشريط رقم [١٣] فسر فيه الآيات: (١٠٣) ـ (١٠٨).

الشريط رقم [١٤] فسر فيه الآيات: (١٠٨) ـ (١١١).

الشريط رقم [١٥] فسر فيه الآيات: (١١٢) ـ (١١٦).

الشريط رقم [١٦] فسر فيه الآيات: (١١٦) ـ (١٢٠)، (١٢٨).

الشريط رقم [١٧] فسر فيه الآيات: (١٢٨) ـ (١٣١).

الشريط رقم [١٨] فسر فيه الآيات: (١٣١) ـ (١٣٥)، (١٤١) ـ (١٤٤).

الشريط رقم [١٩] فسر فيه الآيات: (١٤٤) ـ (١٤٦).

الشريط رقم [٢٠] فسر فيه الآيات: (١٤٦) ـ (١٥٠).

الشريط رقم [٢١] فسر فيه الآيتين: (١٥٠) ـ (١٥١).

الشريط رقم [٢٢] فسر فيه الآيات: (١٥١) ـ (١٥٢). بداية (١٥٥).

الشريط رقم [٢٣] فسر فيه الآيات: (١٥٥) ـ (١٥٨).

الشريط رقم [٢٤] فسر فيه الآيتين: (١٥٨) ـ (١٥٩).

الشريط رقم [٢٥] فسر فيه الآيات: (١٥٩) ـ (١٦٥).

ثالثاً: سورة الأعراف:

الشريط رقم [١] فسر فيه الآيات: (١) ـ (٣).

الشريط رقم [٢] فسر فيه الآيات: (٤) ـ (٧).

الشريط رقم [٣] فسر فيه الآيات: (٨) ـ (١١).

الشريط رقم [٤] فسر فيه الآية: (١١).

الشريط رقم [٥] فسر فيه الآيات: (٣١) ـ (٣٥).

الشريط رقم [٦] فسر فيه الآيات: (٣٥) ـ (٣٨).

الشريط رقم [٧] فسر فيه الآيات: (٣٨) ـ (٤٤).

الشريط رقم [٨] فسر فيه الآيات: (٤٤) ـ (٥٢).

الشريط رقم [٩] فسر فيه الآيات: (٥٢) ـ (٥٤).

الشريط رقم [١٠] فسر فيه الآيات: (٥٤) ـ (٦٢).

الشريط رقم [١١] فسر فيه الآيات: (٦٣) ـ (٧٢).

الشريط رقم [١٢] فسر فيه الآيات: (٧٣) ـ (٨١).

الشريط رقم [١٣] فسر فيه الآيات: (٨١) ـ (٨٩).

الشريط رقم [١٤] فسر فيه الآيات: (٨٩) ـ (٩٩).

الشريط رقم [١٥] فسر فيه الآيات: (٩٩) ـ (١٠١).

الشريط رقم [١٦] فسر فيه الآيات: (١٠١) ـ (١٠٦)، (١١٥) ـ (١٢٤).

الشريط رقم [١٧] فسر فيه الآيات: (١٢٤) ـ (١٣٥)، (١٣٧).

الشريط رقم [١٨] فسر فيه الآيات: (١٣٨) ـ (١٤٤).

الشريط رقم [١٩] فسر فيه الآيات: (١٤٨) ـ (١٥٥).

الشريط رقم [٢٠] فسر فيه الآيتين: (١٥٦) ـ (١٥٧).

الشريط رقم [٢١] فسر فيه الآيتين: (١٥٨) ـ (١٥٩).

الشريط رقم [٢٢] فسر فيه الآيات: (١٥٩) ـ (١٦٣).

الشريط رقم [٢٣] فسر فيه الآيات: (١٦٤) ـ (١٧٤).

الشريط رقم [٢٤] فسر فيه الآيات: (١٧٥) ـ (١٨١).

الشريط رقم [٢٥] فسر فيه الآيات: (١٨٢) ـ (١٨٩).

الشريط رقم [٢٦] فسر فيه الآيات: (١٨٩) ـ (١٩٩).

الشريط رقم [٢٧] فسر فيه الآيات: (١٩٩) ـ (٢٠٦).

رابعاً: من سورة الأنفال:

الشريط رقم [١] فسر فيه الآيات: (١) ـ (٧).

الشريط رقم [٢] فسر فيه الآيات: (٧) ـ (١١).

الشريط رقم [٣] فسر فيه الآيات: (١١) ـ (١٣)، (٢٤) ـ (٢٨).

الشريط رقم [٤] فسر فيه الآيات: (٢٩) ـ (٤١).

الشريط رقم [٥] فسر فيه الآية: (٤١) فقط.

الشريط رقم [٦] فسر فيه الآيات: (٤١) ـ (٤٤).

الشريط رقم [٧] فسر فيه الآيات: (٤٥) ـ (٥٠).

الشريط رقم [٨] فسر فيه الآيات: (٥٠) ـ (٦١).

الشريط رقم [٩] فسر فيه الآيات: (٦١) ـ (٦٩).

الشريط رقم [١٠] فسر فيه الآيات: (٧٠) ـ (٧٣).

الشريط رقم [١١] فسر فيه الآيات: (٧٣) ـ (٧٥).

خامساً: من سورة التوبة:

الشريط رقم [١] فسر فيه الآيات: (١) ـ (٧).

الشريط رقم [٢] فسر فيه الآيات: (٧) ـ (١٦).

الشريط رقم [٣] فسر فيه الآيات: (١٧) ـ (٢٥).

الشريط رقم [٤] فسر فيه الآيات: (٢٥) ـ (٢٨).

الشريط رقم [٥] فسر فيه الآيات: (٢٨) ـ (٣١).

الشريط رقم [٦] فسر فيه الآيات: (٣١) ـ (٣٥)، (٣٧).

الشريط رقم [٧] فسر فيه الآيات: (٣٨) ـ (٤٠).

الشريط رقم [٨] فسر فيه الآيات: (٤٠) وبعض (٤١)، ثم (٤٤) ـ (٥٧).

الشريط رقم [٩] فسر فيه الآيات: (٥٧) ـ (٦٣).

الشريط رقم [١٠] فسر فيه الآيات: (٦٣) ـ (٦٧).

الطريقة المتبعة في إخراج هذا التفسير:

أولاً: فيما يتعلق بتفريغ محتويات الأشرطة ومراجعتها:

١ ــ قمت باستخراج نسخة مسجلة تحوي جميع محتويات النسخ التي توفرت لدي.

٢ ــ فيما يتعلق بتفريغ محتويات هذه الأشرطة فقد وكلت ذلك إلى مجموعة من طلبة العلم الذين تفضلوا بالقيام بهذه المهمة.

٣ ــ بعد أن تم تفريغ محتويات الأشرطة قمت بمراجعتها، وذلك بالمقابلة بين المكتوب على الورق وبين التسجيل الصوتي، وذلك للتأكد من سلامة النص المُثبت. وقد التزمت أن لا تقل هذه المقابلة عن مرتين في كل شريط.

ثانياً: ما يتعلق بالتوثيق والعزو:

١ ــ قمت بترقيم الآيات القرآنية، وتخريج الأحاديث والآثار من مصادرها، وكذلك الشواهد الشعرية.

٢ ــ عملت على ذكر مصادر المادة العلمية التي يذكرها الشيخ (رحمه الله) من قراءات، وتصريف، وبلاغة، وإعراب، وأحكام، وقواعد، وغير ذلك مما تجده في حاشية الكتاب.

٣ ــ عَرَّفْتُ ببعض المصطلحات القليلة التداول، وبعض الكلمات الغامضة.

ثالثاً: ما يتعلق بمنهج الكتابة والتوثيق:

١ ــ إذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بالعزو إليهما أو إلى أحدهما في حال التفرد.

٢ ــ عند ذكر مصادر القراءات، أو الشواهد، أو القواعد، أو المسائل العلمية، فإني أكتفي ــ غالباً ــ بذكر مصدر واحد، أو اثنين، أو ثلاثة، دون التوسع في هذا الباب.

٣ ـ أثبتُّ كلام الشيخ بنصه من غير تصرف إلا ما تقتضيه صناعة الإعراب، وفي هذه الحالات على الوجه الصحيح من غير إشارة إلى ذلك. وفي حال وجود انقطاع في التسجيل، أو مسح في الشريط، أو لفظة غير واضحة، فإني أضع مكان ذلك ما يتم به المعنى من كلام الشيخ في موضع آخر ــ إن وُجد ــ وإلا كملته بما يتناسب مع السياق، وأجعل ذلك بين معقوفتين [ ]، وهكذا فيما يقع من سبق اللسان، ثم أنبه إلى ذلك في الحاشية.

٤ ــ في بعض الأحيان يذكر الشيخ (رحمه الله) كلمة أو أكثر ثم يستدرك فيذكر كلاماً آخر، وفي هذه الحالة أترك الكلام الذي أعرض عنه الشيخ، وأُثبت كلام الشيخ بعد الاستدراك. كما أن الشيخ (رحمه الله) قد يكرر الجملة ليفهم السامع مراده أو يعيدها بعد الفراغ منها تأكيداً لمضمونها في ذهن المستمع وهذا أمر يحتاج إليه الملقي، لكن إن وقع في المادة المكتوبة فإنه يُخل بتتابع الكلام وترابط أجزائه؛ ولذا فإني ــ غالباً ــ أحذف الجملة المكررة التي لا تحمل أي فائدة زائدة من جهة المعنى ولا أُشير لذلك.

٥ ــ يوجد في آخر كل درس من دروس سورة البقرة سؤالات موجهة من الشيخ عطية لشيخه الأمين (رحمه الله)، وهي تتصل ببعض المواضع من الآيات المفسَّرة في الدرس نفسه، ثم يجيب الشيخ عنها. وقد قمت بوضعها في مواطنها التي تتصل بها (في الهامش) مع الإحالة عند موطنها من المتن على الهامش، وقد أَثْبَتُّ جواب الشيخ بنصه، أما السؤال فقد

أختصره أَو أُعيد صياغته.

٦ ــ إذا وقع للشيخ خطأ في الآية القرآنية فإني أصلحه دون الإشارة لذلك.

٧ ــ الأحاديث التي يوردها الشيخ (رحمه الله) أَثْبَتُّهَا كما نطق بها. مع أنه قد يذكرها بالمعنى في بعض الأحيان، وإنما اكتفيت بتخريجها.

٨ ــ فيما يتعلق بالشواهد والأشعار التي يوردها الشيخ (رحمه الله)، قد أجد مغايرة في بعض الألفاظ فيما بين ما نطق به الشيخ وما وقفت عليه من المصادر التي ذُكر البيت فيها. فإن وقفت في هذه الحالة على رواية للبيت توافق ما ذكره الشيخ اكتفيت بذلك وأثبتُّه كما قاله. وإلا أثبتُّه كما قاله الشيخ المفسر، وأشرت في الهامش إلى نوع المغايرة التي وقفت عليها.

أما إذا كان البيت من ألفية ابن مالك، أو مراقي السعود، أو غير ذلك من المنظومات العلمية فإني أُثبته كما في الأصل الذي أُخذ منه.

٩ ــ عند بداية كل وجه من تلك الأشرطة أضع علامة (/) مع كتابة رقم الشريط والوجه في البياض الأيسر من الصفحة، هكذا (١/ أ) أو (١/ ب) وهلم جراً.

١٠ ــ بعد كل درس يختم الشيخ (رحمه الله) بدعاء قدر نصف صفحة، وقد تركت نقل ذلك اختصاراً، ولأنه لا تعلق له بموضوع التفسير[١].

(١) وقد نقلت نص دعائه في أحد الدروس في آخر الكتاب.

رابعاً: فيما يتعلق بالفهارس:

كنت قد أعددت فهارس متنوعة تُقَرِّبُ مادة الكتاب لدى القراء، ثم عدلت عن ذلك لأمرين:

الأول: أن الكتاب لم يكتمل، ولا زلنا نأمل الحصول على مزيد من الدروس المسجلة للشيخ (رحمه الله)، وهذا يعني أنه بمجرد حصول زيادة في المحتويات يحصل إخلال في الفهارس من جهة أرقام الصفحات كما لا يخفى.

وهذا السبب بعينه هو الذي ألجأ إلى أن تكون الإحالات إلى المواضع السابقة واللاحقة في الحاشية مرتبطة بأرقام الآيات في السور.

الثاني: كنت قد عهدت لأحد الفضلاء من طلبة العلم[١] صناعة فهارس علمية شاملة لجميع ما ورَّثَه الشيخ (رحمه الله) من العلم، سواء كان أصل مادته مؤلفاً للشيخ، أو كان دروساً مسجلة كُتبت بعد ذلك، كبعض المحاضرات، أو هذا التفسير، بالإضافة إلى بعض الفتاوى الخطية التي كتبها الشيخ (رحمه الله) ولم تطبع بعد، وهذا يغني عن وضع فهارس خاصة لهذا الكتاب. ولتيسير الوقوف على الآية المطلوب تفسيرها قمت بترقيم الآيات بالإضافة إلى كتابة اسم السورة ورقم الآية المفسَّرة في رأس كل صفحة.

هذا، وقد سميته (العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير).

أسأل الله (عز وجل) أن ينفع به مَنْ كَتَبَه، أو قرأه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

(١) وهو الأستاذ زاهر الشهري حفظه الله.

شكر ورجاء

أشكر كل من أعان على إخراج هذا العمل برأي، أو فائدة، أو مقابلة، أو مراجعة، أو غير ذلك، ولا سيما إخواني الفضلاء الذين تكبدوا عناءً كبيراً في سبيل تفريغ محتويات الأشرطة على الورق.

فأسأل الله أن يُجزل لهم المثوبة ويعظم لهم الأجر ويختم لهم بالسعادة إنه قريب مجيب.

كما أرجو كل من وقف عليه ورأى فيه نقصاً أو خللاً أن يرشدني إليه وله مني الشكر والدعاء.

ثم من كان لديه مزيد على ما وقفت عليه من دروس الشيخ المسجلة ـ وهي المذكورة ضمن هذه المقدمة ـ فليطلعني عليه إتماماً لهذا العمل، ونشراً لعلم الشيخ (رحمه الله)، ومشاركة في بذل النفع للخلق.

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم، ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

كتبه: خالد بن عثمان السبت

المدينة النبوية

٩/ رجب/ ١٤١٧هـ

تفسير سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

/ ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾ [البقرة: الآيات ٤٥ ـ ٤٧]. [١/ أ]

يقول الله جل وعلا: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة: الآيتان ٤٥، ٤٦].

﴿اسْتَعِينُوا﴾ استفعال من العون، وياؤه مُبْدَلة من واو، أصله: (استعوِنوا) تحركت الواو بعد ساكن صحيح؛ فوجب نقل حركتها إلى الساكن الصحيح[١]، على حد قوله في الخلاصة[٢]:

لساكنٍ صحَّ انْقُلِ التحريكَ مِنْ ذي لينٍ اتٍ عَيْن فعلٍ كـأَبِنْ

والسين والتاء للطلب، فمعنى ﴿اسْتَعِينُوا﴾ اطلبوا العون على أموركم الدنيوية والأخروية.

---

(١) انظر: الدر المصون (١/ ٥٩، ٣٢٩).

(٢) الخلاصة ص٧٨، وراجع شرحه في الأشموني (٢/ ٦٢٩)، ضياء السالك (٢/ ٤٠٥).

﴿ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ الصبر: مصدر صبر صبراً، وهذه المادة تتعدَّى وتلزم، فمن تعدِّيها في القرآن ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الكهف: ٢٨] الآية، ومن لزومها في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾ [آل عمران: آية ٢٠٠] الآية، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: آية ٤٣]. وقال بعض العلماء: هي متعدية دائماً إلا أنها يكثر حذف مفعولها، ومن تعديتها في كلام العرب قول عنترة[1]، وقيل أبو ذؤيب:

فَصبَرتُ عارفةً لذلك حُرَّةً ترسو إذا نفسُ الجبانِ تَطَلَّعُ

والصبر خصلة من خصال الخير عظيمة، صرح الله في سورة فصلت أنه لا يعطيها لكل الناس، وإنما يعطيها لصاحب الحظ الأكبر، والنصيب الأوفر، وذلك في قوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: آية ٣٥].

وهذه الخصلة التي هي الصبر لا يعلم جزاءها إلا الله، كما قال جل وعلا: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: آية ١٠]، والصائمون من خيار الصابرين، ولذا قال ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**إلا الصوم فهو لي، وأنا أجزي به**»[2].

---

(١) شرح ديوان عنترة ص ٨٥ وفي القرطبي (١/ ٣٧١) ونسبه لعنترة جازماً بذلك.

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الصيام، باب: فضل الصوم، حديث رقم (١٨٩٤) (٤/ ١٠٣)، وقد أخرجه في مواضع أخرى. انظر: الأحاديث رقم (١٩٠٤، ٥٩٢٧، ٧٤٩٢، ٧٥٣٨)، ومسلم في صحيحه ـ واللفظ له ـ كتاب الصيام، باب: فضل الصيام، حديث رقم (١١٥١) (٢/ ٨٠٦).

والصبر يتناول الصبر على طاعة الله، وإن كنت كالقابض على الجمر، والصبر عن معصية الله، وإن اشتعلت نار الشهوات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب[(١)] عند الصدمة الأولى، والصبر على الموت تحت ظلال السيوف.

وقوله: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: واستعينوا بالصلاة؛ لأن الصلاة نِعْمَ المُعين على نوائب الدهر، وعلى خير الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: آية ٤٥]، وقال جل وعلا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: آية ١٣٢] وكان ﷺ إذا حزبه أمر صلى[(٢)]، وروي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه نُعي له أخوه قُثَم، فأناخ راحلته وصلَّى، وتلا: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[(٣)] [البقرة: آية ٤٥] يستعين بالصلاة على صبر مصيبة أخيه.

ولا شك أن لطالب العلم هنا سؤالاً وهو أن يقول: أما الاستعانة بالصبر على أمور الدنيا والآخرة فهي أمر واضح لا إشكال

---

(١) انظر هذه الأنواع الثلاثة في: مدارج السالكين (٢/ ١٥٦)، بصائر ذوي التمييز (٣/ ٣٧٥، ٣٨١).

(٢) جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه عند أحمد (٥/ ٣٨٨)، وأبي داود في الصلاة، باب: وقت قيام النبي ﷺ من الليل، حديث رقم: (١٣٠٥) (٤/ ٢٠٢)، وابن جرير برقم: (٨٤٩، ٨٥٠) (٢/ ١٢)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة رقم: (٢١٢) (١/ ٢٣١)، وقد صححه أحمد شاكر في تعليقه على ابن جرير (٢/ ١٢)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١/ ٢٤٥).

(٣) أخرجه ابن جرير. انظر: الأثر رقم: (٨٥٢) (٢/ ١٤)، والبيهقي في الشعب. انظر الأثرين رقم: (٩٦٨١، ٩٦٨٢) (٧/ ١١٤)، وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح» ابن جرير (٢/ ١٤).

فيه؛ لأن من حبس نفسه على مكروهها في طاعة الله، كان ذلك أكبر معين على الطاعة، ولكن ما وجه الاستعانة بالصلاة على أمور الدنيا والآخرة؟

الجواب[١]: أن الصلاة هي أكبر معين على ذلك؛ لأن العبد إذا وقف بين يدي ربه، يناجي ربه ويتلو كتابه، تذكر ما عند الله من الثواب، وما لديه من العقاب فهان في عينه كل شيء، وهانت عليه مصائب الدنيا، واستحقر لذاتها، رغبة فيما عند الله، ورهبة مما عند الله.

ثم إن الله قال جلَّ وعلا: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: آية ٤٥] للعلماء في مرجع الضمير في ﴿وَإِنَّهَا﴾ أقوال كثيرة[٢]، منها: أنه راجع إلى الاستعانة، المفهوم من قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟﴾. ومنها: أنه راجع إلى المذكورات في الآية قبل هذا، والتحقيق: أنه راجع إلى الصلاة، والمعنى: ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: عظيمة شاقة على كل أحد ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾، والصبر كذلك على المصائب وعلى طاعة الله وعن معاصي الله، كبير جداً إلا على الخاشعين، والظاهر أن الضمير إنما رجع لأحد المتعاطفين اكتفاءً به عن الآخر؛ لأن مثل ذلك يفهم في الآخر، وهذا يكثر في القرآن، وفي كلام العرب[٣]، فمنه في القرآن قوله هنا: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢/ ١١ ـ ١٢)، البحر المحيط (١/ ١٨٤)، أضواء البيان (١/ ٧٥).

(٢) انظر: ابن جرير (٢/ ١٥)، البيهقي في الشعب (٧/ ١١٣)، القرطبي (١/ ٣٧٣)، البحر المحيط (١/ ١٨٥)، الدر المصون (١/ ٣٣٠).

(٣) للتوسع في هذا الموضوع انظر: ابن جرير (١٤/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩)، (١٥/ ٢٣)، =

﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا﴾ [البقرة: آية ٤٥]، ونظيره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ [التوبة: آية ٣٤] الآية، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة: آية ٦٢] ولم يقل: يرضوهما.

وقوله جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ [الأنفال: آية ٢٠] ولم يقل: عنهما. ونظيره من كلام العرب قول حسان بن ثابت(١):

إنَّ شَرْخَ الشباب والشَّعَر الأَسْـ ـودَ ما لم يُعَاصَ كان جُنُونَا

ولم يقل: «ما لم يعاصيا».

وقول نابغة ذبيان(٢):

وقد أراني ونُعْماً لاهيين بها والدهرُ والعيشُ لم يهمم بإمرار

وقول الأضبط بن قريع(٣)، وقيل كعب بن زهير:

لكل هم من الهموم سعة والمُسْيُ والصُّبْح لا فلاح معه

ولم يقل: «لا فلاح معهما».

= تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٢٨٨، الصاحبي ص ٣٦٢، فقه اللغة للثعالبي ص ٢٩٨، المدخل للحدادي ص ٢٧٤، البرهان (٣/ ١٢٦، ٤/ ٢٨، ٣٠)، الإتقان (٢/ ٢٨٣)، الكليات ص ٣٨٦، ٥٦٩، قواعد التفسير ص ٤٠٦.

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ٢٤٦.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص ١٩.

(٣) انظر: اللسان (مادة: مسا) (٣/ ٤٨٦)، البيان والتبيين (٣/ ٣٤١)، الأمالي (١/ ١٠٧) ونسبوه للأضبط بن قُريع، وهو في تفسير القرطبي (١/ ٣٧٤)، من غير نسبة.

والكبيرة هنا: وصف من (كَبُر) بضم الباء، (يكبُر) بضمها، إذا عظم وشق وثقل، ومنه قوله: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: آية ١٣] وهذا النوع في المعاني من (كَبُر الأمر) إذا شق وثقل، أو (كبُر) بمعنى (عظُم)، كقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: آية ٣] يكبُر الأمر فهو كبير، مضموم في الماضي، تقول: كبُر يكبُر فهو كبير. كما بينَّا.

أما كِبَر السن: ففعله (كبِر) بكسر الباء (يكبَر) بفتحها على القياس، وهو معروف[١]، ومن أمثلته قول قيس المجنون[٢]:

تعشقتُ ليلى وهي ذاتُ ذوائبٍ ... ولم يبدُ للعينين من ثديها حجمُ

صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا ... إلى اليوم لم نَكْبَرْ ولم تَكْبَر البهمُ

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: آية ٤٥] استثناء مفرغ[٣]، وأصل تقرير المعنى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: ثقيلة عظيمة شاقة على كل أحد ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾، والخاشعون جمع: الخاشع، وهو الوصف من: خشع. وأصل الخشوع في لغة العرب: الانخفاض في طمأنينة، كل منخفض مطمئن تسميه العرب:

---

(١) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الكاف، باب الكاف والباء وما يثلثهما، (مادة: كبر) ص ٩١٥، إكمال الإعلام لابن مالك (٢/ ٥٤٠)، بصائر ذوي التمييز (٤/ ٣٢٣).

(٢) البيتان في الخزانة (٢/ ١٧١)، مع شيء من المغايرة في اللفظ، إذ المُثبت هناك:

تعلقت ليلى وهي غرٌّ صغيرة ... ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا ... صغيران لم نكبر ولم تكبر البهم

(٣) انظر: الدر المصون (١/ ٣٣١).

خاشعاً[١]، ومنه قول نابغة ذبيان[٢]:

تـوهَّمـتُ آيـاتٍ لهـا فعـرفتُهـا ... لسِتـة أعـوامٍ وذا العـامُ سـابـعُ
رمـادٌ ككُحْـل العيـنِ لأيـاً أُبِينُـه ... ونؤيٌ كجذمِ الحوض أثلمُ خاشعُ

أي: منخفض مطمئن، هذا أصل الخشوع في لغة العرب.

وهو في اصطلاح الشرع[٣]: خشية تداخل القلوب، تظهر آثارها على الجوارح، فتنخفض وتطمئن خوفاً من خالق السماوات والأرض.

والمعنى: أن الصلاة صعبة شاقة على غير من في قلوبهم الخوف من الله، ويدل لذلك شدة عِظَمِها على المنافقين، كما قال جل وعلا: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: آية ١٤٢] وقال جل وعلا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: الآيتان ٤، ٥].

وقـولـه: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقـرة: آيـة ٤٦] ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل خفض نعت للخاشعين[٤] أي: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾. والظن هنا معناه اليقين، على التحقيق[٥]، خلافاً لمن شذّ فزعم أنه الظنُ المعروف، وأن المتعلق محذوف، والمعنى:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥)، مدارج السالكين (١/ ٥٢١ ـ ٥٢٢).

(٤) انظر: القرطبي (١/ ٣٧٥)، الدر المصون (١/ ٣٣٢).

(٥) انظر: أضواء البيان (١/ ٧٥)، دفع إيهام الاضطراب (ملحق بالأضواء ص ٢٠).

يظنون أنهم ملاقو ربهم بذنوب، فهم وجلون من تلك الذنوب. فهذا غير ظاهر، ولا يجوز حمل القرآن عليه وإن قال به بعض العلماء[١]. والتحقيق أن معنى ﴿يَظُنُّونَ﴾: يوقنون، وقد تقرر في علم العربية أن الظن يطلق في العربية وفي القرآن إطلاقين[٢]:

يطلق الظن بمعنى اليقين، ومنه قوله هنا: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: آية ٤٦] أي: يوقنون، ومنه بهذا المعنى: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة: آية ٢٠] أي: أيقنت أني ملاق حسابيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: آية ٥٣] أي: أيقنوا أنهم مواقعوها... إلى غير ذلك من الآيات. ومن أمثلة إطلاق العرب الظن على اليقين قول دُريد بن الصِّمَّة[٣]:

فقلت لهم ظُنُّوا بألفي مدجج سَرَاتُهُم في الفارسي المُسرَّدِ

فقوله: «ظُنُّوا» أي: أَيْقِنُوا.

وقول عميرة بن طارق[٤]:

بأن تَغْتَزُوا قومي وأَقْعُدُ فِيكُم وأجعل منِّي الظنَّ غيباً مرجَّماً

أي: أجعل مني اليقين غيباً مرجماً، فمعنى ﴿يَظُنُّونَ﴾ أي: يوقنون.

---

(١) انظر: الدر المصون (١/ ٣٣٢).

(٢) انظر: المقاييس في اللغة: كتاب الظاء، باب الظاء وما معها في المضاعف والمطابق، (مادة: ظنَّ) ص ٦٣٩، ابن جرير (٢/ ١٧ ــ ١٨).

(٣) انظر: ابن جرير (٢/ ١٨)، اللسان (مادة: ظنن) (٢/ ٦٥٤).

(٤) انظر: ابن جرير (٢/ ١٨).

﴿ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: آية ٤٦] و ﴿ مُّلَٰقُواْ ﴾ أصله (مُلاقيون) (مُفاعلون) منقوص، والمنقوص تُحذف ياؤه عند التصحيح[١]، وحُذفت نون (مُلاقون) للإضافة[٢]، أي: ملاقو ربهم. والمراد بهذه الملاقاة: أنهم يُعرضون على ربهم يوم القيامة، فيجازيهم على أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة: آية ١٨]، وقال (جل وعلا): ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ﴾ الآية [العنكبوت: آية ٥].

وقوله: ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: آية ٤٦] أي: يوقنون أنهم أيضاً إليه راجعون (جل وعلا) يوم القيامة فمجازيهم على أعمالهم، وقدم المعمول الذي هو الجار والمجرور في قوله: ﴿ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ لأمرين، أحدهما: المحافظة على رؤوس الآي، والثاني: الحصر، وقد تقرر في فن الأصول في مبحث دليل الخطاب ـ أعني مفهوم المخالفة[٣] ـ : أن تقديم المعمول من أدوات الحصر، وكذلك تقرر في فن المعاني في مبحث القصر[٤] أن تقديم المعمول من أدوات

(١) قال في معجم مفردات الإبدال والإعلال: ص ٢٣٨، (ملاقوا: اسم فاعل من الثلاثي المزيد «لاقى» جُمع جمعاً سالماً على وزن مُفاعُوا، أصله «ملاقيُو» استُثقِلت الضمة على الياء فحذفت، فالتقى ساكنان، فحُذفت الياء، وضُم ما قبل الواو للمجانسة، أو: نُقِلت ضمة الياء إلى القاف قبل حذف الياء). اهـ ص ٢٣٨.

(٢) انظر: المحرر الوجيز (١/ ٢٠٧).

(٣) انظر: البرهان للزركشي (٢/ ٤١٤، ٣/ ٢٣٦)، البحر المحيط للزركشي (٤/ ٥٦)، الكوكب الدري ص ٤٢٧، الكليات ص ١٠٣٢، ١٠٦٥، أضواء البيان (٣/ ٢٧٨).

(٤) انظر: التلخيص في علوم البلاغة (وشرحه للبرقوقي) ص ١٤١ ـ ١٤٢، الإيضاح للقزويني ص ١٢٦.

الحصر، وهذا معنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾ [البقرة: آية ٤٦].

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾ [البقرة: آية ٤٧].

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ معناه: يا أولاد يعقوب، وإسرائيل معناه في العبرية: عبد الله، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام)، وإنما ناداهم بهذا النداء: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ونسبهم إلى هذا النبي الكريم ليبعثهم بذلك على امتثال الأمر واجتناب النهي، كما تقول العرب لمن يستحثونه للأمر: يا ابن الكرام افعل كذا.

وقوله: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ﴾ المراد بالذكر هنا: ذكرٌ يحمل على الشكر، ومن شكر تلك النعمة المأمور به: تصديق النبي ﷺ واتباعه فيما جاء به. و ﴿نِعْمَتِىَ﴾: اسم جنس مضاف إلى معرفة، واسم الجنس إذا أضيف إلى معرفة فهو من صيغ العموم كما تقرر في الأصول[1]، فمعنى نعمتي: أي: نعمي، كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: آية ١٨] أي: نعم الله لا تحصوها، وكقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: آية ٦٣] أي: أوامره، ومن هذه النعم التي ذكَّرهم بها حملاً على شكرها: إنجاؤهم من عدوهم فرعون، وإغراق عدوهم وهم ينظرون، ومنها: تظليل الغمام عليهم،

---

(١) انظر: البحر المحيط للزركشي (٣/ ٩٧، ١٠٨، ١٤٦)، شرح الكوكب المنير (٣/ ١٢٩ ـ ١٣٦)، أضواء البيان (١/ ٩٢)، (٣/ ٢٥٣)، (٤/ ٣٣٢)، (٥/ ٢٩)، (٧٧٦)، (٧/ ٧٣٠).

وإنزال المنِّ والسلوى، وتفجير الماء من الحَجَر... إلى غير ذلك مما قصَّ الله في كتابه.

وجرت العادة في القرآن أن الله يمتن على الموجودين في زمن النبي ﷺ بالنعم التي أنعمها على أسلافهم الماضين، وكذلك يعيبهم بالمعائب التي صدرت من أسلافهم الماضين؛ لأنهم أمة واحدة؛ ولأن الأبناء يتشرفون بفضائل الآباء، فكأنهم شيء واحد[(١)]. ولذلك كان (جل وعلا) يمتن على هؤلاء بنعمه على الأسلاف، وكذلك يعيبهم بما صدر من الأسلاف؛ لأنهم جماعة واحدة.

وقوله: ﴿ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: التي أنعمتها عليكم، كإنزال المنِّ والسلوى، وتظليل الغمام، والإنجاء من فرعون... إلى غير ذلك.

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾ المصدر المنسبك من (أَنَّ) وصلتها في محل نصب عطفاً على ﴿نِعْمَتِيَ﴾، أي: اذكروا نعمتي وتفضيلي إياكم على العالمين[(٢)]. و «العالَمون»: جمع عالَم، وهو يطلق على ما سوى الله[(٣)]. والدليل على أنه يشمل أهل السماء والأرض من المخلوقين: قوله (جل وعلا): ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤﴾ [الشعراء: الآيتان ٢٣،

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢/ ٢٣)، (٣٨)، (٣٩)، (٤١)، (٦٣)، (١٦٤)، (١٦٥)، (٢٤٥)، (٢٩٩)، (٣٠٢)، (٣٥٣)، (٤٠٩)، (١٢/ ٣٢٠)، (٣٢١)، المزهر (١/ ٣٣٤)، تفسير السعدي (١/ ٤٢).

(٢) انظر: الدر المصون (١/ ٣٣٤).

(٣) انظر: ابن جرير (١/ ١٤٣ ـ ١٤٦، ١٥١، ١٥٢)، ابن كثير (١/ ٢٣)، أضواء البيان (١/ ٣٩).

٢٤] والعالَم: اسم جنس يُعرَب إعراب الجمع المذكر السالم. وقوله هنا: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على عالَم زمانكم الذي أنتم فيه. فلا ينافي أن هذه الأمة التي هي أمة محمد ﷺ أفضل منهم[(١)]، كما نص الله على ذلك في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: آية ١١٠] وفي حديث معاوية بن حيدة القشيريّ (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ: «**أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**»[(٢)]. ومن الآيات المبينة لفضل أمة محمد ﷺ على أمة موسى أنه قال في أمة موسى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: آية ٦٦] فجعل أعلى مراتبهم الفئة المقتصدة، بخلاف أمة محمد ﷺ فقسمهم إلى ثلاث طوائف، وجعل فيهم طائفة أكمل من الطائفة المقتصدة، وذلك في قوله في فاطر: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: آية ٣٢] فجعل فيهم سابقاً بالخيرات، وهو أعلى من المقتصد، ووعد الجميع بظالمهم ومقتصدهم وسابقهم بجنات عدن في قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن

(١) انظر: ابن جرير (١/ ١٥١ ـ ١٥٢)، (٢/ ٢٤)، المحرر الوجيز (١/ ٢٠٨)، القرطبي (١/ ٣٧٦)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢١.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣، ٥)، والدارمي في السنن، حديث رقم: (٢٧٦٣) (٢/ ٢٢١)، والترمذي، كتاب التفسير باب: ومن سورة آل عمران، حديث رقم: (٣٠٠١) (٥/ ٢٢٦)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب: صفة أمة محمد ﷺ، حديث رقم: (٤٢٨٧، ٤٢٨٨) (٢/ ١٤٣٣)، والحاكم (٤/ ٨٤)، وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني. انظر: المشكاة حديث رقم: (٦٢٨٥)، (٣/ ٧٧١)، صحيح الترمذي رقم: (٢٣٩٩)، (٣/ ٣٢)، صحيح ابن ماجه رقم: (٣٤٦٠، ٣٤٦١)، (٢/ ٤٢٦).

ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر: آية ٣٣]، وقال بعض العلماء: حُقَّ لهذه الواو أن تُكتب بماء العينين[1]. يعني: واو ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾؛ لأنه وَعْدٌ من الله صادق، شامل بظاهره الظالم والمقتصد والسابق.

وفي الآية سؤال معروف وهو أن يقال: ما الحكمة في تقديم الظالم لنفسه في الوعد بجنات عدن وتأخير السابق[2]؟ وللعلماء عن هذا أجوبة معروفة، منها: أنه قدَّم الظالم لئلا يقنط، وأخَّر السابق بالخيرات لئلا يعجب بعمله فيحبط. وقال بعض العلماء: أكثر أهل الجنة الظالمون لأنفسهم، فبدأ بهم لأكثريّتهم.

ومما يدل على أفضلية أمة محمد ﷺ على بني إسرائيل: **أن** الابتلاء الذي يظهر به الفضل وعدمه إنما يكون بخوف أو طمع، وقد ابتلى أصحاب النبي ﷺ بخوف، وابتلاهم بطمع، وابتلى بني إسرائيل بخوف، وابتلاهم بطمع، أما الخوف الذي ابتلى الله (جل وعلا) به أصحاب محمد ﷺ: فهو أنهم لما غزوا غزاة بدر، وسَاحَلَ أبو سفيان بالعير، واستنفر لهم النفير، وجاءهم الخبر بأن العير سَلِمَتْ، وأن الجيش أقبل إليهم، وأخبرهم النبي ﷺ بذلك، قال له المقداد بن عمرو (رضي الله عنه): والله لو سِرتَ بنا إلى بَرْك الغِمَادِ[3] لجالدنا مَنْ دونه معك، ولو خضت بنا هذا البحر لخضناه،

(١) انظر: أضواء البيان (٦/ ١٦٥).

(٢) انظر: القرطبي (١٤/ ٣٤٩)، الأضواء (٦/ ١٦٥).

(٣) (بَرْك) بفتح الباء وإسكان الراء، وهو المشهور في روايات المحدثين. و (الغِماد) بغين معجمة مكسورة، ومضمومة لغتان مشهورتان، والكسر أفصح، وهو الأشهر عند المحدثين، والضم أشهر في كتب اللغة، وهو موضع من وراء =

ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: آية ٢٤]، بل إنّا معك مقاتلون[1]. ولما أعاد الكلام قال له سعد بن معاذ (رضي الله عنه): كأنك تعنينا معاشر الأنصار ـ لأنهم اشترطوا عليه ليلة العقبة أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، بشرط أن يكون في داخل المدينة، ولم يشترط عليهم خارج المدينة ـ فأخبره النبي ﷺ أنه يعنيهم فقال كلامه المعروف المأثور، قال: «والله إنّا لقوم صُبُرٌ في الحربِ، صُدُقٌ عند اللقاء، والله ما نكره أن تلقى بنا عدوك حتى ترى منّا ما يقرُّ عينك، والله لقد تخلف عنك أقوام لو علموا أنك تلقى كيداً ما تخلف عنك منهم رجل»[2].

= مكة بخمس ليال، بناحية الساحل، وقيل غير ذلك، قال إبراهيم الحربي: «برك الغماد، وسعفات هجر كناية، يُقال فيما تباعد» انظر: النووي على مسلم (٤/ ٤١١)، معجم البلدان (١/ ٣٩٩)، فتح الباري (٧/ ٢٣٢).

(١) أخرجه البخاري مع شيء من المغايرة في اللفظ، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾... حديث رقم: (٣٩٥٢)، (٧/ ٢٨٧)، وأخرجه في موضع آخر. انظر حديث رقم: (٤٦٠٩)، وقد أخرج مسلم نحوه عن سعد بن عبادة رضي الله عنه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر، حديث رقم: (١٧٧٩)، (٣/ ١٤٠٤)، وانظر كلام الحافظ على رواية مسلم: الفتح (٧/ ٢٨٨).

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤)، البيهقي في الدلائل (٣/ ٣٤)، السيرة لابن هشام (٢/ ٦٥٣)، وذكره ابن كثير في تاريخه (٣/ ٢٦٢) وعقبه بقوله: «هكذا رواه ابن إسحاق (رحمه الله) وله شواهد من وجوه كثيرة». اهـ، ثم ذكر شواهده عند البخاري والنسائي وأحمد وابن مردويه والأموي في مغازيه. وراجع تعليق الألباني على فقه السيرة ص ٢٣٩، ومرويات غزوة بدر لأحمد باوزير ص ١٤٤ ـ ١٤٩.

بخلاف بني إسرائيل لما امتُحنوا بخوف كهذا صدر منهم ما ذكره الله في سورة المائدة في قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: آية ٢٢] وقالوا له: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: آية ٢٤].

كذلك ابتلى بني إسرائيل بصيد، وهو صيد السمك المذكور في الأعراف، المشار له في البقرة[(١)]: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: آية ١٦٣] فحداهم القَرَمُ[(٢)] والطمع في أكل الحوت إلى أن اعتدوا في السبت، فمسخهم الله قردة. وقد امتحن الله (جل وعلا) أصحاب النبي ﷺ في عمرة الحديبية بالصيد وهم محرمون، فهيَّأ لهم جميع أنواع الصيد، من الوحوش، والطير، من كبارها وصغارها، ولم يَعْتَدِ رجل منهم، ولم يصد في الإحرام، كما بينه (جل وعلا) بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: آية ٩٤]، فما مدَّ رجل منهم يده إلى صيد.

فظهر بهذا أن كلتا الأُمتين امتُحنت بصيد، وأن هؤلاء اعتدوا على ذلك الصيد فمُسِخُوا قردة، وأن أولئك اتقوا الله.

كذلك امتُحنوا بخوف من عدو فصبر هؤلاء وثبتوا، وخاف هؤلاء وجبنوا، فدل هذا على أنهم أفضل منهم، وهذا مما لا خلاف فيه، وهذا مما يبين أن قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أن المراد:

---

(١) أي: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: آية ٦٥].

(٢) وهو شدة شهوة اللحم. القاموس (مادة: القرم) (١٤٨١).

عالم زمانِهِمْ[١]. وقال بعض العلماء: هو نوع من التفضيل آخر لا يعارض أَشْرَفِيَّة هذه الأمة وأفضليتها عليهم، وهو كثرة الرسل فيهم؛ لأن الأنبياء أكثر فيهم منهم في غيرهم[٢]، وكثرة الأنبياء فيهم لا تجعلهم أفضل من هذه الأمة، بل هذه الأمة أفضل منهم وإن كانت الأنبياء فيها إنما جاءها نبي واحد ﷺ. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)﴾ [البقرة: الآيتان ٤٨ ـ ٤٩].

يقول الله (جل وعلا): ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: آية ٤٨] معنى الاتقاء في اللغة العربية هو: أن تجعل بينك وبين ما يضرك وقاية[٣]. وأصل مادته: (وقى) دخلها تاء الافتعال، كما تقول في قرب: اقترب، وفي كسب: اكتسب، وفي وقى: اوتقى. والقاعدة المقررة في التصريف: أن تاء الافتعال إذا دخل على مادةٍ واوها فاء وجب إبدال الواو تاء وإدغامها في تاء الافتعال[٤]. فمعنى ﴿وَاتَّقُوا﴾:

---

(١) مضى قريباً.

(٢) انظر: القرطبي (١/ ٣٧٦)، أبو حيان (١/ ١٨٩).

(٣) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الواو باب الواو والقاف وما يثلثهما، ص ١١٠٠، القرطبي (١/ ١٦١)، المفردات، (مادة: وقى) ص ٨٨١.

(٤) انظر: القرطبي (١/ ١٦١)، الدر المصون (١/ ٩٠)، (١٩١)، (٣٣٥)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٤٩١ ـ ٤٩٢.

اجعلوا بينكم وبين ذلك اليوم وقاية تقيكم مما يقع فيه من الأهوال والأوجال. والاتقاء: هو جعل الوقاية دون ما يضر، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان[١]:

سقط النَّصِيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَهُ فتناولته واتقتنا باليد

يعني: استقبلتنا بيدها جاعلة إياها وقاية بيننا وبين رؤية وجهها.

والاتقاء في اصطلاح الشرع[٢]: هو جعل الوقاية دون سخط الله وعذابه، تلك الوقاية هي امتثال أمره، واجتناب نهيه (جل وعلا).

والمراد باتقاء اليوم: اتقاء ما يكون فيه من الأهوال والأوجال[٣]؛ لأن القرآن بلسان عربي مبين، والعرب تُعبِّر بالأيام عما يقع فيها من الشدائد، ومنه: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ [هود: آية ٧٧] أي: لما فيه من الشدة، وهذا معنى قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: آية ٤٨] و (اليوم) مفعول به لـ«اتقوا»[٤]. وقيل: المفعول محذوف، واليوم ظرف. أي: اتقوا العذاب يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً. وقوله: ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: آية ٤٨] الجملة نعت لليوم[٥]، وقد تقرر في العربية: أن

(١) ديوان النابغة الذبياني ص ١٠٧.

(٢) انظر: القرطبي (١/ ١٦١ ـ ١٦٢)، المفردات (مادة: وقى) ص ٨٨١، الكليات ص ٣٨.

(٣) انظر: ابن عاشور (١/ ٤٨٤).

(٤) انظر: القرطبي (١/ ٣٧٧)، البحر المحيط (١/ ١٨٩).

(٥) انظر: البحر المحيط (١/ ١٨٩)، الدر المصون (١/ ٣٣٥).

الجُمل تُنعت بها النكرات؛ كما عقده في الخلاصة بقوله[١]:

ونَعَتُوا بِجملةٍ مُنكَّراً فأُعطِيت ما أُعْطِيَتْه خبراً

ولطالب العلم أن يقول: أين الرابط الذي يربط بين الجملة التي هي وصف وبين المنعوت؟

الجواب[٢]: أنه اختُلف في تقديره على قولين: أحدهما أن العائد (واتقوا يوماً لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً) فالعائد هو: المجرور المحذوف هو وحرف الجر.

وقال بعض العلماء[٣]: حُذف حرف الجر فوصلَ العامل إلى الضمير بعد حذف حرف الجر، ثم حُذف، وعليه فالتقدير: (واتقوا يوماً لا تجزيه نفس عن نفس شيئاً) بحذف الفاء، وعلى كل حال فحذف الضمير الرابط للجملة التي هي وصف للنكرة الموصوفة موجود في كلام العرب، ومن أمثلته في كلام العرب قول الشاعر[٤]:

وما أدري أغيَّرهم تنَاءٍ وطولُ العهدِ أم مالٌ أصابوا

فجملة (أصابوا) نعت للنكرة التي هي (مالٌ) والعائد محذوف، وتقرير المعنى: (أم مال أصابوه). وقوله: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تقضي عنها حقاً وجب عليها، ولا تدفع عنها عذاباً حقَّ عليها، أما تفسير من فسر ﴿تَجْزِى﴾ بـ(تغني) فهو إنما يتمشى على

---

(١) الخلاصة ص ٤٥، وانظر شرحه في الأشموني (٢/ ٦٦ ـ ٦٧)، النحو الوافي (٣/ ٤٧٢).

(٢) انظر: البحر المحيط (١/ ١٨٩ ـ ١٩٠)، الدر المصون (١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦).

(٣) انظر: تهذيب اللغة للأزهري (١١/ ١٤٣).

(٤) البيت للحارث بن كَلَدَة. انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٨٨، ١٣٠).

قراءة من قرأ ﴿تُجْزِي﴾[١] بصيغة الرباعي؛ لأنها هي التي تأتي بمعنى الإغناء، وتقرير المعنى: (واتقوا يوماً لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً) أي: لا تقضي نفس عن نفس حقاً وجب عليها، ولا تدفع عنها عذاباً حق عليها، والرابط المحذوف محذوف من الجمل المعطوفة على الجملة النعتية[٢]، وتقرير المعنى: (لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً ولا يُقبل فيه شفاعة، ولا يُؤخذ فيه عدل، ولا هم يُنصرون فيه) فالرابط محذوف من الجمل المعطوفة على الجملة التي هي وصف، وتقرير المعنى: (واتقوا يوماً لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً)، أي: لا تقضي نفس عن نفس شيئاً أي: حقاً وجب عليها، ولا تدفع عنها عذاباً حق عليها، وعلى هذا التقرير فـ ﴿شَيْئًا﴾ مفعول به لـ ﴿تَجْزِى﴾[٣]، وقال بعض العلماء: ﴿شَيْئًا﴾ في محل المصدر، أي: لا تجزي عنها شيئاً، أي: جزاءً قليلاً ولا كثيراً[٤].

وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ فيه قراءتان سبعيتان[٥]: قرأه أكثر السبعة ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾[٦] والتذكير في قوله: ﴿يُقْبَلُ﴾ لأمرين[٧]: أحدهما: أن تأنيث الشفاعة تأنيث غير حقيقي. الثاني:

(١) انظر: المحرر الوجيز (١/٢٠٨)، القرطبي (١/٣٧٨)، البحر المحيط (١/١٨٩).

(٢) انظر: البحر المحيط (١/ ١٩٠).

(٣) انظر: البحر المحيط (١/ ١٩٠).

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر: المبسوط في القراءات العشر ص ١٢٩.

(٦) وقرأه ابن كثير وأبو عمرو: ﴿ولا تُقبل﴾ بالتاء. انظر: المبسوط ص ١٢٩، ومن قرأ بالتاء فلتأنيث (الشفاعة). انظر: حجة القراءات ص ٩٥.

(٧) انظر: حجة القراءات ص ٩٥.

الفصل الذي بين الفعل وفاعله، والفصل يبيح ترك التاء، كما عقده في الخلاصة بقوله[(١)]:

وقد يُبيح الفصلُ تركَ التاءِ في ... نحو أتى القاضِيَ بنتُ الواقِفِ

والشفاعة في الاصطلاح[(٢)]: هي التوسط للغير في جلب مصلحة أو دفع مضرَّة، وأصلها من الشفع الذي هو ضد الوتر؛ لأن صاحب الحاجة كان فرداً في حاجته فلما جاءه الشفيع صار شفعاً، أي: اثنين، صاحب الحاجة ومن يتوسط له فيها، هذا [أصل][(٣)] معنى الشفاعة، والشفاعة في الدنيا إذا كانت في حق واجب فللشافع أجر، وإذا كانت في حرام فعليه وزر[(٤)]، كما صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾[(٥)] [النساء: آية ٨٥] وقال ﷺ: «**اشفعوا تؤجروا**

(١) الخلاصة ص ٢٥، وانظر: شرح الأشموني (١/ ٣٠٩).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٢/ ٣١ ـ ٣٢)، القرطبي (١/ ٣٧٨).

(٣) في الأصل: (أصله).

(٤) انظر: الفتح (١٠/ ٤٥١ ـ ٤٥٢).

(٥) سئل الشيخ رحمه الله عن قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء: آية ٨٥] ما الفرق بين النصيب والكفل في هذه الآية الكريمة؟
فأجاب: قال بعض العلماء: النصيب: نصيب من الخير، والكفل: نصيب من الشر، مستدلاً بظاهر هذه الآية، والحق أن الكفل نصيب قد يكون من الخير كما في قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨] وقد يكون نصيباً من الشر، كما في قوله: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء: آية ٨٥] والظاهر أن التعبير بالنصيب وبالكفل من التفنن في العبارة؛ لأنه أطرف من تكرير النصيب، والله تعالى أعلم.

ويقضي الله علـى لسان نبيه ما شاء»[١]. وقد دلَّ الكتاب والسنة أن نفي الشفاعة المـذكور هنا ليس على عمومه[٢]، وأن للشفاعة تفصيلاً، منها ما هو ثابت شرعاً، ومنها ما هو منفيٌّ شرعاً[٣]. أما المنفي شرعاً الذي أجمع عليه المسلمون فهو الشفاعة للكفار؛ لأن الكفار لا تنفعهم شفاعة ألبتة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: آية ٤٨] وقال عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الشعراء: آية ١٠٠] وقال (جل وعلا): ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: آية ٢٨] مع أنه قال في الكافر: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: آية ٧] فالشفاعة للكفار ممنوعة شرعاً بإجماع المسلمين، ولـم يقـع فـي هـذا استثنـاء ألبتـة، إلا شفـاعـة النبـي ﷺ لعمـه أبـي طالب[٤]، فإنها نفعته بأن نُقل بسببها من محل من النار إلى محل أسهـل منه، كما صح عنه ﷺ أنه قال: **«لعله تنفعه شفاعتي فيُجعل في ضحضاح**[٥] **من النار يبلغ كعبيه، له نعلان يغلي منهما دماغه»**[٦].

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبـي موسى رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب: التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، حديث رقم: (١٤٣٢)، (٣/ ٢٩٩)، وقد أخرجه البخاري في مواضع أخرى انظر: الأحاديث رقم: (٦٠٢٧، ٦٠٢٨، ٧٤٧٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب: استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام، حديث رقم: (٢٦٢٧)، (٤/ ٢٠٢٦).

(٢) انظر: ابن جرير (٢/ ٣٣)، القرطبـي (١/ ٣٧٩)، أضواء البيان (١/ ٧٥).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٤٤ ــ ١٥٤، ٣٣٢).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٤٤)، أضواء البيان (١/ ٧٦).

(٥) هو في اللغة: ما رقَّ من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين. انظر: مجمع بحار الأنوار للفتني (مادة: ضحضح) (٣/ ٣٨٦).

(٦) أخرجه البخاري من حديث أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه، كتاب مناقب =

أما غير هذا من الشفاعة للكفار فهو ممنوع إجماعاً، وإنما نفعت شفاعة النبي ﷺ عمَّه أبا طالب في نقلٍ من محل من النار إلى محل آخر.

الشفاعة المنفية الأخرى هي الشفاعة بدون إذن رب السماوات والأرض[1]، فهذه ممنوعة بتاتاً بإجماع المسلمين، وبدلالة القرآن العظيم، كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥]. وادعاء هذه الشفاعة شرك بالله وكفر به، كما قال (جل وعلا): ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾ [يونس: آية ١٨]. ووجه كون هذه الشفاعة من أنواع الشرك ـ ولله المثل الأعلى ـ : أن ملوك الدنيا قد يتمكنون من مجرم يتقطعون عليه غيظاً، ويريدون أن يُقَطِّعوه عضواً عضواً، فيأتي بعض أهل الجاه والشرف ويشفع عندهم له، فيضطرون إلى قبول شفاعته؛ لأنهم لو ردوا شفاعته لصار عدواً لهم، وترقبوا منه بعض الغوائل، فيضطرون إلى أن يُشفِّعوه وهم كارهون، خوفاً من سوئه، ورب السماوات والأرض لا يخاف أحداً، ولا يمكن أن يضره أحد، فلا يمكن أن يتجاسر أحد عليه بمثل هذا، وله المثل الأعلى؛ ولذا قال

= الأنصار، باب: قصة أبي طالب، حديث رقم: (٣٨٨٥)، (٧/ ١٩٣)، وأخرجه في موضع آخر. انظر حديث رقم: (٦٥٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان باب: شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، حديث رقم: (٢١٠)، (١/ ١٩٥).

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٣٠)، (١٥٠)، (٣٣٢)، (١٤/ ٣٨٠ ـ ٤١٥)، شرح الطحاوية ص ٣٠٠ ـ ٣٠٢.

(جل وعلا): ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥].

أما الشفاعة للمؤمنين بإذن رب السماوات والأرض فهي جائزة شرعاً وواقعة، كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة[١]، كما في قوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: آية ٢٨]، وقوله (جل وعلا): ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: آية ٢٣]، ونحو ذلك من الآيات والأحاديث. والشفاعة الكبرى للنبي ﷺ كما يأتي إيضاحه في سورة بني إسرائيل في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: آية ٧٩] وقد يُشفِّع الله من شاء من خلقه، من الأنبياء، والمرسلين، والصالحين[٢]. وقد تكون الشفاعة بإخراج من دخل النار، وقد تكون الشفاعة بأن يشفع لمن عليه ذنوب فيُنْقذ من النار، وقد تكون برفع الدرجات، والشفاعة الكبرى في فصل القضاء بين الخلق، فمعنى قوله إذاً: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ هذا إذا كانت كافرة على الإطلاق، ولو كانت مؤمنة لا تُقبل شفاعة إلا بإذن رب السماوات والأرض.

/ وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ العَدْلُ: الفداء، وإنما سُمي [١/ب] الفداء عدلاً لأن فداء الشيء كأنه قيمة مُعادِلَة له ومُماثِلَة له تكون عوضاً وبدلاً منه. قال بعض علماء العربية[٣]: ما يُعادل الشيء ويماثله إن كان من جنسه قيل له (عِدل) بكسر العين، ومنه (عِدلا

(١) انظر: أضواء البيان (١/ ٧٥).

(٢) انظر: أنواع الشفاعة المثبتة في شرح الطحاوية ص ٢٨٢ ـ ٢٩٣، معارج القبول (٢/ ٢٥١ ـ ٢٦٥).

(٣) انظر: ابن جرير (٢/ ٣٥)، القرطبي (١/ ٣٨٠).

البعير) أي: عِكْمَاه[1]؛ لأنهما متماثلان. أما إذا كان يماثله ويساويه وليس من جنسه قيل فيه (عَدل) بفتح العين؛ ولذا سُمي الفداء عدلاً؛ لأنه شيء مماثلٌ للمفدي ليس من جنسه. ومن هذا المعنى قوله (جل وعلا): ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ [المائدة: آية ٩٥]؛ لأن ما يعادل الإطعام من الصيام ليس من جنسه، فإذا كان من جنسه قيل فيه (عِدْل)، وهو معروف في كلام العرب، وقد كرره مهلهل بن ربيعة في قصيدته المشهورة في قوله[2]:

على أَنْ ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... إذا طُرِدَ اليتيمُ عن الجَزُورِ
على أن ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... إذا ما ضِيمَ جيران المُجير
على أن ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... غداة بلابِلِ الأمرِ الكبير
على أن ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... إذا برزت مُخبَّأة الخُدور

---

(١) العِكْمَان: عِدْلان يُشدَّان على جانبي الهودج بثوب. انظر: اللسان (مادة: عكم) (٢/ ٨٥٥).

(٢) الأمالي (٢/ ١٣٢)، وقد سقط منها ـ هنا ـ أحد الأبيات، كما وقع بين أبياتها شيء من التقديم والتأخير، وهي في الأمالي هكذا:

على أنْ ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... إذا طُرِدَ اليتيم عن الجَزُور
على أنْ ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... إذا رجف العِضَاه من الدَّبُور
على أنْ ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... إذا ما ضِيمَ جيران المُجير
على أنْ ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... إذا خيف المخوف من الثغور
على أنْ ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... غداة بلابِلِ الأمرِ الكبير
على أنْ ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... إذا برزت مُخبَّأة الخدور
على أنْ ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... إذا عَلَنَتْ نَجِيَّاتُ الأمور

علـى أن ليـس عِـدْلاً مـن كُليـبٍ إذا اضطرب العِضَاه[(١)] من الدَّبُور[(٢)]

يعني أن القتلى التي قتلها بكليب من بني بكر بن وائل لا تُماثِله في الشرف ولا تساويه، وإنما كسر العين لأنهم من جنس واحد. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أصـل النصـر فـي لغـة العـرب إعـانـة المظلوم. ومعنى هنا ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: ليس لهم معين يدفع عنهم عذاب الله.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربـي معروف، وهو أن يقول طالب العلم: أفرد الضمير في قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ أفرده مؤنثاً، وجمعه مذكراً في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ مع أن مرجع هذه الضمائر واحد؟[(٣)].

الجواب ظاهر؛ لأن قوله: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تعمُّ[(٤)]، وعُمُومها يجعلها شاملة لكثير من أفراد النفوس، فأنث الضمير وأفرده في قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ نظـراً إلـى لفـظ النفـس، وجمـع الضميـر المـذكر فـي قولـه: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ نـظراً إلى معنـى النكـرة في

---

(١) العِضاه من الشجر: كل شجر له شوك، وقيل: ما عظُم من شجر الشوك وطال واشتد شوكه، وقيل غير ذلك. انظر: اللسان (مادة: عضه) (٢/ ٨٠٨).

(٢) هي ريح تهب من جهة الغرب تقابل الصَّبا. ويقال: تُقبل من جهة الجنوب ذاهبة نحو المشرق. انظر: المصباح المنير (مادة: دبر) ص ٧٢.

(٣) انظر: البحر المحيط (١/ ١٩١).

(٤) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه (٣/ ١١٠، ١١٨)، شرح الكوكب المنير (٣/ ١٣٦)، أضواء البيان (٥/ ٣٦٢)، (٦/ ١٣٠).

سياق النفي، وأنها شاملة لكثير من الأنفس، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وقوله (جل وعلا): ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: آية ٤٩] أي: واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون، يعني: من فرعون وقومه القبط؛ لأنهم كانوا يهينون بني إسرائيل.

قال بعض العلماء[1]: أصل (الآل): أهل، بدليل تصغيره على (أُهيل)، وبعضهم صغَّره على (أُويل)، ولا يطلق (الآل) على الأهل إلا إذا كان مضافاً لمن له شرف وقدر، فلا تقول: آل الحجام، ولا آل الإسكاف[2][3].

و(فرعون) ملك مصر المعروف، وهو يُطلق على من مَلَك مصر. وقال بعضهم: كل من مَلَك العمالقة يُطلق عليه (فرعون)[4].

واختُلف في لفظ (فرعون) هل هو عربي أو أعجمي؟[5] قيل: هو اسم أعجمي، مُنع من الصرف للعلمية والعجمة. وقال بعض العلماء: هو عربي، من تفرعن الرجل إذا كان ذا مكر ودهاء. والأول أظهر. وعلى أنه عربي فوزنه (فِعْلَول) بلامين لا (فعلون) بالنون.

---

(١) انظر: ابن جرير (٢/ ٣٧)، القرطبي (١/ ٣٨٣)، الدر المصون (١/ ٣٤١).

(٢) هو الخرّاز، وقيل: كل صانع. انظر: المصباح المنير: (مادة: الإسكاف) ص ١٠٧.

(٣) انظر: المفردات (مادة: آل) ص ٩٨، الدر المصون (١/ ٣٤٣).

(٤) انظر: ابن جرير (٢/ ٣٨)، القرطبي (١/ ٣٨٣)، الدر المصون (١/ ٣٤٣).

(٥) انظر: الدر المصون (١/ ٣٤٤)، اللسان (مادة: فرعن) (٢/ ١٠٨٣).

وقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ تقول العرب: سامه خسفاً، إذا أولاه ظلماً، وأذاقه عذاباً، ومن هذا المعنى قول عمرو بن كلثوم في معلقته[1]:

إذا ما المَلْكُ سام الناسَ خسفاً　　　أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذلَّ فينا

وقوله: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: يذيقونكم ويولونكم سوء العذاب، أي: أصعب العذاب وأشده وأفظعه؛ لأنهم كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب شاقة ذكر الله بعضاً منها هنا حيث قال: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ فالفعل المضارع الذي هو ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بدل من الفعل المضارع الذي قبله[2] الذي هو ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، على حد قوله في الخلاصة[3]:

ويُبْدلُ الفعلُ من الفِعْل كَمَنْ　　　يَصِلْ إِلَيْنَا يَسْتَعِنْ بِنَا يُعَن

وإنما عبر بالتشديد في قراءة الجمهور في قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ دلالة على الكثرة؛ لأنهم ذبحوا كثيراً من أبنائهم[4]. ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي: الذكور ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: بناتكم الإناث، يبقوهنَّ حيات، ولم يذبحوهن. والنساء على التحقيق اسم جمع[5] لا واحد له من لفظه، واحدته امرأة.

---

(١) شرح القصائد المشهورات (٢/ ١٢٤).

(٢) انظر: الدر المصون (١/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦).

(٣) الخلاصة ص ٤٩، وانظر شرحه في الأشموني (٢/ ١٣٣).

(٤) انظر: القرطبي (١/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٥) اسم الجمع: ما دل على آحاده دلالة الكل على أجزائه، والغالب أنه لا واحد له من لفظه، نحو: (قوم، رهط، طائفة، جماعة). انظر: حاشية الصبان (١/ ٢٩).

وفي هذه الآية سؤال معروف؛ لأن الله لما ذكر أنهم ساموهم سوء العذاب فسَّر قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ بالبدل بعده، وبيَّن أن من ذلك العذاب العظيم السيِّء: تذبيح الأبناء، واستحياء البنات. وفي هذا سؤال، وهو أن يقول: تذبيح الأبناء ظاهر أنه من ذلك العذاب الذي يسومونهم، أما استحياء البنات، وهو قوله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ فأين وجه كون هذا من سوء العذاب، مع أن بقاء البعض قد يظهر للناظر أنه أحسن من تذبيح الكل؟ كما قال الهُذلي[1]:

حمدتُ إلٰهي بعد عروة إذ نجى ... خِراش وبعض الشر أهون من بعض

الجواب عن هذا: أن استحياءهم للنساء استحياء هو من جملة العذاب؛ لأنهم يستحيونهم ليُعَمِّلُوهم في الأعمال الشاقة، وليفعلوا بهم ما لا يليق من العار والشنار[2]، وبقاء البنت ـ وهي عورة ـ تحت يد عدو لا يشفق عليها، يفعل بها ما لا يليق، ويكلفها ما لا تطيق، هذا من سوء العذاب بلا شك، وقد قال جل وعلا: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء: آية ٩] والعرب كانوا ربما قتلوا بناتهم شفقةً وخوفاً عليهم مما يلاقونه مما لا يليق بعد موت الآباء، وهو كثير في شعرهم وقد قال رجل منهم في ابنة له تسمى مودَّة[3]:

مـودةُ تهـوى عُمْـرَ شيـخٍ يسـرُّه ... لها الموت قبل الليل لو أنها تَدْري

(١) البيت لأبـي خراش الهذلي. انظر: الخزانة (٢/ ٤٥٨).

(٢) انظر: ابن عطية (١/ ٢١٢)، البحر المحيط (١/ ١٩٤)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢١.

(٣) انظر: أضواء البيان (٣/ ٢٨٦)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢٢.

يخافُ عليها جفوةَ الناسِ بعدَهُ ولا خَتَنٌ يُرجى أودّ من القَبرِ

ولما خُطبت عند عقيل بن عُلَّفَة المري ابنته الجرباء أنشد[١]:

إني وإن سيق إلي المهر عبد وألفان وذودٌ[٢] عشر
أحب أصهاري إلي القبر

وقد قال الشاعر[٣]:

تهوى حياتي وأهوى موتَها شَفَقاً والموتُ أكرمُ نزَّالٍ على الحُرَمِ

وهذا هو وجه كون استحياء النساء من ذلك العذاب الذي يسومونهم.

وقال جل وعلا: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ في الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ وجهان لا يكذب أحدهما الآخر مبنيان على المراد بالبلاء[٤]؛ لأن البلاء في لغة العرب الاختبار[٥]، والاختبار قد يقع بالخير وقد يقع بالشر، كما قال جل وعلا:

---

(١) انظر: القرطبي (١٠/ ١١٨)، مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٢٧)، زهر الآداب (١/ ٤٨٤)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢٥، أضواء البيان (٣/ ٢٨٦) والمثبت في هذه المصادر: «ألف وعبدان».

(٢) في القرطبي (وخورٌ) وهي: جمع خوَّارة، وهي الناقة الغزيرة اللبن. انظر: القرطبي (١٠/ ١١٨). وأما الذَّود من الإبل: فهو من الثلاثة إلى العشرة. المصباح المنير (مادة: ذود) ص ٨٠.

(٣) البيت لأبي إسحاق بن خلف. انظر: القرطبي (١٩/ ٢٧٥)، الدر المصون (١٠/ ٧٣٦)، ابن عاشور (١٥/ ٨٧)، زهر الآداب (١/ ٤٨٥)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢٥.

(٤) انظر: ابن عطية (١/ ٢١٢)، الدر المصون (١/ ٣٤٨).

(٥) انظر: ابن جرير (٢/ ٤٩)، المفردات (مادة: بلى) ص ١٤٥.

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: آية ٣٥] وقال (جل وعلا): ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦٨] والله ذكر في الآية الماضية أنه ابتلى بني إسرائيل بخير وشر؛ أما الشر الذي ابتلاهم به فهو ما كان يسومهم فرعون من سوء العذاب، وأما الخير الذي ابتلاهم به فهو إنجاؤه إياهم من ذلك العذاب.

قال بعض العلماء: ﴿فِي ذَالِكُم﴾ أي: ﴿وَفِي ذَالِكُم﴾ العذاب الذي كان يسومكم فرعون، ﴿بَلَاءٌ﴾ بالشر ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾، وقال بعض العلماء: ﴿وَفِي ذَالِكُم﴾ الإنجاء الذي أنجاكم الله به من عذاب فرعون ﴿بَلَاءٌ﴾ بالخير ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾، وكلما كان الشر أكبر كان الإنقاذ منه مماثلاً له في الكبر، ولا شك أن العرب تطلق البلاء على الاختبار بالشر والاختبار بالخير، خلافاً لمن منعه في الاختبار بالخير، وهو معروف في كلام العرب، ومن أمثلته في الخير قول زهير(١):

جَزَى الله بالإحسانِ ما فَعَلا بكم وأَبْلاهُما خيرَ البلاءِ الذي يَبْلُو

وهذا معنى قوله: ﴿وَفِي ذَالِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَالِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة: الآيات ٥٠ ـ ٥٣].

---

(١) شرح ديوان زهير ص ٩١، وأوله: (رأى الله)، وهي إحدى روايات البيت. والبيت في ابن جرير (٢/ ٤٩)، معاني القرآن للزجاج (١/ ١٣٢)، الدر المصون (١/ ٣٤٨).

يقول الله (جل وعلا): ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ [البقرة: آية ٥٠] أي: واذكروا إذ فرقنا بكم البحر. ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي: فلقناه، بدليل قوله: ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝٦٣﴾ [الشعراء: آية ٦٣] وأصل الفرق: الفصل بين أجزاء الشيء[1]. فمعنى ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي: فصلنا بين بعضه وبعض حتى كانت بينه مسالك تسلكون فيها. ومن هذا المعنى قوله: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۝٢٥﴾ [المائدة: آية ٢٥] أي: افصل بيننا وبينهم، ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤﴾ [المرسلات: آية ٤] أي: على القول بأنها الملائكة تنزل بالوحي الذي يفصل بين الحق والباطل. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي: فصلنا بعض أجزائه عن بعض حتى كانت بينه مسالك تسلكون فيها من طرق يابسة كما قال جلَّ وعلا: ﴿طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: آية ٧٧].
و (الباء) في قوله: ﴿بِكُمُ﴾ فيها لعلماء التفسير أوجه[2]، أظهرها أنها سببية. والمعنى: فصلنا بعض أجزاء البحر عن بعض، بسبب دخولكم فيه؛ ليمكنكم المرور سالكين بين أجزائه، كما قال تعالى: ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝٦٣﴾ [الشعراء: آية ٦٣]. وقال بعض العلماء: (الباء) بمعنى اللام، فمعنى ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ﴾ أي: فرقنا لكم. وهو عائد إلى معنى الأول؛ لأن اللام للتعليل، والباء للسبب، فالمعنى متقارب. وقال بعض العلماء: الجار والمجرور في محل حال، أي: فرقنا البحر في حال كونه متلبساً بكم. وقال بعض العلماء: ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي: جعلناكم كأنكم حاجز بين بعضه

(١) انظر: المفردات (مادة: فرق) ص ٦٣٢، القرطبي (١/ ٣٨٧).
(٢) انظر: الدر المصون (١/ ٣٤٩).

وبعض، كما تقول: فصلت بين أجزاء الشيء بكذا.

و(البحر) معروف، قال بعض العلماء: اشتقاقه من الشقِّ[(١)]؛ لأنه شقٌّ في الأرض كبير، ومنه البَحِيرَة؛ لأنها مشقوقة الأذن. وقال بعض العلماء: هو من البحر بمعنى الاتساع لاتساعه.

وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ أي: أنجيناكم من فرعون وما كان يسومكم من العذاب. وأصل الإنجاء والتنجية أصل اشتقاقه من النجوة، وهي المرتفع من الأرض[(٢)]. فكأن الإنسان إذا سلم من هلاك، ونجا من أمر خطر ارتفع عن هوة الهلاك إلى نجوة السلامة. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ الهمزة في ﴿وَأَغْرَقْنَآ﴾ للتعدية، وأصل الفعل الثلاثي قبل أن تدخل عليه همزة التعدية: (غَرِقَ يَغْرَقُ غَرَقاً)، ومنه قول ذي الرُّمَّة[(٣)]:

وإنسان عيني يَحْسِرُ الماءُ تارةً فيبدو وتاراتٍ يَجِمُّ فَيَغْرَقُ

والعرب تعدِّيه بالهمزة والتضعيف فتقول: أغرقه الله، وغرَّقه، إذا جعله يغرق. ومن هذا المعنى قول الشاعر[(٤)]:

.... ألا ليتَ قيساً غرَّقَتْهُ القَوَابِلُ

---

(١) انظر: البحر المحيط (١/ ١٩٥)، الدر المصون (١/ ٣٥٠).

(٢) انظر: المفردات (مادة: نجو) ص ٧٩٢.

(٣) انظر: المحتسب (١/ ١٥٠)، ضياء السالك (٣/ ١٨٧)، المعجم المفصَّل (٢/ ٥٩٠).

(٤) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ١٥٦، وصدره:

أطَورَين في عامٍ غزاةٌ ورِحْلَةٌ

فالهمزة في (أغرقنا) همزة التعدية، والمعروف أن همزة التعدية إذا دخلت على فعل لازم أكسبته مفعولاً، وإذا دخلت على فعل متعد لمفعول أكسبته مفعولين، وإذا دخلت على فعل متعد لمفعولين أكسبته ثالثاً، كما قال في الخلاصة[١]:

إلى ثلاثةٍ رأى وعَلِمَا عَدَّوا إذا صارا أرى وأَعْلَمَا

و ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾[٢] قدمنا معناه. وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ جملة حالية[٣]، والظاهر أنه نظر بالأبصار[٤]؛ لأن الله أراهم ما أحل بفرعون وقومه من الغرق في البحر، وهو البحر الأحمر، ليكون ذلك أقرَّ لأعينهم؛ لأن هلاك العدو وعدوه ينظر إليه أقرّ لعينه. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: آية ٥١] (إذ) منصوب بـ(اذكر) مقدراً على أحد الأقوال[٥]، وهو معطوف على المذكورات قبله[٦]، وقرأ هذا الحرف جمهور القراء ما عدا البصري

---

(١) الخلاصة ص ٢٤، وانظر: شرحه في الأشموني (١/ ٢٩٥).

(٢) سئل الشيخ رحمه الله عن التعبير هنا بقوله: ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ مع قوله في حق موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٥٤].
فأجاب رحمه الله بقوله: عبر بـ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ يريد فرعون وقومه، كما قال جل وعلا: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: آية ٧٣] يدخل فيهم إبراهيم، وكما قال النبي ﷺ لأبي موسى: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود» يعني: داود.

(٣) انظر: الدر المصون (١/ ٣٥١).

(٤) انظر: القرطبي (١/ ٣٩٢).

(٥) انظر: البحر المحيط (١/ ١٣٩)، الدر المصون (٤/ ٦٩٥).

(٦) المصدر السابق (١/ ١٩٧).

أبا عمرو: ﴿وَٰعَدْنَا﴾ بصيغة المُفَاعَلَة، وقرأه أبو عمرو وحده من السبعة: ﴿وإِذْ وَعَدْنَا﴾[١] ثلاثياً مجرداً من الوعد.

أما على قراءة أبـي عمرو فلا إشكال: صيغةُ الجمع للتعظيم. والله وعد نبيه موسى أن يُنزل عليه كتاباً فيه الحلال والحرام، وكل ما يحتاجون إليه، بعد أربعين ليلة.

أما على قراءة الجمهور ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا﴾ بصيغة المُفَاعَلَة، فالمقرر في فن التصريف: أن المُفَاعَلَة تقتضي الطرفين. أعني اشتراك الفعل بين فاعلين؛ ولذا استشكل بعض العلماء التعبير بالمواعدة هنا، قال: إن الله يَعدُ وحده، ولا يَعِدُه غيره، والجواب عن هذا[٢]: أن المُفَاعَلَة باعتبار أن الله وعد موسى بوحيٍ يبين له فيه الأمور، وموسى وعد ربه بالإِتيان للميقات المُعيَّن لتلقِّي ذلك الوحي، ومن هنا صارت المُفَاعَلَة معقولة.

وقوله: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قال بعض العلماء: هو على حذف مضاف، أي: تمام أربعين ليلة[٣]. وقد بيَّن تعالى في سورة الأعراف أن الوعد بهذه الأربعين كان مفرقاً بأن وَعَد ثلاثين أولاً ثم أتمها بعشر[٤]، وذلك في قوله: ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: آية ١٤٢] قال بعض العلماء: هذه الأربعون ليلة هي شهر ذي القعدة وعشر من ذي

---

(١) المبسوط لابن مهران ص ١٢٩، الإقناع (٢/ ٥٩٧).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٢/ ٥٨ ــ ٦٠)، حجة القراءات ص ٩٦، الكشف لمكي (١/ ٢٣٩)، الموضح لابن أبـي مريم (١/ ٢٧٤).

(٣) انظر: القرطبي (١/ ٣٩٥).

(٤) انظر: أضواء البيان (١/ ١٥، ٧٧).

الحجة[١]، واليوم الذي أغرق الله فيه فرعون وأنجى فيه بني إسرائيل هو يوم عاشوراء، وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، أن النبي ﷺ لما قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم فأخبروه بأنه اليوم الذي أنجى الله فيه موسى وقومه، وأهلك فيه فرعون وقومه، فقال النبي ﷺ: «**نحن أولى بموسى منهم**». فكان يصومه حتى نزل صيام رمضان[٢][٣].

---

(١) انظر: القرطبي (١/ ٣٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصيام، باب صيام عاشوراء، حديث رقم: (٢٠٠٤)، (٤/ ٢٤٤)، وأخرجه في مواضع أخرى. انظر: الأحاديث رقم: (٣٣٩٧)، (٣٩٤٣)، (٤٦٨٠)، (٤٧٣٧)، ومسلم في الصحيح، كتاب الصيام، باب: صوم يوم عاشوراء، حديث رقم: (١١٣٠)، (٢/ ٧٩٥).

(٣) سئل الشيخ رحمه الله: على التعليل لصيامه في الإسلام بأن الرسول ﷺ رأى اليهود يصومونه وسألهم... إلخ. بم يجاب على حديث: «**خالفوا اليهود والنصارى**» مع وقوع هذا الصيام موافقاً لفعل اليهود في ذلك اليوم؟
فأجاب رحمه الله بقوله: الظاهر ــ والله تعالى أعلم ــ أن النبي ﷺ لم يصمه إلا لأولويته بموسى، لا لمجرد اتفاق اليهود، وقد علل ذلك بقوله في الحديث: «**نحن أولى بموسى منهم**» والظاهر أنه لم يُصدِّق بني إسرائيل في أن هذا اليوم هو الذي نجّى الله فيه موسى وقومه، وأنه قد عرف ذلك من طريق غير إخبارهم، لما تقرر عند العلماء: أن شرع من قبلنا لا يكون شرعاً لنا، ولا يتعبد به نبينا ﷺ إلا بعد ثبوته في شرعنا، فإن ثبت في شرعنا فأصح الأقوال أنه شرع لنا، وأن نبينا ﷺ متعبد به، ومما يدل على ذلك: ما ثبت في صحيح البخاري في تفسير سورة (ص) أن مجاهداً سأل ابن عباس رضي الله عنهما: من أين أخذت السجدة في (ص)؟ فأجابه ابن عباس: أَوَمَا تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ. فعلى =

وثبت في الصحيح عن عائشة (رضي الله عنها) أن قريشاً كانوا يصومون[١] يوم عاشوراء في الجاهلية، وأن النبي ﷺ كان يصومه[٢]. ولا تعارض بين الأحاديث؛ لأنه لا مانع من أن يكون النبي ﷺ كان يصومه لأن قريشاً في الجاهلية كانوا يصومونه. ولما جاء تمادى على صومه، ووجد اليهود يصومونه، ولا مانع من كون الفعل الواحد أو النص الواحد له سببان فأكثر[٣]. وعلى كل حال فصوم يوم عاشوراء وجوبه منسوخ بإجماع العلماء[٤].

وقوله جل وعلا: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ عبر بالليالي لأنها قبل الأيام[٥] والمقرر في فن العربية أن التاريخ بالليالي لأنها قبل الأيام[٦]. فلما

= قياس هذا لا يبعد أن يوحي الله إليه أن هذا اليوم أنجى الله (جل وعلا) فيه موسى ويصوموه.

(١) سئل الشيخ رحمه الله عن علة صيام عاشوراء في الجاهلية.
فأجاب الشيخ رحمه الله بقوله: «الله تعالى أعلم، ويمكن أن يكون قريش في الجاهلية تسرَّب إليهم صومه من بني إسرائيل؛ لأنه اليوم الذي أنجى الله فيه موسى وأغرق فيه فرعون، والله تعالى أعلم». اهـ جواب الشيخ. وللاستزادة راجع: القرطبي (١/ ٣٩١)، الفتح (٤/ ٢٤٦).

(٢) البخاري في الصحيح، كتاب الحج، باب: قول الله تعالى: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ حديث رقم: (١٥٩٢)، (٣/ ٤٥٤)، وقد أخرجه في مواضع أخرى. انظر: الأحاديث رقم: (١٨٩٣)، (٢٠٠١)، (٢٠٠٢)، (٣٨٣١)، (٤٥٠٢)، (٤٥٠٤)، ومسلم في الصحيح، كتاب الصيام، باب: صوم يوم عاشوراء، حديث رقم: (١١٢٥)، (٢/ ٧٩٢).

(٣) انظر: القرطبي (١/ ٣٩١)، الفتح (٤/ ٢٤٨).

(٤) انظر: التمهيد (٧/ ٢٠٣)، (٢٢/ ١٤٨).

(٥) انظر: القرطبي (١/ ٣٩٦).

(٦) انظر: القرطبي (٧/ ٢٧٦)، البحر المحيط (١/ ١٩٩).

انتهى هذا الميعاد أنزل الله (جل وعلا) عليه التوراة، وكتبها له في الألواح، كما يأتي تفصيله في سورة الأعراف.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ قرأه بعض السبعة: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذتُّمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ وقرأه بعضهم: ﴿**ثم اتخذتم العجل من بعده**﴾ بالإدغام[1].

وأصل (الاتخاذ) على التحقيق عند علماء العربية: افتعال من الأخذ، أصله (اأتخاذ)[2]، وإبدال الهمزة تاء يُحفظ ولا يقاس عليه، وإنما المقيس إبدال فاء المثال، أعني واوي الفاء، أو يائي الفاء، كالاتجاه، والاتسار، إبدال الواو فيه تاء، أما إبدال الهمزة تاء فهو شاذ يحفظ ولا يقاس عليه، كاتَّكل، واتَّزر، واتَّخذ، بناء على الصحيح أنها (افْتَعَل) من الأخذ. وأصل العِجْل: ولد البقرة، ويجمع على (عَجَاجِيل، عَجَاجِل) على غير قياس، كما عقد مثله في الخلاصة بقوله[3]:

وحائدٌ عَنِ القياسِ كُلُّ ما خَالَفَ في البابين حُكْماً رُسِمَا

وهذا العجل هو العجل الذي صاغه لهم السامري من حُلِيِّ القبط المذكور في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: آية ١٤٨]، وبيَّنه في سورة طه بقوله: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى

---

(١) أي تُقرأ هكذا: (اتَّخَتُّم). انظر: الإقناع في القراءات السبع (١/ ٢٦٥)، النشر (٢/ ١٥).

(٢) انظر: القرطبي (١/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧)، الدر المصون (١/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥).

(٣) الخلاصة ص ٦٨، وانظر: شرحه في الأشموني (٢/ ٤٦٥)، وراجع اللسان (مادة: عجل) (٢/ ٦٩٦)، القاموس (مادة: العجل) ص ١٣٣١.

نَفْسِي ﴿٩٦﴾ ﴾ [طه: آية ٩٦] وحَذَف مفعول الاتخاذ الثاني، وهو محذوف في جميع القرآن، وتقرير المعنى: ثم اتخذتم العجل من بعده، أي: من بعد موسى لمَّا ذهب إلى الميقات، أي: اتخذتم العجل إلهاً. وهذا المفعول الثاني محذوف في جميع القرآن ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ [البقرة: آية ٥٤] أي: إلهاً. ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا ﴾ [الأعراف: آية ١٤٨] أي: إلـٰهاً. فهذا المفعول الثاني الذي تقديره (إلهاً) محذوف في جميع القرآن(١).

قال بعض العلماء: النكتة في حذفه التنبيه على أنه لا ينبغي لعاقل أن يتلفظ بأن عجلاً مصطنعاً من حُلي أنه إله(٢).

وقوله: ﴿ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ جملة حالية(٣)، يعني: اتخذتم العجل والحال أنتم ظالمون باتخاذكم العجل إلـٰهاً. وأصل الظلم في لغة العرب: هو وضع الشيء في غير محله، فكل من وضع شيئاً في غير محله فقد ظلم في لغة العرب(٤). وأكبر أنواع الظلم ـ أي وضع الشيء في غير محله ـ وضع العبادة في غير من خَلَق، فمن عبد غير خالق السماوات والأرض فقد وضع العبادة في غير موضعها؛ ولذا هو ظالم لغة؛ ولأجل هذا البيان فإن القرآن يكثر الله جل وعلا فيه إطلاق الظلم على الشرك، كما قال تعالى: ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ

(١) انظر: الأضواء (١/ ٧٨).

(٢) انظر: الأضواء (١/ ١٧).

(٣) انظر: القرطبي (١/ ٣٩٧).

(٤) انظر: ابن جرير (١/ ٥٢٣)، المفردات (مادة: ظلم) ص ٥٣٧، القرطبي (١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).

ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ [البقرة: آية ٢٥٤]، وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: آية ١٠٦] وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه فسَّر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٢] أي: بشرك[1]. وقال جل وعلا عن العبد الصالح لقمان الحكيم: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: آية ١٣]. هذا معنى الظلم في لغة العرب، ومنه قيل لمن يضرب لبنه قبل أن يروب: ظالم؛ لأنه وضع الضرب في غير موضعه؛ لأن ضَرْبَهُ قبل أن يروب يضيع زبده. وفي لُغَزِ الحريري هل تجوز شهادة الظالم؟ قال: نعم، إذا كان عالماً[2]. يعني بالظالم: الذي يضرب لبنه قبل أن يروب. ومن هذا المعنى قول الشاعر[3]:

وصاحِبِ صدقٍ لم تَرِبني شَكَاتُه ... ظَلَمْتُ وفي ظَلْمِي له عامِداً أَجْرُ

يعني بصاحب الصدق الذي لم تَرِبْهُ شَكَاتُه في ظلمه إياه: سقاء له، ضربه قبل أن يروب. ومن هذا المعنى قول الشاعر[4]:

وقائلةٍ ظَلَمتُ لكم سقائي ... وهل يخفَى على العَكَدِ الظليم

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، حديث رقم (٣٣٦٠) (٦/ ٣٨٩)، وأخرجه في مواضع أخرى من صحيحه. انظر الأحاديث: (٣٤٢٨، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨، ٦٩٣٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه، حديث رقم: (١٩٧) (١/ ١١٤).

(٢) مقامات الحريري مع شرح الشريشي (٣/ ١٤٨) في المقامة الثانية والثلاثون.

(٣) انظر: اللسان (مادة: ظلم) (٢/ ٦٥٠).

(٤) المصدر السابق.

فقولها: (ظلمت لكم سقائي) أي: سقيتكم منه قبل أن يروب؛ ولأجل هذا قيل للأرض التي حُفر فيها ولم تُحفر قط، إذا لم تكن محلاً للحفر: مظلومة؛ لأن الحفر وقع في غير موضعه. ومن هذا المعنى على التحقيق قول نابغة ذبيان(١):

إلَّا الأَوَارِيَّ لأْياً ما أُبَيِّنُهَا والنُّؤيُ كالحوضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ

خلافاً لمن زعم أن (المظلومة) التي أبطأ عنها المطر. ومن هنا قيل للقبر (ظليم)؛ لأنه حَفْرٌ في محل لم يُحفر قبل ذلك. ومنه بهذا المعنى قول الشاعر(٢):

فأصبح في غبراءَ بعد إشاحةٍ على العيشِ مردودٍ عليها ظَليمُها

هذا أصل معنى الظلم في لغة العرب، وشواهده العربية، وهو يُطلق في القرآن إطلاقين: يطلق بمعناه الأعظم، وهو وضع العبادة في غير من خَلق، وهذا أكبر أنواع الظلم، ومنه بهذا المعنى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: آية ٢٥٤]، ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: آية ١٠٦]، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: آية ١٣].

وقد يطلق الظلم في القرآن أيضاً على ظلم الإنسان نفسه ببعض المعاصي التي لا تبلغ به الكفر، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الآية [فاطر: آية ٣٢]، بدليل قوله في

(١) ديوان النابغة الذبياني ص ٩ وسيأتي شرح بعض مفردات البيت عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٢) اللسان (مادة: ظلم) (٢/ ٦٥١).

الجميع: ﴿جَنَّتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ الآية [فاطر: آية ٣٣]، لأن هذا أطاع الشيطان وعصى ربه فقد وضع الطاعة في غير موضعها، كما قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ۝٥٠﴾ [الكهف: آية ٥٠].

وقوله: ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: آية ٥٢] (عفونا) أصله من (العفو)، من عَفت الريح الأثر، إذا طمسته. فالعفو ـ مثلاً ـ هو: طمس الله أثر الذنب بتجاوزه حتى لا يبقى له أثر يتضرر به العبد[1]. والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى اتخاذهم العجل إلهاً، وهو ذلك الذنب العظيم، وأشار إليه إشارة البعيد؛ لأن مثل ذلك الفعل يجب أن يُتباعد منه تباعداً كلياً.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٥٢﴾ قال بعض العلماء: يغلب إتيان (لعلَّ) في القرآن مُشَمَّة معنى التعليل، إلا التي في الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ۝١٢٩﴾[2] [الشعراء: آية ١٢٩] وإتيان (لعل) حرف تعليل مسموع في كلام العرب، ومن إتيان (لعلّ) للتعليل قول الشاعر[3]:

وَقُلْتُم لَنَا كُفُّوا الحُرُوبَ لَعَلَّنَا نكفُّ ووثَّقْتُم لنا كُلَّ موثِقِ
فلما كَففْنَا الحربَ كانَتْ عُهُودُكُم كَشِبْهِ سرابٍ بالمَلا مُتألِّق

(١) انظر: القرطبي (١/ ٣٩٧)، الدر المصون (١/ ٣٥٦).

(٢) انظر: البرهان للزركشي (٤/ ٥٧)، الإتقان (٢/ ٢٣٣)، فتح الباري (٨/ ٤٩٨)، أضواء البيان (٢/ ٤١٤) (٦/ ٢٠٤)، الدر المصون (١/ ١٨٩).

(٣) انظر: ابن جرير (١/ ٣٦٤)، القرطبي (١/ ٢٢٧)، الدر المصون (١/ ١٨٩) والمثبت في هذه المصادر: «كَلَمْعِ سراب في المَلاَ...».

فهذه ليست للترجي بتاتاً؛ لأنه قال: «ووثقتم لنا كل موثق». وقوله: «ووثقتم لنا كل موثق» دلَّ على أن المراد: فقلتم لنا كفُّوا الحروب لأجل أن نكف، ووثقتم لنا كل موثق في وعدكم بالكفِّ المعلَّل بكفنا. هذا هو التحقيق.

وقال بعض العلماء(١): المراد بـ (لعل) يعني: افعلوا ما أمرناكم به مترجين أن يقع ما بعد لعل، وتقريره في هذا المعنى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾. وذلك العفو ينبغي ـ مثلاً ـ أن ترجوا، وذلك العفو الذي عفونا عنكم يُرجى من مثلكم فيه أن تشكروا ذلك العفو. فتكون للترجي على بابها. والأول لا ينافي الثاني؛ لأنا لو قلنا: إنها للتعليل، فالمعلل مرجو الحصول عند وجود علته.

وأصل (الشكر) في لغة العرب: الظهور، ومنه (الشَّكِير) وهو العُسْلُوج الذي يظهر في جذع الشجرة التي قُطعت إذا أصابها الماء فظهر فيها عُسْلُوج يُسمى شَكِيْراً؛ لأنه ظهر بعد أن لم يكن، ومنه: (ناقة شكور) يظهر عليها أثر السِّمَن(٢).

والشكر يطلق في القرآن من الله لعبده، ومن العبد لربه، فمن إطلاق شكر الرب لعبده قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: آية ٣٤] ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: آية ١٥٨].

---

(١) القرطبي (١/ ٢٢٧).

(٢) انظر: اللسان (مادة: شكر) (٢/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥)، المفردات (مادة: شكر) ص ٤٦١، المصباح المنير (مادة: شكر) ص ١٢٢.

ومعنى شكر الرب لعبده: هو إثابته له الثواب الجزيل من عمله القليل. ويطلق الشكر من العبد، كما في قوله هنا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ ومعنى شكر العبد لربه: هو أن يستعمل نعمه في طاعاته؛ فهذه العين الباصرة التي أنعم عليه بها شكرها أن لا ينظر بها إلَّا إلى ما يرضي الله، وهذه اليد الباطشة التي أنعم عليه بها شكر نعمتها أن لا يبطش بها إلا فيما يرضي الله، وهذا اللسان الذي يُبين به ويفصح عما في ضميره شكره أن لا ينطق به إلا فيما يرضي الله، وهكذا في جميع سائر النعم والمنح البدنية والمالية إلى غير ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾ [البقرة: آية ٥٣] (إذ) معطوف على ما قبله، وأكثر العلماء على أنه منصوب بـ (اذكر) مقدراً[١]. وقد بينَّا مراراً أن الدليل على عمل هذا العامل الذي هو (اذكر) في (إذ) أنه مفهوم من استقراء القرآن، لكثرة إعمال (اذكر) في (إذ) نحو: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: آية ٢١]، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: آية ٢٦]، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٨٦] وهكذا.

و ﴿ءَاتَيْنَا﴾ معناه أعطينا، والألف فيه مبدلة من همزة فاء الفعل، فوزنه: (أَفْعَلْنَا) والأصل (أَأْتَيْنا) فأبدلت همزة فاء الفعل مداً مجانساً لحركة همزة (أَفْعَل)[٢] على القاعدة التصريفية المجمع عليها

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٣٠٢.

المشهورة التي عقدها ابن مالك في الخلاصة بقوله[(١)]:

ومـداً ابْـدِلْ ثـانِـيَ الهَمْـزَيـنِ مِـنْ كِلْمَـةٍ انْ يَسكُـنْ كَـآثِـرْ وائْتَمِـنْ

وصيغة الجمع للتعظيم. ومعنى (آتينا): أعطينا، وهي تطلب مفعولين، والمفعول الأول هو موسى، والثاني الكتاب، وهذه من باب: (كسا) لا من (ظن). ومعلوم عند علماء العربية أن الفرق الواضح الموضِّح بين باب (ظن) وباب: (كسا)[(٢)] ـ مع أن كلاًّ منهما تنصب مفعولين ـ هو: أن تحذف الفعل من كلا البابين، ثم تجعل المفعولين مبتدأ وخبراً، فإن صَدَقَتِ القضية فهي من باب (ظن)، وإن كذبت فهي من باب (كسا)، وهذا ضابط مطَّرد مفيد لطالب العلم، فلو قلت مثلاً: «ظننت زيداً قائماً». فحذفت الفعل الذي هو (ظننت) وجعلت المفعولين مبتدأ وخبراً، فقلت: «زيد قائم» كان كلاماً مستقيماً. فهذا من باب (ظن)، بخلاف «كسوت زيداً ثوباً» و «سقيت عَمْروً ماءً». و ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ لو حذفت الفعل منها وقلت: «زيد ثوب»، «عمرو ماء»، «موسى الكتاب»، فهذه القضية كاذبة، فدلّ على أنها من باب (كسا).

والمراد بالكتاب التوراة، بإجماع العلماء[(٣)].

والتحقيق أن المراد بالفرقان هو التوراة أيضاً[(٤)]، وقد تقرر في فن العربية أن الشيء الواحد إذا وُصف بصفات مختلفة يجوز عطفه

---

(١) الخلاصة ص ٧٦، وانظر شرحه في الأشموني (٢/ ٦٠٤).

(٢) انظر: التوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل (١/ ٣٨٥).

(٣) انظر: القرطبي (١/ ٣٩٩).

(٤) انظر: ابن جرير (٢/ ٧١).

على نفسه نظراً إلى اختلاف صفاته، وتنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات[1]. ومن أمثلته في القرآن قوله جل وعلا: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: الآيات ١ ـ ٤]، فالمتعاطفات بالواو مدلولها واحد، إلا أنها عُطفت بحسب تغاير الصفات، ونظير هذا من كلام العرب قول الشاعر[2]:

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمام وليثِ الكتيبَةِ في المُزْدَحَمْ

فعطف هذه بعضها على بعض، مع أن الموصوف بها واحد، نظراً إلى تغاير الصفات. والدليل على أن (الفرقان) كتاب موسى، وأن من زعم أن المعنى: آتينا موسى الكتاب، ومحمداً ﷺ الفرقان، أنه قول باطل، بدليل قوله[3] (جل وعلا) في الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء: آية ٤٨].

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٠﴾ أي: لأجل أن تهتدوا كما بينَّا. أو على أن إنزال هذا الكتاب يُرجى منه أن تهتدوا؛ لأنه مظنة لذلك، ومحل للرجاء في هداكم بهذا الكتاب العظيم السماوي.

و ﴿تَهْتَدُونَ ۝١٥٠﴾ معناه تسلكون طريق الهدى، من طاعة الله جل وعلا، بامتثال أوامره واجتناب نهيه.

---

(١) انظر: القرطبي (١/ ٣٩٩)، المدخل للحدادي ص ٢٣٦، أضواء البيان (١/ ٧٧)، (٣/ ١٩٥).

(٢) انظر: الخزانة (١/ ٢١٦).

(٣) انظر: الدر المصون (١/ ٣٥٩)، الأضواء (١/ ٧٧ ـ ٧٨).

[٢/أ] / ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: الآيات ٥٤ ـ ٥٦].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: آية ٥٤] أي: واذكروا ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ حين قال موسى ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ أصله: (يا قومي) منادى مضاف إلى ياء المتكلم، وحُذفت ياء المتكلم اكتفاءً عنها بالكسرة[١]. وفي المنادى المضاف إلى ياء المتكلم إن كان صحيح الآخر خمس لغات[٢]، كلها صحيحة، أكثرها حذف ياء المتكلم كما في هذه الآية. وتلك اللغات عقدها في الخلاصة بقوله[٣]:

واجْعَلْ مُنَادىً صحَّ إِنْ يُضَفْ لِيَا كَعَبْدِ عَبْدِي عَبْدَ عَبْدَا عَبْدِيَا

أصله: يا قومي.

﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ قدمنا معنى الظلم[٤] بشواهده العربية، ومعناه في القرآن، وقد جاء في القرآن في موضع

---

(١) انظر: القرطبي (١/ ٤٠٠).

(٢) في القرطبي (١/ ٤٠٠)، والدر المصون (١/ ٣٩) (ست لغات)، وانظر: التوضيح والتكميل (٢/ ٢١٧ ـ ٢١٨).

(٣) الخلاصة ص ٥١، وانظر شرحه في الأشموني (٢/ ١٥٦)، التوضيح والتكميل (٢/ ٢١٧ ـ ٢١٨).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥١) من هذه السورة.

واحد مراداً به النقص في قوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: آية ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئاً[١].

وهذه الآية تدل على أن من خالف أمر الله أنه إنما ظلم بذلك نفسه حيث عرَّضها لسخط الله وعذابه، فضرر فعله عائد إليه وحده، وذلك أكبر باعث على الانزجار والكفّ؛ لأن الإنسان لا يُحب أن يضرّ نفسه، ولا أن يجني عليها، فإذا عرف الإنسان أن ضرر فعله إنما هو عائد إليه حاسب.

والباء في قوله: ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ سببية[٢]، يعني أن اتخاذهم العجل هو السبب الذي ظلموا به أنفسهم. وقد قدمنا[٣] أن (الاتخاذ) مصدر اتخذ، وأن الظاهر أن أصله (افتعال) من (الأخذ)، إلا أن الهمزة التي هي في محل فاء الكلمة أُبدِلَتْ تاءً وأُدغِمَت في تاء الافتعال، وهذا يُحفظ ولا يُقاس عليه، كما عقده في الخلاصة بقوله[٤]:

ذُو اللِّينِ فَا تا في افتِعَالٍ أُبْدِلا   وشَذَّ في ذي الهَمْزِ نَحْوُ ائْتَكَلا

و ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ﴾ مصدر من فعل يطلب مفعولين، والمصدر هنا مضاف إلى فاعله[٥]. والمفعول الأول العجل، والمفعول الثاني محذوف دائماً في القرآن، وتقرير المعنى: باتخاذكم العجل إلـٰهاً.

---

(١) انظر: المفردات (مادة: ظلم) ص ٥٣٨.

(٢) انظر: الدر المصون (١/ ٣٦١).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥١) من هذه السورة.

(٤) الخلاصة ص ٧٩، وانظر: شرحه في الأشموني (٢/ ٦٤١).

(٥) انظر: الدر المصون (١/ ٣٦١).

وقد قدمنا(١) أن هذا المفعول الثاني في (اتخاذهم العجل إلـٰهاً) محذوف في جميع القرآن، وأن بعض العلماء قال: النكتة في حذفه دائماً هي التنبيه على أنه لا ينبغي أن يُتلفظ بأن عجلاً مصطنعاً من حليّ إلـٰه.

وقال جل وعلا: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ الفاء سببية، وقد تقرر في فن الأصول في مسلك (الإيماء والتنبيه)(٢) أن الفاء من حروف التعليل، وأن ما قبلها علَّة لما بعدها، كقولهم: «سها فسجد»، أي: لعلة سهوه، و «سرق فقُطعت يدُه» أي: لعلة سرقته، ﴿ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ﴾ أي: لعلة ظلمكم. ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ قد قدَّمنا معنى التوبة واشتقاقها في أول هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي: خالقكم ومبرزكم من العدم إلى الوجود. وقد ذكر (جل وعلا) الخالق البارىء من صفاته كما قال في أُخريات الحشر: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ [الحشر: آية ٢٤] و (الخالق) اسم فاعل الخلق، والخلق في اللغة: التقدير. و (البارىء) هو الذي يفري ما خلق؛ فمعنى خلق: قدَّرَ، ومعنى برأ: أنفذ ما قدَّر، وأبرز من العدم إلى الوجود، والعرب تسمي التقدير خلقاً، ومنه قول زهير بن أبي سُلمى(٣):

ولأَنْتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبَعْـ ـضُ القومِ يخلُقُ ثم لا يَفْرِي

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١٧١) شرح الكوكب المنير (٣/ ٤٧٧) (٤/ ١٢٥).

(٣) القرطبي (١/ ٢٢٦)، الدر المصون (١/ ١٨٨).

وكثيراً ما يطلق اسم الخلق على الإبراز من العدم إلى الوجود. وعلى كل حال فمعنى (البارىء): المبدع الذي يبرأ الأشياء، أي: يبرزها من العدم إلى الوجود.

وفي الآية سرٌّ لطيف[1]، وهو أن من أَبْرَزَ من العدم إلى الوجود هو الذي يستحق أن يُعبد، ويُتاب إليه من الذنوب؛ لأن عنوان استحقاق العبادة إنما هو الخلق، فمن يخلق ويُبْرِزُ من العدم إلى الوجود فهو المعبود الذي يعبد وحده، ويُتَنَصَّل إليه من الذنوب، ومن لا يخلق فهو مربوب محتاج إلى خالق يخلقه؛ ولذا كثر في القرآن الإشارة إلى أن ضابط من يستحق العبادة هو الخالق الذي يُبرز من العدم إلى الوجود، كما تقدم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة: آية ٢١]، وكما في قوله: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ [الرعد: آية ١٦] وخالق كل شيء هو المعبود وحده. وقال جل وعلا: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل: آية ١٧]، الجواب: لا. وهذا معنى قوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾.

وقرأ هذا الحرف جمهور القراء: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ وعن أبي عمرو فيه روايتان عنه: قراءة: ﴿إلى بارئْكم﴾ بإسكان الهمزة، وعنه قراءة أخرى رواها عنه الدوري باختلاس الهمزة، واختلاس الهمزة: هو تخفيف حركتها حتى يأتي ببعض الحركة ولا يأتي بها كاملة، وهذه الرواية الأخيرة رواية الدُّوري عن أبي عمرو هي التي بها الأخذ، والمشهورة عند القراء[2]. وما زعمه بعض علماء العربية

---

(١) انظر: البحر المحيط (١/ ٢٠٧)، تفسير أبي السعود (١/ ١٠٢).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٢٩.

من أن الرواية الأخرى عن أبـي عمرو بإسكان الهمزة في ﴿بارئْكم﴾ أنها لحن، وأن حركة الإعراب لا يجوز تسكينها، فهو غلط[1]، ولا شك أنها لغة صحيحة، وقراءة ثابتة عن أبـي عمرو، وتخفيف الحركة بالإسكان لغة تميم وبني أسد، ويكثر في كلام العرب إسكان الحركة للتخفيف، ولا سيما إذا توالت ثلاث حركات، كما في قراءة الجمهور ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ بثلاث حركات. ومن تسكين الحركة للتخفيف قول امرىء القيس[2]:

فاليوم أَشْرَبْ غيرَ مُسْتَحْقَبٍ إثْماً من الله ولا واغِلِ

وعلى هذا التخفيف قراءة أبـي عمرو ﴿أَرْنا الَّذَيْن﴾[3] [فصلت: آية ٢٩]، وقراءة حفص: ﴿ويخش الله ويَتَّقْهِ﴾[4] [النور: آية ٥٢] فإن هذا السكون إنما هو تخفيف؛ لأن المحل ليس محل سكون؛ لأن الأصل (يتقيه) و ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾[5] [البقرة: آية ١٢٨]. ومنه قول الشاعر[6]:

أَرْنَا إِدَاوَةَ عبد الله نَمْلَؤُهَا مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ إِنَّ القَومَ قَدْ ظَمِئُوا

وقول الآخر[7]:

ومَنْ يَتَّقْ فَإِنَّ اللَّهَ مَعْهُ وَرِزْقُ الله مُؤْتَابٌ وغَادِ

---

(١) انظر: الدر المصون (١/ ٣٦١ ـ ٣٦٥).

(٢) ديوان امرىء القيس ص ١٣٤.

(٣) المبسوط ص ٣٩٤.

(٤) المصدر السابق ص ٣٢٠.

(٥) المصدر السابق ص ١٣٦، السبعة لابن مجاهد ص ١٧٠.

(٦) هذا البيت مجهول النسبة، وهو في القرطبي (٢/ ١٢٨)، الدر المصون (٢/ ١١٩).

(٧) الخصائص (١/ ٣٠٦)، المحتسب (١/ ٣٦١).

وقول الراجز[١]:

قالتْ سُلَيْمَى اشْتَرْ لَنَا سَوِيْقَا وهاتِ خُبْزَ الْبُرِّ أو دقيقا

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ كأنهم قالوا: بم نتوب إلى بارئنا توبة يقبلها منا؟ قيل لهم: ﴿فَاقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾. أو الفاء للتعقيب[٢]؛ لأن هذا القتل عقب الذنب هو الذي حصلت به التوبة.

وأصل القتل في لغة العرب[٣]: إزهاق الروح بشرط أن يكون من فعل فاعل، كالطعن، والضرب، والخنق، وما جرى مجرى ذلك، أما إزهاق الروح بلا سبب من ضرب أو نحوه فهو موت وهلاك لا قتل.

وقال بعض العلماء: القتل إماتة الحركة.

وقد تطلق العرب مادة القاف والتاء واللام على غير إزهاق الروح، فتطلقه على التذليل، فالتقتيل: التذليل، وتطلق القتل أيضاً على إضعاف الشدة، فمن إطلاق التقتيل على التذليل قول امرىء القيس[٤]:

وما ذرفت عيناكِ إلاَّ لتضرِبي بسهميك في أعشارِ قلبٍ مُقَتَّلِ

---

(١) البيت للعذافر الكندي، وقد ورد بروايات متعددة. انظر: المحتسب (١/ ٣٦١)، الخصائص (٢/ ٣٤٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (١/ ٢٠٨).

(٣) انظر: المفردات (مادة: قتل) ص ٦٥٥.

(٤) ديوان امرىء القيس ص ١١٤.

أي: مُذلل. وقول زهير[١]:

كـأنَّ عَيْنَـيَّ فـي غَـرْبَـيْ مُقَتَّلـةٍ من النواضِحِ تَسْقِي جنَّة سُحُقاً

أي: مذللة.

وكذلك يطلق القتل على كسر الشِّدَة، ومنه قتل الخمر بالماء، أي: كسر شدتها بالماء، كما قال حسان (رضي الله عنه)[٢]:

إن التـي نَـاوَلْتِنِـي فَـرَدَدْتُهـا قُتِلَـتْ قُتِلْـتَ فَهَـاتِهـا لـم تُقتـل

يعني بقتلها: إضعاف شدتها بمزجها بالماء.

وقوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ جمع قلة؛ لأن (الأَفْعُل) من صيغ جموع القلة[٣]. وما يزعمه بعض النحويين والمفسرين من أن مثل هذه الآية جيء فيه بجمع القلة موضع جمع الكثرة فهو خلاف التحقيق؛ لأن ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ أُضيف إلى معرفة، واسم الجنس مفرداً كان أو جمعاً إذا أُضيف إلى معرفة اكتسب العموم[٤]. والشيء الذي يعم جميع الأفراد لا يعقل أن يقال فيه: إنه جمع قلة؛ لأن جمع القلة لا يتعدى العشرة، وهو بعمومه يشمل آلاف الأفراد، فالتحقيق ما حرره علماء الأصول في مبحث التخصيص[٥] من أن جموع القلة وجموع الكثرة لا يكون الفرق بينها ألبتة إلا في التنكير، أما في التعريف فإن

---

(١) انظر: البحر المحيط (٧/ ٣٤)، اللسان (مادة: سحق) (٢/ ١٠٩)، الدر المصون (٨/ ٥٤١).

(٢) ديوان حسان بن ثابت ص ١٨٥، الخزانة (٢/ ٢٣٨).

(٣) انظر: التوضيح والتكميل (٢/ ٣٩١).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من هذه السورة.

(٥) انظر: البحر المحيط للزركشي (٣/ ٨٤ ـ ٩٣).

الألف واللام تفيد العموم، والإضافة إلى المعارف تفيد العموم[١]، وما صار عاماً استحال أن يقال هو جمع قلة؛ لأن العموم يستغرق جميع الأفراد. هذا هو التحقيق. وهذا معنى قوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ في مرجع الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ وجهان للعلماء لا يُكَذِّب أحدهما الآخر[٢]، أحدهما: أنه راجع إلى مصدر القتل المفهوم من قوله: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ﴾ أي: ذلك القتلُ لأنفسكم خير لكم عند بارئكم، وقد قرر علماء العربية أن الفعل الصناعي ـ أعني فعل الأمر، أو الفعل المضارع، أو الماضي ـ ينحلُّ عن مصدرٍ وزمن، فالمصدر كامن في مفهومه إجماعاً[٣]. قال في الخلاصة[٤]:

المصدر اسمُ ما سِوَى الزمانِ مِنْ مَدْلُولَي الفِعْلِ كأَمْنٍ مِنْ أَمِنْ

ونحن نرى القرآن يلاحظ المصدر تارة، ويلاحظ الزمن تارة. فمن أمثلة ملاحظته للمصدر: ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ﴾ [المائدة: آية ٨] أي: العدل الكامن في مفهوم ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾، وتارة يلاحظ الزمن، ومن أمثلة ملاحظته لزمان الفعل الصناعي قوله (جل وعلا) في (ق): ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠﴾ [ق: آية ٢٠] فالإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ لزمن النفخ المفهوم من بناء الفعل في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾.

---

(١) المصدر السابق (٣/ ١٠٨).

(٢) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (١/ ٢٠٩).

(٣) انظر: الكليات ص ٦٨٠.

(٤) الخلاصة ص ٢٩، وانظر: شرحه في الأشموني (١/ ٣٦٤).

وقال بعض العلماء[(١)]: الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ راجعة إلى شيئين هما: التوبة المفهومة من قوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾، والقتل المفهوم من قوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، وعلى هذا القول فالمعنى: ذلكم المذكور من التوبة والقتل. ونظير هذا في القرآن ـ أي: بأن يكون لفظ الإشارة مفرداً ومعناه مثنى ـ قوله (جل وعلا) في هذه السورة الكريمة: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: آية ٦٨] أي: ذلك المذكور من الفارض والبكر.

وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول عبد الله بن الزبعري[(٢)]:

إنَّ للشرِّ وللخيرِ مَدىً وكِلا ذلِكَ وجْهٌ وَقَبَلْ

أي: كلا ذلك المذكور. ولما قال رؤبة بن العجاج في رجزه المشهور[(٣)]:

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَق كأنَّه في الجلْدِ تَوليعُ البَهَقْ

فقيل له: ما معنى قولك: «كأنه» بالتذكير، إن كنت تريد الخطوط لَزِمَ أن تقول: (كأنها)، وإن كنت تريد السواد والبلق لزم أن تقول: (كأنهما) فَلِمَ قلت: (كأنَّه)؟ قال: (كأنه) أي: ما ذُكر من سواد وبلق.

---

(١) انظر: البحر المحيط (١/ ٢٠٩).

(٢) انظر: البحر المحيط (١/ ٢٠٩)، مغني اللبيب (١/ ١٧٢)، أوضح المسالك (٢/ ٢٠٣)، وصدره: «إنَّ للخير وللشر مدى».

(٣) انظر: المحتسب (٢/ ١٥٤).

وقوله: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الظاهر أنها هنا صيغة تفضيل، وقد تقرر في فن العربية أن لفظة (خير وشر) حذفت العرب منها الهمزة في صيغة التفضيل لكثرة الاستعمال في الأغلب، كما عقده ابن مالك في الكافية بقوله[١]:

وغالباً أغناهم خير وشر عن قولهم أخيرُ منه وأشر

ووجه كونها هنا صيغة تفضيل: أن هذا القتل بهذه التوبة يقطع حياتهم الدنيوية، ولكنه يكسبهم حياة أخروية، وهذه الحياة الأخروية خير من الحياة الدنيوية[٢]، وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ أي: ذلكم المذكور من توبتكم وقتلكم أنفسكم خير لكم عند بارئكم من عدمه، أي: عند خالقكم ومبرزكم من العدم إلى الوجود.

وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ معطوف على محذوف دل المقام عليه، أي: فامتثلتم ما أُمرتم به، وقدمتم أنفسكم للقتل، فتاب عليكم[٣].

واختلف العلماء في كيفية هذا القتل الذي أُمروا به[٤]، قال بعض العلماء: كيفية هذا القتل الذي أُمروا به أن من لم يعبد العجل منهم أُمر بأن يقتل من عبد العجل، وقيل: أُمروا أن يقتل بعضهم بعضاً، من عبد العجل ومن لم يعبده، وعلى هذا القول فذنب من لم يعبد العجل أنه لم ينههم، ولم يغير المنكر؛ لأن المنكر إذا وقع ولم يغير عمَّ العذاب.

---

(١) شرح الكافية الشافية (٢/ ١١٢١).

(٢) انظر: البحر المحيط (١/ ٢٠٩).

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: ابن جرير (٢/ ٧٣)، القرطبي (١/ ٤٠١)، ابن كثير (١/ ٩٢).

وأظهر القولين: أن البريء منهم أُمر بقتل الذي عبد العجل. ذكر المفسرون في قصتهم أنهم لما كان الرجل ينظر إلى قريبه وأخيه لا يقدر أن يتجاسر على قتله، فأنزل الله ضباباً حتى صاروا لا يرى بعضهم بعضاً، فوضعوا فيهم السيف حتى قتلوا منهم نحو سبعين ألفاً، فدعى موسى وهارون ربهما، فقبل الله توبتهم، ورفع القتل عن بقيَّتهم[1]. هذا معنى قوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾. قد أوضحنا معنى ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧] بما أغنى عن إعادته هنا.

وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: آية ٥٥] أي: واذكروا أيضاً حين قلتم لنبي الله موسى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ أي: لن نصدقك فيما ذكرت من أن الله كلمك به. قال بعض العلماء[2]: هم السبعون الذين اختارهم موسى، سمعوا الله يكلم موسى فقالوا: لن نصدقك في أن هذا كلام الله حتى نرى الله جهرة. والقاعدة باستقراء القرآن أن لفظ (الإيمان) إذا عُدِّي باللام معناه عدم التصديق[3][4] كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا

---

(١) انظر: المصادر السابقة.

(٢) انظر: القرطبي (١/ ٤٠٣).

(٣) أي: في سياق النفي كما في الآية، أما في سياق الإثبات فيكون معناه: التصديق.

(٤) فائدة: لمعرفة الفروقات بين الإيمان والتصديق انظر: كتاب الإيمان لابن تيمية ص ١١٢ ـ ١٢٥، ٢٧٤ ـ ٢٨١، ٣٠٠، الإيمان الأوسط ص ٧١ ـ ٧٥، ١٧٨ ـ ١٧٩، شرح الطحاوية ص ٢٩٠ ـ ٢٩٢، معارج القبول (٢/ ٢١ ـ ٢٥).

=

صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: آية ٢٧] أي: بمصدقنا، وقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ٦١] أي: يصدق المؤمنين، فالمعنى على هذا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ لك أي: لن نصدقك فيما ذكرت من أن الله كلمك وأمرك ونهاك. وهذا ـ نفيهم للتصديق ـ غيَّوه بغاية يتمادى إليها هي: ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: إلى رؤيتنا الله جهرة.

وقوله: ﴿جَهْرَةً﴾ فيه وجهان من التفسير[1]، أحدهما: أنه متعلق بـ﴿نَرَى﴾ والمعنى: ﴿نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: عياناً، وانتصابه على أنه مصدر مؤكِّد لعامله مزيل توهم أنها رؤية منام، أو رؤية علم بالقلب، وقال بعض العلماء: هو يتعلق بقوله: ﴿قُلْتُمْ﴾ أي: قلتم جهاراً ـ من غير مواربة ـ هذا القول العظيم الشنيع، وعلى هذا فأظهر القولين فيها أنه مصدر مُنكَّر حال، أي قلتم هذا القول جهرة أي: في حال كونكم جاهرين بهذا الأمر العظيم.

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ الفاء سببية دلت على أن أخذ الصاعقة إياهم سببه هذا الاجتراء العظيم، وامتناعهم من تصديقهم نبيهم حتى يروا الله عياناً، كما قال جل وعلا: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: آية ١٥٣].

والصاعقة تطلق إطلاقات[2]: تطلق على النار المحرقة، وعلى الصوت المزعج المهلك، وأكثر إطلاقاتها عليهما معاً، صوت مزعج مشتمل على نار مهلكة، وعلى كل حال فعلى أنهم السبعون المذكورون في الأعراف فقد بيَّن أن هذه الصاعقة رجفة، كما في

---

(١) انظر: القرطبي (١/ ٤٠٤)، الدر المصون (١/ ٣٦٧).

(٢) انظر: ابن جرير (٢/ ٨٣)، المفردات (مادة: صعق) ص ٤٨٥، القرطبي (١/ ٢١٩).

قوله: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ الآية [الأعراف: آية ١٥٥]. على كل حال فهذه الصاعقة سواء قلنا: إنها نار محرقة، أو صوت مزعج أهلكهم، أو هما معاً صوت مزعج أرجف بهم الأرض، فالتحقيق أنهم ماتوا، وأنه صَعْق موت.

كما صرَّح الله بذلك في قوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ [البقرة: آية ٥٦] أنهم ماتوا، أماتهم الله عقاباً لمقالتهم هذه الشنعاء، ثم أحياهم بدعاء نبيهم ﷺ وعلى نبينا ﷺ، خلافاً لمن زعم أن صَعْقهم هذا صَعْق غشية قائلاً: إن الصعق قد يُطلق على [غير][1] الموت، وذكروا منه قول جرير يهجو الفرزدق[2]:

وهَلْ كان الفرزدَقُ غَيْرَ قِردٍ أصَابَتْه الصواعِقُ فاسْتَدارا

فقوله: «أصابته الصواعق» ليس معناه أنه مات. والتحقيق أنه صعق موت؛ لأنه لا أحد أصدق من الله، والله صرح بأنه موت في قوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ البعث بعد الموت معناه الإحياء بعد الموت، أي: بعد أن مُتم. أحياهم الله جل وعلا أحياءً.

وعامة المفسرين يقولون: إنَّ الزمن الذي مَكثوا في هذا الموت أو الغشية ـ على القول الباطل عند من يزعم أنه صعق غشية لا صَعْق موت، مدة هذا الصعق الذي التحقيق أنه موت ـ يوم وليلة، كما عليه عامة المفسرين[3] إلا من شذ.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر: ابن جرير (٢/ ٨٣).

(٣) انظر: البحر المحيط (١/ ٢١١)، ونقل عليه الإجماع.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ جملةٌ حالية، وأصل هذه الجملة فيها إشكال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: كيف ينظرون، وينظر بعضهم إلى بعض، مع إصابة الصاعقة إياهم؟

وللعلماء عن هذا أجوبة[١]: أظهرها أن الصاعقة أصابتهم غير دفعة، بل تصيب البعض والبعض ينظر إلى إهلاكه؛ لأن ظاهر القرآن يجب الحمل عليه إلا بدليل جازم من كتاب وسنة[٢]، وظاهر القرآن أن هنالك نظراً لوقوع هذه الصاعقة، أن الصاعقة وقعت في حال نظرهم، وبهذا قال بعض العلماء، وهو الأظهر؛ لأنه يتمشى مع ظاهر القرآن، ولا مانع من أن تصيب الصاعقة بعضهم والبعض الآخر ينظر إليه، ثم تصيب بعضاً والبعض الآخر ينظر إليه، وكذلك قال بعض العلماء[٣]: إن الله أحياهم متفرقين في غير دفعة واحدة، يحيى بعضهم والبعض الآخر ينظر إليه كيف يحييه الله. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ قد قدمنا معنى (لعل) ومعنى (الشكر) في درس البارحة[٤].

وهذه الآية الكريمة فيها دليل جازم على البعث؛ لأن بني إسرائيل هؤلاء، هذه الطائفة منهم التي أماتها الله فأحياها دليل قاطع

---

(١) انظر: القرطبي (١/ ٤٠٤)، البحر المحيط (١/ ٢١٢).

(٢) في هذه القاعدة انظر: ابن جرير (١/ ٣٨٨، ٤٧١، ٤٨٥، ٥٥٠)، (٢/ ١٥، ٦١، ١٨٠، ٤٥٦، ٤٥٧، ٥٤٥، ٥٦٠)، الصواعق المرسلة (١/ ٢٠٤)، قواعد التفسير (٢/ ٨٤٣ ــ ٨٥٠).

(٣) انظر: البحر المحيط (١/ ٢١٢).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من هذه السورة.

على أن الله (جل وعلا) قادر على إحياء الموتى. وقد ذكر الله (جل وعلا) في هذه السورة الكريمة خمسة أمثلة من إحيائه للموتى في دار الدنيا[١] هذا أولها.

الموضع الثاني: قوله في قتيل بني إسرائيل: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٧٣] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بيَّن به أن إحياءه قتيل بني إسرائيل في دار الدنيا دليل على البعث وإحيائه الموتى، وبعثه إياهم بعد أن صاروا عظاماً.

الموضع الثالث: قوله جل وعلا: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٤٣].

الموضع الرابع: قوله في عزير وحماره: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: آية ٢٥٩]. وفي القراءة الأخرى[٢] ﴿كَيْفَ نُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

الموضع الخامس: طيور إبراهيم المذكور في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى

---

(١) انظر: ابن كثير (١/ ١١٢).

(٢) المبسوط لابن مهران ص ١٥١.

قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ [البقرة: آية ٢٦٠][1].

---

(١) سئل الشيخ (رحمه الله): من أدلة إحياء الله الموتى في الدنيا: الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم، فقال الله: ﴿مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٤٣]، هل هذه الإماتة على حقيقتها أو هناك نوع آخر معنوي؟

فأجاب الشيخ رحمه الله بقوله: الجواب: أن هذه الإماتة إماتة حقيقية، وإحياء حقيقي؛ لأن القرآن لا يجوز صرفه عن ظاهره المتبادر منه إلا بدليل يجب الرجوع إليه من كتاب أو سنة صحيحة، والقرينة ــ قرينة الآية ــ تدل على أنه موت حقيقي، ففي نفس الآية قرينة دالة على ذلك؛ لأن سبب نزول الآية تشجيع المؤمنين على القتال، وأن الله يريد أن يفهمهم أن من ردَّه الجبن عن لقاء العدو سيجد حتفه أمامه، كهذه الألوف من بني إسرائيل، لما وقع الطاعون وفرُّوا هاربين حذراً من الموت وجدوا الموت أمامهم، فأماتهم الله، ولهذا أتبع هذه الآية بقوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: آية ٢٤٤] ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: فليس الحذر والجبن والتخلف عن القتال يضمن لكم الحياة، بل قد يفرُّ الإنسان من الموت فيجد الموت أمامه، كما وقع لهؤلاء الألوف، وكما قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب: آية ١٦] فقوله بعدها: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قرينة على أنه موت حقيقي، وأن الحذر من الموت لا ينجي من الموت! ولقد أجاد من قال:

في الجبن عار وفي الإقدام مكرمة والمرء في الجبن لا ينجو من القدر

وسئل الشيخ (رحمه الله): هل يوجد دليل ــ هو نص ــ على أن الإماتة إذا كانت معنوية يكون معها قرينة ودليل على المراد؟

فأجاب الشيخ رحمه الله بقوله: الموت إذا أُطلق في لغة العرب معروف أنه يصدُق بمفارقة الروح للجسد، ولا يجوز حمله على غير هذا المعنى المتبادر إلا لدليل، ولا شك أن القرآن جاء فيه إطلاق الموت على الموت المعنوي، =

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [البقرة: الآيات ٥٧ ــ ٥٩].

يقول الله جل وعلا: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة: آية ٥٧] لما كان بنو إسرائيل في التيه،

= كالكفر، كقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ [الأنعام: آية ١٢٢] أي: كان كافراً فهديناه إلى الإيمان. وقد أجمع العلماء على أن قوله في الأنعام: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ٣٦] أي: الكافرين يبعثهم الله، كما عليه عامة أهل التفسير، إلا أن إطلاق الموت على هذا المعنى كإطلاقه على الكافر في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: آية ٢٢] وقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: آية ١٢٢]، هذا لا يُحمل عليه إلا بقرينة سياق. أما الآية: ﴿خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ [البقرة: آية ٢٤٣] فالموت الذي حذروه لا شك أنه الموت المضاد للحياة القاطع لها. وقوله: ﴿خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ من قال له الله: «مُت» مات بلا شك؛ لأن الله إذا قال للشيء «كُنْ» كان، وهم إنما خرجوا من ديارهم حذر الموت الحقيقي الذي يحذره كل إنسان، القاطع للحياة. فقوله: ﴿خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ ثم قوله بعده: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٤٣] أدلة واضحة على أنه موت حقيقي، وعليه عامة المفسرين، وهو الحق الذي لا شك فيه، فادعاء أنه موت معنوي أو غير هذا تلاعب بكتاب الله (جل وعلا)، وحمل له على غير معناه من غير دليل يجب الرجوع إليه، والله الموفق للصواب.

واشتكوا الحرَّ، دعا نبي الله موسى لهم، فظلل الله عليهم الغمام. والغمام: اسم جنس واحده غمامة، وهو غمام أبيض رقيق يُظلهم من الشمس[١]. وفي قصتهم أنه إذا كان في الليل ارتفع ليستضيئوا بضوء القمر.

وصيغة الجمع في قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ للتعظيم.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ لما اشتكوا في التيه من الجوع، دعا اللَّهَ نبيُّهم، فأنزل الله المنَّ والسلوى. وأكثر علماء التفسير[٢] على أن المنَّ: التَّرَنْجَبِين، وهو شيء ينزل كالندى ثم يجتَمع، أبيض، حلو، يشبه العسل الأبيض، هذا قول أكثر المفسرين في المراد بالمنِّ.

قال بعض العلماء[٣]: ولا يعارض هذا ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ من أنه قال: «**الكمأة من المنِّ وماؤها شفاء للعين**»[٤].

---

(١) سئل الشيخ (رحمه الله) عن الفرق بين الغمام والسحاب؟
فأجاب بقوله:
السحاب غير المطر بإجماع العلماء، فالسحاب هو الوعاء الذي فيه ماء المطر، ويُسمَّى الغمام، إلا أن هذا الغمام الذي أنزل الله عليهم يقول العلماء فيه: إنه لم يكن وعاء كالسحاب، وإنما هو غمام أبيض رقيق يشبهه، أنزله الله عليهم، مع أن الغمام يطلق على السحاب.

(٢) انظر: القرطبي (٤٠٦/١)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾، حديث رقم: (٤٤٧٨)، (١٦٣/٨)، وأخرجه في موضعين آخرين. انظر الحديثين رقم: (٤٦٣٩، ٥٧٠٨)، ومسلم في صحيحه، =

قالوا: فمراده ﷺ بقوله: «من المن» أي: من جنس ما منَّ الله به على بني إسرائيل، حيث إنه طعام يوجد ـ فضلاً من الله ـ من غير تعب، وظاهر الحديث أن الكمأة من نفس ما منَّ الله به على بني إسرائيل في التيه.

[٢/ب] / وقوله: ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ جمهور المفسرين، أو عامة المفسرين على أن (السلوى): طير[١]، قال بعضهم: هو السُّمَانَى، وقال بعضهم: طائر يشبه السُّمَانَى. وتفسير من فسَّر السلوى بأنه (العسل) غير صواب، وكذلك ادعاء أن السلوى لا يُطلق على العسل في لغة العرب غير صواب. والتحقيق: أن السلوى يطلق في لغة العرب على العسل، ومنه قول الهُذَلي[٢]:

وَقَاسَمْتُهَا بالله جَهْداً لأنْتُمُ أَلَذُّ منَ السَّلْوَى إذا ما نَشُورُها

والشور: استخراج العسل خاصَّة.

لكن ليس المراد بالسلوى في الآية العسل، وإنما المراد به طائر، كما عليه عامة المفسرين، هو السمانى أو طائر يشبه السمانى.

وقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ محكي قول محذوف[٣]، أي: وقلنا لهم: كلوا من طيبات ما رزقناكم كهذا المن والسلوى، وهما طيبان حِسّاً ومعنى؛ للذاذة طعمهما وحلِّيتهما شرعاً؛ لأنهما منٌّ وفضل من الله جل وعلا.

= كتاب الأشربة، باب: فضل الكمأة، ومداواة العين بها، حديث رقم: (٢٠٤٩)، (٣/ ١٦١٩).

(١) انظر: القرطبي (١/ ٤٠٧)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢٥.

(٢) اللسان (مادة: سلا)، القرطبي (١/ ٤٠٧)، الدر المصون (١/ ٣٧٠).

(٣) انظر: القرطبي (١/ ٤٠٨)، الدر المصون (١/ ٣٧٠).

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ هنا محذوف دلَّ المقام عليه[١]، والمعنى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: أنعمنا عليهم هذه النعم فقابلوا نعمنا بعدم الشكر، وارتكاب المعاصي، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بتلك المعاصي التي قابلوا بها نعمنا ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وقال بعض العلماء: أُمروا أن لا يدَّخِرُوا من المنِّ والسلوى فخالفوا أمر الله وادَّخروا، وما ظلمونا بذلك الادخار المنهي عنه ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[٢]. والقول الأول أشمل، وهو الصواب.

وقوله (جل وعلا) في هذه الآية: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ فيه الدليل الواضح على أن نفي الفعل لا يستلزم إمكانه[٣]؛ لأن الله نفى عنه أنهم ظلموه، ونفيه (جل وعلا) عن نفسه أنهم ظلموه، لا يدل على أنه يمكن أن يظلموه، بل نفي الفعل لا يدل على إمكانه.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (لكن) واقعة في موقعها، والمعنى: أن هذا الظلم واقع على أنفسهم حيث عرَّضوها به لسخط الله (جل وعلا) وعقابه، فضرر فعلهم عائد إليهم، والله (جل وعلا) لا تضره معاصي خلقه، ولا تنفعه طاعاتهم ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [التغابن: آية ٦].

وقد بيَّن القرآن في آيات كثيرة أن الله (جل وعلا) لا يتضرر

(١) انظر القرطبي (١/ ٤٠٩)، الدر المصون (١/ ٣٧١).

(٢) انظر: البحر المحيط (١/ ٢١٥).

(٣) المصدر السابق.

بمعاصي خلقه ولا ينتفع بطاعاتهم، كقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم: آية ٨]، وقوله: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾ [التغابن: آية ٦]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: آية ١٥]، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربِّه: **«يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»** الحديث(١).

هذا معنى قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾ أي: قابلوا نعمنا بالمعاصي، وما ظلمونا بذلك ولكن ظلموا أنفسهم بذلك.

وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: آية ٥٨] أي: واذكر ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: حين قلنا. وصيغة الجمع للتعظيم. ﴿ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ الصواب الذي عليه أكثر المفسرين أن هذه القرية هي (بيت المقدس)(٢). وقال جماعة من العلماء: (هي أريحا)(٣). وعن الضحاك أنها (الرَّملة)، و (فلسطين)، و (تَدْمُرْ) ونحو ذلك(٤).

---

(١) مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: (٢٥٧٧)، (٤/ ١٩٩٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٢/ ١٠٢)، القرطبي (١/ ٤٠٩).

(٣) انظر: ابن جرير (٢/ ١٠٣)، القرطبي (١/ ٤٠٩).

(٤) انظر: القرطبي (١/ ٤٠٩).

والتحقيق الذي عليه جمهور المفسرين أنها (بيت المقدس)، ويدل عليه قوله في المائدة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: آية ٢١] هذه القرية. ولما زال عنهم التيه، ومات موسى وهارون، وكان الخليفة بعدهما يوشع بن نون، وجاؤوا وجاهدوهم الجهاد المعروف في التاريخ[١]، الذي ردَّ الله فيه الشمس ليوشع بن نون، وفتحوا البلد، أمرهم الله جل وعلا أن يشكروا هذه النعمة بقولٍ يقولونه، وفعلٍ يفعلونه، فبدلوا القول الذي قيل لهم بقول غيره، وبدلوا ـ أيضاً ـ الفعل الذي قيل لهم بفعل غيره، وتقرير المعنى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ فكلوا من هذه القرية حيث شئتم. (حيث) كلمة تدل على المكان كما تدل (حين) على الزمان، ربما ضُمِّنَتْ معنى الشرط، وهي تعمُّ، أي: في أي مكان من أمكنة هذه القرية شئتم[٢].

وقوله: ﴿رَغَدًا﴾ نعت لمصدر محذوف[٣] أي: (أكلاً رغداً) أي: واسعاً لذيذاً لا عناء فيه ولا تعب. وهذا الذي أُبيح لهم هنا الذي يظهر أنه يدخل فيه ما طلبوه ـ أي: طلبوا نبيهم موسى أن يدعو الله لهم أن يعطيهم إياه ـ الآتي في قوله: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: آية ٦١] الظاهر أن الله لما قال لهم: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: الآية ٦١] وفتح عليهم هذه القرية قال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: الآية ٥٨]

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١/ ٣٢٣).

(٢) انظر: الدر المصون (١/ ٢٨١ ـ ٢٨٣)، اللسان (مادة: حيث) (١/ ٧٦٥).

(٣) انظر: القرطبي (١/ ٤١٠).

وأنه يدخل في ذلك ما طلبوه أيام التيه من البقول والفوم والعدس والبصل وما ذكر معها.

ثم إن الله (جل وعلا) أمرهم بفعل وقول شكراً لنعمة الفتح، وهو قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ أي: ادخلوه في حال كونكم سجداً. والسُّجَّد جمع ساجد، و (الفاعل) إذا كان وصفاً من جموع تكسيره المعروفة ــ جموع الكثرة ــ أن يُجمع على (فُعَّل)، كساجد وسُجَّد، وراكع ورُكَّع[1].

قال بعض العلماء: هو سجود على الجبهة، والمعنى: إذا دخلوا الباب سجدوا. أي: ادخلوه في حال كونكم سُجَّداً، أي: عندما تدخلون تتصفون بحالة السجود.

وقال بعض العلماء: هو سجود ركوع وانحناء تواضعاً لله، وشكراً على نعمة الفتح[2]. وقد يُفهم من هذا أن نعمة الفتح ينبغي أن تشكر بالسجود لله (جل وعلا). ولما فتح النبي ﷺ مكة صلى الضحى ثمان ركعات[3]. وكان العلماء يرون أنها صلاة شكر على ما أنعم الله عليه به من الفتح، والله (تعالى) أعلم. وهذا معنى قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾ الباب: واحد الأبواب، وألفه الكائنة في موضع العين مبدلة من واو، بدليل تصغيره

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/ ٣٩٩).

(٢) انظر: ابن جرير (٢/ ١٠٤).

(٣) البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب: صلاة الضحى في السفر، حديث رقم: (١١٧٦)، (٣/ ٥١)، ومسلم في الصحيح، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة الضحى، حديث رقم: (٣٣٦)، (١/ ٤٩٧).

على (بُويب)، وجمعه على (أبواب)[١].

و ﴿سُجَّدًا﴾ حال من الواو في ﴿ٱدْخُلُواْ﴾[٢]، أي: حال كونكم سجداً لله شكراً على نعمة الفتح. وقال بعض العلماء: هو سجود انحناء وتواضع. ومنهم من شذ فزعم أنه مطلق التواضع لله. والسجود وإن كان في لغة العرب قد يطلق على مطلق التواضع فليس هو المراد في الآية.

وقوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ هذا القول الذي قيل لهم أيضاً. و ﴿حِطَّةٌ﴾ (فِعْلَةٌ) من (الحطِّ)، و (الحطُّ) معناه الوضع، وهو خبر مبتدأ محذوف، ومتعلَّقها محذوف. وتقرير المعنى بإيضاح: (وقولوا مسألتنا لربنا حطة)[٣] أي: غفران لذنوبنا وحط، أي: وضع لأوزارنا عن ظهورنا، فهو لفظ عربي فصيح. هذا هو القول الذي قيل لهم، أمرهم الله أن يدخلوا سجوداً متواضعين، وأن يقولوا قولاً هو استغفار وطلب لحطِّ الذنوب. وهذا معنى قوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾.

وقوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ فيه ثلاث قراءات سبعيات[٤]: قرأه نافع المدني: ﴿يُغفَر لكم خطاياكم﴾ بالياء المضمومة وفتح (الفاء) مبنيّاً للمفعول. وإنما جاز تذكيره والإتيان بالياء لأن تأنيث الخطايا غير حقيقي؛ ولأنه فصل بينه وبين الفعل فاصل، وهو (لكم)، والفصل يبيح ترك (التاء)[٥]

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٥٦.

(٢) انظر: الدر المصون (١/ ٣٧٣).

(٣) انظر: القرطبي (١/ ٤١٠)، الدر المصون (١/ ٣٧٣).

(٤) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٣٠.

(٥) انظر: حجة القراءات ص ٩٧، القرطبي (١/ ٤١٤)، الدر المصون (١/ ٣٧٦).

كما تقدم[١]. وقرأه الشامي ابنُ عامرٍ: ﴿**تُغْفَرْ لكم خطاياكم**﴾ بضم (التاء) وفتح (الفاء) مبنياً للمفعول. ﴿خَطَٰيَٰكُمْۚ﴾ نائب عن الفاعل في كلتا القراءتين. وقرأه غيرهما من القراء: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾ ﴿خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾ في محل نصب على المفعول به، و ﴿نَّغۡفِرۡ﴾ بكسر (الفاء) مبنياً للفاعل. وقراءة الجمهور أشد انسجاماً بالسياق؛ لأن الله قال قبلها: ﴿قُلۡنَا﴾، ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾ وقال بعدها: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾ بصيغة التعظيم، فقراءة الجمهور أشد انسجاماً وملاءمة مع السياق من قراءة نافع وقراءة ابن عامر[٢].

و (الخطايا): جمع الخطيئة، والخطيئة: الذنب العظيم[٣] الذي يستحق صاحبه التنكيل، أي: نغفر لكم ذنوبكم العظيمة.

ثم قال (جل وعلا): ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾ للعلماء في تفسير المحسنين هنا أقوال[٤]، والحق الذي لا ينبغي العدول عنه أن لا يُعدل في تفسيرها عن تفسير النبي ﷺ وهو قوله لما سأله جبريل عن الإحسان: «**هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٥]. يعني: الذين كانوا أشد مراقبة لله في أعمالهم سيزيدهم الله

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) انظر: حجة القراءات ص ٩٨، القرطبي (١/ ٤١٤).

(٣) انظر: المفردات (مادة: خطأ) ص ٢٨٨.

(٤) انظر: القرطبي (١/ ٤١٥)، البحر المحيط (١/ ٢١٨).

(٥) البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، حديث رقم: (٥٠)، (١/ ١١٤)، وأخرجه في موضع آخر. انظر حديث رقم: (٤٧٧٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم: (٩)، (١/ ٣٩).

إيماناً؛ لأن الإنسان كلما ازداد تقواه لله (جل وعلا) زاده الله، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: آية ١٧] معناه: وسنزيد المحسنين منكم، أي: الذين هم أشد مراقبة لله سنزيدهم من الخير والإيمان. وقال بعض العلماء: سنزيد في جزاء أعمال المحسنين؛ لأن العمل الذي يراقب صاحبه الله قد يكون ثوابه أكثر ممن هو أقل منه مراقبة.

ثم قال جل وعلا: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٥٩] وفي الكلام حذف الواو وما عَطَفَت، وحذف المُتَعَلَّق. وتقرير المعنى: فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم بقول غيره[١]، وبدَّلوا فعلاً غير الذي قيل لهم بفعل غيره. والقول الذي قيل لهم هو (حِطَّة) فبدلوه بقول غيره، وقالوا: (حبة في شعرة). وقال بعض العلماء: قالوا: (حنطة في شعيرة) وثبت في الصحيح[٢] أن القول الذي بدَّلوه: (حبة في شعرة). وفي بعض روايات الحديث (حنطة في شعيرة)[٣]. وعلى كل حال فقد بدَّلوا هذا القول الذي قيل لهم بغيره، كما بدلوا الفعل الذي قيل لهم بفعل غيره؛ لأن الفعل الذي أُمروا به هو دخولهم الباب سجداً، فبدلوه بفعل غيره، فدخلوا يزحفون على استاههم، وهذا من كفرهم، عياذاً بالله.

---

(١) انظر: الدر المصون (١/ ٣٧٩).

(٢) البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، حديث رقم: (٢٤٠٣)، (٦/ ٤٣٦)، وأخرجه في موضعين آخرين. انظر الأحاديث رقم: (٤٤٧٩، ٤٦٤١)، ومسلم في الصحيح، كتاب التفسير، حديث رقم: (٣٠١٥)، (٤/ ٢٣١٢).

(٣) انظر: الفتح (٨/ ٣٠٤).

وما قاله بعض العلماء[1]: من أن هذه الآية الكريمة يؤخذ منها عدم نقل الحديث بالمعنى؛ لأن الله ذمَّ من بدَّل قولاً بقولٍ غيره، فيلزم أن يكون القول هو نفس ما أُمِر به، لا قولاً غيره، غيرُ صواب. ويجاب عنه: بأن القول المأمور به له حالتان: إما أن يكون مُتَعَبَّداً بلفظه كـ (الله أكبر) في الصلاة، وما جرى مجرى ذلك من العبادات القولية، فمثل هذا لا يجوز تبديله، ومن بدَّله يلحقه من الوعيد ما لحقهم بقدر ما ارتكب في قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ ولا يجوز تبديله. أما الذي لم يُتَعَبَّد به بلفظه فلا مانع من أن يُبدل بلفظ يؤدي معناه إذا لم يكن هناك تفاوت في المعنى. وجماهير العلماء من المسلمين قديماً وحديثاً على جواز نقل الحديث بالمعنى إذا كان ناقله بالمعنى عارفاً باللسان، متبحراً فيه، لا تخفى عليه النكت والتفاوت الذي يكون بين الألفاظ، ونَقَلَه بحالة ليست أخفى من نص الحديث، ولا أظهر من نص الحديث، فلا يجوز نقله بلفظ أظهر منه. قال بعض العلماء: لأنه قد يعارضه حديث آخر، والظهور من المرجحات بين النصوص المتعارضة، فيظن المجتهد أن لفظ الراوي الظاهر الذي بدَّله بلفظ هو أقل منه ظهوراً أنه من لفظ النبي ﷺ، فيرجحه بهذا الظهور على حديث آخر، فيكون استناد هذا الترجيح مستنداً لتصرف الراوي، وهذا مما لا ينبغي. وعلى كل حال فمسألة نقل الحديث بالمعنى مسألة معروفة في الأصول[2]، وفي علوم الحديث[3]، منعها قوم واستدلوا

---

(١) انظر: القرطبي (١/ ٤١١ ـ ٤١٤).

(٢) انظر: البحر المحيط للزركشي (٤/ ٣٥٥ ـ ٣٦١)، شرح مختصر الروضة (٢/ ٢٤٤).

(٣) انظر: الكفاية للخطيب (١٩٨ ـ ٢١١)، تدريب الراوي (٢/ ٩٨ ـ ١٠٢).

بالحديث: أن النبي ﷺ لما سمع الرجل قال: «آمنت بكتابك الذي أنزلت ورسولك الذي أرسلت». ردَّ عليه وقال: «**ونبيك الذي أرسلت**»[١]. ولا شك أن اللفظ الذي قاله النبي ﷺ لا يقوم مقامه اللفظ الذي تصرَّف فيه الراوي؛ لأن «**ونبيك الذي أرسلت**» واضح بليغ لا تكرير فيه؛ لأن النبي ﷺ قد يكون مُرسلاً وغير مرسل، والرسول مرسل قطعاً، فيكون «رسولك الذي أرسلت» تكرار ـ يعني ـ لأن «الذي أرسلت» معناه يؤديه «رسولك» أما «نبيك الذي أرسلت» فيكون كل من الكلمتين عمدة وتأسيساً لا لغواً، والحاصل أنه معروف أن الجمهور من العلماء على جواز نقل الحديث بالمعنى إذا وَثِق الراوي أنه لم يزد في معناه ولم ينقص، وأن قوماً منعوا ذلك، وأن الآية لا دليل فيها لذلك ألبتة؛ لأنهم إنما بدلوا قولاً منافياً للقول الذي قيل لهم في المعنى، والتبديل إذا كان منافياً في المعنى ممنوع بإجماع المسلمين، وليس مما فيه الخلاف، إنما الخلاف في تبديل الألفاظ مع بقاء المعنى، وهم بدَّلوا اللفظ بلفظ لا يؤدي معناه، أُمروا بأن يقولوا (حطة)، فقالوا: (حبة في شعرة)، أو (حنطة في شعيرة)!! فالقول الذي بدَّلوا به ليس معناه يؤدي معنى القول الذي أُمروا به، فكأنهم رفضوه بتاتاً، وعصوا الله، وجاؤوا بما لم يؤمروا به، لا لفظاً ولا معنى. والفعل الذي بدَّلوا به: أنهم أُمروا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب: فضل من بات على الوضوء، حديث رقم: (٢٤٧)، (١/ ٣٥٧)، وأخرجه في مواضع أُخرى. انظر الأحاديث رقم: (٦٣١١)، (٦٣١٣)، (٦٣١٥)، (٧٤٨٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب: ما يقوله عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم: (٢٧١٠)، (٤/ ٢٠٨١).

بالسجود فدخلوا يزحفون على استاههم.

وقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الفاء سببية، وصيغة الجمع للتعظيم، أي: فبسبب تبديلهم القول الذي قيل لهم بقول غيره، والفعل الذي قيل لهم بفعل غيره أنزلنا عليهم، وإنما أظهر في محل الإضمار قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولم يقل: (فأنزلنا عليهم) ليُسَجِّل عليهم موجب هذا العذاب؛ وأنه الظلم؛ ولذا عَدل عن الضمير إلى الظاهر قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ليبين أن هذا الرجز منزل عليهم بسبب ظلمهم، والضمير لا يعطي هذا، وإن كان معناه يؤدي المعنى في الجملة[(١)]. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ظلموا أنفسهم بتبديل القول بقول غيره، والفعل بفعل غيره.

﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الرجز: العذاب، وهذا العذاب طاعون أنزله الله عليهم. قال العلماء: أهلك الله به منهم سبعين ألفاً[(٢)].

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (الباء) سببية، و (ما) مصدرية، أي: بسبب كونهم فاسقين[(٣)]. والفسق[(٤)] في لغة العرب الخروج، ومنه قوله جل وعلا: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: الآية ٥٠] أي: فخرج عن طاعة ربه، والعرب تقول: (فسقت الرُّطَبَةُ من قشرتها) إذا خرجت، و (فسقت

---

(١) انظر: الدر المصون (١/ ٣٨١).

(٢) انظر: ابن جرير (٢/ ١١٦ ـ ١١٨).

(٣) انظر: الدر المصون (١/ ٣٨٢).

(٤) انظر: ابن جرير (١/ ٤٠٩)، القرطبي (١/ ٢٤٥)، المفردات (مادة: فسق) ص ٦٣٦، الدر المصون (١/ ٢٣٤).

الفأرة). إذا خرجت من جحرها للإفساد. وكون الفسق يطلق على الخروج معروف في كلام العرب، ومنه قول رؤبة بن العجاج[(١)]:

يَهْوِينَ في نَجْدٍ وغَوراً غائراً   فواسِقاً عن قَصْدِها جَوَائِرا

فقوله: «فواسقاً عن قصدها» أي: خوارج عن طريق القصد إلى طريق آخر. وقال بعض العلماء[(٢)]: إنما كرر لفظ (الظلم) في قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ لأن هذا الفعل الذي هو ظلمهم ذِكْرُهُ له أهمية في السياق؛ لأنهم ظلموا في الوقت الذي أنعم الله عليهم، وعصوا أمر ربهم، ومن عادة العرب إذا كان الأمر له أهمية أن تكرره، سواء كانت أهميته من جهة خير، أو أهميته من جهة شر[(٣)]، كما قال الشاعر[(٤)]:

ليتَ الغُرابَ غداةَ يَنْعَبُ دائما[(٥)]   كان الغُرابُ مُقَطَّعَ الأوْدَاجِ

لأن الغراب لما نعب ببين أحبته صار الغراب له أهمية عنده فكرر لفظه، ومنه قول الآخر[(٦)]:

لا أرى الموتَ يَسْبِقُ الموتَ شيءٌ   نَغَّصَ الموتُ ذا الغِنَى والفقيرا

---

(١) انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٩٤)، الخصائص (٢/ ٤٣٢)، القرطبي (١/ ٢٤٥)، الدر المصون (١/ ٢٣٤).

(٢) انظر: القرطبي (١/ ٤١٦).

(٣) انظر: الإكسير ص ٢١٥، بدائع الفوائد (٢/ ٤٧ ـ ٤٨)، الإتقان (٣/ ٢١٦).

(٤) البيت لجرير. انظر: تفسير ابن جرير (٢/ ٣٩٦)، القرطبي (١/ ٤١٦).

(٥) في القرطبي (دائباً) وهكذا في الدر المصون (١/ ٣٨١).

(٦) البيت لعدي بن زيد، وينسب ـ أيضاً ـ لأمية بن أبي الصلت. انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٦٢)، الخصائص (٣/ ٥٣)، الخزانة (١/ ١٨٣).

لما كان الموت له أهمية في قطعه الحياة كرره، ونظائر هذا كثيرة في كلام العرب، وعلماء البلاغة يقولون إن إعادة قوله: ﴿ظَلَمُوا﴾ في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ليُسَجّل عليهم الذنب الذي بسببه أنزل عليهم العذاب[١] كما قدمنا، والله (تعالى) أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: الآيات ٦٧ ـ ٧١].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: الآية ٦٧] قرأ هذا الحرف جمهور القراء: ﴿هُزُؤًا﴾ بضم الزاي والهمزة، وقرأه حمزة: ﴿هُزْءاً﴾ وهي لغة تميم، وأسد، وقيس، وقرأه حفص عن عاصم ﴿هُزُوًا﴾ بإبدال الهمزة واواً[٢].

ومعنى قوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ كما ذكره المفسرون[٣]: أنه قُتِل في بني إسرائيل قتيل كما يأتي في قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: آية ٧٢]

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (١/ ١٠٥).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٣٠، الكشف (١/ ٢٤٧).

(٣) انظر: ابن جرير (٢/ ١٨٣ ـ ١٨٩)، ابن كثير (١/ ١٠٨).

يزعمون أن اسم القتيل (عاميل)[١] . قال بعضهم: كان له أقرباء فقراء، وهو غني، فقتلوه ليرثوه. وقيل: كانت تحته امرأة جميلة فقتله بعض الناس ليتزوجها. والأول أكثر قائلاً. وعلى كل حال فالذين قتلوا القتيل ادَّعوه على غيرهم، وسألوا من نبي الله موسى أن يسأل الله لهم ليبين لهم قاتل القتيل، فأمرهم الله (جل وعلا) على لسان نبيه أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل بجزء منها، فيحيا القتيل، ويخبرهم بقاتله. وهذا معنى قوله: واذكر ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ أي: حين قال (موسى لقومه) لما ادَّارؤوا في القتيل وتدافعوه، كُلٌّ يدفع قتله عن نفسه إلى غيره: (إن الله) جل وعلا ﴿ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ أي: وتضربوا القتيل ببعضها فيحيا، فيخبركم عن قاتله. وقرأ هذا الحرف جماهير القراء: ﴿ يَأْمُرُكُمْ ﴾ بضمة مشبعة على القياس. وقرأه أبو عمرو: ﴿يَأْمُرْكُمْ﴾ بإسكان الراء، وزاد عنه الدُّوري باختلاس الضمة[٢]، وقد قدَّمْنا وجه ذلك في قراءته في ﴿فَتُوبوا إلى بارِئْكُمْ﴾[٣] .

وقوله: ﴿ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ المصدر المنسبك من (أن) وصلتها هو متعلَّق الأمر، وأَصل (أَمَرَ) تتعدَّى بالباء، والأصل: (يأمركم بأن تذبحوا بقرة) أي: بذبح بقرة، وضرْب القتيل بجزء منها، كما عَدَّى الأمر بالباء في قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل: آية ٩٠] فالمصدر المنسبك من (أن) وصلتها مجرور بحرف محذوف[٤]، وحَذْف هذا الحرف قياسٌ مطّرد كما عقده في الخلاصة بقوله[٥]:

(١) انظر: البحر المحيط (١/ ٢٤٩)، مفحمات الأقران ص ٤٣.
(٢) انظر: القرطبي (١/ ٤٤٤)، البحر المحيط (١/ ٢٤٩).
(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.
(٤) انظر: البحر المحيط (١/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠)، الدر المصون (١/ ٤١٧)، (٤/ ٦٥٦).
(٥) الخلاصة ص ٢٨، وانظر: شرحه في الأشموني (١/ ٣٤٤).

وَعَــدٍّ لازمــاً بحــرفِ جَــرِّ وإِنْ حُـذِفْ فـالنَّصْـبُ للمُنْجَـرِّ
نــقــلاً وفـي أَنَّ وأَنْ يــطَّــرِدُ مـع أَمْـنِ لَبْسٍ كعجِبْتُ أَنْ يَـدُوا

ولطالب العلم هنا سؤال، وهو أن يقول: عرفنا أن المصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها المجرور بالباء المحذوفة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ أي: (يأمركم بأن تذبحوا بقرة)، فهذا المصدر بعد حذف الباء هل محله الجر بالباء المحذوفة، أو محله النصب لمَّا نُزِع الخافض؟

الجواب: أن جماهير النحويين أنه في محل نصب[١]، وأنه لو عُطف عليه لَنُصِب على اللغة الفصحى. وخالف في هذا (الأخفش) فقال: إن محله الجر. واستدل على أن محله الجر بأنه سُمع عن العرب خفض المعطوف عليه في قول الشاعر[٢]:

ومـا زُرتُ ليلـى أَنْ تكُـونَ حبيبـةً إلــيَّ ولا دَيْــنٍ بهـا أنـا طـالِبُـه

فخفض قوله: «ولا دين» بالعطف على المصدر المنسبك من (أن) وصلتها المجرور بحرف محذوف. وتقرير المعنى: «فما زُرت ليلى أن تكون حبيبة» أي: لكونها حبيبة، ولا لدين بها أنا طالبه. وأجاز سيبويه الوجهين، أن محله الكسر، والعطف عليه بالخفض، وأن محله النصب، والعطف عليه بالنصب[٣].

---

(١) انظر: القرطبي (١/ ٤٤٤)، تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد ص ٥١١، الدر المصون (١/ ٢١١ ــ ٢١٢، ٤١٧).

(٢) وهو الفرزدق. انظر: الكتاب لسيبويه (٣/ ٢٩)، تخليص الشواهد ص ٥١١، الدر المصون (١/ ٢١٢).

(٣) انظر: الكتاب (٣/ ٢٨ ــ ٣٠).

وأجاب الجمهور عن البيت الذي أورده الأخفش بأن الخفض فيه من عطف التوهم، وعطف التوهم يكفي فيه مطلق توهم جواز الخفض. وعطف التوهم مسموع في كلام العرب، ومن أمثلته قول زهير[١]:

بَدا لِيَ أَنِّي لستُ مدرِكَ ما مضى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائياً

فالرواية نصب «مدْرِكَ» وخفض «سابق»، والمخفوض معطوف على المنصوب، وهو عطف توهم. أعني توهم (الباء) في خبر (ليس)؛ لأن (بدا لي أني لست مدرك ما مضى) يجوز فيه: لست بمدركٍ ولا سابق، كما قال[٢]:

وبعد (ما) و(ليس) جر (البا) الخبر ....

فتوهموا (الباء) لمطلق الجواز، وعطفوا عليه خفضاً عطف توهم، ونظيره قول الآخر[٣]:

مشائيمُ ليسوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً ولا ناعِبٍ إلاَّ ببينٍ غُرابُها

بخفض (ناعب) عطفاً على (مصلحين)، لتوهم جواز دخول الباء. قالوا: من ذلك:

وما زُرت ليلى أن تكون حبيبة إليَّ ولا دينٍ ....

لتوهم اللام.

---

(١) الكتاب لسيبويه (٣/ ٢٩)، تخليص الشواهد ص ٥١٢.

(٢) هذا الشطر الأول من أحد أبيات الخلاصة، وشطره الثاني:

.... وبعد لا ونفي كان قد يُجر

انظر: الخلاصة ص ٢٠، وانظر: شرحه في الأشموني (١/ ٢٠٥).

(٣) البيت للفرزدق، وهو في الكتاب لسيبويه (٣/ ٢٩)، الخصائص (٢/ ٣٥٤).

وقوله جل وعلا: ﴿أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ الذبح معروف، و (بقرةً) قال بعض العلماء: تاؤه للتأنيث، وذَكَرُه يُسمى ثوراً[١]. وقال بعض العلماء: هي تاءُ الوحدةِ، والبقر يُطلق على ذكره وأنثاه.

وهذه الآية الكريمة تدلُّ بظاهرها على أنهم لو ذبحوا أيَّ بقرة لأجزأت، ولكنهم شدَّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم.

وقوله جل وعلا: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي: قال قوم موسى لموسى لَمَّا قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي: مهزوءاً منا من قِبلك بأن نقول لك: ادع لنا ربك يبين لنا قاتل القتيل، فتجيبنا بقولك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ فهذا الجواب غير مطابق للسؤال، فكأنك تستهزىء منا، وتسخر منا، ولم يفهموا أن المراد بذبح البقرة أنه يُضرب القتيل ببعض منها فيحيا ـ بإذن الله ـ ويخبرهم بقاتله، فقال نبي الله موسى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أعتصم وأتمنع بربي أن أكون من الجاهلين. الجاهلون: جمع الجاهل، وهو الوصف من (جهِل). وأحسن تعاريف الجهل عند علماء الأصول: أنه هو انتفاء العلم بما من شأنه أن يُقصد ليُعلم، وللعلماء فيه أقوال متعددة محل ذكرها في فن الأصول[٢].

والمعنى: أن نبي الله موسى استعاذ بربه (جل وعلا) من أن يكون معدوداً، وفي عداد الجاهلين[٣]. والآية تدل على أن من

---

(١) انظر: القرطبي (١/ ٤٤٥)، الدر المصون (١/ ٤١٧).

(٢) انظر: حاشية البناني (١/ ١٦١)، شرح الكوكب (١/ ٧٧)، الكليات ص ٣٥٠، نثر الورود (١/ ٧٤).

(٣) انظر: تفسير السعدي (١/ ٥٣).

يستهزىء من الناس أنه جاهل[١]؛ لأن نبي الله موسى استعاذ بالله من أن يكون اتخذهم هزؤاً كما قالوا؛ ولذا قال: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فلما علموا أن الأمر من الله جدّ، وأن الجواب مطابق لسؤالهم، وأن المراد بذبح البقرة أن يُضرب القتيل بجزء منها فيحيا، فيخبرهم بقاتله، تعنتوا وأكثروا الأسئلة فشدَّدُوا على أنفسهم، فشدَّدَ الله عليهم.

قالوا مخاطبين نبيهم: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: آية ٦٨] أي: اسأل لنا ربك ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، المراد بقوله: ﴿مَا هِيَ﴾ هنا يعنون: ما سِنُّها[٢]؛ لأن السؤال يوضِّحه الجواب، حيث قال لهم نبي الله موسى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ﴾ ﴿إِنَّهَا﴾ أي: البقرة التي سألتم عن سِنِّها ﴿بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، ﴿عَوَانٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف[٣]. والمعنى: لا فارض ولا بكر، هي عوان بين ذلك. الفارض المُسنَّة التي طعنت في السن، وكل طاعن في السِّنِّ. تسميه العرب (فارضاً)، وكل قديم تسميه (فارضاً)[٤]، ومن أمثلته في كلام العرب قول خفاف بن نُدبة السُّلَمي

---

(١) سُئل الشيخ (رحمه الله) عن الفرق بين الجهل الذي هو ضد العلم، وبين الجهل الذي هو ضد الحلم. فأجاب بقوله: «مما يبين ذلك المناظرة التي عقدها بعض الأدباء بين الحلم والعقل حيث قال:

حلم الحليم وعقل العاقل اختلفا ... من ذا الذي منهما قد أكمل الشرفا
فالعقل قال أنا أحرزت غايته ... لأنني بي رب الناس قد عُرِفا
فأفصح الحلم إفصاحاً وقال له ... بأينا الله في تنزيله اتصفا
فبان للعقل أن الحلم سيده ... فقبَّل العقل رأس الحلم وانصرفا»

(٢) انظر: أضواء البيان (١/ ٧٨).

(٣) انظر: القرطبي (١/ ٤٤٩)، الدر المصون (١/ ٤٢١).

(٤) انظر: القرطبي (١/ ٤٤٨)، الدر المصون (١/ ٤٢٠).

يهجو العباس بن مرداس، وقيل: القائل علقمة بن عوف[(١)]:

لَعَمْرِي لَقَدْ أَعْطَيتَ جَارَكَ فارِضاً ... تُساقُ إليه ما تقومُ على رِجْل

ولم تُعْطِه بِكْراً فَيَرْضَى سَمِينَةً ... فكيفَ تُجازَى بالمودةِ والفَضْلِ

ومن إطلاق العرب الفارض على ما تقادم عهده قول الراجز[(٢)]:

يا رُبَّ ذي ضِغْنٍ عَلَيَّ فارض ... لَـهُ قـروءٌ كقُـرُوء الحـائِـضِ

يعني: بالضغن الفارض: أنه تقادم عهده وطالت سِنُّه. قال بعض العلماء: ومنه قول الآخر[(٣)]:

شَيَّبَ أَصْداغِي فرأسِي أبيَضُ ... محـافـلٌ فيهـا رجـالٌ فُـرَّضُ

قال: أي طاعنون في السن، والأظهر أن المراد بقول هذا الراجز «فُرَّضَ» أي: ضخام الأبدان؛ لأن العرب تُطلق الفارض أيضاً على الضخم عظيم البدن.

وقوله: ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ البكر هي التي لم يَفْتَحِلها الفحل لصغرها[(٤)]. وقال بعض العلماء: البكر: التي وَلَدَت مرّة[(٥)]، ولكن

---

(١) القرطبي (١/ ٤٤٨)، اللسان (مادة: فرض) (٢/ ١٠٧٨)، البحر المحيط (١/ ٢٤٨)، الدر المصون (١/ ٤٢٠).

(٢) انظر: الطبري (٢/ ١٩٠)، اللسان (مادة: فرض) (٢/ ١٠٧٨)، القرطبي (١/ ٤٤٨).

(٣) انظر: اللسان (مادة: فرض) (٢/ ١٠٧٨)، القرطبي (١/ ٤٤٨)، الدر المصون (١/ ٤٢٠).

(٤) انظر: القرطبي (١/ ٤٤٩)، الدر المصون (١/ ٤٢١).

(٥) نفس المصدرين، أدب الكاتب ص ١٥٩.

المراد هنا التي لم يفتحلها الفحل لصغر سنها، والمعنى: ليست هذه البقرة التي أُمرتم بذبحها بطاعنة في السن فارض، ولا بصغيرة جداً لم يفتحلها الفحل، بل هي ﴿عَوَانٌۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ﴾ العوان: النَّصَف، أي: لا طاعنة في السن ولا بكر، أي: لا صغيرة جداً بل هي: ﴿عَوَانٌۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ﴾ والعوان: النَّصَف، وأصل النَّصَف: التي انتصف عُمُرها[١]، وهي وسط في السن، ليست بصغيرة جداً، ولا كبيرة جداً، وكل متوسطة في السن نَصَفٌ تسميها العرب (عواناً)، وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الطِّرِمَّاح قال[٢]:

حَصَانٌ مواضِعِ النقبِ الأعالي نــواعــمُ بيــن أبكــارٍ وعُــونِ

يعني بالأبكار جمع بِكْر، الصغيرة التي لم تتزوج. والعُون: جمع عوان، وهي النَّصَف، والنَّصَف التي انتصف عُمرها، فهي في وسط سنها، ليست بكبيرة جداً، ولا بصغيرة جداً، ومنه قول كعب بن زهير[٣]:

شَدَّ النَّهارُ ذِراعا عَيْطَلٍ نَصَفٍ قَـامَتْ فَجاوَبَهَا نُكْدٌ مَثَاكِيلُ

وفسّر بعض الأدباء في شعره (النَّصَف) بالتي انتصف عمرها، حيث قال[٤]:

---

(١) انظر: القرطبي (١/ ٤٤٩)، الدر المصون (١/ ٤٢١).

(٢) انظر: الكشاف (١/ ٧٤)، تفسير أبي السعود (١/ ١١١)، الدر المصون (١/ ٤٢١).

(٣) شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ص ٢٢٩.

(٤) عيون الأخبار (٤/ ٤٣)، والبيت من شواهد ابن هشام في شرحه لقصيدة كعب بن زهير ص ٢٣٠.

وإنْ أتَـوكَ وقـالـوا إنهـا نَصَـفٌ فـإنَّ أطيـب نصفَيها الـذي ذهَبَا

وقوله: ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ فيه سؤال معروف وهو أن (ذلك) إشارة إلى مفرد مذكر، كما قال في الخلاصة[1]:

بـذا لمفـردٍ مـذكـرٍ أشِـرْ ....

و (بين) لا تضاف للمفرد إلا إذا أُريدت أجزاؤُه.

والجوابُ[2]: أن ذلك وإن كان لفظه مفرداً فمعناه مثنى؛ لأن الإشارة راجعة إلى ما ذُكر من الفارض والبِكْر، أي بين ذلك المذكور من فارض وبِكْر؛ لأن العوان أصغر من الفارض وأكبر من البِكْر، ونظير هذا من كلام العرب قول ابن الزِّبعرى كما تقدم[3]:

إنَّ للشـرِّ وللخيـرِ مَـدىً وكِـلا ذلـكَ وجْـهٌ وقَبَـلْ

أي: وكِلاَ ذلك المذكور من شر وخير؛ لأن (كِلاَ) لا تضاف إلا لمثنى لفظاً أو معنىً، وهذا معنى قوله: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ۝٦٨﴾ الأصل (ما تؤمرون به) فحُذِف الباء، فوصل الفعل إلى الضمير فحُذف[4].

وهذا الذي يؤمرون به هو ذبح البقرة ليضربوا القتيل بجزء منها فيحيا. وهذا معنى قوله: ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ۝٦٨﴾ فزادوا تعنتاً وسؤالاً وتشديداً فشدَّد الله عليهم أيضاً.

[٣/أ] / قال: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة:

(١) الخلاصة ص ١٤. وهذا هو الشطر الأول في البيت.

(٢) انظر: الدر المصون (١/ ٤٢٢)، مغني اللبيب (١/ ١٧٢).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من هذه السورة.

(٤) انظر: الدر المصون (١/ ٤٢٣).

الآية ٦٩] ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن﴾ (يبين) في هذه المواضع مجزوم بجزاء الأمر، والفعل المضارع المجزوم في جزاء الطلب يقول المحققون من علماء العربية: إنه مجزوم بشرط مقدر دلَّ عليه الأمر[(١)]. وتقرير المعنى: إن تدعُ لنا ربك يبين.

﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ﴾ اللون هو إحدى الكيفيات التي يكون عليها الجرم، كالسواد والبياض. يعني ما اللون الذي هي متلونة به؟

﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي: ربكم جل وعلا: ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ﴾ أي: متصفة بلون الصُّفرة، والتحقيق أن المراد بالصفرة هنا الصفرة المعروفة، وما ذهب إليه بعض أهل العلم من أن المراد بالصفرة (السواد) مردود من وجهين[(٢)]:

أحدهما: أنه أكَّد الصفرة بقوله: ﴿فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا﴾ والفقوع لا يوصف به إلا الصُّفرة الخالصة تماماً.

[ثَانِيهِما][(٣)]: أن العرب لا تُطلق الصفرة وتريد السواد إلا في الإبل خاصة دون غيرها، كما يأتي في تفسير قوله: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ٣٣﴾ [المرسلات: الآيتان ٣٢ ــ ٣٣] الجمالة جمع الجمل. والمراد بـ (الصفر) هناك (السود)؛ لأن شرر نار الآخرة أسود[(٤)]، والعرب إنما تطلق الصفرة على السواد في الإبل خاصة دون غيرها من سائر الحيوانات، ومن إطلاق العرب الصُّفرة

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/ ٣٠١)، الدر المصون (٥/ ٣٦٢).

(٢) انظر: ابن جرير (٢/ ١٩٩ ــ ٢٠١)، القرطبي (١/ ٤٥٠)، الدر المصون (١/ ٤٢٥).

(٣) في الأصل: ثانية.

(٤) انظر: القرطبي (١٩/ ١٦٤).

على سواد الإبل قول الأعشى[١]:

تِلْكَ خَيْلي منه وتلك رِكَابِي هُـنَّ صُفـر أولادُهـا كـالـزَّبِيـب

يعني بقوله: (صفر): سود. فالتحقيق أن المراد بالصفرة هنا: هي الصفرة المعروفة.

وقوله: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ هذا نعت سببـي.

والتحقيق في إعراب ﴿لَّوْنُهَا﴾ أنه فاعل لقوله: ﴿فَاقِعٌ﴾ وأن ﴿فَاقِعٌ﴾ نعت سببـي لقوله: ﴿بَقَـرَةٌ صَفْـرَآءُ﴾ و ﴿لَّوْنُهَا﴾ فاعل به لقوله: ﴿فَاقِعٌ﴾.

وقال بعض العلماء: (لونها) مبتدأ مؤخر، و(فاقع) خبر مقدَّم، وجملة المبتدأ والخبر في محل النعت. أي: بقرة صفراء لونها فاقع. أي: صفرتها خالصة جداً[٢].

وقوله: ﴿تَسُـرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۝٦٩﴾ أي: يدخل السرور على من نظر إليها لكمال حسنها. ذكروا في قصتها أن الشمس تتوضح في جلدها لشدة حسنها[٣]. وعادةً إذا نظر الإنسان إلى شيء جميل سرّه النظر إلى ذلك الشيء الجميل؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿تَسُـرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۝٦٩﴾.

وقوله: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: الآية ٧٠].

---

(١) ابن جرير (٢/ ٢٠٠)، القرطبي (١/ ٤٥٠)، (١٩/ ١٦٤)، اللسان (مادة: خشب) (١/ ٨٣٣)، (مادة: صفر) (٢/ ٤٤٨).

(٢) انظر: الدر المصون (١/ ٤٢٤).

(٣) انظر: ابن جرير (٢/ ٢٠٢).

فالسؤال الأول عن سنها، وهل هي كبيرة، أو صغيرة، أو متوسطة؟

والسؤال الثاني عن لونها، وقد تقدم الجواب فيهما.

والسؤال الثالث عن صفتها، هل هي مذللة مروضة عاملة، أو هي صعبة غير مروضة؟ وهل فيها لون يخالف لون جلدها الآخر؟ ولذا أجابه بما يأتي.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ يعنون [أن] هذه الأوصاف كثيرة في البقر، فيكثر في البقر: الصفرة، والفقوع، والتوسط في السن، فلم تتميز لنا هذه البقرة من غيرها من البقر للاشتراك في الصفات.

وأفرد الضمير في ﴿تَشَـٰبَهَ﴾ وذلك يدل على أن أسماء الأجناس يجوز تذكيرها وتأنيثها[1]. وقراءة الجمهور هنا ﴿تَشَـٰبَهَ﴾ هُو. أي: البقر، بصيغة الماضي. وتذكير الضمير لأن (البقر) جنس يجوز تذكيرها وتأنيثها. وفي بعض القراءات: ﴿تَشَّابَهُ علينا﴾ وأصله: تتشابه هي، أي: البقر، وأدغم التاء في التاء، وهذه قراءة شاذة[2]. و (البقر) يجوز تذكيره وتأنيثه، وهو اسم جنس يقال فيه: باقر، وبيقور، وفيه لغات غير ذلك[3]. ومِن إطلاقه على (البيقور) قول الشاعر[4]:

---

(١) انظر: الدر المصون (١/ ٤٢٦).

(٢) انظر: القرطبي (١/ ٤٥١)، البحر المحيط (١/ ٢٥٣).

(٣) انظر: الحيوان للجاحظ (٤/ ٤٦٨)، القرطبي (١/ ٤٤٥، ٤٥١).

(٤) البيت للورل الطائي. انظر: الحيوان للجاحظ (٤/ ٤٦٨)، اللسان (مادة: بقر) (١/ ٢٤٢).

أجـاعِـلٌ أَنْـتَ بَيْقُـوراً مُسلَّعَـةً ذَرِيعَـةً لَـكَ بَيْـنَ اللهِ والمطَـرِ

قيل: سمي البقر بقراً لأنه يَبْقُر الأرض، يعني بحيث يشقها للحرث[١]. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾.

﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ مفعول المشيئة محذوف، وتقرير المعنى: وإنا لمهتدون إن شاء الله هدايتنا[٢]. ففصل بين اسم (إن) وخبرها، وحذف مفعول (إن شاء) لدلالة المقام عليه. وتقرير المعنى: وإنا لمهتدون إلى نفس البقرة المطلوبة إن شاء الله هدايتنا إليها. ذُكر عن ابن عباس أنه قال: لو لم يقولوا إن شاء الله لما اهتدوا إليها أبداً[٣].

﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي: ربكم جل وعلا ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾

---

(١) انظر: الدر المصون (١/ ٤١٧).

(٢) المصدر السابق (١/ ٤٢٧).

(٣) ورد في هذا المعنى عدة روايات، منها المرفوع ومنها الموقوف؛ أما الروايات المرفوعة ــ وكلها ضعيفة ــ فعلى النحو التالي:

١ ــ من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند ابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٤١)، والبزار (كشف الأستار ٣/ ٤٠)، وأورده ابن كثير في التفسير (١/ ١١١) من طريق ابن أبي حاتم، ومن طرق ابن مردويه. كما ذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٣١٤)، والسيوطي في الدر (١/ ٧٧)، والشوكاني في التفسير (٦/ ١٦٢) وعزواه لابن أبي حاتم وابن مردويه.

٢ ــ عن عكرمة ــ مرسلاً ــ عند سعيد بن منصور (٢/ ٥٦٥)، وأورده السيوطي في الدر (١/ ٧٧)، والشوكاني في التفسير (١/ ١٦٢) وعزواه للفريابي، وسعيد بن منصور، وابن المنذر.

٣ ــ عن ابن جريج ــ مرسلاً ــ عند ابن جرير (٢/ ٢٠٥)، وأورده السيوطي في الدر (١/ ٧٧)، والشوكاني في التفسير (١/ ١٦٢) وعزواه لابن جرير.

٤ ــ عن قتادة ــ مرسلاً ــ عند ابن جرير (٢/ ٢٠٦)، وأورده السيوطي في الدر (١/ ٧٧)، والشوكاني في التفسير (١/ ١٦٢) وعزواه لابن جرير. =

[البقرة: الآية ٧١] الذلول: هي التي ذُلِّلَتْ بالرياضة حتى صار يُعمل عليها، يُحرث عليها ويُستقى. تقول العرب مثلاً: هذه دابة ذلول، بيِّنة الذِّل (بالكسر)، ورجل ذليل، بيِّن الذُّل (بالضم)[1].

﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ ﴾ أي: لم تذلل بالرياضة، بل هي صعبة متوحشة.

وقوله: ﴿ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ ﴾ يعني لم تُذلل، ليست بذلول مروضة، ولا تثير الأرض، أي: لا يُحرث عليها؛ لأن البقر تثار عليها الأرض للحرث، وهذه البقرة لم تُذلل بالرياضة، ولم تُثر أرض الحرث لصعوبتها وتوحُشها، فليست مروضة.

﴿ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾ يعني: ليست مما يُحرث عليه، ولا يُستنى عليه لسقي الزرع؛ لأنها صعبة متوحشة. وهذا هو التحقيق: أن ﴿ تُثِيرُ ﴾ و ﴿ تَسْقِى ﴾ كلها معطوفات على النفي فهي منفية[2]. والمعنى: ﴿ لَا ذَلُولٌ ﴾ ليست مذللة مروضة، وليست ﴿ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ ﴾ للحرث و ﴿ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾ أيضاً؛ لأنها صعبة

= وأما الروايات الموقوفة فهي:

١ ـ عن عكرمة، عند ابن جرير (٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥).

٢ ـ عن أبي العالية، عند ابن جرير (٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

* وقال الشوكاني بعد أن أورد حديث أبي هريرة ـ السابق ـ : «وأخرج نحوه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس». اهـ (فتح القدير ١/ ١٦٢). قلت: ولم أقف على هذه الجملة ـ من كلام ابن عباس ـ في الكتابين المذكورين، فالله أعلم.

(١) انظر: الدر المصون (١/ ٤٢٩).

(٢) انظر: القرطبي (١/ ٤٥٢)، الدر المصون (١/ ٤٢٨).

متوحشة. خلافاً لمن زعم أن ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ مؤتنف.

والذين قالوا: «تثير الأرض»[١] يردُّ قولهم أنه قال: ﴿لَّا ذَلُولٌ﴾ والمروضة للحرث ذلول.

وأجاب بعضهم[٢]: أن المراد بـ ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: تثيرها بشدة وطء أظلافها لنشاطها وقوتها. وهذا خلاف الظاهر، بل معنى الآية: أن من صفات هذه البقرة أنها غير مروضة، وغير مذللة، فليست تثير الأرض؛ لأنها لم تُذلل لذلك، ولا تسقي الحرث، ولا يُستَنَى عليها؛ لأنها لم تُرَض، ولم تذلل لذلك. وهذا هو معنى الآية.

وقوله: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي: من جميع العيوب، ليس فيها عرج، ولا عور، ولا كسر قرن، ولا أي عيب. أي: مسلمة من جميع العيوب.

وقوله: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ وزن الشِيَة: (عِلَة)، وأصل مادتها: (وشى)، ومعروف أن المثال ــ أعني واوي الفاء ــ يطَّرد حذف فائه في المصدر ــ مثلاً ــ إذا كان على (عِلَة)[٣]، وكذلك في المضارع والأمر، كما عقده في الخلاصة بقوله[٤]:

فـا أَمْـرٍ أَوْ مُضَـارِعٍ مِـنْ كَـوَعَـدْ احْـذِفْ وَفِـي كَعِـدَةٍ ذاكَ اطَّـرَد

فأصل الشِّيَة: (وشْية) من الوَشْي، والوَشْيُ: هو ــ مثلاً ــ أن

---

(١) أي: على الإثبات.

(٢) انظر: القرطبي (١/ ٤٥٣).

(٣) انظر: القرطبي (١/ ٤٥٤)، الدر المصون (١/ ٤٣١).

(٤) الخلاصة ص ٧٩، وانظر شرحه في الأشموني (٢/ ٦٥٣).

يكون في الشيء لونان مختلفان، فكل ـ مثلاً ـ شيء فيه لونان مختلفان تقول العرب: فيه وشي[١]. وإذا كان ـ مثلاً ـ حمار الوحش أو الثور فيه خطوط ـ يعني تُخالف لونه في أرجله ـ يقولون له: مَوْشِي. أي: فيه وشي. ومن هذا المعنى قول نابغة ذبيان[٢]:

كَأَنَّ رَحْلِي وقَدْ زَالَ النَّهَارُ بِنَا ... بِذِي[٣] الجليل[٤] على مُسْتَأْنَسٍ وَحَدِ
مِنْ وَحْشِ وجْرَةَ[٥] موشيٍ أكارعُه ... طاوي المصير[٦] كسيفِ الصَّيْقَلِ الفَرَدِ

(موشي أكارعه) يعني [أن][٧] فيها وشياً. أي: خطوطاً تخالف لونه، فمعنى ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ أي: لا وشي من خطوط مخالفة للونها، بل لونها كله أصفر فاقع على وتيرة واحدة، حتى قال بعض العلماء[٨]: إن أظلافها وقرونها صفر. وهذا معنى قوله: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾.

﴿قَالُواْ ٱلْـَٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ﴾ الألف واللام زائدتان لزوماً في ﴿ٱلْـَٔنَ﴾[٩]. وهي يُعبَّر عنها بالوقت الحاضر. وبعض العلماء يقول:

---

(١) انظر: القرطبي (١/ ٤٥٤)، الدر المصون (١/ ٤٣١).

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص ١٠ ـ ١١.

(٣) في الديوان: (يوم).

(٤) واد قرب مكة، وقد جاوزه البنيان في هذا الوقت.

(٥) وجرة: اسم مكان معروف بين مكة والبصرة، بينها وبين مكة نحو أربعين ميلاً، ليس فيها منزل، فهي مرتع للوحش. انظر: معجم البلدان (٥/ ٣٦٢).

(٦) أي: ضامر البطن.

(٧) في الأصل: أنها.

(٨) انظر: ما نقله ابن جرير عن بعض السلف في هذا المعنى في التفسير (٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

(٩) انظر: الدر المصون (١/ ٤٣٣).

هـو مبـني على الفتح؛ لأنه خُولفت به نظائره. وعلى كل حال فـالمراد بـ ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾: الوقت الحاضر، في هذا الوقت الحاضر ﴿جِئْتَ﴾ ـ يعني في صفات هذه البقرة المطلوبة ـ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، ويتعين هنا حذف الصفة؛ لأنه لو لم تقدر الصفة لكانوا كفاراً؛ لأنهم لو قالوا: لم يأت بالحق إلا في هذا الوقت، فقبل هذا الوقت لم يكن آتياً بالحق!! كانوا مكذبين لنبـي كريم، ومن كذب نبياً كريماً فهو كافر؛ ولذلك يتعين تقدير النعت هنا[(١)]، والمعنى: جئت بالحق الذي لا يترك في هذه البقرة لبساً لإيضاحها بصفاتها الكاشفة تماماً، وقـد تقرر في علم العربية: أن حذف الصفة إذا دلَّ المقام عليه موجود في القرآن، وفي كلام العرب[(٢)]، فمن أمثلته في القرآن ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: آية ٧٩] حُذف نعتها، أي: كل سفينة صحيحة. إذ لو كان يأخذ المعيبة لما كان في خرق الْخَضِر للسفينـة فـائـدة، ولَمَـا قـال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهـف: آية ٧٩].

قال بعض العلماء[(٣)]: ومنه ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ [الإسراء: آية ٥٨] قالوا: حذف وصفه. أي: وإن من قرية ظالمة. بدليل قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: آية ٥٩]. ومن شواهد حذف النعت في لغة العرب قول الشاعر، وهو المرقِّش الأكبر[(٤)]:

---

(١) انظر: البحر المحيط (١/ ٢٥٧).

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٢/ ١٥٣). أضواء البيان (٣/ ٦٠٠)، (٤/ ١٨٠).

(٣) راجع الهامش السابق.

(٤) ضياء السالك (٣/ ١٨)، المعجم المفصَّل في شواهد النحو الشعرية (١/ ٢٢٧).

وَرُبَّ أَسِيلَةِ الخَدَّينِ بِكْرٍ مُهَفْهَفَةٍ لها فَرْعٌ وجِيدُ

أي: لها فرع فاحم، وجيد طويل. ومن هذا القبيل قول عبيد بن الأبرص الأسدي(١):

مَنْ قَولُه قَولٌ ومَنْ فِعْلُهُ فِعْلٌ ومَنْ نائِلُه نَائِلُ

يعني: من قوله قول فصل، ومن فعله فعل جميل، ومن نائله نائل جزل. فحذف النعوت لدلالة المقام عليها، وهذا كثير في كلام العرب، وإن ذكر ابن مالك في الخلاصة أن حذف النعت قليل حيث قال(٢):

وَمَا مِنَ المَنْعُوتِ والنَّعْتِ عُقِل يجوزُ حذفُهُ وفي النَّعت يَقِلْ

وهذا معنى قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: جئتَ في الوقت الأخير بالحق الذي لا يترك في هذه البقرة لبساً، ولا يتركها تتشابه مع غيرها من البقر؛ لأنه مُيِّزَت بصفاتها الكاشفة التي تفصلها وتميزها عن غيرها.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة جواز السَّلَم في الحيوانات(٣)، وأنها تنضبط بصفاتها الكاشفة حتى تصير كالمرئية؛ لأن هؤلاء الناس لا يوجد ناس أشد منهم تعنتاً، فاضطرتهم الصفات الكاشفة إلى أن اعترفوا بأن هذه البقرة ظهرت صفاتها وتميزت عن غيرها، ويدل لهذا قول النبي ﷺ: «**لا تصف المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظر**

(١) ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٠٠.

(٢) الخلاصة ص ٤٥، وانظر: شرحه في الأشموني (٢/ ٧٤).

(٣) انظر: الأم للشافعي (٣/ ١١٧)، أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٢٦)، الإنصاف (٥/ ٨٥).

إليها»[١]. فبين ﷺ أن الصفات الكاشفة تقوم مقام النظر؛ لأنها تعيِّن الموصوف. وهذا دليل واضح لما ذهب إليه جمهور العلماء من السلف في الحيوانات إذا بُينت صفاتها؛ لأن الوصف يجعلها كالمرئية ويضبطها. خلافاً للإمام أبـي حنيفة (رحمه الله) الذي منع السَّلم في الحيوانات بناءً على أنها لا تنضبط صفاتها[٢]. ومما يؤيد السَّلم فيها ـ خلافاً للإمام أبـي حنيفة (رحمه الله): ما ثبت عن النبـي ﷺ أنه استسلف بَكْراً وردَّ رباعياً[٣]، وكما دلت عليه هذه النصوص.

قال بعض العلماء: ويؤخذ من هذه القصة أيضاً جواز النسخ قبل التمكن من الفعل؛ لأن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ نكرة في سياق الإثبات، والنكرة في سياق الإثبات إطلاق، فلو ذبحوا أي بقرة كانت لصدقت باسم تلك البقرة المطلقة، ولأجزأتهم، ولَمَّا شددوا نَسَخَ الله الاكتفاء ببقرة مجردة أَيَّةً كانت إلى بقرة موصوفة بصفات منعوتة بنعوت كثيرة شديدة. ومن هنا قال بعض العلماء[٤]: هذه من الأدلة على النسخ قبل التمكن من الفعل. وقال بعض العلماء: هذا لا يصلح مثالاً للنسخ قبل التمكن من الفعل؛ لأن هذا

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب: لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها، حديث رقم: (٥٢٤٠ ـ ٥٢٤١)، (٣٣٨/٩)، بلفظ: «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها». واللفظ الذي ذكره الشيخ (رحمه الله) وهو لفظ الحديث عند الطبراني في الكبير، رقم: (١٠٢٤٧)، (١٧٣/١٠) مع اختلاف يسير.

(٢) انظر: بدائع الصنائع (٢٠٩/٥)، القرطبي (٤٥٣/١).

(٣) مسلم، كتاب المساقاة، باب من استسلف شيئاً فقضى خيراً منه، حديث رقم: (١٦٠٠)، (١٢٢٤/٣).

(٤) انظر: القرطبي (٤٤٨/١)، البحر المحيط (٢٥٨/١).

حكم زيدت فيه صفات، ولم ينسخ ذبح البقرة بالكلية، بل بقي محكماً، وإنما زيدت في البقرة صفات.

وأجاب القائلون بأنه نسخ قالوا: زيادة هذه الصفات تضمَّن نسخاً في الجملة؛ لأن مضمون النص الأول يدل على أن كل بقرة ذبحت كائنة ما كانت ولو مجردة عن تلك الصفات [أجزأت](١)، فَوَصْفُهَا بالصفات الآتية الجديدة نَسَخَ الاجْتِزَاء بأي بقرة كانت. وعلى كل حال فهذه مسألة أصولية هي ـ مثلاً ـ : هل يجوز النسخ قبل التمكن من الفعل أو لا يجوز(٢)؟ والجماهير من العلماء على أنه جائز، وواقع، ومن أمثلته: نَسْخُ خمس وأربعين صلاة ليلة الإسراء بعد أن فُرضت خمسين، ونُسخ منها خمس [وأربعون](٣)، ثم أُقرَّت خمساً. ومن أمثلته قوله (جل وعلا) في إبراهيم في قصة ذبح إبراهيم لولده: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: آية ١٠٧]. لأنه أمره أن يذبح ولده، ونسخ عنه هذا الأمر قبل التمكن من الفعل.

والتحقيق أن هذا جائز وواقع. ولا شك أن فيه سؤالاً معروفاً، وهو أن يقول طالب العلم: إذا كان الحكم يشرَّع وينسخ قبل العمل فما الحكمة في تشريعه الأول إذا كان يُنسخ قبل أن يُعمل به؟

الجواب: أن التحقيق أن حكمة التشريع منقسمة قسمة ثنائية،

---

(١) في الأصل: لأجزأت.

(٢) انظر: المستصفى (١/ ١١٢)، البحر المحيط للزركشي (٤/ ٨١)، شرح الكوكب (٣/ ٥٣١)، شرح مختصر الروضة (٢/ ٢٨١، ٣٠٩)، مجموع الفتاوى (١٤/ ١٤٦، ١٤٧)، نثر الورود (١/ ٣٤٨)، المذكرة ص ٧٣.

(٣) في الأصل: وأربعين.

وهي دائرة بين الامتثال والابتلاء[١]. فإذا نُسخ الحكم بعد العمل به فحكمته الامتثال وقد امتُثِل، وإذا نُسخ قبل العمل به فحكمة تشريعه الأول الابتلاء، وهو اختبار الخلق هل يتهيؤون للامتثال؟ وقد وقع الابتلاء، وقد نصَّ الله (جل وعلا) في قصة إبراهيم على أن الحكمة في أمره بذبح ولده ـ مع أن الله يعلم أنه لا يُمكِّنه من ذلك ـ هو الابتلاء هل يتهيأ ويطيع ربه في أن يذبح ثمرة قلبه؟ كما قال جل وعلا: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات: آية ١٠٣] يعني: تلَّه للجبين لينفذ فيه الذبح حتى ـ مثلاً ـ قال له ربه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: الآيتان ١٠٤ ـ ١٠٥] وقال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: آية ١٠٧] ثم إن الله نصَّ على أن الحكمة الابتلاء في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: آية ١٠٦].

وقوله جل وعلا: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أي: فذبحوا البقرة، وضربوه بجزء منها فحيي، وأخبرهم بقاتله كما يأتي.

وقوله: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ يعني: ما كادوا يذبحونها إلا بعد جَهدٍ جهيدٍ؛ لما جاؤوا به دون ذبحها من السؤالات والتعنتات.

وقول بعض العلماء: إنَّ (كاد) إذا كانت في الإثبات دلت على النفي، وإذا كانت في النفي دلت على الإثبات، وأن هذا يُلغز به: هو في الواقع غير صحيح[٢]، وأن (كاد) فعل مقاربة تدل على مقاربة

---

(١) انظر: نثر الورود (١/ ٣٤٨)، المذكرة (٧٣ ـ ٧٤).

(٢) في الكلام على (كاد) راجع: تفسير ابن جرير (١٨/ ١٥١)، تهذيب اللغة للأزهري (١٠/ ٣٢٩)، شرح الكافية لابن مالك (١/ ٤٦٦)، المساعد على تسهيل الفوائد (١/ ٣٠٣)، البحر المحيط (١/ ٢٥٨)، الكليات ص ٧٤٩، =

حصول الخبر للمبتدأ، وإذا نُفيت نُفيت المقاربة. يعني: ما قاربوا أن يذبحوا. يعني في زمن التعنت والأسئلة، حتى انقضى زمن التعنت والأسئلة، في آخر الأمر ذبحوها، والقرينة على أن هذا المراد: أنه صرَّح بأنهم ذبحوها ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ يعني: في الآونة الأخيرة ﴿وَمَا كَادُواْ﴾ قبل ذلك في الأزمان التي قبله ﴿يَفْعَلُونَ﴾ لتعنتهم وكثرة سؤالاتهم وعدم امتثالهم. وهذا معنى قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: الآيات ٧٢ ـ ٧٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [البقرة: آية ٧٢] ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: الآية ٦٧] وقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾ هو أول القصة في الوقوع، ولكنه متأخر في النزول[(١)] وترتيب القرآن على الظاهر، أي: واذكروا ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ هو القتيل المتقدِّم، قيل اسمه: (عاميل)[(٢)]. والعرب تعبر عن الشخص بالنفس، تقول: (قتل

= القاموس (مادة: الكود) ص ٤٠٣، الدر المصون (١/ ١٧٦)، الأشباه والنظائر للسيوطي (٣/ ٢٦)، التحرير والتنوير (١/ ٥٥٧ ـ ٥٥٩)، تفسير سورة النور للشيخ (رحمه الله) ص ١٥٥، النحو الوافي (١/ ٦١٨).

(١) انظر: القرطبي (١/ ٤٤٥، ٤٥٥)، البحر المحيط (١/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

نفساً) أي: شخصاً ذكراً كان أو أنثى، والظاهر أن هذا القتيل ذَكَر، بدليل تذكير الضمير العائد عليه في قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: الآية ٧٣] أي: القتيل الذي فيه النزاع[١].

وهنا سؤال، وهو أن يقال: ما المسوغ لإسناد قتل هذا القتيل إلى جميعهم في قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾؟

الجواب[٢]: أن القرآن بلسان عربي مبين، ومن أساليب اللغة العربية إسناد الأمر إلى جميع القبيلة إذا فعله واحد منها. ونظيره في القرآن قراءة حمزة والكسائي[٣]: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: آية ١٩١]؛ لأنه ليس من المعقول أمر من قُتِل بالفعل أن يقتل قاتله، ولكن: فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم البعض الآخر. فأسند الفعل إلى الجميع وهو واقع من البعض. وهذا أسلوب معروف في لغة العرب، ومنه قول الشاعر[٤]:

فَإِنْ تَقْتُلُونَا عندَ[٥] حَرَّةِ واقِمِ فَلَسْنَا عَلَى الإسلامِ أَوَّلَ مَنْ قُتِل

يعني: تقتلوا بعضنا.

وقوله: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أصله: فَتَدَارَأْتُمْ فِيها. وهو (تَفَاعُل)

---

(١) انظر: الأضواء (١/ ٢٤، ٧٩).

(٢) انظر: البحر المحيط (١/ ٢٥٩)، الدر المصون (١/ ٤٣٤) وانظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٣٣) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٤٤.

(٤) المحتسب (٢/ ١٢٨).

(٥) في المحتسب: (يوم).

من الدَّرْءِ، بمعنى الدفع، والقاعدة المقررة في علم العربية: أن (تفاعلَ) و (تفعَّلَ) ــ مثلاً ــ إذا أُريد فيهما الإدغام استُجْلِبَت همزة الوصل ليُمكن النطق بالساكن؛ إذ العرب لا تبتدىء بساكن. أصله: (تدارأتم) فأُريد إدغام تاء التفَاعُل في الدال التي هي فاء الكلمة فسكن لأجل الإدغام، فاستُجْلِبت همزة الوصل توصُّلاً للنطق بالساكن[١]. وهذا كثير في القرآن في (تفاعل) و (تفعَّل) نحو ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ﴾ [التوبة: آية ٣٨] أصله: تثاقلتم ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا﴾ [النمل: آية ٤٧] أصله: تطيرنا ﴿وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ [يونس: آية ٢٤] أصله: تزينت، إلى غير ذلك من الآيات. ونظير هذا الإدغام في (تفَاعَل) ونحوها من كلام العرب قول الشاعر[٢]:

تُولي الضَّجِيعَ إذا ما التذها[٣] خَصِراً عَذْبَ المَذَاقِ إذا ما اتَّابَعَ القُبَلُ

يعني: إذا ما تتابع القُبَل.

ومعنى ﴿فَادَّارَءْتُمْ﴾: تدارأتم من الدرء، والدرء معناه: الدفع. والمعنى: تدافعتم قتل القتيل. أي: كل منكم يدفع قتله عن نفسه إلى صاحبه، بأن يقول هؤلاء: قتله غيرنا، أنتم قتلتموه، وهؤلاء يقولون: بل أنتم الذين قتلتموه، ونحن لم نقتله. واختلاف العلماء فيه[٤] ــ بمعنى قول بعضهم: ﴿فَادَّارَءْتُمْ﴾ أي: تنازعتم. وقول بعضهم: ﴿فَادَّارَءْتُمْ﴾ اختلفتم ــ كله عائد إلى ما ذكرنا.

---

(١) انظر: الدر المصون (١/ ٤٣٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٢/ ٢٢٤)، القرطبي (٨/ ١٤٠).

(٣) في ابن جرير: (استافها).

(٤) انظر: ابن جرير (٢/ ٢٢٢، ٢٢٤).

وقوله: ﴿ فِيهَآ ﴾ أنَّث الضمير، يعني: راجعاً إلى النفس. يعني: (فيها) أي: في النفس المقتولة، كلكم يدفع قتلها عن نفسه إلى صاحبه.

﴿ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ﴿ مُخۡرِجٞ ﴾ اسم فاعل (أخرج) أي: مُظهر ما كنتم تكتمون. و (ما) موصولة، والعائد محذوف؛ لأنه منصوب بفعل، على حدِّ قوله في الخلاصة[1]:

. . . . والحَذْفُ عندهُم كثيرٌ مُنْجَلِي
فــي عــائِـدٍ مُتَّصِـلٍ إِنِ انْتَصَـبْ بِفِعْلٍ أَوْ وَصْفٍ كَمَنْ نَرجُو يَهَب

وتقريره: (والله مخرج الذي كنتم تكتمونه من أمر القتيل) وكذلك أسند الكتم هنا للجميع، والكاتم هو القاتل.

وقال بعض العلماء: القَتَلَةُ جماعة تمالؤوا على عمهم فقتلوه ليرثوه.

ومعنى قوله: ﴿ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ أي: مخرج الذي كنتم تكتمونه. أسند الكتم إلى الكل وأراد بعضَهم، سواء قلنا: إن القاتل واحد أو جماعة.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربـي وهو: أن (ما) مفعول به لاسم الفاعل الذي هو: (مُخرج)، والقصة ــ التي هي هذه ــ قصة ماضية قبل نزول الآية الكريمة؛ لأنها واقعة في زمن موسى، فهي في وقت نزول الآية ماضية، مَضَتْ لها أزمان كثيرة، والمقرر في علم العربية: أن اسم الفاعل إذا لم يُحلَّ بالألف واللام لا يعمل إلَّا إذا كان مقترناً بالحال أو المستقبل، فلا يعمل

---

(١) الخلاصة ص ١٦، وانظر: شرحه في الأشموني (١/ ١٢٨).

مقترناً بالماضي[١]، وهنا أُعمل وهو واقع في زمن الماضي؟ هذا وجه السؤال.

الجواب[٢]: أنه إنما أُعْمِل اسم الفاعل في هذا المفعول؛ لأن هذه حكاية حال ماضية في وقتها، فإنما حُكيت الحال في وقتها؛ فكأنها في وقتها؛ لأن الحكاية تُحكى فيها الأحوال في حال وقتها. ونظير هذا يُجاب به عن قوله جل وعلا: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: الآية ١٨]؛ لأنها أيضاً حكاية حال ماضية، وهي في وقتها مُطابقة للزمن الحالي.

والآية تدل على أن من فعل سوءاً وكتمه أن الله يظهره، غالباً لا يُسر الإنسان سريرةً إلا ألبسه الله رِداءها[٣]. وكان بعض العلماء يقول: لو عَمِل الإنسان الشر في غاية الخفاء لا بد أن يظهره الله، كما يُفهم من قوله: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وقوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: الآية ٧٣] صيغة الجمع للتعظيم، و (الفاء) عاطفة للجملة على ما قبلها، يعني: تدارأتم في القتيل، فقلنا لكم: اضربوه ببعض البقرة؛ لِيُبَيَّنَ لكم الواقع، وتعرفون القاتل، وينتهي النزاع ﴿فَقُلْنَا﴾ صيغة الجمع للتعظيم، ﴿اضْرِبُوهُ﴾ أي: القتيل. فالضمير عائد إلى القتيل. المفهوم من النفس في قوله: ﴿نَفْسًا﴾، فأنث الضمير باعتبار لفظ النفس، وذكَّرَه باعتبار معناها؛ لأن القتيل ذكر، وقد يكون الذَّكر يُعبر عنه بلفظ

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/ ٥٨، ٦١).

(٢) انظر: الدر المصون (١/ ٤٣٥).

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٢٩)، شرح الطحاوية ص ١٤٤، تفسير ابن كثير (١/ ١١٢)، (٤/ ١٨٠).

مؤنث، فيجوز التأنيث مراعاة للفظ، والتذكير مراعاة للمعنى(١).

ومنه في كلام العرب قول الشاعر(٢):

أَبُـوكَ خَلِيْفَـةٌ وَلَـدَتْـهُ أُخْـرَى وأَنْـتَ خَلِيفَـةٌ ذاكَ الكمـال

فأنث (الخليفة) وأطلق عليه لفظ (الأخرى) نظراً إلى تأنيث لفظه، مع أنه يجوز تذكيره؛ لأنه رجل. فقلنا لهم: اضربوا القتيل ببعض هذه البقرة، فضربوه ببعضها فحيي.

وهذا البعض الذي ضربوه به منها اختلف فيه المفسرون(٣)، فمنهم من يقول: هو لسانها. ومنهم من يقول: فخذها. ومنهم من يقول: عجب ذنبها. ومنهم من يقول: الغضروف، غضروف الأذن.

والحق أن هذا البعض الذي ضربوه به منها لا دليل عليه، ولا جدوى في تعيينه. وكثيراً ما يولع المفسرون بالتعيين في أشياء لم يرد فيها دليل من كتاب ولا سُنَّة، ولا جدوى تحت تعيينها، فيتعبون بما لا طائل تحته، كاختلافهم في خشب سفينة نوح من أي شجر هو؟ وكم كان عرض السفينة؟ وطولها؟ وكم فيها من الطبقات؟ وكاختلافهم في الشجرة التي نُهي عنها آدم وحواء، أي شجرة هي؟ وكاختلافهم في كلب أصحاب الكهف ما لونه، هل هو أسود أو أصفر؟ وكثير من هذه الأمور التي يُولعون بها ولا طائل تحتها، ولا دليل عليها من كتاب وسنة(٤). غاية ما دلَّ عليه القرآن: أنهم

---

(١) انظر: البحر المحيط (١/ ٤٣٥).

(٢) البيت لنُصيب بن رياح الأموي، انظر: اللسان (مادة: خلف) (١/ ٨٨٣)، (مادة: فلح) (٢/ ١١٢٦).

(٣) انظر: ابن جرير (٢/ ٢٢٩ ـ ٢٣١).

(٤) انظر: مقدمة في أصول التفسير ص ١٩.

ضربوه ببعض من تلك البقرة غير مُعين، ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي: فضربوه ببعض منها فحيي بإذن الله، فأخبرهم بقاتله، ثم عاد ميتاً، ولم يَرِثه قاتله الذي قتله. قال بعض العلماء: ومن ذلك اليوم لم يرث قاتل عمداً[١].

وعامة العلماء على أن القاتل لا يرث، سواء كان القتل عمداً أو خطأً، لا من المال ولا من الدية. وعن مالك بن أنس (رحمه الله) التفصيل بين الدية والمال في خصوص القتل خطأً، قال: إن القاتل خطأً يرث من المال، ولا يرث من الدية. والجمهور على خلافه، وشذ قوم فورثوه من المال والدية في القتل خطأً[٢].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني: كما أحيا الله هذا القتيل وهذا الجم الغفير من الناس ينظرون، كذلك الإحياء المُشاهد يحيي الله الموتى يوم القيامة، فهو دليل قرآني على البعث؛ لأن من أحيا نفساً واحدة فهو قادر على إحياء جميع النفوس؛ لأن ما جاز على المِثْل يجوز على مماثله، والله (جل وعلا) يقول: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: آية ٢٨].

وهذه الآية الكريمة تؤخذ منها فوائد، من الفوائد التي تؤخذ منها: أن الخالق الفاعل كيف يشاء هو رب السماوات والأرض. وأن الأسباب لا تأثير لها إلا بمشيئة الله. وأن الله يُسبِّب ما شاء على ما شاء من الأسباب، ولو لم تكن بين السبب والمُسَبَّب مناسبة، فهذا القتيل لو ضُرب بالبقرة وهي حَيَّة لقال قائل جاهل: اكتسب الحياة من

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢١٥)، تفسير ابن كثير (١/ ١٠٨).
(٢) انظر: العذب الفائض (١/ ٢٨ ـ ٢٩).

حياتها فالله (جل وعلا) أمرهم أن يذبحوها حتى تكون ميّتة، وأن يأخذوا قطعة ميتة منها لا حياة فيها فيضربوا بها هذا القتيل فيحيا. فَضَرْبُهُ بهذه القطعة الميتة من هذه البقرة المذبوحة كان سبباً لوجود الحياة فيه. وهذا السبب لا مناسبة بينه وبين المُسَبَّب[١]، فدلَّ على أن خالق السماوات والأرض يفعل ما يشاء كيف يشاء، ويرتب ما شاء من المُسَبَّبات على ما شاء من الأسباب باختياره وقدرته ومشيئته، ولو لم تكن هناك مناسبة بين السبب ومُسَبَّبه.

أخذ مالك (رحمه الله) دون عامة العلماء من هذه الآية حُكماً، وهو أنه يُثبت القَسَامة[٢]. بقول المقتول: «دمي عند فلان»[٣]؛ لأن هذا القتيل لما حيي أخبرهم أن قاتله فلان، وعملوا بقوله، قال مالك: فعملهم بقوله الذي دلّ عليه القرآن دليل على أن من قال:

---

(١) سُئل الشيخ رحمه الله عن مدى تعلق قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [البقرة: آية ٦٠] بما ذُكر من أن الله (تعالى) يُسبب ما شاء على ما شاء من الأسباب، ولو لم تكن بين السبب والمُسَبَّب مناسبة.
فأجاب الشيخ (رحمه الله) بقوله: ضَرْب الحجر بالعصا في هذا المقام شبيه بضرب القتيل بالجزء من هذه البقرة؛ لأن ضرب الحجر بالعصا لا يجعل الماء في الحَجَر، بل الماء إنما يخلقه الله بقدرته، كما أن ضَرْب القتيل بالجزء من البقرة لا يجعله يحيا، ولكن الله أحياه، ورتب ما شاء من الأسباب على ما شاء، وقد أجاد من قال:

ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزي إليك الجذع يسَّاقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزِّه ... جنته ولكن كل شيء له سبب

(٢) هي حلف مُعَيَّن عند التهمة بالقتل على الإثبات أو النفي. انظر: القاموس الفقهي ص ٣٠٣.

(٣) انظر: القرطبي (١/ ٤٥٧)، أضواء البيان (٣/ ٥٦٣).

«قتلني فلان». أنه يُعمل بقوله، ومن هنا جعل قول المقتول إذا أُدرك وبه رمق وقيل له: مَنْ ضَرَبَك؟ فقال لهم: «قتلني فلان، أو دمي عند فلان». فهذا لَوْثٌ[1] عند مالك[2] تُحلف معه أيمان القَسَامة، ويُستحق به الدم أو الدية، على التفصيل المعروف فيما تُستحق به القَسَامَة من عمد أو خطأ.

وخالف مالكاً في هذا الفرع عامّةُ العلماء، وقالوا: قول القتيل: «دمي عند فلان» هذا لا يمكن أن يُسوِّغ القَسَامة؛ لأنه لو قال: «لي درهم على فلان، أو أُطالب فلاناً بكذا» لا يثبت من ذلك شيء، فكيف يثبت به القتل ودم المعصوم؟ ومالكٌ استدل بهذه القصة، واستدل أيضاً بأن الإنسان إذا كان في آخر عهد من الدنيا زال غرضه من الكذب، وصار منتقلاً إلى دار الآخرة، وصارت الدواعي إلى الكذب بعيدة جداً في حقه، فالذي يغلب على الظن أنه لا يخبر إلا بواقع.

وأجاب الجمهور عن القصة قالوا[3]: هذه القصة لا يقاس عليها غيرها؛ لأن هذا قتيل أحياه الله معجزة لنبي، وأخبرهم ــ مثلاً ــ أنه يحييه، وأنه يخبرهم بمن قَتَل وهذا الإخبار مستند إلى دليل قطعي، فليس كإخبار قتيل آخر.

---

(١) اللَّوْثُ: يطلق عند المالكية على الأمارة التي تغلب على الظن صدق مدّعي القتل، كشهادة العدل الواحد على رؤية القتل، أو يرى المقتول يتشحّط في دمه والمتهم نحوه أو قربه عليه آثار القتل، انظر: القرطبي (١/ ٤٥٩)، القاموس الفقهي ص ٣٣٤، أضواء البيان (٣/ ٥٦٣).

(٢) انظر: القرطبي (١/ ٤٥٩)، أضواء البيان (٣/ ٥٦٣).

(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٢٤)، القرطبي (١/ ٤٥٧).

وأجاب ابن العربي في أحكامه عن هذا قال: المعجزة إنما هي في إحياء القتيل، أما كلام القتيل، فهو كسائر كلام الناس، يجوز في حقه أن يكون حقاً، وأن يكون كذباً.

وعلى كل حال فهذا الفرع خالف فيه مالكاً جمهور العلماء.

وقوله جل وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فيه دليل على أن قصة إحياء هذا القتيل من الأدلة على البعث، وقد بيَّنَّا فيما مضى خمسة أمثلة منها في هذه السورة الكريمة(١).

وقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ﴿يُرِيكُمْ﴾ مضارع (أراه)، أصلها يُرئيكم آياته. أي: يبينها لكم حتى ترونها. ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ الآية: تطلق في اللغة إطلاقين، وتطلق في القرآن إطلاقين، وجمهور علماء العربية أن أصل وزن الآية (أَيَيَة) فهي وزنها: (فعَلَة) فاؤُها همز، وعينها ياء، ولامها ياء، اجتمع فيها موجبا إعلال، على القاعدة المقررة في التصريف، التي عقدها في الخلاصة بقوله(٢):

مِنْ [واوٍ أو ياءٍ](٣) بتحريكٍ أُصِلْ ... أَلِفاً ابْدِلْ بَعْدَ فَتْحٍ مُتَّصِلْ

والأصل المشهور أن يكون الإعلال في الأخير، فالجاري على القياس أن يقال: أياة، وتُبدل الياء الأخيرة ألفاً، إلا أنه أُبدلت هنا الياء الأولى(٤). وإعلال الأول من الحرفين اللذَيْنِ اجتمع فيهما موجبا إعلال موجود في القرآن، وفي كلام العرب، كآية، وغاية.

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من هذه السورة.

(٢) الخلاصة ص ٧٧، وانظر: شرحه في الأشموني (٢/ ٦٢٢).

(٣) في الأصل: ياء أو واو.

(٤) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٤٢.

والآية تطلق في لغة العرب إطلاقين[1]: تطلق الآية بمعنى: (العلامة). وهذا إطلاقها المشهور. ومنه قول نابغة ذبيان[2]:

تَـوَهَّـمْـتُ آيـاتٍ لهـا فعَـرَفْتُهـا لستـةِ أَعْـوامٍ وذا العـامُ سـابِـعُ

ثم صرح بأن مُراده بالآيات علامات الدار في قوله:

رَمَـادٌ كَكُحْـلِ العيـنِ لأيـاً أُبِينُـهُ ونُؤيٌ كجذمِ الحوضِ أَثْلَمُ خاشِعُ

ومن هذا المعنى قوله: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ أي: علامة ملكه ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ الآية [البقرة: الآية ٢٤٨].

وتطلق الآية على: (الجماعة)، تقول العرب: جاء القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم، ومنه قول بُرج بن مُسهر[3]:

خرجنا مـن النقبيـنِ لا حَيَّ مِثْلُنـا بآيتنـا نُـزْجِي اللِّقَـاحَ المَـطَافِـلا

أي: بجماعتنا.

والآية تطلق في القرآن إطلاقين: آية كونية قدرية، كقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٩٠] وهذه الآية الكونية القدرية من (الآية) بمعنى (العلامة) باتفاق، أي: لعلامات على كمال قدرة من وضعها، وأنه الرب وحده، المعبود وحده.

---

(١) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الهمزة، باب: الهمزة والياء وما يثلثهما في الثلاثي، (مادة: أيي) (١٠٢/١)، القاموس (مادة: أيي) (١٦٢٨)، الأضواء (٣٨/٤ ـ ٣٩).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٣) القرطبي (٦٦/١)، اللسان (مادة: أيا) (١٤٠/١).

وتطلق الآية في القرآن بمعناها الشرعي الديني، كقوله: ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق: آية ١١] أي: آياته الدينية الشرعية.

والآية الدينية الشرعية قيل: من (العلامة)؛ لأنها علامات على صدق من جاء بها، لما فيها من الإعجاز. أو لأن لها مبادىء ومقاطع علامات على انتهاء هذه الآية وابتداء الآية الأخرى.

وقال بعض العلماء: هي من (الآية) بمعنى (الجماعة)؛ لأن الآية كأنها نبذة وجماعة من كلمات القرآن، تتضمن بعض ما في القرآن من الإعجاز، والأحكام، والعقائد، والحلال، والحرام(١).

هذا معنى: ﴿يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني: يجعلكم ترونها واضحة. أي: علاماته الواضحة على كمال قدرته وإحيائه للموتى، وأنه يبعث الناس بعد أن يموتوا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ يعني: لأجل أن تدركوا بعقولكم أنه (جل وعلا) يُحيي الناس بعد الموت، ويبعثهم من قبورهم، وأنه قادر على كل شيء، وأنه المعبود وحده، و ﴿تَعْقِلُونَ﴾ معناه: تدركون بعقولكم.

[٣/ب] / يقول الله جل وعلا: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: الآية ٧٤].

---

(١) في تعريف الآية اصطلاحاً انظر: ابن جرير (١٠٦/١)، ابن كثير (٧/١)، القرطبي (٦٦/١) قواعد التفسير (١٠٠/١).

قال بعض العلماء[١]: (ثم) في قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ للاستبعاد؛ لأن هذا الذي نظروه من آيات الله، وعِبَرِه، وإحيائه للقتيل سبب عظيم للين القلوب، فقسوة القلوب بعد مشاهدته من الأمر المستبعد؛ ولذا قال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ من بعد ذلك الأمر الذي عاينتموه، وهو إحياء القتيل، الذي هو أعظم سبب للين القلوب، فـ (ثم) هنا للاستبعاد، كما قاله بعض العلماء. ونظيره من إتيان (ثم) للاستبعاد قوله تعالى في أول سورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾ [الأنعام: آية ١]؛ لأن من خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور يُستبعد جداً أن يُجعل له عديل ونظير. ونظير (ثمّ) للاستبعاد من كلام العرب قول الشاعر[٢]:

ولا يكشف الغَمَّاءَ إلا ابن حُرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

لأن من رأى غمرات الموت تُستبعد منه زيارتها.

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائدة إلى ما ذُكر من إحياء القتيل لمَّا ضُرب بالجزء من البقرة الميتة، ومعنى قسوة القلوب: شدتها وصلابتها حتى لا يدخل فيها خير؛ لأن ذا الشيء القاسي ليس بقابل لدخول شيء فيه، فقلوبهم صلبة شديدة نابية عن الخير لا يدخلها وعظ ولا ينجع فيها خير. والسبب الذي قست به قلوبهم نهى الله عن ارتكابه المسلمين في قوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ⑯﴾ [الحديد: آية ١٦].

---

(١) انظر: البحر المحيط (١/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).

(٢) البيت لجعفر بن عُلبة الحارثي. انظر: الدر المصون (٩/ ٨٩)، (٦٤٢).

وقوله: ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ﴾ أي: في شدة القسوة والصلابة، فكما أنك لو أردت أن تُدخل ماءً أو دهناً في جوف حجرٍ صلبٍ أصم لا يمكن لك ذلك، فلا يمكن أن تُدخل في قلوبهم خيراً، ولا موعظةً، ولا شيئاً ينفعهم؛ لقساوتها ـ عياذاً بالله ـ .

وقوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (أو أشد) مرفوعٌ عطفاً على الكاف من قوله: ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ﴾ أي: فهي مثل الحجارة أو أشد قسوة؛ لأن الكاف في معنى (مثل). وقيل: عطف على محل الجار والمجرور؛ لأنه في محل رفع خبر المبتدأ، أي: فهي كالحجارة، أو فهي أشد قسوة(١).

و ﴿قَسْوَةً﴾ تمييز مُحوَّل عن الفاعل؛ لأنه بعد صيغة التفضيل، على حد قوله في الخلاصة(٢):

والفَاعِلَ الْمَعْنَى انْصِبَنْ بِأَفْعَلا مُفَضِّلاً كَأَنْتَ أَعْلَى مَنْزِلاً

لأن ﴿قَسْوَةً﴾ تمييزٌ فاعلٌ في المعنى، فنُصب بأَفْعَل مُفَضِّلاً تمييزاً محوَّلاً عن الفاعل.

ثم إن الله (جل وعلا) بيَّن أن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة، قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَٰرُ﴾ يعني: إن بعض الحجارة ربما [تفجر منه الأنهار](٣)، وبعضها ربما لاَنَ فتشقق فخرج منه ماء، وقلوبهم لا تلين ولا ينفجر منها خير، لا قليل ولا كثير.

---

(١) انظر: البحر المحيط (١/ ٢٦٣).

(٢) الخلاصة ص ٣٤، وانظر: شرحه في الأشموني (١/ ٤٤٥).

(٣) في الأصل: (لاَنَ فتفجر منه ماء)؛ وذلك لأنه وقع للشيخ (رحمه الله) سهو في الآية السابقة حيث نطق بها هكذا: (لما يتفجر منه الماء) فجاء التفسير هنا كما ترى.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: ما معنى (أو) في قوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ والمُخبر بهذا الكلام (جل وعلا) يستحيل في حقِّه الشك، فما معنى (أو) في قوله: ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾؟

للعلماء عن هذا السؤال أجوبة معروفة[١]، أظهرها: أن «أو» للتنويع، و «أو» التي هي للتنويع تدل على نوع. والمعنى: أن منهم نوعاً قلوبهم كالحجارة، وهنالك نوعٌ آخر دلَّتْ عليه (أو) التنويعية أقسى قلوباً من هذه[٢](. . .).

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: الآيات: ٧٥ ـ ٧٩].

يقول الله جل وعلا: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان اليهود وغيرهم من

---

(١) انظر: ابن جرير (٢/ ٢٣٥)، القرطبي (١/ ٤٦٣)، البحر المحيط (١/ ٢٦٢)، الدر المصون (١/ ٤٣٦)، وراجع أيضاً منه ص ١٦٧.

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل وكلام الشيخ (رحمه الله) على هذا المعنى الذي استظهره تام، وللوقوف على المعاني الأخرى راجع المصادر السابقة.

أهل الكتاب؛ لأن عندهم علماً من الكتب السماوية المتقدمة. ولو آمنوا لكان ذلك داعياً إلى إيمان غيرهم لما عندهم من العلم، فقنَّطَه الله في هذه الآية الكريمة من إيمان اليهود وأنكر عليه أن يعلق طمعه بشيء لا مطمع فيه، قال: ﴿ ۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ ﴾ [البقرة: الآية ٧٥] يعني: أتعلقون الطمع بما لا طمع فيه فتطمعون أن يؤمنوا لكم أي: يتصفوا بالإيمان لكم. أي: لأجل دعوتكم وطلبكم منهم الإيمان.

والعادة في القرآن أن الإيمان إذا كان تصديقاً بالله (جل وعلا) عُدِّي بالباء، فتقول: «ويؤمنون بالله»، «آمنت بالله»[(١)]. وإذا كان تصديقاً ببشر عُدِّي باللام. وهذا معروف من استقراء القرآن، كقوله هنا: ﴿ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ ﴾ أي: يصدقوكم ويتبعوكم في هذا الدين الحنيف، ومنه قوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف: آية ١٧] أي: بمصدقنا في أن يوسف أكله الذئب ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾، وقوله: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت: آية ٢٦]، وجمع المثالين قوله: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: آية ٦١] والمعنى: أن الله أنكر عليهم الطمع بإيمانهم؛ لأنهم لا مطمع في إيمانهم.

ثم بيَّن صعوبة الإيمان عليهم وبعدهم منه قال: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ يعني: أتطمعون بإيمان قوم وهم بهذه المثابة من العناد واللجاج وعدم امتثال الأوامر، والحال: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ الفريق: الطائفة من الناس،

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من هذه السورة.

ويجوز انقسام الناس إلى جماعات متعددة، ولا يلزم أن يكونوا فريقين فقط، بل يجوز أن يكونوا فريقين وأكثر، ومن هذا المعنى قول نُصَيب(١):

فقال فريق القوم: لا، وفريقهم:
نعم، [وقال فريق](٢): ويحك ما ندري

واختلف العلماء في المراد بهذا الفريق الذين سمعوا كلام الله وحرفوه بعد أن عقلوه(٣):

قال جماعة من العلماء: هذا الفريق هم علماؤهم، ومعنى ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ يسمعون كلام الله يُتلى في كتابه التوراة ويفهمونه ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ من بعد ما أدركوه بعقولهم، فيجدون فيه صفات النبي ﷺ: (أبيض)، فيحرفونها إلى (أسمر)، ويجدون من صفاته: (رَبْعَة)، فيحرفونها إلى أنه طويل مُشَذَّب، ونحو ذلك من تغيير الصفات.

فعلى هذا الوجه فالفريق الذين يسمعون كلام الله: العلماء يسمعون كتاب الله التوراة يتلى ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ يعني يبدلونه ويحرفونه، ويجعلون فيه ما ليس فيه، بأن يحلوا حرامه، ويحرموا حلاله، ويغيروا فيه صفات النبي ﷺ، وينكروا بعض آياته كآية الرجم، وما جرى مجرى ذلك من التحريف.

---

(١) البيت في الكتاب لسيبويه (٣/ ٥٠٣)، ولفظه:
فقال فريق القوم لمَّا نشدتُهم نَعَمْ، وفريقٌ لَيْمُنُ الله ما ندري
(٢) في الأصل: وفريق قال.
(٣) انظر: ابن كثير (١/ ١١٥).

وعلى هذا القول فالفريق: العلماء منهم بالتوراة، وتحريفهم له معروف.

فإذا كان خيارهم وعلماؤهم يعقلون عن الله كلامه في كتابه ثم يغيرونه ويحرفونه ويحملونه على غير محمله، فما بالكم تطمعون في أن مثل هؤلاء يؤمنون لكم ويهتدون إلى خير.

الوجه الثاني: أن هذا الفريق هم السبعون الذين اختارهم موسى، المذكورون في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ الآية [الأعراف: آية ١٥٥] ومن قال هذا القول قال: إنهم لما خرجوا مع موسى إلى الميقات سألوه أن يسأل الله أن يُسمعهم كلامه. فسأل لهم نبيهم ذلك. وأن الله أمرهم أن يصوموا. ولما أراد الله أن يكلم موسى، وألقى عليه الضباب، سمعوا كلام الله يأمر موسى وينهاه، فبعد أن سمعوا كلام الله وعقلوه حرفوه. قالوا: سمعناه يقول في آخر الكلام: إن شئتم فافعلوا، وإن شئتم لا تفعلوا.

فإذا كانوا يسمعون من الله كلامه، هذه السبعون المختارة منهم تسمع كلام الله وتحرفه وتغيره، فما بالكم تطمعون في إيمان من هذه صفتهم؟

هذان الوجهان في قوله: ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

وقد بينا مراراً أن همزة استفهام الإنكار إذا جاء بعدها حرف عطف كالفاء، كما في قوله هنا: ﴿۞أَفَتَطۡمَعُونَ﴾ و (الواو) أو (ثم) أن فيها للعلماء وجهين معروفين[1]:

(١) انظر: البحر المحيط (١/ ٢٧١).

أحدهما: أن همزة الاستفهام تتعلق بمحذوف دل المقام عليه، و(الفاء) تعطف الجملة التي بعدها على الجملة المحذوفة التي دل المقام عليها. والمعنى: أتطمعون بما لا طمع فيه، فتطمعون أن يؤمنوا لكم؟ ونحو هذا. أو: ألا تعرفون الحقائق فتطمعون بما لا طمع فيه؟ والأحوال متقاربة، وإلى هذا الوجه ميل ابن مالك في الخلاصة في قوله[١]:

وحَـذْفَ متبـوعٍ بَـدَا هُنَـا اسْتَبِـحْ وَعَطْفُكَ الفِعْلَ على الفِعْلِ يَصِحّ

والوجه الثاني: أن همزة الاستفهام مزحلقة عن محلها، وأنها متأخرة بعد الفاء، إلا أنها قُدمت عن محلها؛ لأن للاستفهام صدر الكلام، وعلى هذا فالمعنى: فأتطمعون. فتكون الجملة معطوفة بالفاء على ما قبلها، كأن المعنى: فأعطف على ذلك إنكار طمعكم بما لا طمع فيه، فيكون المعنى: فأتطمعون أن يؤمنوا لكم والحال ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾.

التحريف: يعني: وضع الشيء في غير موضعه، يصدق بأن يبدلوه بما ليس منه وأن يغيروه، وأن يحملوه على غير محمله، إلى غير ذلك من أنواع التحريف.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي أدركوه بعقولهم. العرب تقول: عقلت الأمر أعقله، إذا أدركته بعقلي.

والعقل نور روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية[٢]، ومحله القلب، كما نص عليه الكتاب والسنة. لا الدماغ كما يزعمه الفلاسفة.

---

(١) الخلاصة ص ٤٨، وانظر: شرحه في الأشموني (٢/ ١٢٠).

(٢) انظر: الكليات ص ٦٧.

وبحوث العقل بحوث فلسفيه لا طائل تحتها.

فللفلاسفة في بحث العقل ما يزيد على مائة طريق، من جهة البحث في العقل هل هو جوهر أو عَرَض؟ والكلام على العقول العشرة، والعقل الفياض. كله بحث فلسفي لا طائل تحته[(١)].

وإنما قال جل وعلا: ﴿تَعۡقِلُونَ ۝٦٠﴾ أي: تدركون بعقولكم؛ لأن العقل نور روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية. وقد دل القرآن على أن محله القلب لا الدماغ؛ لأن الله يقول: ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: آية ٤٦] ولم يقل: أدمغة يعقلون بها. ويقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: آية ٣٧] ولم يقل: لمن كان له دماغ. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[(٢)] ولم يقل: ألا وهي الدماغ.

وجمع بعض العلماء بين قول أهل السنة وقول الفلاسفة بأن قال: إن أصل العقل في القلب كما في الكتاب والسنة، إلا أن نوره يتصل شعاعه بالدماغ. واستدلوا على هذا بدليل استقرائي عادي، قالوا: بالعادة المطردة والاستقراء أنك لا تجد رجلاً طويل العنق طولاً مُفْرِطاً إلا كان في عقله بعض الدخل؛ لبُعد ما بين طرفي شعاع نور عقله.

---

(١) انظر: المعجم الفلسفي (٢/ ٨٤ ـ ٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم: (٥٢)، (١/ ١٢٦)، وأخرجه في موضع آخر. انظر حديث رقم: (٢٠٥١)، ومسلم في الصحيح، كتاب المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم: (١٥٩٩)، (٣/ ١٢١٩).

والتحقيق: أن العقل في القلب[١] كما دلَّ عليه الوحي[٢] [والذين قالوا: إن العقل في] الدماغ استدلوا: بأن كل ما يؤثر على الدماغ يؤثر على العقل. وهذا لا دليل فيه؛ لإمكان أن يكون العقل في القلب ـ كما هو الحق ـ وسلامته مشروطة بسلامة الدماغ، وهذا لا إشكال فيه.

والعقل الصحيح هو الذي يعْقِل صاحبه عن الوقوع فيما لا ينبغي، كما قال (جل وعلا) عن الكفار: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: آية ١٠] أما العقل الذي لا يزجر عمّا لا ينبغي فهو عقل دنيوي يعيش به صاحبه، وليس هو العقل بمعنى الكلمة.

وقوله جل وعلا: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ جملة حالية يعني: أنهم سمعوا كلام الله فحرَّفُوه بعد أن أدركُوه بعقولهم وفهموه، والحال أنهم يعلمون أنهم حرفوه وافتروا على الله، فمن[٣] [كان] بهذه المثابة لا يطمع أحد في إيمانه.

ثم إن الله (جل وعلا) ذكر طائفة أخرى من اليهود هم منافقون،

---

(١) في هذه المسألة راجع: مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣)، أقسام القرآن لابن القيم (٤٠٤ ــ ٤٠٥)، أضواء البيان (٥/ ٧١٥)، وللشيخ (رحمه الله) رسالة لا تزال مخطوطة، وهي تقع في إحدى عشرة صفحة، وهي متضمنة أجوبة لسؤالات ثلاثة بعث بها إليه الشيخ محمد الأمين ابن الشيخ محمد الخضر، والأول من تلك السؤالات: مقر العقل من الإنسان.

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل. وما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام.

(٣) في الأصل كلمة ممسوحة وما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام.

وهذه الطائفة المنافقة ذكرها تعالى بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة: الآيتان ٧٦ ـ ٧٧] (إذا): ظرف فيه معنى الشرط، العامل فيه دائماً جزاء الشرط لا فعل الشرط، وهو من الأسماء الملازمة للإضافة إلى جُمل الأفعال خاصة، كما قال في الخلاصة[١]:

وَأَلْـزَمُـوا إِذَا إِضَـافَـةً إِلَـى جُمَـلِ الأَفْعَـالِ كَهُـنْ إِذَا اعْتَلَـى

و (لقوا) أصله: لقِيُوا (فَعِلُوا)[٢]، والقاعدة المقررة في التصريف: أن كل فعل ناقص ـ أعني معتل اللام ـ سواء كان واوي اللام، أو يائي اللام، إذا أُسند إلى واو جماعة، أو ياء مؤنثة مخاطبة، وجب حذف لامه المعتلة بقياس مطرد. فحُذِفَت هذه الياء التي هي لام الكلمة، وأُبدلت كسرة القاف ضمة لمجانسة الواو. فأصله: (لقِيُوا) على وزن (فَعِلُوا)، ووزنه الحالي ﴿وَإِذَا لَقُواْ﴾ (فَعُوا)؛ لأن الياء التي في موضع اللام حُذِفَتْ لإسناد الفعل الناقص إلى واو الجماعة، كما هو مقرر في التصريف[٣].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في محل نصب مفعول به لـ ﴿لَقُواْ﴾، والمعنى: أن هؤلاء الطائفة من المنافقين إذا اجتمعوا بالمؤمنين ـ النبي ﷺ وأصحابه ـ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾. ذكروا لهم أنهم آمنوا نفاقاً، وبينوا لهم أن النبي المنتظر المبشر به أن صفاته الموجودة في كتبهم مُتطبِّقة على هذا النبي الكريم ﷺ. هذا معنى قوله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾.

---

(١) الخلاصة ص ٣٧، وانظر: شرحه في الأشموني (١/ ٥١١).

(٢) انظر: القرطبي (١/ ٢٠٦).

(٣) انظر: الدر المصون (١/ ٤٤١)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٤٦٤.

﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني: رجعوا إلى أصحابهم وكان الموضع خالياً من المؤمنين، بأن كان الموجود فيه هم فيما بينهم.

﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني: أصحابهم الذين لم ينافقوا. قالوا منكرين على الذين نافقوا وموبخين لهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ أي: أتحدِّثون المؤمنين ـ النبي ﷺ، وأصحابه ـ ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: بما فتح عليكم علمه في التوراة من أن هذا هو النبي المنتظر، وأن هذه صفاته، أنها متطبِّقة، وأنه هو لا شك فيه، وأنكم مؤمنون به لما علمتم من أنه هو النبي الموعود به المنتظر.

﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾ بهذا الإقرار ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أنكم أقررتم بأنكم تعرفون أنه الحق، وأن صفاته متطبقة على صفات النبي المنتظر، فإن هذا يحاجونكم به يوم القيامة، أنكم عرفتم الحق وتركتموه. وهذا يدل على أنهم في غاية الجهل؛ لأنهم لو كتموه أليس الله عالماً بما في ضمائرهم؟ وما الفرق بين ما لو أقروا بأنهم عرفوا الحق وكتموه، أو كتموه ولم يقولوا؟

ولذا وبَّخهم الله بقوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٧﴾ [البقرة: الآية ٧٧] أيقولون مثل هذا ولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون؟ ﴿يُسِرُّونَ﴾ هو المضارع من الإسرار، و ﴿يُعْلِنُونَ﴾ المضارع من الإعلان، والفعل إذا كان ماضيه على وزن (أَفْعَل) تُحذف همزتهِ في المضارع، واسم الفاعل، واسم المفعول، بقياس مطَّرد.

فالأصل: (يُؤَسْرِرُون) و (يُؤَعْلِنُون) إلا أن حَذْفَ همزة (أَفْعَل) يطَّرد في المضارع وفي اسم الفاعل واسم المفعول، كما عقده في

الخلاصة بقوله(١):

وَحَـذْفُ هَمْـزِ أَفْعَـلَ اسْتَمَـرَّ فِـي مُضَـارِعٍ وَبِنْيَتَـي مُتَّصِـفِ

والمعنى: أن إسرارهم وإعلانهم عند الله (جل وعلا) سواء؛ لأن الله يعلم السر وأخفى، السر عنده علانية، يعلم ما تخفيه الضمائر ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: آية ١٦].

وعلى هذا الذي قررنا فمعنى: ﴿فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: علمكم إياه وأزال عنكم الحجاب دونه من العلم مما في التوراة.

وقوله: ﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾ أصله (يُحاججوكم) (يُفَاعِلُون) من المُحَاجَجَة يقتضي الطرفين، والحجة: كل ما أدلى به الخصم باطلاً كان أو حقاً(٢). بدليل قوله: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الشورى: آية ١٥].

وقال بعض العلماء: المراد بالفتح في هذه الآية: الحكم. وذلك أن النبي ﷺ يوم خيبر ذكر لهم اسم القِرَدَة. قال بعضهم: ما علموا أن أوائلكم وقع مسخ بعضهم قِرَدَة إلا منكم، بعضكم أخبرهم بهذا(٣)!!. وعلى هذا فالمراد ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما حكم عليكم به من المسخ، والعرب تطلق الفتح على الحكم(٤)، وقد جاء في القرآن العظيم، ومنه على التحقيق: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ

(١) الخلاصة ص ٧٩، وانظر: شرحه في الأشموني (١/ ٦٥٧).

(٢) انظر: المفردات (مادة: حَجَّ) ص ٢١٨، الكليات ص ٤٠٦.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢/ ٢٥٢)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٣٨)، عن مجاهد مرسلاً.

(٤) انظر: ابن جرير (٢/ ٢٥٤).

جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال: آية ١٩] يعني: إن تطلبوا الحكم من الله على الظالم بالهلاك فقد جاءكم ذلك، وهلك الظالم، أبو جهل وأصحابه، ومن هذا المعنى قوله (جل وعلا) عن شعيب: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: آية ٨٩] أي: احكم بيننا بالحق وأنت خير الحاكمين، وهذه لغةٌ حميرية، يسمون الحاكم: فَتَّاحاً، والحُكم فُتَاحَة[1]، ومن هذا المعنى قول الشاعر[2]:

أَلَا أَبْلِغْ بَنِي عمرو رَسُولاً بِأَنِّي عَنْ فُتَاحَتِكُمْ غَنِيُّ

أي: عن حكمكم غني.

هذا قيل به في الآية، ولكنه قول مرجوح غير ظاهر، والتحقيق ــ إن شاء الله ــ هو الأول، ثم إنهم قالوا لهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أتقولون قول من لا يعقل؟ فلا تعقلون أنه لا ينبغي لكم أن تخبروهم وتحدثوهم بما فتح الله عليكم من علم التوراة مما خفي عليهم؛ ليكون حجة لهم عليكم عند الله يوم القيامة، أنكم أقررتم بأنهم على حق، وخالفتموهم ولم تتبعوهم.

ثم إن الله ذكر طائفة ثالثة، وهي الطائفة الجاهلة التي لا تدري، وإنما تسمع كلاماً فتقلِّد فيه تقليداً أعمى، قال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ [البقرة: الآية ٧٨] الأمّيّ: هو الذي لا يقرأ ولا يكتب. أي: طائفة

---

(١) انظر: القرطبي (٢/ ٤).

(٢) تفسير ابن جرير (٢/ ٢٥٤)، الأمالي (٢/ ٢٨١)، اللسان (مادة: فتح) (٢/ ١٠٤٥)، مع شيء من المغايرة في اللفظ، فهو في اللسان هكذا:

ألا من مبلغ عَمْراً رسولاً فإني عن فُتاحتكم غني

وفي ابن جرير والأمالي:

ألا أبلغ بني عُصَم رسولاً فإني عن فُتاحتكم غني

جاهلة لا يكتبون الكتب ولا يقرؤون ما في الكتب. ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي هو التوراة ولا غيره من الكتب.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ في قوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ وجهان معروفان من التفسير عند العلماء[١]: أحدهما تُبعده قرينة في نفس الآية.

أما القولان المعروفان: أن المراد بالأماني هنا: جمع (أُمْنِيَّة) بمعنى (القراءة). والعرب تطلق (الأمنيّة) على (القراءة)، وهذا معنى معروف في كلام العرب، تقول العرب: (تمنَّى) إذا قرأ، ومنه قول حسان[٢]:

تَمَنَّى كِتَابَ الله آخرَ ليلهِ   تَمَنِّيَ داودَ الزَّبُورَ على رِسْلِ

وقول كعب بن مالك أو حسان[٣]:

تَمَنَّى كتابَ الله أَوَّلَ ليلةٍ[٤]   وآخِرها[٥] لاقَى حِمَامَ المقَادِرِ

فمعنى (تمنى): قرأ، وعلى هذا فالاستثناء متصل. وتقرير المعنى: لا يعلمون من الكتاب إلا قراءة ألفاظ ليس معها تفهم وتدبر لما تحويه الألفاظ من المعاني، ومن لم يكن عنده من علم الكتاب إلا قراءة ألفاظ لا يفهم ما تحتها من المعاني فهذا جاهل لا علم عنده. هذا وجهٌ في الآية، وهو الذي قلنا: إن في الآية قرينة تبعده؛

---

(١) انظر: ابن جرير (٢/ ٢٥٩)، القرطبي (٢/ ٦)، أضواء البيان (١/ ٧٩).

(٢) لم أقف على من نسب البيت لحسان (رضي الله عنه)، وهو في القرطبي (٢/ ٦)، الدر المصون (١/ ٤٤٧).

(٣) البيت لكعب بن مالك (رضي الله عنه). انظر: القرطبي (٢/ ٦)، الدر المصون (١/ ٤٤٧).

(٤) في المصادر السابقة: (ليلِهِ).

(٥) في المصادر السابقة: (وآخره).

لأن هذا يدل على أنهم يقرؤون التوراة قراءة ألفاظ لا يفهمون ما تحتها من المعاني، والعبر، والحِكَم. وقوله في أول الآية: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ يدل على أنهم لا يقرؤون. فكأن حمل الأماني على القراءة فيه شِبْهُ مناقضة مع قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾.

الوجه الثاني في الآية الكريمة: أن الاستثناء منقطع، وأن (الأماني) جمع (أُمْنِيَة)، وهي الأمنية المعروفة، وهي أن يتمنَّى الإنسان حصول ما ليس بحاصل. وعلى هذا القول فتقرير المعنى: لا يعلمون الكتاب، لكن يتمنون أماني باطلة صادرة عن جهل لا مبدأ لها من علم، كأن يقولوا: ما عليه محمد وأصحابه ليس بحق، و ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: آية ١٨]، ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾، ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ [البقرة: آية ١٣٥]، والدليل على أن هذا من أمانيهم الباطلة، وأن خير ما يُفسر به القرآن القرآن: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: الآية ١١١] فصرح (جل وعلا) بأن أمانيهم من هذا القبيل، كما قال جل وعلا: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ الآية [النساء: آية ١٢٣] وهذان الوجهان في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ (إنْ) هي النافية. والمعنى: ما هم إلا يظنون، يسمعون عند علمائهم قولاً فيقولونه تقليداً وظناً وجهلاً.

والظن قد قدمنا أنه يُطلق إطلاقين[1]: يطلق على الشك. وهو

(١) انظر: المفردات (مادة: ظن) ص ٥٣٩، القرطبي (٢/ ٦)، البحر المحيط (١/ ٢٧٦).

المراد هنا، وهو المراد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: آية ٣٦] وقول النبي ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»[١]. ومنه قوله عن الكفار: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۝٣٢﴾ [الجاثية: آية ٣٢] واصطلاح الأصوليين: أن الظن لا يُطلق على الشك؛ لأن الشك نصف الاعتقاد. والظن عندهم جُلُّ الاعتقاد، وما بقي عن الظن من الاعتقاد يسمونه وهماً، هذا اصطلاح أصولي[٢].

أما أهل اللغة العربية فإنهم يطلقون اسم الظن على الشك.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾ [البقرة: الآية ٧٩] (ويل): كلمة عذاب، وهو مصدر لا فعل له من لفظه، معناه: هلاك عظيم هائل كائن لهم[٣].

وقال بعض العلماء: (ويل): وادٍ في جهنم تستعيذ جهنم من حرِّه.

ولو فرضنا صحَّة هذا القول لكان راجعاً إلى الأول.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب: لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع، حديث رقم: (٥١٤٣)، (٩/ ١٩٨)، وأخرجه في مواضع أخرى. انظر: الأحاديث رقم: (٦٠٦٤)، (٦٠٦٦)، (٦٧٢٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، حديث رقم: (٢٥٦٣)، (٤/ ١٩٨٥).

(٢) انظر: نشر البنود (١/ ٦٢ ـ ٦٣)، نثر الورود (١/ ٧٢ ـ ٧٣).

(٣) انظر: ابن جرير (٢/ ٢٦٧)، القرطبي (٢/ ٧)، البحر المحيط (١/ ٢٧٦).

ولفظة (ويل) تتعدَّى باللام ولذا عدَّاه بقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ ﴾ وهو مبتدأ خبره جملة: (للذين)، وإنما سَوَّغ الابتداء بهذه النكرة لأنها مُشَمَّة معنى الدعاء، وقد تقرر في علم العربية: أن النكرة إذا كانت مُشَمَّة معنى الدعاء بخير أو بشر كان ذلك مسوغاً للابتداء بها[1]، ومثاله في الدعاء بالخير: ﴿ قَالُواْ سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ [هود: آية ٦٩] (سلام عليكم) مبتدأ، سوغ الابتداء به أنه في معرض الدعاء، والدعاء بالشر كقوله هنا: ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ أي: هلاك عظيم لا خلاص منه للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله، فهؤلاء اليهود ـ قبحهم الله ـ كانوا يأخذون أوراقاً وقراطيس ينقلون فيها من التوراة، يقولون مثلاً: في المحل الفلاني من التوراة كذا وكذا، ويكتبون أموراً باطلة ليست في كتاب الله، كما يأتي في قوله: ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: آية ٩١] وهذا الذي يكتبونه بأيديهم في هذه القراطيس كذب مُختلق على الله (جل وعلا). وهذا الاختلاق والتحريف إنما فعلوه ليتعوضوا به عرضاً من عرض الدنيا، ذلك أنهم لو أخبروا بالواقع لآمن كل الناس، وصاروا تبعاً لا متبوعين، وضاعت عليهم رئاسة الدين، والأموال التي يأخذونها عن طريق الرئاسة الدينية، فصاروا يكتبون أموراً محرَّفَة مزورة، منها تغيير صفات النبي ﷺ، وغيرُ ذلك. فقال الله فيهم: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ ﴾ يكتبون الكتاب في تلك القراطيس بأيديهم.

وقوله: ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ هذا نوع من التأكيد جرى على ألسنة

(١) انظر: الأشموني (١/ ١٥٨)، الدر المصون (١/ ٤٤٩).

العرب، فنزل به القرآن؛ لأنه بلسان عربي مبين[١]. نحو: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: آية ٣٨]، ومعلوم أنه لا يطير إلا بجناحيه. ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم﴾ [آل عمران: آية ١٦٧] ومعروف أنهم إنما يقولون بأفواههم. ﴿يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[٢] (ثم) هذه ـ كمان[٣] ـ تدل على الاستبعاد؛ لأن الكتاب إذا كان مُخْتَلَقاً على الله يبعُد كل البعد أن يقول الإنسان إنه من عند الله.

ثم بيَّن عِلَّة افترائهم وتزويرهم، ودعواهم أن الكتاب من عند الله، وهو ليس من عند الله، بيَّن عِلَّة ذلك وعِلَّته الغائية المقصودة عندهم بقوله: ﴿لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ الاشتراء في لغة العرب: الاستبدال، فكل شيء استبدلته بشيء فقد اشتريته، ومن هذا المعنى قول علقمة بن عَبَدَة التميمي[٤]:

والحَمْدُ لا يُشْتَرَى إِلَّا لَهُ ثَمَنٌ ... مِمَّا تَضِنُّ بِه النُّفُوس مَعْلُومُ[٥]

---

(١) انظر: ابن جرير (٢/ ٢٧٢)، القرطبي (٢/ ٩)، البحر المحيط (١/ ٢٧٧)، الدر المصون (١/ ٤٥١)، وانظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٢) سئل الشيخ (رحمه الله): هل هناك علة أخرى غير التأكيد يحتملها مثل هذا الاستعمال؟

فأجاب الشيخ (رحمه الله) بقوله: نعم، ذكر بعض العلماء فيه نكتة غير هذا، وأن المُراد بذكر الأيدي التسجيل عليهم حيث اختلقوه وكتبوه بأيديهم ثم نسبوا هذا الذي اختلقوه وكتبوه بأيديهم إلى الله (جل وعلا)، فلو وجدوه مكتوباً قبل هذا لكان الافتراء أخف، فالذي يكتب الشيء بيده ثم ينسبه إلى الله (جل وعلا)، فهذا أبعد؛ فيكون فيه شبه تسجيل زيادة في تقبيح فعلهم.

(٣) أي: (أيضاً) كما في اللهجة الدارجة.

(٤) المفضليات ص ٤٠١.

(٥) في المفضليات: (مما يضن به الأقوام معلوم). وبه يستقيم الوزن.

وقول الراجز[١]:

بُدلت[٢] بالجمة رأساً أزعرا وبالثنايا الواضحات الدردرا[٣]

.... [٤] كما اشترى المسلم إذ تنصرا

أي: كما استبدل.

و (الثمن) تطلقه العرب على كل عوض مبذول في شيء تسميه العرب ثمناً، ومنه بيت علقمة المذكور آنفاً في قوله:

والحَمْدُ لا يُشْتَرَى إلا لَهُ ثَمَنٌ ....

وقول عمر بن أبي ربيعة[٥]:

إن كنتَ حاولتَ دنياً أو أقمتَ لها ماذا أخذتَ بترك الحمد من ثَمَن

ومعنى الآية الكريمة: أنهم يغيرون كلام الله، ويكتبون على الله ما لم يقل، ويقولون: إنه من عند الله، وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون؛ لأجل أن يعتاضوا بذلك ثمناً قليلاً من عرض الدنيا، وهو ما ينالونه من المال على رئاستهم الدينية.

---

(١) انظر: شواهد الإنصاف (ملحق في آخر الكشاف) (٤/ ٤٠).

(٢) في شواهد الإنصاف: (أخذت).

(٣) في شواهد الإنصاف: (دردرا).

(٤) لم يذكر الشيخ (رحمه الله) صدر هذا البيت وهو في شواهد الإنصاف، ونصه: (وبالطويل العمر عمراً حيدرا).
وهو في الدر المصون (٣/ ١٧٧)، (٧/ ٦٧)، (٩/ ٢٢٩).

(٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٢١٧، ورواية الديوان:
إن كنت حاولت دنيا أو نعمت بها فماذا أخذت بترك الحج من ثمن
وهو في السير للذهبي (٦/ ٣٣٦) مع مغايرة في بعض الألفاظ.

ثم إن الله قال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: هلاك عظيم لا خلاص منه كائن لهم، مبدؤه وسببه مما كتبت أيديهم مُزوراً على الله أنه من عند الله وليس من عند الله، ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾ أي: من الرُّشا والأموال عوضاً عن ذلك التزوير والافتراء على رب السماوات والأرض، وهذا غاية التهديد والوعيد العظيم حيث قال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: وتقوَّلوه على الله كذباً، ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾ أي: من المال عوضاً عن ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾.

* * *

تفسير سورة الأنعام

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

/ ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٣٣ ـ ٣٦]. [١ / أ]

يقول الله جلّ وعلا: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: آية ٣٣].

قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ﴾ قرأه عامّة القراء، ما عدا نافعاً: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ﴾ مضارع حَزَنَه الأمر ـ بالثلاثي ـ يَحْزُنُه، وقرأه نافع وحده: ﴿قد نعلم إنه لَيُحْزِنُك﴾ من أحزنه الأمر ـ بصيغة الرباعي ـ يُحزنه (بضم الياء)(١).

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٧١.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ قرأه عامة القراء ما عدا نافعاً والكسائي: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بصيغة (التفعيل). وقرأه نافع والكسائي من بين القُراء ﴿فإنهم لا يُكْذِبُونَك﴾ بصيغة (الإِفعال) لا بصيغة (التفعيل)[1].

وسبب نزول هذه الآية كما ثبت عن علي (رضي الله عنه) أن الكفار ـ كفار مكة ـ كأبي جهل ونظرائه قالوا للنبي ﷺ: نحن لا نكذبك، ونعلم أنك صادق أمين، ولكن هذا الذي جئت به هو الذي نكذبه، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾[2].

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٣.

(٢) أخرجه الترمذي في السنن، كتاب تفسير القرآن، باب (٧)، حديث رقم: (٣٠٦٤) (٥/ ٢٦١)، والحاكم (٢/ ٣١٥) عن علي رضي الله عنه. وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». اهـ. وعقبه الذهبي بقوله: «قلت: ما خرجا لناجية شيئاً». اهـ. كما أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٤/ ١٢٨٢)، والدارقطني في العلل (٤/ ١٤٣)، وأورده السيوطي في الدر (٣/ ٩) وعزاه للترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والحاكم، والضياء.

وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٦١)، وابن جرير (١١/ ٣٣٤)، والواحدي في أسباب النزول ص ٢١٦، وابن أبي حاتم في التفسير (٤/ ١٢٨٢)، والدارقطني في العلل (٤/ ١٤٣). عن ناجية بن كعب مرسلاً. قال الترمذي: (وهذا أصح). اهـ.

وجميع طرق هذا الحديث ـ بالوصل والإرسال ـ تدور على أبي إسحاق السبيعي الذي يرويه عن ناجية بن كعب. وأبو إسحاق السبيعي (رحمه الله) قد رُمي بالاختلاط والتدليس كما في التهذيب (٨/ ٥٧ ـ ٥٩) وقد عنعنه عن ناجية.

وقد ضعف الألباني هذا الحديث (موصولاً ومرسلاً). انظر: ضعيف سنن =

و (قد) في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ هي للتحقيق[1]، أي: لتحقيق علم الله جلّ وعلا.

وما جاء على ألسنة علماء العربية[2] من أن (قد) إذا دخلت على المضارع أنها تكون للتقليل، وأنها تارة تكون للتكثير كـ «ربما»، واستدلوا بأنها تكون تارة للتكثير بقول الشاعر[3]:

قد أَتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرًّا أناملُه ... كأنَّ أثوابَه مُجَّتْ بِفُرصادِ

وقول الآخر[4]:

أخي ثقةٍ لا تُتْلِفُ الخمرُ مالَه ... ولكنه قد يُتْلفُ المالَ نائلُه

قالوا: «قد يُتلفُ المال» أي يَكْثُر من نائله إتلاف المال، وكذلك يكثر في هذا المفتخر بقتل الأقران: قتل الأقران. كل هذا خلاف التحقيق في هذه الآية؛ لأن (قد) فيها للتحقيق، يُبيِّن الله لخلقه مُحققاً لهم أن علمه مُحيط بما ذكر أنه يعلمه، وهو كثير في

= الترمذي ص ٣٧٤، وصححه أحمد شاكر والأرناؤوط. انظر: عمدة التفسير (٥/ ٢٤ ـ ٢٥)، جامع الأصول (٢/ ١٣٢).

(١) انظر: الدر المصون (٤/ ٦٠١).

(٢) في هذه المسألة انظر: البحر المحيط (٤/ ١١٠)، الدر المصون (١/ ٤١٢)، (٤/ ٦٠٢)، الخزانة (٤/ ٥٠٢)، البرهان للزركشي (٢/ ٤١٧)، قواعد وفوائد لفقه كتاب الله تعالى ص ٤٥.

(٣) البيت لعبيد بن الأبرص وهو في الكتاب لسيبويه (٤/ ٢٢٤)، البحر المحيط (٤/ ١١٠)، الخزانة (٤/ ٥٠٢)، الدر المصون (١/ ٤١٢).
واصفرار الأنامل هنا كناية عن الموت. والفرصاد: ماء التوت، أي من الدم.

(٤) البيت لزهير. وهو في البحر المحيط (٤/ ١١٠)، الدر المصون (٤/ ٦٠١، ٦٠٢)، والمُثبت فيهما: «ولكنه قد يُهْلِكُ».

القرآن، كقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: آية ١٨]، ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: آية ١٤٤]، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ [الحجر: آية ٩٧] كل هذه الآيات (قد) فيها قبل الفعل المضارع للتحقيق كما هنا.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ﴾ الضمير في قوله: «إنه» هو ضمير الشأن[١]، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ﴾ أي الأمر والشأن، والله ﴿لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾.

وهذا الذي يقولونه، الذي يحزنه، أشارت له آيات أُخر، كما بيّن تعالىٰ أن هذا الذي يقولونه له يُحزنه، وأنه يضيق به صدره كما قال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧)﴾ [الحجر: آية ٩٧] وبيّن في سورة هود أن هذا الذي يضيق صدره مما يقولون له إنه من نوع التكذيب والتعنت كما قال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ [هود: آية ١٢] يعني: ضائق صدرك؛ لأجل أن يقولوا تكذيباً وتعنتاً: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يصدقه.

وقال بعض العلماء[٢]: هذا الذي يحزنه من كلامهم قولهم له: «أنت شاعر، ساحر، كاهن، هذا الذي جئت به أساطير الأولين، لا نقبل دينك»، هذا التكذيب ونسبته إلى أنه ساحر، مجنون، كاهن، هذا الذي يؤذيه ويضيق به صدره، ويحزنه. وقد بيّن له الله (جلّ وعلا) في آخر سورة الحجر علاج هذا الداء من هذا الذي يقولون له فيحزنه، وبيّن له أنه إذا أحزنه ذلك القول الذي يقولون أنه يُبادر إلى

---

(١) انظر: الدر المصون (٤/ ٦٠٣).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ١١١).

الصلاة؛ فإن الصلاة يعينه الله بها ويُذهب عنه ذلك الحُزن، كما قال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: آية ٤٥].

وقال له في آخر سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر: آية ٩٧] فرتب على ضيق صدره بما يقولون ــ بالفاء ــ قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: آية ٩٨].

عرفنا أن هذا التسبيح، والصلاة، والإنابة إلى الله هو دواء ذلك الحزن والأذى الذي يناله منهم؛ ولذا كان ﷺ ــ كما في حديث نعيم بن عمار كان ــ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة[1]، صلوات الله وسلامه عليه، كما دلّ على ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ﴾ [الحجر: الآيتان ٩٧، ٩٨] أي فدواء ذلك هو ما أمرك ربك به بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ وقـال هنا: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ هذا الذي يقولونه لك نحن نعلم أنه يحزنك، أي: يورثك الحزن لما يلقونك به من التكذيب، ونسبتهـم إيـاك إلـى السحـر، والشعـر، والكهـانـة، والجنـون، هـذا يؤذيه ﷺ، فيضيق به صدره، ومن أشد ما يؤذيه: امتناعهم من الإيمان؛ لأنه صلوات الله وسلامه عليه مجبول على الشفقة، وقد وصفه الله بالرأفة والرحمة بالمؤمنين في قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: آية ١٢٨] فمعنىٰ ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يعزُّ عليه ويعظم، ويكبر عليه كل ما يصيبكم منه العنت، وهو المشقة والأذى[2] ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٢) انظر: تذكرة الأريب لابن الجوزي (١/ ٢٢٩).

إلى أن قال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾ كان إذا امتنعوا من الإيمان أسِف، وحزن حزناً شديداً، كما قال له الله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء: آية ٣] أي: لأجل أن لا يكونوا مؤمنين. و(الباخع) معناه: المهلك[1]، أي: فلعلك مهلك نفسك أسفاً لأجل أنهم لم يؤمنوا ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: آية ٦] أي حزناً شديداً عليهم ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: آية ٨] ونحو ذلك من الآيات[2]؛ ولذا قال له الله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِى﴾ موصول، وجملة الموصول ﴿يَقُولُونَ﴾ والضمير العائد إلى الصلة محذوف؛ لأنه منصوب بفعل، وتقديره: (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولونه) فالهاء المحذوفة التي في محل المفعول هي الرابط بين الصلة والموصول.

ثم إن الله قال لنبيه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾. ﴿فإنهم لا يُكْذِبونَك﴾[3] قال بعض العلماء: معنى القراءتين واحد[4]، والعرب تُعدّي الثلاثي بالتضعيف كما تُعدّيه بالهمزة؛ كما يقال: «كثَّرت الشيء» و«أكثرته». وجماهير العلماء على أن بينهما في المعنى فرقاً[5]، أن معنى (كذّب) ليس معنى (أكذب)، والمقرر في علوم القراءات: أن القراءتين حُكمهما حكم الآيتين المختلفتين، فكل

(١) انظر: تفسير المشكل من غريب القرآن ص ١٤١، الدر المصون (٧/ ٤٤٢).

(٢) راجع الأضواء (٢/ ١٨٩).

(٣) انظر: المبسوط ص ١٩٣.

(٤) انظر: حجة القراءات ص ٢٤٨.

(٥) انظر: المصدر السابق ص ٢٤٧.

منهما تفيد ما تضمنته من الأحكام والمعاني[1]. أما على قراءة الجمهور: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ فالتحقيق أن المعنى: أن الكفار لا يُكذبونك.

واعلم أنه معروف في القرآن وفي لغة العرب أن الفعل يُسند إلى المجموع والمراد بعض المجموع لا جميعهم[2]، ومما يوضح هذا المعنى غاية الإيضاح من القرآن قراءة حمزة والكسائي[3]: ﴿فَإِن قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: آية ١٩١] بصيغة (القَتْل) في الفعلين؛ لأنه لا يُعقل أن الذي قُتل بالفعل يُؤمر بقتل قاتله، ولكن المعنى: فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم البعض الذي لم يُقتل[4]. وهذا أسلوب معروف في القرآن وفي غيره. وإذا عرفت هذا فاعلم أن بعض الكفار علموا صدق النبي ﷺ في الباطن، وقلوبهم مُوقنة أنه صادق[5]، كما قال أبو جهل ـ لعنه الله ـ لما قال له الأخنس بن شُريق قال له: أنا وأنت في خلوة، ليس معنا أحد من قريش، فأخبرني عن صحة ما يقوله محمد (صلوات الله وسلامه عليه). فقال له أبو جهل: والله إني لأعلم أنه صادق، وأنه نبي، ووالله ما كذب محمد قط ولا يكذب، ولكن كنا نحن وبنو هاشم فرسي رهان، طعِموا فأطعمنا، وفعلوا

---

(١) في هذه القاعدة انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٩١ ـ ٣٩٨، ١٥/ ٢٤٨، ١٧/ ٣٨١ ـ ٣٨٢)، شفاء العليل ص ٩٦، البرهان للزركشي (١/ ٣٢٦)، الإتقان (١/ ٢٢٧)، أضواء البيان (٢/ ٨، ١٢٠، ٦/ ٢٢٦، ٦٨٠).

(٢) في هذا المعنى انظر: ابن جرير (١/ ٥٠١)، (٢/ ٤٨٥ ـ ٤٨٧، ٥٠٠)، (١٦/ ٩١) وراجع ما مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٤) انظر: حجة القراءات ص ١٢٨.

(٥) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٣١)، الدر المصون (٤/ ٦٠٤).

ففعلنا، واليوم يقولون: مِنّا نبيّ! فمن لنا بهذه؟ والله لا نعترف بنبوته أبداً[١]!! ولا شك أن هنالك قوماً من الجهلة يسمعون كلام الرؤساء فيظنون أنه كاذب، ويعتقدون كذبه. إذا عرفتم هذا فقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ راجع إلى الذين علموا صدقه. وكثير من عقلائهم عالم في قرارة نفسه أن النبي ﷺ نبيّ، وأنه رسول، وهم يجحدون ذلك ظلماً. وعليه فالمعنى: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ في الحقيقة، فيما بينهم وبين أنفسهم، ولكن الظالمين يجحدون آيات الله التي أُنزلت عليه، فلم يعترفوا بأنها من الله، كما قال له أبو جهل: أنت عندنا صادق، ولا نكذبك، ولكن نكذب هذا الذي جئت به[٢].

أما على قراءة: ﴿فإنهم لا يُكْذِبُونَك﴾ فـ(أَكْذَبَ) بصيغة (الإفعال) تفترق مع (كذّب) بمعنيين[٣]، أحدهما: أن الفرق بين (كذّب) و (أكذب): أنك إذا كذّبت إنساناً، معناه قلت له: كذبت، ونسبته إلى افتراء الكذب. وإذا قيل: أكذب إنسانٌ إنساناً، معناه: أن كلامه يعتقد أنه كذب، ولا ينسب ذلك الإنسان إلى الكذب، بل يقول: لعله أخطأ، أو نسي، أو سها وهو لا يقصد الكذب أو تخيل له غير الحق. فمعنى «أَكْذَبَ» على هذا: أنه لا يتعمد الكذب، وأنه

---

(١) أخرجه ابن جرير (١١/ ٣٣٣)، والواحدي في أسباب النزول ص ٢١٦ عن السدي مرسلاً. على أن ذلك كان في يوم بدر.
وروى ابن إسحاق نحوه عن الزهري مرسلاً. على أن ذلك كان في مكة قبل الهجرة. انظر: السيرة لابن هشام (١/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩)، تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٩).

(٢) مضى قريباً.

(٣) انظر: حجة القراءات ص ٢٤٧، القرطبي (٦/ ٤١٦)، البحر المحيط (٤/ ١١١).

لا يُنسب إلى الاختلاق والافتراء، ولكن القول الذي جاء به غير مطابق للحق.

الوجه الثاني في قراءة ﴿يُكْذِبُونَكَ﴾: ـ هو الذي عليه الأكثر ـ: أنه تقرر في فن التصريف أن من معاني «أَفْعَل» إذا قلت: أَفْعَلتُ الرجل، إذا وجدته كذا، تقول: أَحْمَدتُه إذا وجدته حميداً، وأَبْخَلْتُه إذا وجدته في نفس الأمر بخيلاً، وأَكْذَبْتُه إذا وجدته في نفس الأمر كاذباً، وعلى هذه القراءة: إن ظنت نفوسهم أنك كاذب، وكذبوك، وقالوا: إنك كاذب، ساحر، كاهن، فإنهم لا يصادفونك في نفس الأمر كاذباً، فأنت علىٰ حق فيما بينك وبين الله، فهوِّن عليك، ولا تثقل عليك افتراءاتهم.

هذان الوجهان من التفسير في قراءة ﴿يُكْذِبُونَكَ﴾ وقد قدمنا معنى ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قد قدمنا معنى الظلم(١).

﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي الشرعية الدينية ﴿يَجْحَدُونَ﴾ أي يجحدونها وينكرون أنها حق.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٣٤].

هذه الآية تسلية للنبي ﷺ وتهوين عليه؛ لأنك إذا وجدت إنساناً وقع في مصيبة وبليّة وقلت له: هذه المصيبة التي نزلت بك قد نزلت بإخوان لك كرام أفاضل، وصبروا عليها، وكان لهم في عاقبة

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

الأمر الظفر والنجاح، والعاقبة المحمودة؛ فإن هذا يُهوِّن ويُسهِّل المصيبة على ذلك المُبتلى. وقد نصّ الله في أخريات سورة هود على أنه يقص على النبي أخبار الرسل؛ ليُهوِّن عليه ويُثبّت قلبه، وذلك في قوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: آية ١٢٠] يقول له: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: آية ٤٣] هذا الذي لقيك به قومك لُقي الرسل من قِبَل قومهم بمثله وأشد، فاصبر كما صبروا، فستكون لك العاقبة الحميدة كما كانت لهم. وفي هذا أعظم بشارة وأكرم تسلية له ﷺ. واللام في (لقد) موطئة قسم محذوف. والله لقد كُذبت رسل من قبلك، هؤلاء الرسل الذين كُذبوا من قبلك منهم من جاء مفصلاً في هذا القرآن العظيم، كقول قوم نوح لنوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: آية ٢٧] وقولهم له: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود: آية ٣٢]، وقد سخروا منه كما قال: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ [هود: آية ٣٨]، والمفسرون يقولون[1]: سُخريتهم منه التي ذكرها الله أنه لما أراد أن يصنع السفينة [وتعلم][2] النجارة صاروا يضحكون، ويقولون: بعد أن كنت نبياً صرت [نجاراً، وهكذا عاد قالوا لهود، وثمود][3] قالوا لصالح!! قالوا لنبي الله هود: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: آية٥٣]، وقالوا لصالح: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: آية ٦٢] يعني: وأما إذا

(١) انظر: القرطبي (٩/ ٣١).

(٢) في هذا الموضع كلمة غير واضحة وما بين المعقوفين زيادة ينتظم بها الكلام.

(٣) في هذا الموضع وقع مسح وانقطاع. وما بين المعقوفين زيادة يتم بها المعنى.

ادعيت النبوة، ودعوت إلى عبادة الله فلا رجاء لنا فيك. وهذا جاء مفصلاً عن الرسل في القرآن العظيم، كتكذيبهم لنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وتكذيب فرعون وقومه لموسىٰ وهارون، وما جرى مجرى ذلك، وهنالك رسل لم تُقص عليه أخبارهم، كما نص الله عليه في سورة النساء[1]، وفي سورة المؤمن: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: آية ٧٨].

وإنما قال: ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ بتاء التأنيث لما تقرر في علم العربية: أن ثلاثة من الجموع ـ أعني الجمع المُكَسَّر مذكراً كان أو مؤنثاً، والجمع السالم المؤنث، كلها تجري مجرى الواحدة المؤنثة مجازية التأنيث[2]؛ ولذلك أُنث الفعل هنا وقيل فيه: ﴿كُذِّبَتْ﴾ وأُنثت الإشارة إليه لهذا كما قال: ﴿۞ تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ [البقرة: آية ٢٥٣] ونحو ذلك ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ حذف الفاعل هنا وأناب المفعول به منابه؛ لأنه يوضحه. أي كذبهم قومهم فصبروا على ذلك التكذيب والأذى.

﴿فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا﴾ (ما) هنا مصدرية. فصبروا على التكذيب.

وقوله: ﴿وَأُوذُوا﴾ فيما يُعطف عليه وجهان[3]: أظهرهما أنه معطوف على: ﴿فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا﴾ أي: فصبروا على التكذيب، وعلى الإيذاء الذي ينالهم من قومهم، حتى جاءهم نصرنا.

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: آية ١٦٤].

(٢) انظر: ضياء السالك (٢/ ٢٥).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ١١٢)، الدر المصون (٤/ ٦٠٥).

وعلى هذا فقوله: ﴿وَأُوذُواْ﴾ معطوف على قوله: ﴿كُذِّبُواْ﴾ فصبروا على ما كُذبوا، وصبروا على ما أُوذوا. و (ما) مصدرية، أي: صبروا على التكذيب والإيذاء حتى جاءهم نصرنا، وهنالك قوم قالوا: الإيذاء لم يتقدم له ذكر حتى يكون الصبر عليه مذكوراً؛ ولذا قالوا: ﴿وَأُوذُواْ﴾ عطف على قوله: ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني: لقد كُذب الرسل وأوذوا، فصبروا على ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ يعني: أن الله من كلماته (جل وعلا) نصره لرسله، وأن العاقبة الحميدة كائنة لهم[1]، كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: الآيات ١٧١ ـ ١٧٣] ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ﴾ [المجادلة: آية ٢١] وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر: آية ٥١] مثل هذه الكلمات من الوعد الصادق بنصر الرسل، وأن العاقبة لهم، كما قال عن مجموع الرسل: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾ [إبراهيم: الآيتان ١٣، ١٤] هذه الكلمات وغيرها من سائر كلمات الله التي لا نهاية لها كما قال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: آية ١٠٩] لا مبدل لها. والمعنى قال الله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: الآيات ١٧١ ـ ١٧٣] فليس يمكن لأحد أن يُبدل هذا الخبر ويجعل إيجابه سلباً، فيجعل الرسل مقهورين غير منصورين، لا أبداً، وقس على ذلك.

---

(١) انظر: القرطبي (٦/٤١٧)، البحر المحيط (٤/١١٢ ـ ١١٣).

وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ ومعنى التبديل هو إذهاب هذا والإتيان ببدل غيرها.

﴿لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ وعده رُسله بالنصر والعاقبة المحمودة، فتبديل هذا أن ينزع النصر عنهم، ويجعل مكانه غلبتهم وإذلالهم. لا أحد يستطيع هذا التبديل لكلمات الله.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٤﴾ فاعل (جاء) هنا محذوف دل عليه المقام[1]. و (من) في قوله: ﴿مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٤﴾ تبعيضية، أي: ولقد جاءك بعض أنباء المرسلين؛ لأن الله يقول: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَۗ﴾ [غافر: آية ٧٨] وفي هذا البعض الذي جاءك من أنبائهم تسلية لك، وتثبيت لك، كما قال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود: آية ١٢٠]، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ﴾ [فصلت: آية ٤٣] ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: آية ٣٥].

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٥﴾ [الأنعام: آية ٣٥].

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ كان النبي ﷺ إذا دعا قومه إلى الإسلام، وعرض عليهم هذا القرآن العظيم بما فيه من الآيات البينات التي لا تترك في الحق لبساً، قابلوه بالرد القبيح والإعراض، أي:

---

(١) انظر: القرطبي (٦/٤١٧)، البحر المحيط (٤/١١٣)، الدر المصون (٤/٦٠٦).

التولي والصدود عن دين الله (جل وعلا) وآذوه ﷺ، فبيّن في هذه الآية أن من أسوإ ما يسوؤه، وأحزن ما يحزنه، ويضيق به صدره إعراضهم وتوليهم عن الحق؛ لما جُبل عليه من الشفقة والرحمة؛ ولذا نهاه الله مراراً عن شدة أسفه وحزنه عليهم[١]، قال له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: آية ٨] لأجل أن لم يؤمنوا فهوِّن عليك، وقال له: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: آية ٣] ومعنى ﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ مهلك نفسك بالأسف والحزن؛ لأجل عدم إيمانهم.

و (الباخع) في لغة العرب: المهلك[٢]، ومنه قول غيلان ذي الرمة[٣]:

ألا أيُّهذا الباخعُ الوجدُ نفسَه لشيء نَحَتْه عن يديه المقادِرُ

«الباخع الوجد نفسه» أي: المهلك الوجد نفسه.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: مهلكها.

﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ لأجل عدم إيمانهم، فَهَوِّن عليك، وقال له: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: آية ٦] وهو شدة الحزن، أي: لشدة الحزن عليهم أن لم يؤمنوا، وقال له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: آية ٨] من شدة التأسف على عدم إيمانهم، فَهَوِّن عليك. والله يعني بهذا: يعني أنت رسول مهمتك الرسالة، وقد بلغت، ونصحت، وأديت كما

(١) انظر: الأضواء (٢/ ١٨٩).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٣) من سورة الأنعام.

(٣) البيت في معاني القرآن للزجاج (٣/ ٢٦٨)، الدر المصون (٧/ ٤٤٢).

ينبغي، فهداهم ليس عليك، وحسابهم ليس عليك، فربهم أعلم بهم، هو الذي يُشقي ويهدي، وهو الذي إليه مرجعهم وحسابهم، فَهَوِّن عليك، فقد قمت بما عليك: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۝٤٠ ﴾ [الرعد: آية ٤٠]؛ ولذا شدد عليه هنا في هذه الآية، قال له: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أي شق وعظم عليك ﴿ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أي: صدودهم وتوليهم عما جئت به، وقد أمرتك مراراً أن تترك عنك هذا الحزن، وتعلم أنّ ما عليك قد أديته، بلغت ونصحت، وأن هداهم ليس بيدك ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾[البقرة: آية ٢٧٢] ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [المائدة: آية ٤١]، ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: آية ٣٧] قال له هنا: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أي: شق وعظم عليك وأحزنك[1] ﴿ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أي: صدودهم عما جئت به. و (الإعراض) مصدر أعرضِ يعرض إعراضاً، إذا صدّ وتولىٰ عن الشيء. فكأن الله يقول له: إن عظُم وشق عليك وأحزنك صدودهم وتوليهم، وقد نهيتك مراراً عن هذا الحزن، فإن كانت لك طاقة أو قدرة فأت بها، وإن عجزت عن ذلك فاعلم أن ذلك بيد الله، فكِلْ الأمر إليه، وهون عليك؛ ولذا قال: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ ﴾ الاستطاعة على الشيء: القدرة عليه.

﴿ أَن تَبْتَغِىَ ﴾ تطلب.

﴿ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ النفق السَّرَب في بطن الأرض، الذي يكون له وجه من جهة أخرى ينفذ منه الإنسان[2]، أن تبتغي سَرَباً في الأرض

(١) انظر: القرطبي (٦/ ٤١٧).

(٢) انظر: القرطبي (٦/ ٤١٧)، الدر المصون (٤/ ٦٠٩).

[فتغوص][(١)] به في بطن الأرض؛ لتُخرج آية تقهرهم بها، ﴿أَوْ سُلَّمًا﴾ أو مصعداً تصعد به إلى السماء[(٢)]، حتى تحصّل من الأسفل أو من الأعلى آية تقهرهم بها؛ إن قدرت على هذا فافعل. فجواب ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ محذوف، وتقديره: فافعل. إن قدرت على ذلك فافعل[(٣)]، وإن كنت عاجزاً عن ذلك ــ كما هو الحق ــ فهون عليك، واعلم أن أمرهم إلى الله، ومصيرهم إلى الله، فهون عليك.

وقوله في صدر هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ﴾ المعروف في فن العربية: أن مادة (الكاف والباء والراء) تستعمل في القرآن العظيم، وفي لغة العرب استعمالين، ويتغير شكلها بحسب الاستعمالين[(٤)]، إن كانت (كَبُر) معناه: أنه عظُم وكبر، فهي مضمومة الباء في مضارعها وماضيها، تقول: «كبُر عليه الأمر»، إذا عظم وشق. ومنه قوله هنا: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، وقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: آية ٥]، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: آية ٣] ومضارع هذه أيضاً: (يكبُر) بضم الباء على القياس، كما في قوله: ﴿۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: الآيتان ٥٠، ٥١] فهذه كبُر يكبُر. أما معناها الآخر، وهو (الكِبَر في السّن)، بأن تقول: «كبِر هذا الغلام في سِنه»، فهي مكسورة الباء في الماضي، تقول: (كبِر)، بكسر الباء. ولا تقول: (كبُر)، وتقول في مضارعها: (يكبَر) بفتح الباء،

---

(١) في الأصل: فتغيص.

(٢) انظر: القرطبي (٦/ ٤١٧)، الدر المصون (٤/ ٦١٠).

(٣) انظر: الدر المصون (٤/ ٦٠٧)، ضياء السالك (٤/ ٥١ ــ ٥٢).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

ولا تقول: (يكبُر)، على القياس، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء: آية ٦] لأنه هنا مضارع (كبِر) بكسر الباء، (يَكْبَر) بفتحها على القياس، ومنه بهذا المعنى الأخير قول مجنون بني عامر[1]:

تَعَشَّقْتُ ليلىٰ وهي ذاتُ ذوائب ولم يبدُ للعينين من ثديها حجم
صغيرين نرعىٰ البهم يا ليت أننا إلى اليوم لم نَكْبَر ولم تَكْبَر البهم

هذان معنى (كبُر) و(كبِر)؛ لأنهما معنيان مختلفان يتغير المعنى بهما. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ النفق: السرب في داخل الأرض[2]، وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[3]:

ولا لكما مَنْجىً من الأرض فابغِيا بها نَفَقاً أو في السموات سُلَّماً

ويُجمع النفق على أنفاق، ومنه قول امرىء القيس[4]:

خَفَاهنّ منْ أنفاقهنّ كأنّما خفاهنّ وَدْقٌ من عَشّيّ مجلِّبِ

---

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٢) مضى قريباً.

(٣) البيت لكعب بن زهير. وهو في البحر المحيط (٤/ ١١٤)، الدر المصون (٤/ ٦١٠).

(٤) ديوان امرىء القيس ص ٣٦، وقبله:

ترى الفأر في مستنقع القاع لاحباً على جدَد الصحراء من شد مُلهبِ

والمعنى: خفاهن: أظهرهن، يعني الفئران. أنفاقهن: أجحارهن. الودق: المطر. فهو يقول: إن شدة وقع حوافر هذا الجواد على الأرض أوهم الفئران في أجحارهن بأنه وقع مطر شديد فتركت أنفاقها، وخرجت ناجية بأرواحها إلى مرتفعات الأرض.

يعني أخرجهن من جحورهن؛ لأن جحور الحشرات تسمى أنفاقاً، واحدها نفق. والسُّلم: هو المصعد إلى الشيء، معروف في كلام العرب. والسُّلم إلى السماء: المصعد الذي يصعد فيه إلى السماء(١). ومنه قول زهير في معلقته(٢):

ومَن هاب أَسْبَابَ المَنَايَا يَنَلْنَهُ ولَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

وكل مصعد يصعد فيه الإنسان تسميه العرب سُلماً، ولو كان معنوياً، فالشيء الذي يُرتَقَى به إلى الأمر ـ ولو معنوياً غير محسوس ـ تقول له العرب: سُلم، ومنه قول الحطيئة(٣):

الشعر صعب وطويل سُلَّمُه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلَمُه
زلت به إلى الحضيض قدَمُه

وقوله جل وعلا: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم﴾ هذا الفعل المضارع منصوب؛ لأنه معطوف على فعل منصوب، والمضارع المعطوف على منصوب يُنصب. والأول المنصوب قوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ﴾ فقوله: ﴿تَبْتَغِىَ﴾ منصوب بـ (أن). وقوله: ﴿فَتَأْتِيَهُم﴾ معطوف عليه، ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ قاهرة تقهرهم بها فافعل إن قدرت، وإن لم تقدر على ذلك فهوِّن عليك، واعلم أن أمرهم بيد الله، هُدَاهُم بيده وحسابهم عليه، فهون عليك.

ثم إن الله قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ هذا الهدى الذي يؤسفك أن لم يهتدوا هو بيد الله، لو شاء ربك ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى

(١) مضى قريباً.

(٢) انظر: شرح القصائد المشهورات (١/ ١٢٢).

(٣) ديوان الحطيئة برواية، وشرح ابن السكيت ص ٢٩١.

﴿ٱلْهُدَىٰۚ﴾ لفعل. والقاعدة المقررة في علم العربية: أن فعل المشيئة إذا قُرن بشرط أنه يُحذف مفعوله دائماً[(١)]؛ لأن جزاء الشرط يكفي عنه. والمفعول محذوف تقديره: (ولو شاء الله جَمْعَهُم على الهدى لجمعهم على الهدى) فغالباً إذا عُلق فعل المشيئة بالشرط حُذف مفعوله لدلالة جواب الشرط عليه، ولم نجده موجوداً في القرآن، ولا في كلام العرب، إلا إذا كان المفعول مصدراً منسبكاً من (أن) وصلتها، كقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: آية ١٧]، ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ﴾ [الزمر: آية ٤] لأن الأسلوب الشائع في القرآن هو حذف هذا المفعول، أن يقول: لو أراد الله لاصطفى ولداً، (لو أراد لاتخذ لهواً)، ولكنه هنا أثبت المفعول، وهو مصدر منسبك من (أن) وصلتها. ونظيره في إثبات المفعول ــ وهو مصدر منسبك من (أن) وصلتها ــ قول الشاعر[(٢)]:

ولو شئتُ أنْ أبْكِي دماً لبَكَيْتُهُ   عليك ولكن ساحةُ الصَّبرِ أوسَعُ

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (جلّ وعلا) ﴿لَجَمَعَهُمْ﴾ جميعاً ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ﴾، والهدىٰ هنا بمعناه الخاص؛ لأنا قدمنا في هذه الدروس ــ في الكلام على سورة الفاتحة ــ أن الهدى يطلق في القرآن إطلاقين: يطلق إطلاقاً عاماً، ويطلق إطلاقاً خاصاً، أما الهدى بمعناه العام: فهو إبانة الطريق، وإيضاحها، وتوضيح الخير من الشر. ومنه بهذا المعنى في القرآن: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: آية ١٧] أي:

---

(١) انظر: الإتقان (٣/ ١٧٢ ــ ١٧٣)، الدر المصون (١/ ١٨٣، ٤/ ٦١٤).

(٢) البيت للخُريمي، وهو في الكامل للمبرد (٣/ ١٣٦٢)، تاريخ دمشق (٨/ ٢٠٢).

أوضحنا لهم طريق الخير والشر بيّنة على لسان نبينا صالح. وليس هذا الهدىٰ (هدىٰ توفيق)، وإنما هو (هدى بيان) فقط بدليل قوله: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: آية ١٧] فتبين أن قوله: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ ليس (هدى توفيق)، وإنما هو (هدى بيان) وإيضاح للحق من الباطل، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى في الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: آية ٣] لأن معنى قوله: ﴿هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي بيّنا له طريق الخير والشر، وأوضحنا له ما يُتقى وما يُفعل، بدليل قوله بعده: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: آية ٣] لأنه لو كان (هدىٰ توفيق) لما فصَّله بقوله: ﴿وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ ومن إطلاق الهدى بمعناه الخاص قوله في النبيين الذين ذكرهم في الأنعام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] وهو بمعناه الخاص: التوفيق إلى ما يرضي الله.

وإذا علمتم أن للهدى إطلاقين: إطلاقاً عاماً، وإطلاقاً خاصاً[(١)]، وأن إطلاقه العام معناه الهدى بمعنى البيان، والإرشاد، وبيان الحق وإيضاحه، وأن معناه الخاص هو تفضُّل الله بالتوفيق على عبده، وأن يهديه إلى طريق الخير، كما قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ [الأنعام: آية ١٢٥] أي: بهذا الهدى الخاص ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ﴾.

بهذا التفصيل تزول عنكم إشكالات في كتاب الله؛ لأن الله مثلاً

---

(١) انظر: شفاء العليل ص ٦٥، دفع إيهام الاضطراب ص ٧ ـــ ٨، (ملحق بآخر الجزء التاسع من أضواء البيان).

قال لنبيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: آية ٥٦] وقال له في آية أخرى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: آية ٥٢] فيقع فيه لطالب العلم أن يقول: كيف قال له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: آية ٥٦]، وقال له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: آية ٥٢]؟

والجواب عن الآيتين: هو ما بيّنا الآن أن للهدىٰ إطلاقاً عاماً، وإطلاقاً خاصاً، فالهدىٰ المثبت له في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: آية ٥٢] هو الهدى العام، وهو بيان الطريق وإيضاحها. وقد بين ﷺ الطريق حتى تركها محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

أما الهدى المنفي عنه في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: آية ٥٦] فهو التفضل بالتوفيق؛ لأن التوفيق بيد الله وحده ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ الآية [المائدة: آية ٤١]. وقوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: آية ٣٧] وفي القراءة الأخرى: ﴿فإِنَّ اللَّـهَ لا يُهدَى مَن يُضِلُّ﴾[1] أي: من يضله الله لا يُهدى، لا هادي له أبداً. إذا عرفتم هذا فقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ﴾ [الأنعام: آية ٣٥] يعني به الهدى الخاص والتوفيق، أما الهدى العام فقد بيّن لهم النبي ﷺ، وهداهم، وأرشدهم إلى طريق الخير.

---

(١) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وأبي جعفر، ويعقوب. انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٦٣.

ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ۝٣٥﴾ [الأنعام: آية ٣٥] والجاهلون: جمع الجاهل، فهو اسم فاعل الجهل، وكلام العلماء في (الجهل) وفي تفسيره معروف(١)، أشهر تفسيراته: أن الجهل عدمي، وأن المراد به عدم العلم بما من شأنه أن يُعلم.

وهذه الآية وأمثالها في القرآن يخاطب الله بها نبيه ﷺ ليُشرّع على لسانه لخلقه؛ لأن النبي ﷺ مُشَرِّع، يخاطبه الله خطاب السيد لعبده؛ ليُشرّع على لسانه لخلقه.

ثم إن الله بيّن لنبيه ﷺ أن عدم هداهم الذي كان يحزنه ويؤسفه [١/ب] / أنه لا يهتدي إلا من جعله الله قابلاً لذلك الهدى، لا من أضله الله وأمات قلبه ــ والعياذ بالله ــ ولذا قال بعد هذا: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: آية ٣٦] أي: لا يجيبك إلى ما تطلب وتدعو من الهدى، إلا الذين يسمعون، أي: جعل الله لهم سماع حق وتفهّم يسمعون به عن الله، أما الذين [أعمى](٢) الله أبصارهم، وختم على آذانهم فلا يجيبونك أبداً، فلا تحزن عليهم، فليس فيهم حِيلة؛ لأن ربهم قضى عليهم بالشقاء الأزلي؛ ولذا قال هنا: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ أي: يستجيب لك، ويجيبك فيما تدعوه إليه من الإسلام ﴿ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم بأن وفقهم الله، وأعطاهم سماع تَفَهُّم يفهمون به ويقبلون، أما الذين لم يعطهم الله سماع تفهم فهم صُمّ وإن كانوا يسمعون، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: آية ١٨] صرح بأنهم (صم) وأنهم (بكم) وأنهم عُمي، ومع ذا يقول

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٢) في الأصل: أصم.

فيهم: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: آية ١٩] كيف يسلق بألسنة حداد من هو أبكم؟ وقال: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: آية ٤] أي: لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم. ومعنى هذا: أن الله أصمهم عن سماع الحق، وعن الدين، وعمَّا ينفعهم عند ربهم، وإن كانوا يسمعون غيره، وكذلك جعل ألسنتهم بُكماً عن النطق بالقول فيما يرضي الله، وبما ينفعهم عنده، وإن نطقوا بغيره.

ومن أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن: أن الشيء إذا كان قليل الجدوى أُطلق عليه: لا شيء[1]. فأسماعهم لما لم يفهموا بها عن الله، وأبصارهم لما لم يبصروا بها ما يرضي الله، وقلوبهم لما لم يعقلوا بها بما يرضي الله، صارت كلها كأنها عدم؛ ولذا أُطلق عليهم اسم الصمم لأن سمعهم لم ينفعهم[2]، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: آية ٢٦] فمعلوم في لغة العرب أن السماع الذي لا جدوى له تُطلق العرب عليه: لا شيء، وتسمي صاحبه أصمَّ[3]. وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول قعنب بن أم صاحب[4]:

---

(١) انظر: فقه اللغة للثعالبي ص ٣١٠، مجموع الفتاوى (٢٥/ ١٥٥ ـ ١٦٠)، البرهان (٣/ ٣٩٥)، فتح الباري (٢/ ٦١، ٢٤١)، (٩/ ٢٠٨)، الإتقان (٣/ ٢٣١)، الكليات ص ٨٩٠، القواعد الحسان ص ١٣٤.

(٢) انظر: الأضواء (١/ ٤٩)، دفع إيهام الاضطراب ص ١٢، (ملحق في آخر ج (٩) من الأضواء).

(٣) انظر: المفردات (مادة: صمم) ص ٤٩٢، دفع إيهام الاضطراب ص ١٢.

(٤) البيت في معاني القرآن للزجاج (٥/ ٣٠٣)، القرطبي (١٩/ ٢٦٩)، الدر المصون (١٠/ ٧٣٢).

صُـمٌّ إذا سَمِعُـوا خيـراً ذُكـرت بـه وإن ذُكرتُ بسُوءٍ عندهم أَذِنوا

فسماهم (صمّاً) وهو يقول: (إذا سمعوا خيراً) فأطلق عليهم الصمم مع أنه صرّح بأنهم يسمعون. وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول الآخر[١]:

قل ما بدا لك من زُوْرٍ ومن كذب حلمي أصم وأُذني غير صماء

يعني: حلمي لا يبالي بما تقول، وإن كانت أُذني تسمعه؛ ولذا قال هنا: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ لأنهم أحياء يسمعون عن الله سماع تَفَهُّم.

ثم قال: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ الموتى جمع (المَيِّت) ومثل (مَيِّت) يُجمع على (موتى)، وقد يطّرد الجمع على (فَعْلَى) في كل (فَعِيْل) إذا كان يُرثى له. وكذلك (فَيْعِل)[٢] و(فَعِل) كـ (مَيِّت ومَوْتَى) و(زَمِنٍ وزَمْنَى)، هذا على الأكثر، أما في (فَعِيْل) بمعنى (مفعول) إذا كان يُرثى لصاحبه فتطرد فيه: (فَعْلَى).

وأطبق العلماء على أن المراد بالموتى هنا: الكفار. لا يكادُ يختلف في هذا اثنان من علماء التفسير[٣]. كأنه يقول: إنما يستجيب

---

(١) أنشده ثعلب في مجالسه (٢/ ٣٧٨)، وهو في كتاب الحيوان للجاحظ (٤/ ٣٩٠)، واللسان (مادة: صمم) (٢/ ٤٧٦).

(٢) قال ابن هشام في تعداد أبنية الكثرة: «السابع»: «فَعْلَى» بفتح أوله وسكون ثانيه. وهو لما دل على آفة من (فَعِيل) وصفاً للمفعول، كجريح وأسير. وحُمِل عليه ستة أوزان مما دل على آفة؛ من (فَعِيْل) وصفاً للفاعل، كمريض، و (فَعِل) كزَمِن، و (فاعِل) كهالك، و (فَيْعِل) كميِّت، و (أفْعَل) كأحمق، و (فَعْلان) كسكران». اهـ أوضح المسالك (٣/ ٢٦٠).

(٣) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٤١)، القرطبي (٦/ ٤١٨)، الأضواء (٢/ ١٨٩).

الأحياء الذين يسمعون، كما قال له: ﴿لِتُنْذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: الآية ٧٠] وفي القراءة الأخرى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[1] أي: الذي له حياة، أما المَيْت: الذي أمات الله قلبه.

وكثيراً ما يطلق القرآن اسم (الميت) على (الكفر)، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٢] وكقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: آية ٢٢] يعني بالأحياء: المؤمنين، وبالأموات: الكفرة؛ لأن الكافر ـ والعياذ بالله ـ كأنه ميت؛ لأن حركات حياته لم تكن في شيء ينفعه عند ربه (جل وعلا) في حياته الأخرى، فصار ميت القلب كأنه ميت بالكلية؛ ولذا قال: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: الكفار الذين ختم الله على قلوبهم، وأمات قلوبهم، لا حيلة في إيمانهم، فلا تحزن عليهم، ولكن هوِّن عليك، فحسابهم إلى الله، وهداهم عليه، الله هو الذي أضلهم في الدنيا، ويوم القيامة يبعثهم، ثم إليه يرجعون، فيجازيهم على أعمالهم. فهداهم بيده، وشقاؤهم بيده، وحسابهم إليه. وأنت إنما أنت نذير، وقد بلغت ونصحت، وأديت الأمانة، فقمت بما عليك، وهَوِّن عليك. ولذا قال: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: آية ٣٦].

والعرب تطلق (استجاب) بمعنى: (أجاب). والمعنى: ﴿يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يجيبونك إلى ما تدعوهم إليه. ولا شك عند العلماء في إطلاق (استجاب) بمعنى

---

(١) الأولى قرأ بها نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب.
والثانية قرأ بها أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف. انظر: المبسوط لابن مهران ص ٣٧٢.

(أجاب)(١). ومن الدليل عليه أن العرب الفصحاء نطقوا بما يدل على ذلك، ومنه قول كعب بن سعد الغنوي(٢):

وداعٍ دعا يا مَنْ يُجيبُ إلى الندى فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذاك مُجيبُ

فجاء بـ (المجيب) اسم فاعل (لم يستجبه)، فعرفنا أنه أراد بـ (لم يستجبه): لم يجبه مجيب. ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ الذي يجيبك إلى ما تدعو إليه، ويؤمن بك الإيمان الذي تطلب ﴿ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ الأحياء الذين لهم سمع يفهمون به عنك ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: الكفار الذين ختم الله على قلوبهم وأسماعهم، فإنك لا يمكن أن تُسمعهم؛ لأنهم موتى، كما قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [النحل: آية ٨٠] ولذا قال: ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: من قبورهم يوم القيامة إلى الجزاء.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ قد تقرر في فن المعاني في مبحث القصر، وفي فن الأصول في مبحث دليل الخطاب ـ أعني مفهوم المخالفة ـ أن من الصيغ الدالة على الحصر: تقديم المعمول(٣). وقد قدّم المعمول هنا، وهو الجار والمجرور إيذاناً بالحصر. ثم يرجعون إليه وحده؛ لأنه ليس هناك عدة ملوك يرجع بعض الناس إلى واحد ليحاسبه، وبعض إلى واحد ليحاسبه. بل هو الملك الواحد القهار، الذي إليه مرجع الجميع؛ ولذا قدّم المعمول فقال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

---

(١) انظر: الدر المصون (١/ ١٥٩)، (٢/ ٢٩١)، (٤/ ٥٠٠).

(٢) البيت في المصدر السابق (١/ ١٥٩).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنعام: آية ٣٧].

﴿ وَقَالُوا ﴾ يعني الكفار ـ كفار مكة ـ هم الذين قالوا هذا القول[(١)].

وقوله: ﴿ لَوْلَا ﴾ اعلم أولاً: أن (لولا) جاءت في القرآن العظيم لثلاثة معان معروفة في القرآن العظيم، وفي كلام العرب[(٢)]:

الأول: من هذه المعاني الثلاثة: (لولا) المعروفة بأنها تأتي لامتناع لوجود، وهي التي تدل على امتناع شيء لوجود شيء، كقوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النور: آية ١٤] انتفى مسيس العذاب العظيم لوجود فضل الله ورحمته.

هذه التي يقال فيها إنها تدل على امتناع لوجود، وخبر مبتدئها محذوف دائماً في الأغلب[(٣)].

الثانية: هي (لولا) التي بمعنى التحضيض[(٤)]، وهذه تنقسم قسمين. ومنها كانت (لولا) مشتركة بين ثلاثة معانٍ. لولا التحضيضية إنما تدل على التحضيض، والتحضيض معناه الطلب بحثٍّ وحضٍّ،

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ١١٨).

(٢) وذكر لها ابن هشام معنى رابعاً في (مغني اللبيب ١/ ٢١٦) وهو: الاستفهام. وعقبه بقوله: «وأكثرهم لا يذكره». اهـ.

(٣) انظر: المفردات (مادة: لولا) ص ٧٥٣، الكليات ص ٧٨٧ ـ ٧٩٠، بصائر ذوي التمييز (٤/ ٤٥٨)، مغني اللبيب (١/ ٢١٥).

(٤) انظر: المفردات (مادة: لولا)، وانظر: الكليات ص ٧٧٧، ٧٨٨ ـ ٧٩٠، بصائر ذوي التمييز (٤/ ٤٥٨)، مغني اللبيب (١/ ٢١٦).

ومنه هذه التي عندنا. (لولا) أي: نطلب منك بحض وحث أن تنزل عليك آية مثل آية موسى التي جاءت، صارت عصاه ثعباناً مبيناً، وكآية صالح التي خرجت له ناقة عشراء جوفاء، وَبْراء، من صخرة، وما جرى مجرى ذلك، وكآية عيسى الذي يُبرىء الأكمه، والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وما جرى مجرى ذلك، وهذا طلب منهم وتحضيض، وهو طلب بحثٍّ وحضٍّ، إلا أنه طلب عناد وتعنت.

الثالث: من معاني (لولا)، لم نتكلم عليه الآن، وهو أن (لولا) التحضيضية ـ ومعنى التحضيضية: أنها دالة على تحضيض، والتحضيض: هو طلب الفعل بحثٍّ وحض ـ لها حالتان: تارة يكون فعلها المطلوب بها ممكن الفعل لم تَضِع فرصته، فهذه هي التحضيضية، كالتي عندنا. وتارة يكون فعلها المطلوب فيها بأداة الطلب التي هي حرف التحضيض ـ أعني (لولا) ـ فات ولم يمكن تداركه؛ لأن فرصته ضاعت ولم يمكن تداركه. فإن التحضيضية في هذه الحالة ينقلب معنى تحضيضها إلى توبيخ وتنديم على التفريط فيما مضى[١]، كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ [يونس: آية ٩٨] فتلك القرى الماضية هلكت ومضت، إلا أن توبيخ الله لها، وتنديمه لها بعد أن ماتت ليعتبر به غيرها، وكما قال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا﴾ [النور: آية ١٦] لأن الفرصة فاتت عليهم؛ لأنهم تكلموا بما لا يليق، فصارت (لولا) التحضيضية في شأنهم يُراد بها التوبيخ والتنديم على التفريط فيما مضى.

(١) انظر: الكليات ص ٧٨٨ ـ ٧٩٠، ٩٥٨، بصائر ذوي التمييز (٤/٤٥٨)، مغني اللبيب (١/٢١٦).

وقوله: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلاَّ ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾.

وقوله: ﴿مِن رَّبِّهِ﴾ يعنون: يكون مبدأ إنزالها وابتداؤه من ربه، ينزل عليه آية لا لبس في الحق معها، كعصا موسى، وناقة صالح، وما جرى مجرى ذلك. فالله أمر نبيه أن يقول، قل لهم يا نبي الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾.

ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ فقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ يدل على أن طلبهم للآية بأداة التحضيض التي هي ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ أنه نشأ عن جهل لا عن علم، ولو كانوا عالمين لما تعنتوا، ولما اقترحوا هذا الاقتراح، وذلك من أوجه[1]:

منها أن الله (جل وعلا) أجرى العادة بأن القوم إذا اقترحوا آية، وأنزلها الله لهم، وكفروا بعد ذلك أن الله يهلكهم هلاك الاستئصال، كما يأتي في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: آية ٥٩] أي: وهي الآية التي اقترحوها فكفروا بها، فكان ذلك سبب هلاك مستأصل، وتدمير عام أهلكهم الله به، وجعلهم أثراً بعد عين. فقد يقترحون آية، ويأتيهم الله بها، فيكفرون بها فيمحقهم كما محق ثمود، كما أشار له بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾ [الإسراء: آية ٥٩] اقترحوها عناداً وتعنتاً، فلما أُتوا بها كفروا بها، فكانت سبباً لهلاك مستأصل. وقد ذكروا في بعض المواضع من القرآن أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: «سل ربك يجعل لنا الصفا ذهباً». وتعنتوا بأمور كثيرة، وأنه جاءه التخيير من ربه إن شاء فعل لهم ما اقترحوا، وإن كفروا

(١) انظر: الأضواء (٢/ ١٩٠).

أهلكهم، وإن شاء تركهم، وهدى من يهدي منهم ومن أصلابهم؛ ولذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ واعلموا أن الله تبارك وتعالى أنزل على عبده آيات ومعجزات عظيمة، لا لبس في الحق معها، فلو كان طلبهم للآية طلب مسترشد يريد الهدى غير متعنت لأعطاهم الآية، ولكن الله أعطاهم من الآيات ما لا يبقى في الحق معه لبس، فتركوه وسألوا ذلك عناداً.

وأعظم الآيات وأكبر المعجزات هو هذا القرآن العظيم الذي تحداهم الله به، وكان عجز الخلق عن معارضته أكبر آية عظمى؛ ولذا أنكر الله على من لم يكتف بمعجزة القرآن وطلب آية غيرها حيث قال منكراً عليه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: آية ٥١] فقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ صيغة إنكار، ينكر الله به على من لم يكتف بهذا القرآن؛ لأنه آية أعظم آية.

ومما امتازت به عن الآيات: أن آيات الرسل ومعجزاتهم تنقضي، وتكون أخباراً لا وجود لها في العيان، وآيته ﷺ الكبرى وهي هذا القرآن العظيم باقية تتردد في آذان الناس إلى يوم القيامة؛ ولذلك أشار النبي ﷺ في الحديث الصحيح [إلى][1] حصر معجزاته في هذا القرآن، وإن كانت معجزاته كثيرة لا تحصر لكثرتها، حيث قال في الحديث الصحيح: «**ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[2] ولذا قال هنا لما اقترحوا هذه

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، حديث (٤٩٨١) (٩/ ٣)، وأخرجه في موضع آخر. انظر: حديث=

الآية، اقترحوها عناداً لا استرشاداً وطلباً للهدى، مع أنهم جاءهم من الآيات ما يكفي، والناس عاينوا من معجزاته ﷺ أشياء تبهر العقول، كشق القمر[١]. وتسبيح الحصى في يده[٢]، وكحنين الجذع في هذا المسجد لما تحول عنه إلى المنبر، سمعوه يحنّ حنين العشار، ولم يسكت حتى جاءه ﷺ يسكته كما تسكت الأم

= رقم: (٧٢٧٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، حديث (١٥٢) (١/ ١٣٤).

(١) قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: آية ١] وقد روى واقعة انشقاق القمر جماعة من الصحابة منهم:

١ ـ ابن مسعود عند البخاري، الأحاديث: (٣٦٣٦، ٣٨٦٩، ٣٨٧١، ٤٨٦٤، ٤٨٦٥)، ومسلم، حديث (٢٨٠٠).

٢ ـ أنس بن مالك. عند البخاري، الأحاديث (٣٦٣٧، ٣٨٦٨، ٤٨٦٧، ٤٨٦٨)، ومسلم، حديث (٢٨٠٢).

٣ ـ ابن عباس. عند البخاري، الأحاديث (٣٦٣٨، ٣٨٧٠، ٤٨٦٦)، ومسلم، حديث (٢٨٠٣).

٤ ـ ابن عمر. عند مسلم، حديث (٢٨٠١).

(٢) ذكره البخاري في التاريخ الكبير (٨/ ١٤٤) في ترجمة الوليد بن سويد. وأخرجه البزار كما في كشف الأستار (٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦)، حديث (٢٤١٣، ٢٤١٤)، وساق له الدارقطني في العلل (٦/ ٢٤٢) عدة طرق، وعقبه بقوله: «والحديث مضطرب». اهـ كما أخرجه البيهقي في الدلائل (٦/ ٦٤ ـ ٦٥)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٨٠٦ ـ ٨٠٧). والحديث ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٣)، والهيثمي في المجمع (٥/ ١٧٩)، (٨/ ٢٩٩).

قال الحافظ في الفتح (٦/ ٥٩٢): «وأما تسبيح الحصى فليست له إلا هذه الطريق الواحدة مع ضعفها». اهـ.

ولدها[١]. ومعجزاته صلوات الله وسلامه عليه كثيرة جداً، ولكن أعظمها القرآن؛ ولذا حصرها فيه بقوله: «**وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**».

ولذا أنكر الله على من لم يكتف بهذا القرآن العظيم حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: آية ٥١] وقال: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس: آية ٣٧] ولأجل تعنتهم وعدم علمهم بأن الآيات إذا أُتي بها من اقترحها ثم كفر جاءه العذاب المستأصل، كان طلبهم للآية طلب جهلة متعنتين لا يتأملون في العواقب؛ ولذا قال الله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ومن أكثرهم الذين لا يعلمون هم الذين تعنتوا واقترحوا وطلبوا هذه الآيات؛ لأن عندهم تعنتات كثيرة، كما ذكره الله عنهم في آيات كثيرة من كتابه، كقوله في أخريات سورة بني إسرائيل: ﴿**وقالوا لن نؤمن لك حتى تُفَجِّرَ لنا**﴾ وفي القراءة الأخرى[٢]: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ [الإسراء: الآيات ٩٠ ــ ٩٢] يعنون قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: آية ٩] ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ

(١) أخرجه البخاري من حديث جابر، كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر، حديث (٩١٨، ٢٠٩٥، ٣٥٨٤، ٣٥٨٥)، (٢/٣٩٧).
كما أخرجه أيضاً من حديث ابن عمر (رضي الله عنهما)، حديث (٣٥٨٣).

(٢) قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، (تُفجِّر) بضم التاء، وفتح الفاء، وتشديد الجيم مكسورة.
وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف (تَفْجُر) بفتح التاء، وسكون الفاء، وضم الجيم خفيفة. انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٧١.

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ يعنون بالزخرف الذهب ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: الآيتان ٩٢، ٩٣] هذه تعنتاتهم، ومن هذه التعنتات: اقتراحهم للآيات، فأخبرهم أن ربه قادر على أن ينزلها، ولكن إنزالها لا خير لهم فيه، أولاً هو تعنت لا يُراد به الحق، ولو أنزلها لكفروا فأهلكهم كما أهلك من كفر قبلهم، كما أشار له بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: آية ٥٩] وقد أتاهم من المعجزات بما فيه الكفاية، ولا يبقى في الحق معه لبس. أما التعنتات فلا داعي للإجابة فيها؛ ولذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٣٧].

[٢ / أ] / ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٣٨ ـ ٤١].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٣٨].

قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أصله: وما دابة في الأرض. وإنما زيدت قبله (من) في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتنقلها زيادة (من) من الظهور في العموم، إلى التنصيص الصريح في العموم. فقد تقرر في الأصول: أن النكرة في سياق النفي من صيغ

العموم[١]. إلا أنها تكون ظاهرة في العموم، فإذا زيدت قبل النكرة لفظة (من) نقلتها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم[٢]. فلو قيل: «وما دابة في الأرض» كانت الصيغة ظاهرة في العموم. ولما أكد شمول النفي بـ (من) وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ نقلتها زيادة «من» من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم. والمراد بالعموم: شمول النفي لكل دابة[٣]. أنه ما دابة في الأرض، ولا طائر يطير إلا أمم أمثالكم.

واعلم أن زيادة (من) قبل النكرة في سياق النفي لتنقلها من الظهور في العموم، إلى التنصيص الصريح في العموم، تطّرد في القرآن وفي اللغة العربية في ثلاثة مواضع[٤]:

الأول: أن تُزاد قبل المبتدأ، كما هنا؛ لأن الأصل: وما دابةٌ. و(دابة) مبتدأ سوَّغ الابتداء فيه بالنكرة اعتمادها على النفي قبله.

الثاني: زيادة (من) قبل النكرة في سياق النفي إذا كانت النكرة فاعلاً. نحو: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [القصص: آية ٤٦] أصله: (ما أتاهم نذير) فاعل زيدت قبله (من).

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) انظر: شرح تنقيح الفصول ص ١٨٢، ١٩٤، شرح الكوكب المنير (٣/ ١٣٨)، البرهان للزركشي (٤/ ٤٢١)، الكليات ص ٨٤٠، المحلي على الجمع (١/ ٤١٤)، الفتح (١/ ٨٨)، الأضواء (١/ ١٠)، (٢/ ٣٦)، (٣/ ٢٨٩)، (٤/ ١٧٢، ٢٧٨)، (٦/ ٦٦٠)، (٧/ ٦٥١).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ١١٩).

(٤) انظر: ضياء السالك (٢/ ٢٨٠).

الثالث: أن تزاد قبل المفعول، نحو: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ [الأنبياء: آية ٢٥] الأصل: ما أرسلنا من قبلك رسولاً.

فزيدت (من) فتحصَّل أن (من) إذا زيدت قبل النكرة في سياق النفي نقلتها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم. وأنها تُزاد قبل النكرة باطراد في ثلاثة مواضع: قبل المبتدأ، وقبل الفاعل، وقبل المفعول.

وقوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال بعض العلماء: إنما خص دواب الأرض دون دواب السماء ــ مع أن في السماء دواباً أيضاً، كما قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ٢٩﴾ [الشورى: آية ٢٩] ــ لتهوين أمرهم؛ لأنه أراد أن يُبيّن ــ لما قال الكفار: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾ أنه لا يُهمل شيئاً، وهو قائم بمصالح دواب الأرض التي هي من أحقر الأشياء، فكيف يهمل مصالح الآدميين[1]!! ولو كان لكم في الآية المقترحة فائدة لأتاكم بها.

وقال بعض العلماء: عُبِّر لهم بما عرفوا في الأرض، وتُرك غيره؛ لأنهم لم يعرفوه، فأُريد مخاطبتهم بما علموا[2].

وقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ قال بعض العلماء: إذا كان الطير نازلاً يمشي في الأرض فقد يصدق عليه اسم (الدابة) لدبيبه في الأرض، وإذا طار في جوّ السماء قابضاً وصافّاً لم يصدق عليه في ذلك الوصف اسم الدبيب، وإنما يصدق عليه أنه يطير بجناحيه لا يدبّ برجله.

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٤٤)، البحر المحيط (٤/ ١١٩).

(٢) انظر: القرطبي (٦/ ٤٢٠).

وقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ في هذه الآية سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: ما الفائدة وما الحكمة في قوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ ومعلوم أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه؟

الجواب عن هذا السؤال عند العلماء من أوجه منها[(١)]: أن القرآن نزل بلغة العرب ومن عادة العرب هذا النوع من التوكيد، نحو: (قال لي هذا بفيه)، و(مشى إلي برجله)، ومنه في القرآن: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧٩] ومعلوم أنهم لا يكتبونه إلا بأيديهم، وكقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ [آل عمران: آية ١٦٧]، ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ [الفتح: آية ١١] ومعلوم أن القول بالفم واللسان وما جرى مجرى ذلك.

القول الثاني: أن مادة (الطاء والياء والراء) ــ مادة (الطيران) ــ قد تطلقها العرب على الإسراع بالرجلين، لا بالجناحين. وقد تقول لعبدك: «طر يا غلام في حاجتي». تعني: أسرع، وفي الحديث في مدح المجاهد: «إذ سمع هيعة طار إليها»، أي: أسرع إليها[(٢)]. وفي شعر الحماسي، بيته المعروف[(٣)]:

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٤٩)، القرطبي (٦/ ٤١٩)، البحر المحيط (٤/ ١١٩)، الدر المصون (٤/ ٦١١)، وراجع ما تقدم عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط، حديث (١٨٨٩)، (٣/ ١٥٠٣).

(٣) البيت لقُريط بن أُنيف. وهذا هو الشطر الثاني من البيت، وشطره الأول قوله:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم .... =

.... طـاروا إليـه زرافـات ووحـدانـا

وهـو معنـى معـروف فـي كـلام العـرب، ومنـه قـول قعنـب بـن أم صاحب[١]:

صُمٌّ إذا سمعوا خيراً ذُكرتُ به وإن ذُكرتُ بسوء عندهم أَذِنوا

إن يسمعوا سُبّة طاروا بها فرحاً مني وما سمعوا من صالح دفنوا

ولما كان يكثر في لغة العرب [إطلاق][٢] الطيران على الإسراع بالرجلين، قد يكون لقوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ فائدة؛ لتُخْرَج من الإسراع بغير الجناحين كما ذكرنا. وكان بعض العلماء يقول: قد يكون بعض ما يطير يطير بأكثر من جناحين، كما قال في الملائكة: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: آية ١] قالوا: هنالك من الملائكة من يطير بأربعة أجنحة؛ ولذا احتُرز عن ذلك بقوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾.

وأظهر الأقوال هو ما صدَّرنا به: أن هذا الأسلوب معروف في كلام العرب، كقوله: «قاله لي بفيه»، و«مشى إلي برجله»، و«كتبتُ له بيدي»، و«طار الطائر بجناحيه»، ومنه: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧٩]، ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ [آل عمران: آية ١٦٧]، وما جرى مجرى ذلك و ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في قوله:

= وهو في المفردات (مادة: طير) ص ٥٢٩، اللسان (مادة: طير) (٢/ ٦٣٥)، الدر المصون (٤/ ٦١٢).

(١) البيت الأول تقدم عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام، والبيت الثاني ذكره ابن جني في المحتسب (١/ ٢٠٦)، وهو أيضاً في الدر المصون (٤/ ٢٤٤).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾ سؤال، وهو أن يُقال: أفرد الله هنا الدابة، قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ بلفظ (دابة) واحدة ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾ بلفظ (طائر) واحد. فكيف يجمعهم على أمم ويقول: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾؟

والجواب[1]: في هذا واضح؛ لأن قوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾ كلاهما نكرة في سياق النفي، تعُمّ كل دابة، كائنة ما كانت، وكل طائر يطير بجناحيه كائناً ما كان، فالمعنى عام؛ ولذا قال في مثل هذا: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: آية ٢٧] أفرد اسم الضامر وقال: ﴿يَأۡتِينَ﴾ بصيغة الجمع؛ لأن ﴿كُلِّ ضَامِرٍ﴾ بمعنى: ضوامر كثيرة، وكذلك ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ بمعنىٰ: دواب كثيرة ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾ يعم طيراً كثيراً؛ ولذا قال: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ اختلف العلماء في مثلية هذه الأمم للآدميين على أقوال متعددة[2]، بعضها حق. وحاصل هذا أن الله صرّح بأن الدواب بأنواعها: بأنواع الوحوش، وأنواع السباع، وأنواع الطيور، كل نوع من هذه الأنواع أمة من الأمم التي خلق الله، أمثال الآدميين؛ لمشابهات بينها وبين الآدميين؛ لأن كلاًّ من الجميع مخلوق يحتاج إلى خالق يخلقه، مرزوق يحتاج إلى خالق يرزقه ويدبر شؤونه. والكُلّ مضبوط في كتاب: أوصاف الجميع، وآداب الجميع، وصفات الجميع، ومقاديرهم، وألوانهم، إلى غير ذلك. ومما يكون من تلك المماثلة: أن الجميع يحشرون إلى الله، كما قال هنا: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ ونص على ذلك في التكوير في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٢٠)، الدر المصون (٤/ ٦١٢).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٤٥)، القرطبي (٦/ ٤٢٠)، البحر المحيط (٤/ ١٢٠).

حُشِرَتْ ﴿٥﴾ [التكوير: آية ٥] فلما كانوا أُمماً وأجناساً يعرف بعضها بعضاً، وتُسافِدُ ذكورُها إناثَها فيتناسلون، وهذا أبٌ، وهذا أمٌّ، والكل مرزوق، يرزقه رازق، يدبر شؤونه، وقَدَّر أرزاقه، وقَدَّر آجاله، القَدْر الذي يرزقهم الله محدد، والقَدْر الذي يعيشون في الدنيا محدد، وأوصافهم، وألوانهم، وغير ذلك، وكل هذا في كتاب، والآدميون كذلك يحتاجون إلى رازق يرزقهم، ويدبر شؤونهم، يضبط آجالهم، وأعمالهم، وأرزاقهم. من هذه الحيثية صارت هذه أمماً أمثالنا.

وقد كان لسفيان بن عيينة (رحمه الله) في هذه الآية تفسير مشهور[١] ارتضاه بعض العلماء، ولا يظهر عندنا كل الظهور، كان ابن عيينة (رحمه الله) يقول في هذه الآية الكريمة: إن الله تبارك وتعالى جعل في الآدميين شبهاً من أنواع البهائم، فجعل في بعضهم جراءة الأسد، وجعل في بعضهم سرعة عدو الذيب، وجعل في بعضهم فخر الطاووس وزهوه، وجعل في بعضهم شَرَه الخنزير، وهكذا، وأن بينهما مشابهات من هذا النوع.

وأكثر العلماء على أنهم إنما كانوا أمماً أمثالنا؛ لأن كلنا مخلوق، مسكين، مرزوق، يدبر شؤونه خالق رازق، وأن ذلك الخالق الرازق قدّر الأوقات الذي يوجدنا فيها، والأوقات التي يميتنا فيها، والأرزاق التي يرزقنا فيها، وقدّر لكل منا قدر حياته، ورزقه، وأجله، وقدر صفته التي يكون عليها، ومقداره الذي يكون عليه، ونحو ذلك.

---

(١) انظر: القرطبي (٦/ ٤٢٠)، البحر المحيط (٤/ ١٢٠)، شفاء العليل لابن القيم ص ٧٧.

وبهذه الآية يتفكر المسلم ويعتبر، ويعلم أنه بالنسبة إلى ضعفه وافتقاره؛ وعظمة الله (جل وعلا) وجلاله، أنه كالحيوانات والبهائم.

وكان بعض العلماء يقول: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ كما أنكم تعرفون الله، وتسبحون الله، وتوحدونه، فهم أمم أمثالكم كذلك[١]. ويدلّ لهذا أن الله (جل وعلا) قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: آية ٤٤] وقال جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: آية ٤١].

ومما يقدح في هذا القول أن هذا النوع تستوي فيه الجمادات مع البهائم؛ [لأنه][٢]، دلَّ الكتاب والسنّة على أن الجمادات تشارك البهائم في هذا، والله في آية الأنعام هذه خص الحيوانات حيث قال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أما ذلك الإدراك، وتسبيح الله، فالجمادات تشارك فيه البهائم، ويشملها عموم قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: آية ٤٤] وقد سبّح الحصى بيد النبي ﷺ[٣]. وقد ثبت في صحيح البخاري في قصة الجذع ــ وهي متواترة[٤] ــ أن الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ لما تحوّل عنه إلى المنبر فَقَد النبي ﷺ فحَنَّ حنين العِشَار، والمسجد غاصٌّ

(١) المصدران السابقان.

(٢) في الأصل: «لأن الله بين» والكلام غير منتظم.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنعام.

(٤) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥٦٣)، شمائل الرسول ﷺ لابن كثير ص ٢٤٣، فتح الباري (٦/ ٦٠٣)، شرح الشفا (١/ ٦٢٢).

بالناس، والصحابة يسمعون حنينه، حتى جاءه النبـي ﷺ يُسكّته كما تُسكّت الأم ولدها[١]. وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبـي ﷺ قال: «إني لأعرف حجراً كان يُسلّم علي بمكة»[٢]. وقد قال الله (جل وعلا) في كتابه: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا﴾ ـ أي: من الحجارة ـ ﴿لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: آية ٧٤] لما يصعق من أعلى الجبل إلى أسفله نازلاً خوفاً من رب العالمين (جل وعلا)، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: آية ٢١] وقد قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ [ص: آية ١٨] فصرّح بتسبيح الجبال، وقد قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: آية ٧٢] والإشفاق: الخوف. معناه: أن هذه الجمادات، من السموات والأرض والجبال، عندها إدراك يعلمه الله، ونحن لا نعلمه، حيث أبت من التزام التكليف وأشفقت، وهذه حقائق دلّ عليها الكتاب والسنة. والملحدون الذين يقولون: «هذه أمثلة، وتخييل، وتصوير بما ليس بواقع». كل ذلك من صرف كتاب الله عن ظاهره المتبادر منه بغير دليل، وذلك لا يجوز؛ إذ لا مانع عقلاً أن يخلق الله للجمادات إدراكات يعلمها هو ونحن لا نعلمها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: آية ٤٤] وكذلك يخلق للبهائم إدراكات، وقد نص القرآن على كثير من ذلك،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنعام.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبـي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، حديث (٢٢٧٧) (٤/ ١٧٨٢).

نص على قضية النملة وخطبتها العظيمة التي قال فيها: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل: آية ١٨] وذكر قصة الهدهد ومحاجته لسليمان، ونسبته الإحاطة لنفسه ونفيها عن سليمان ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل: آية ٢٢] وبيّن أنه يفهم أن يذهب بالكتاب إلى بلقيس وجماعتها ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا﴾ [النمل: آية ٢٨].

وقوله (جلّ وعلا) في هذه الآية الكريمة: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: آية ٣٨] في المراد بالكتاب هنا وجهان معروفان[١]:

أولاً: الكتاب (فِعال) بمعنى (مفعول)، بمعنى المكتوب، قال بعض العلماء: هو هذا القرآن العظيم؛ لأنه مكتوب عند الملائكة في صحف، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [عبس: الآيات ١٣ ــ ١٥] ومكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: الآيتان ٢١، ٢٢].

الوجه الثاني: أن المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ؛ لأنه مكتوب فيه جميع وقائع ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وأصل مادة (الكتابة) ــ مادة (الكاف والتاء والباء) (كتب) ــ معناها في لغة العرب: الضمّ والجمع[٢]، فكل شيء ضممت بعضه إلى بعض،

(١) انظر: القرطبي (٦/ ٤٢٠)، البحر المحيط (٤/ ١٢٠).

(٢) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الكاف، باب الكاف والتاء وما يثلثهما (مادة: كتب) ص ٩١٧، المفردات (مادة: كتب) ص ٦٩٩.

وجمعت بعضه مع بعض، فقد كتبته؛ ولذا قيل للخياطة: كتابة. وفي ألغاز الحريري في مقاماته[١]:

وكاتبين وما خطَّت أناملهم حرفاً ولا قرؤوا ما خُط في الكتب

يعني بهم: الخياطين؛ ولأجل أن الخياطة تسمى كتابة؛ لأنها تضم طرفي الثوب، وتجمع بعضها إلى بعض، أو طرفي الأديم، وتضم بعضها إلى بعض؛ لأجل ذلك سمّت العرب الرقعة التي في السِّقاء، سموها: (كُتْبة). وسموا الثوب الذي تُخاط به الرقعة في السِّقاء: (كُتْبَة)، وجمعها: (كُتَب). وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول غيلان ذي الرمة[٢]:

ما بالُ عينكَ منها الماءُ ينسكبُ كأنه من كُلى مفْرِيَّةٍ سَرَبُ
وفْرَاءَ غَرْفيَّةٍ أَثْأَى خَوَارِزَهَا مُشَلْشَلٌ ضَيَّعَتْه بينها الكُتَبُ

يعني بالكُتَب: الثغور التي تكون في الكُتْبَةِ يسيل منها الماء. يُشبّه ذلك الماء السائل بدمعه؛ ولأجل هذا كانت العرب تسمي الخياطة: كتابة. ومنه قول عمرو بن دارة[٣] يهجو فَزَارة، يهجوهم ويُعيّرهم بأنهم يفعلون الفاحشة مع إناث الإبل، قال[٤]:

---

(١) مقامات الحريري ص ٣٤٧.

(٢) البيت في اللسان (مادة: سرب) (٢/ ١٢٧)، (مادة: كتب) (٣/ ٢١٧)، والوفراء: الوافرة. والغرفية: المدبوغة بالغَرْف، وهو شجر يُدبغ به. وأثأى: أفسد. والخوارز: جمع خارزة.

(٣) نسبه في الشعر والشعراء ص ٢٥٨ لسالم بن دارة.

(٤) البيت في المقاييس في اللغة، كتاب الكاف، باب الكاف والتاء وما يثلثهما، (مادة: كتب) ص ٩١٨، الشعر والشعراء ص ٢٥٨، اللسان (مادة: كتب) (٣/ ٢١٧)، تفسير الماوردي (١/ ٢٤)، القرطبي (١/ ١٥٨)، والدر المصون (١/ ٨٥).

لا تـأمنَّـنَّ فـزَاريّـاً خلـوتَ بـه على قَلُـوصِـكَ واكتُبْهـا بـأسيـار

يعني: خِطْ فرجها بأسيار لئلا يفعل بها؛ ولأجل هذا المعنى قيل للكتيبة: (كتيبة)؛ لأنها جماعة من الجند ينضم بعضها إلى البعض حتى تكون كتلة مُجتمعة.

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم بهن فلولٌ من قِرَاعِ الكَتَائِبِ[1]

هذا أصل مادة (الكاف والتاء والباء) في لغة العرب.

ومعنى الكتابة[2]: هي مصدر سيال، أنك تضم نفس حرف إلى حرف إلى حرف، حتى يجتمع من ذلك نقوش دالة على ألفاظ ومعاني.

و (الكتاب) في قوله هنا: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أكثر المحققين على أنه اللوح المحفوظ[3]، أي ما فرطنا فيما كتبنا في اللوح المحفوظ، ما ضيعنا فيه شيئاً.

و (مِنْ) هنا هي التي تُزاد قبل النكرة التي تكلمنا عليها الآن[4]، وهي هنا مزيدة قبل المفعول؛ لأن التفريط: التضييع. أي: ما ضيعنا شيئاً في الكتاب، بل كتبنا فيه كل شيء، ومن ذلك: آجال الطيور، وأعمارها، وأرزاقها، وأقدارها، وألوانها، والوقت الذي تولد فيه، والوقت الذي تموت، كما فعلنا ذلك ببني آدم.

---

(١) البيت للنابغة، وهو في ديوانه ص ٣٢.

(٢) انظر: الكليات ص ٧٦٧.

(٣) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٤٤ ـ ٣٤٦)، البغوي (٢/ ٩٥)، القرطبي (٦/ ٤٢٠)، شفاء العليل لابن القيم ص ٤٠، البحر المحيط (٤/ ١٢٠).

(٤) مضى قريباً.

الوجه الثاني: أن المراد بالكتاب: القرآن، والمعنى: ما ضيعنا في هذا الكتاب من شيء، بل جمعنا فيه كل شيء يحتاج إليه الخلق. وقد نصّ الله على هذا المعنى صريحاً في سورة النحل، ليس فيه خلاف، وهو قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: آية ٨٩] فهذه في القرآن بلا خلاف تدل على أنه يُبيّن كل شيء؛ لأن في القرآن كل شيء، والناس إنما يأخذون بقدر استعداد أذهانهم، كل يغرف بحسب فهمه، وقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي جحيفة أنه لما سأل علياً (رضي الله عنه): «هل خصّكم رسول الله ﷺ بشيء؟» قال علي (رضي الله عنه) فيما ثبت عنه في صحيح البخاري: «لا والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة، إلا فهماً يُعطيه الله رجلاً في كتاب الله، وما في هذه الصحيفة». قال: «وما في هذه الصحيفة؟» قال: العقل وفكاك الأسير، وألا يُقتل مسلم بكافر»[1] فقول علي (رضي الله عنه) في هذا الحديث الصحيح جواباً لـ: «هل خصّكم رسول الله بشيء؟»: «لا، إلا فهماً يعطيه الله...» يُفهم منه أن من أعطاه الله فهماً في كتاب الله يُخص بخصائص من العلوم لم يُخص بها غيره، وما ذلك إلا أن القرآن جمع كل شيء، منه ما يطّلع عليه كل الناس، ومنه ما يطّلع عليه الراسخون في العلم، ومنه ما يعلمه النبي، ومنه ما لا يعلمه إلا الله (جل وعلا).

وكلّ ما في السنة جميعاً، فهو في كتاب الله؛ لأن الله قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: آية ٧]. فالسنة كلها تشملها كلمة من بحر القرآن. وهذا معنى قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ التفريط في الشيء: هو تضييعه.

(١) تقدم تخريجه في مقدمة الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ الضمير عائد إلى الأمم المذكورة ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

ويُشكل عليه: أنه رد عليه الضمير بصيغة ضمير العقلاء، والطيور والدواب ليست من العقلاء؟

والجواب[1]: أنه لما شبههم بالعقلاء وقال: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ فعند هذا التشبيه بالعقلاء يُسوِّغ ذلك أن يبني عليهم ضمير العقلاء.

وقد تقرر في فن العربية: أن غير العاقل كلما شُبّه بالعاقل جرى عليه في الضمائر ونوع الصّيغ ما يجري على العاقل[2]. ونظيره في القرآن قوله تعالى في رؤيا يوسف: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: آية ٤] فجمع جمع المذكر السالم المختص بالعقلاء؛ لأنها لما اتصفت بالسجود أشبهت العقلاء من هذه الحيثية، فجرت عليها صيغة العقلاء. وكذلك قوله: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: آية ١١] لأنه لما خاطب السماوات والأرض خطاب العقلاء، وصرّحت بالإطاعة كما يطيع العاقل، أجرى عليها جمع المذكر السالم المختص بالعاقل كما هنا.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ حشرهم الله يوم القيامة أحياء.

وقد جاء في حديث عن أبي هريرة[3]

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٢١).

(٢) انظر: ابن جرير (٣/ ٢٥٦)، (١٥/ ٥٥٦)، فقه اللغة للثعالبي (٢٩٧)، البرهان للزركشي (٢/ ٢٤٦)، البحر المحيط (٤/ ١٩٩)، الدر المصون (٥/ ١٠٠)، قواعد التفسير ص ٣٠٧.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٣٢٢٢)، (١١/ ٣٤٧)، وابن أبي حاتم في التفسير (٤/ ١٢٨٦)، وكذا الحاكم (٢/ ٣١٦) وقال: (صحيح على شرطه ـ أي =

وأبي ذر[١] ـ وحديث أبي هريرة صححه الحاكم وغيره ـ أن الله يحشرهم هذا الحشر، ويعدل بينهم، حتى إنه ليقتص للجمّاء من القرناء التي كانت تنطحها في دار الدنيا. هكذا جاء في حديث صححه بعض العلماء، والله تعالى أعلم.

وهذه الآية صرحت بأن الحيوانات، والطيور، كلها يحشرها الله بعد الموت، وظاهر هذا أنه حشر إحياء بعد الموت، وتدل عليه آية التكوير: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير: آية ٥] في معرض يوم القيامة.

فالقول المروي عن ابن عباس: أن حشر الطيور والدواب: موتها. هذا القول روي عن ابن عباس من

= مسلم ـ ولم يخرجاه)، ووافقه الذهبي. وأورده ابن كثير في التفسير (٢/ ١٣١)، والسيوطي في الدر المنثور (٣/ ١١)، وعزاه لعبد الرزاق، وأبي عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم. وهو موقوف على أبي هريرة (رضي الله عنه) لكن له حكم الرفع.
وأصله عند مسلم (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم)، حديث: (٢٥٨٢)، (٤/ ١٩٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(١) أخرجه أحمد بألفاظ مختلفة (٥/ ١٥٣، ١٦٢، ١٧٢، ١٧٣)، وابن جرير. انظر: الأثرين رقم: (١٣٢٢٣، ١٣٢٢٤)، (١١/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨)، والطبراني في الأوسط (٦/ ١٧٣). وأورده ابن كثير في التفسير (٢/ ١٣١)، والهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٥٢) وألمح إلى ضعفه. والسيوطي في الدر (٣/ ١١). وقال أحمد شاكر معلقاً على أحد طرقه عند أحمد (٥/ ١٧٣): «وهذا إسناد حسن متصل». اهـ، وانظر: تعليقه على تفسير ابن جرير (١١/ ٣٤٨)، كما صحّح الألباني (رحمه الله) بعض طرقه. انظر: السلسلة الصحيحة (٤/ ٦٠).

طرق[1]، والظاهر أنه خلاف الصحيح، وأن الصحيح ما عليه الجمهور، ودل عليه ظاهر القرآن: أنه حشر بعد الموت، كما قال: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير: آية ٥].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٩﴾ [الأنعام: آية ٣٩].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ﴾ المعنى أن الذين كذبوا بآيات الله ـ كالذين جحدوا هذا الوحي المنزل (القرآن العظيم)، وزعموا أنه شعر، أو سحر، أو كهانة، أو أساطير الأولين، ونحو ذلك ـ قال الله فيهم: إنهم صم بكم.

الصم: جمع الأصم. وقد تقرر في فن التصريف: أن صيغة (أَفْعَل) إذا كانت صفة مشبهة، وكذلك أُنثاها (فَعْلاء) ينقاس جمع كل منهما تفسيراً على (فُعْل)[2]، كالأصم والصُّم، والأعمى والعُمي، والأبكم والبُكم، والأحمر والحُمر، إلى غير ذلك.

ومعنى صم: أنهم صم عن سماع الحق وإن كانوا يسمعون غيره. كما بينا أنه قال عن المنافقين: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ﴾ [البقرة: آية ١٨] فحكم عليهم بالبَكَم مع أنه يقول فيهم: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: آية ١٩] ومن أين للبُكْم أن تكون لهم الألسنة الحداد؟ وقال في المنافقين: ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾

(١) أخرجه ابن جرير من طريقين. انظر: الأثرين رقم: (١٣٢١٩، ١٣٢٢٠)، (١١/ ٣٤٦)، وابن أبي حاتم في التفسير (٤/ ١٢٨٦). وأورده ابن كثير (٢/ ١٣١) من طريق ابن أبي حاتم.

(٢) انظر: ضياء السالك (٤/ ١٩١).

[المنافقون: آية ٤] أي لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم، مع أنه يحكم بأنهم بُكْم.

وهذا (الصَّمَم) وهذا (البَكَم) المراد به: أنهم صم عن سماع ما يقربهم إلى الله ويدخلهم الجنة، وإن سمعوا غيره، بُكْمٌ عن النطق بالحق وإن تكلموا بغيره.

والعادة المعروفة في العربية: أنهم يطلقون على قليل الجدوى اسم (لا شيء). وأنهم يطلقون على السماع الذي لا فائدة فيه، اسم: (الصمم)[1]. ومنه قول قعنب ابن أُم صاحب[2]:

صُمٌّ إذا سمعوا خيراً ذُكرتُ به وإن ذُكرتُ بسوء عندهم أذنوا

ومعنى (أذنوا): أنصتوا بآذان صاغية. فهو يقول: (صم إذا سمعوا) يُصرح بأنهم صم في الوقت الذي يصرح بأنهم يسمعون، كما في الآيات؛ لأن السماع الذي لا فائدة فيه يطلق عليه اسم (الصمم) وقد قال النبي ﷺ لما سُئل عن الكهان، قال في الكهان: «ليسوا بشيء»[3]. نفى عنهم اسم (الشيء) لخساستهم وقلة فائدتهم، وهذا معروف في كلام العرب.

والذي عليه الجمهور: أن هذا الصمم والعمى في الدنيا، كما

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٦) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من هذه السورة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الكهانة، حديث (٥٧٦٢)، (٢١٦/١٠)، وأخرجه في موضعين آخرين. انظر: الحديثين رقم: (٦٢١٣، ٧٥٦١)، ومسلم في الصحيح، كتاب السلام، باب: تحريم الكهانة، وإتيان الكهان، حديث: (٢٢٢٨)، (٤/ ١٧٥٠).

قال الله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ۝٢٣﴾ [محمد: آية ٢٣]، وقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: آية ٧]، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: آية ٤٥].

وقد قدمنا أن هذا الصمم والعمى إنما هو من ذلك الختم الذي يضع الله على قلوبهم، الذي عُبِّر عنه تارة بـ(الختم) في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧] وتارة بـ(الطبع): ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: آية ١٥٥]، ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٧٤﴾ [يونس: آية ٧٤]، وعنها تارة بـ(الرَّان): ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين: آية ١٤]، ومرة بـ(الأَكنَّة): ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: آية ٥٧].

قد بينا في الدروس الماضية وجه الجواب منه عن حُجة الجبرية[1]؛ لأنهم يقولون: «إذا كان الله جعل على قلبه الختم، وعلى عيونه [الغشاوة][2]، وجعل عليه الطبع والأكنة، ومنعه من الفهم والسماع إذن هو مجبور»!! وقد أجبنا عن هذا: أن الآيات القرآنية دلت بكثرة: أن ذلك الختم والطبع إنما يجعله الله عليهم بعد أن بادروا إلى الكفر، وتمردوا على الله، وكذبوا رسله، وعاندوا، ولجّوا في الباطل، فعند هذا يطمس الله بصائرهم جزاءً وفاقاً، كما قال:

(١) في هذا الموضوع راجع الباب الخامس عشر (في الطبع والختم والغل والسد والغشاوة، والحائل بين الكافر وبين الإيمان، وأن ذلك مجعول للرب تعالى) من كتاب شفاء العليل ص ٨٥.

(٢) في الأصل «وقر» وهو سبق لسان.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: آية ٥] بأن ختم عليها وطبع، ومنعها من الخير، وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: آية ١٥٥] أي: بسبب كفرهم، فالباء سببية، بينت أن سبب ذلك الطبع هو كفر سابق. وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١١٠] أي: نقلبها كي لا تسمع الحق أو تبصره ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لمَّا سارعوا وبادروا إلى الكفر طمسنا على قلوبهم، كما بينه في قوله: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: آية ١٤] فبيّن أن ذلك (الران) الذي غطّى القلوب ومنعها من الفهم سببه ما كانوا يكسبونه من الشر، والكفر، والمعاصي ـ والعياذ بالله ـ ولذا قال تعالىٰ هنا: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ قوله: ﴿فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ كأنه يقول: (عمي)، (صمّ بكم عمي)، إلا أنه عبّر عن عماهم بكونهم ﴿فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾؛ لأن الذي هو في الظلمات لا يبصر شيئاً، و ﴿ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾: جمع ظلمة.

وقد بيّنا في هذه الدروس مراراً: أن من أصعب المسائل شبهة الجبر والقدر(١)، هي من أصعب المسائل، وأن القرآن أشار إليها في آيات؛ لأن كثيراً من الجهلة والملحدين يقولون: «إن كان الله هو الذي يشاء أفعال العبد ـ وهو الخالق لكل شيء، ومنه أفعال العبد ـ وأفعال العبد بمشيئته، فكيف يعاقب العبد المسكين على شيء شاءه الله، وخلقه الله؟ فالعبد إذن لا يؤاخذ بشيء»!! فلأجل هذه الشبهة، ضلت القدرية ـ والعياذ بالله ـ فقالوا: إن العبد يستقل بأعمال نفسه. زاعمين أن قدرة العبد مستقلة بأعماله بلا تأثير لقدرة الله فيها، ففروا

(١) انظر: ما استدل به كل فريق والجواب عنها في (القضاء والقدر) للمحمود ص ٢١٧ ـ ٢٤٣.

من شيء ووقعوا فيما هو أعظم منه ــ والعياذ بالله ــ .

وقد قدمنا في الدروس الماضية: أنه لو تناظر جبري وسني فقال الجبري مثلاً: هذه الذنوب والمعاصي التي صدرت من البعيد أن الله كتبها عليه، وقدرها عليه في الأزل، وطُويت الصحف، وجفت الصحف، وكان ما كان، ولا مبدل لما سبق في علم الله.

يقول البعيد: لو أردتُ التخلص مما سبق به العلم الأزلي لا يمكنني ذلك بحال. فيقول البعيد: أنا إذاً مجبور، فكيف نُعاقب؟ وهذا فعل الله وتقديره في أزله قبل أن أُولد، وما سبق في العلم فهو حتم واقع لا محالة!!

والصحابة سألوا النبي ﷺ عن هذه المسألة، وقالوا: «أهو أمر مُؤتنف، أو كان ما كان فيما مضىٰ؟» أخبرهم أنه كان ما كان. فقالوا له: إذاً لِمَ لا نترك ونتكل على الكتاب السابق، ونترك العمل حيث فُرغ من كل شيء، ومضى ما مضى؟ فبيّن لهم بنكتة من جوامع الكلم، قال: **«كلٌّ مُيسّر لما خُلق له»**[1]. فهي كلمة مجملة تدل على

---

(١) في هذا المعنى وردت عدة أحاديث رواها جمع من الصحابة منهم:

١ ــ علي (رضي الله عنه)، عند البخاري، كتاب الجنائز، باب: موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله، حديث رقم: (١٣٦٢)، (٣/ ٢٢٥)، وأخرجه أيضاً في عدة مواضع. انظر: الأحاديث رقم: (٤٩٤٥، ٤٩٤٦، ٤٩٤٧، ٤٩٤٨، ٤٩٤٩، ٦٢١٧، ٦٦٠٥، ٧٥٥٢)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه. . .، حديث رقم: (٢٦٤٧)، (٤/ ٢٠٣٩).

٢ ــ جابر بن عبد الله، عند مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي. . .، حديث (٢٦٤٨)، (٤/ ٢٠٤٠). =

معاني هذا بالتفصيل، فالمؤمن ــ مثلاً ــ إذا ناظر الجبري يقول له: اعلم يا جبري أن جميع الأسباب الذي اهتدى بها المهتدون، وأعطاها الله لهم: أعطاك مثلها: العيون التي أبصروا بها آيات الله وغرائبه وعجائبه فآمنوا: أعطاك عينين صحيحتين مثلها، والقلوب التي فهموا بها عن الله: أعطاك عقلاً صحيحاً مثلها، والرسول النذير الذي أنذر الكل وخوّفه وبيّن له: أعطاك مثله، فجميع ما أعطاهم أعطاك إياه، إلا أن الفرق بينك وبينهم في شيء واحد هو: أن الله تفضّل عليهم بالتوفيق إلى ما بيّن لهم وأمرهم به، وأنت لم يتفضل عليك، وتفضُّلّه بالتوفيق مُلْكُه المحض، من تفضل عليه فَفَضْلٌ، ومن منعه من التوفيق فَعَدْلٌ، كما قال جلّ وعلا: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: آية ١٤٩] مُلْكُه للتوفيق بمشيئته: حجته البالغة على خلقه، من أعطاه فَفَضْل، ومن منعه فَعَدْل.

وقد بيّنا في الدروس الماضية مناظرة عبد الجبار مع

= ٣ ــ عمران بن حصين، عند البخاري، كتاب القدر، باب: جف القلم على علم الله، حديث (٦٥٩٦)، (١١/ ٤٩١)، وأخرجه في موضع آخر. انظر: حديث (٧٥٥١)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه. . .، حديث (٢٦٤٩)، (٤/ ٢٠٤١).

٤ ــ عبد الله بن عمر، عند الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء في الشقاء والسعادة، حديث (٢١٣٥)، (٤/ ٤٤٥)، وذكره في موضع آخر. انظر: حديث (٣١١١).

٥ ــ عبد الله بن عمرو بن العاص، عند أحمد (٢/ ١٦٧)، والترمذي، كتاب القدر، باب: ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار، حديث: (٢١٤٢)، (٤/ ٤٤٩).

أبـي إسحاق الإسفراييني في هذه المسألة[1]؛ لأن أبا إسحاق فهم مضمون هذه الآية، وحاجّ به هذا المبتدع المفتري. فجاء عبد الجبار يتقرب بمذهبهم الخسيس أن السرقة والزنى لا تكون بمشيئة الله؛ لأن السرقة والزنى من القبائح والرذائل، وأن الله ـ في زعمهم ـ أنزه وأكرم وأجل من أن تكون هذه الخسائس والقبائح بمشيئته، فجاء عبد الجبار يتقرب إلى الله ويعبده بهذا المذهب الباطل، فقال: سبحان من تنزه عن الفحشاء!! يعني: أن فُحش السرقة والزنى ليس بمشيئة الله.

فقال أبو إسحاق: كلمة حق أُريد بها باطل!! ثم قال: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبد الجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه؟

فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبراً عليه؟ أأنت الرب وهو العبد؟

فقال عبدالجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدى، وقضى علي بالردى، دعاني وسد الباب دوني، أتراه أحسن إليَّ أم أساء؟

فقال أبو إسحاق: أرى أن الذي منعك وإن كان حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء، إن كان ملكه المحض فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل. وبُهت عبدالجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب!!

---

(١) انظر: طبقات الشافعية للسبكي (٤/ ٢٦١)، شرح الطحاوية ص ٣٢٣، فتح الباري (١٣/ ٤٥١)، منهج الجدل والمناظرة (٢/ ١٠٧٤).

وقد بيّنا فيما مضى القصة التي ذكروها عن عمرو بن عبيد ـــ مع أنه من عظمائهم الأجلاء عندهم ـــ أنه جاءه ذلك البدوي، وقال له إن حمارته أو دابته سُرقت، وأنه [يطلب منه أن](١) يدعو الله له أن يردها عليه. فقام يدعو ويتقرب بهذا المذهب الباطل: اللهم إن دابته سُرقت ولم تُرِدْ سرقتها؛ لأنك أكرم وأنزه وأجل من أن تُريد هذه الرذيلة القبيحة ـــ يعني السرقة ـــ!! فالبدوي قال له: ناشدتك الله يا هذا إلا ما كففت عني من دعائك الخبيث، إن كانت سُرقت ولم يُرِدْ سرقتها فقد يريد ردّها ولا تُرد، ولا ثقة لي برب يُفعل في ملكه أشياء ليست في مشيئته، فهذا ليس برب، ولا ثقة لي به، فاكفف عني من دعائك الخبيث(٢)!!

فحقيقة هذا الأمر أن الله (جل وعلا) غني عن الخلائق. [٢/ب] / ولكنه خلق الخلق، وجبل بعضهم في الأزل على القُبح والسوء، وجبل بعضهم في الأزل على الطيب والطهارة، ويسّر كُلًّا لما خلقه له، والحكمة في ذلك: أن يكون فيهم مطيعون يظهر فيهم مظاهر بعض أسماء الله وصفاته، يظهر فيهم من مظهر اسمه: الرحيم، الكريم، الغفور الجواد، إلى غير ذلك من صفات الجود، والرحمة، والمغفرة، والكرم، كما أنه شاء أن يخذل قوماً آخرين، فتكون أعمالهم غير طيبة؛ ليظهر فيهم أيضاً بعض مظاهر أسمائه وصفاته شدة البطش وقوة الانتقام، وعظمة النكال والعقاب، إلى غير ذلك. والله (جلّ وعلا) إذا خلقهم وأوجدهم يصرف قُدَرَهم وإراداتهم بقدرته وإرادته إلى ما سبق به العلم الأزلي،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٧٤٠)، شرح الطحاوية ص ٣٢٣.

فيأتونه طائعين ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: آية ٣٠].

وقوله جل وعلا: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: آية ٣٩] جمهور العلماء على أن المراد بصممهم وعماهم وكونهم في الظلمات: أنه في دار الدنيا[١]، والمراد به عمى أبصارهم عن الحق، وصمم أسماعهم عن الحق، وعمى عيونهم عن الحق؛ لأنها في الظلمات ـ والعياذ بالله ـ لا تُبصر شيئاً، كما في قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: آية ١٨] ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: آية ٢٦] خلافاً لبعض العلماء القائل: الذين كفروا في دار الدنيا ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في الآخرة؛ لأجل تكذيبهم في الدنيا[٢]، واستدل بأن الله قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: آية ٩٧] وذكر بأنهم في الظلمات، بدليل قوله: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: آية ١٣].

والقول الأول هو الذي عليه الجمهور.

ثم قال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: آية ٣٩].

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٥٠)، القرطبي (٦/ ٤٢٢)، البحر المحيط (٤/ ١٢٢)، ابن كثير (٢/ ١٣٢).

(٢) انظر: القرطبي (٦/ ٤٢٢)، البحر المحيط (٤/ ١٢٢).

قد بيّنا فيما مضى[١] أن فعل المشيئة إذا قُرن بأداة شرط حُذف مفعوله باتفاق؛ لأن جزاء الشرط يكفي عنه. وتقرير المعنىٰ: (من يشأ الله إضلاله يضلله، ومن يشأ جَعْلَهُ على صراط مستقيم يجعله على صراط مستقيم).

وهذه الآية الكريمة تدل على رد مذهب القدرية رداً واضحاً لا شك فيه؛ لأنه بيّن أن الضلال بمشيئته، والهدى بمشيئته، فلا يقع في الكون تحريكة ولا تسكينة إلا بمشيئته جل وعلا ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الدهر: آية ٣٠] يعني من شاء أن يُضله، أي: يُزيغه عن طريق الصواب.

وقد قدمنا فيما مضى أن الضلال جاء إطلاقه في القرآن وفي لغة العرب على ثلاثة أنحاء متقاربة[٢].

وبعض العلماء يحاول أن يجعل مرجعها في الأصل إلى شيء واحد.

أشهرها: هو الذهاب عن طريق الجنة إلى طريق النار، وعن طريق الهدى ـ التي جاء بها النبي ـ إلى طريق الكفر والمعاصي التي سنّها الشيطان. وهذا الإطلاق هو أشهر إطلاق أنواع الضلال، ومنه هذه الآية: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ [الأنعام: آية ٣٩] أي: يضلله عن طريق الحق التي تدخله الجنة إلى طريق الضلال التي تدخله النار.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المفردات (مادة: ضل) ص ٥٠٩، نزهة الأعين النواظر ص ٤٠٦، إصلاح الوجوه والنظائر للدامغاني ص ٢٩٢، بصائر ذوي التمييز (٣/ ٤٨١)، أضواء البيان (٣/ ٥٣).

الإطلاق الثاني من إطلاقات الضلال أن معناه: الغيبوبة والاضمحلال، وكل شيء غاب وانعدم واضمحل تقول العرب: (ضل). تقول العرب: «ضل السّمن في الطعام» إذا غاب واضمحل فيه، وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه بهذا المعنى الآية المتقدمة: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٢٤] أي: غاب واضمحل وزال، ومنه قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: آية ١٠] يعنون أنهم اختلطت عظامهم بالأرض فأكلتها، فانعدمت واضمحلت فيها كما يضمحل السّمن في الطعام. ومن الضلال بهذا المعنى قول الأخطل[(١)]:

كُنْتَ القَذى في مَوْجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ قَذَفَ الأتيُّ بهِ، فَضَلَّ ضَلالاً

وقول الآخر[(٢)]:

أَلَم تَسْأَلْ فَتُخْبِرَكَ الدِّيارُ عن الحيِّ المُضَلَّلِ أين ساروا

فقوله: «الحي المضلل» أي: الذي ذهبت به الأيام، وانقضى ذِكْرُه فغاب واضمحل.

الإطلاق الثالث من إطلاقات الضلال: هو الذهاب عن معرفة الشيء، لا عن طريق الصواب، ولا جنة ولا نار، بل كل شيء ذهبت عن حقيقة معرفة الواقع فيه تقول العرب: «ضل عنه»، ومنه بهذا

---

(١) ديوان الأخطل ص ٢٥٠.
والقذى: الأوساخ التي تطفو على الموج.
والأكدر: الذي تغير لونه من الأوساخ.
والأتي: السيل الذي يأتي من كل مكان.

(٢) البيت في القرطبي (١/ ١٥٠)، الدر المصون (١/ ٧٦).

المعنى على أصح التفسيرات: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: آية ٧] يعني: ذاهباً عما تعرفه الآن من العلوم فهداك إلى تلك العلوم بالوحي؛ لأنها علوم لا تُعرف بالعقل، ولا تُعرف بالفطرة، ومن الضلال بهذا المعنى قوله تعالى في الدَّين: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٢] أي: تذهب عن معرفة المشهود به فتذكرها الأخرى، ومنه بهذا المعنى ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾ [طه: آية ٥٢] أي: لا يذهب عنه علم شيء، بل جميع الأشياء يحيط بها علمه.

ومنه بهذا المعنى قول أولاد يعقوب ليعقوب: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝٩٥﴾ [يوسف: آية ٩٥] ذهابك عن معرفة حقيقة يوسف، وما جرى مجرى ذلك، ومن أمثلة هذا النوع في كلام العرب قول الشاعر(١):

وتظنُّ سلمى أنَّني أبغي بها ... بدلاً، أُراها في الضلال تهيمُ

يعني: أنها ظنت أنه يبغي بها بدلاً، والأمر بخلاف ذلك.

ولأجل أن الضلال يطلق على الغَيْبَةِ والاضمحلال (من إطلاقه الثاني): سمت العرب الدفن (إضلالاً)، تقول: «ذهبوا بالميت فأضلوه» إذا دفنوه في قبره، ومن هذا المعنى قول نابغة ذبيان(٢):

فـآبَ مُضِلُّوهُ بعينٍ جليّةٍ ... وغُودرَ بالجولانِ حَزْمٌ ونَائِلُ

---

(١) البيت في الإيضاح للقزويني ص ١٥٨، والتلخيص في علوم البلاغة ص ١٨٥، للمؤلف نفسه، جواهر البلاغة ص ١٦٥، بلا نسبة.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص ١٥٥.

وهذه الآية الكريمة تردّ مذهب المعتزلة، وتوضح أن الهدى والضلال كل ذلك بمشيئة الله، يضل قوماً وله بذلك الحكمة البالغة، ويهدي آخرين وله في ذلك الحكمة البالغة.

اعملوا فكل مُيسَّر لما خُلق له، فمن خلقه الله للخير هداه إلى ما يرضيه، ومن خلقه للشر ـ والعياذ بالله ـ بعكس ذلك؛ ولذا قال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ (الصراط) في لغة العرب: هو الطريق الواضح[1]. فكل طريق واضح تُسميه العرب: (صراطاً). و(المستقيم): هو الذي لا اعوجاج فيه[2]. ووزنه بالميزان الصرفي[3]: (مُسْتَفْعِل) وياؤه مُبدلة من واو، أصله: (مُسْتَقْوِم) على وزن (مُسْتَفْعِل)؛ لأن مادة (الاستقامة) واوية العين، وهذا معروف في كلام العرب؛ وذلك أن دين الإسلام طريق واضح، محجّة بيضاء، تركها نبينا ﷺ بما أوضح به وبيّنها محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وقوله: ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق دين الإسلام في غاية الاستقامة، ليس فيه اعوجاج. ومعنىٰ استقامته: أن طرفه بيد المسلمين، وطرفه الآخر في الجنة، إذا ثبتوا عليه استقام بهم إلى الجنة، فأدخلهم إياها من غير أن يعدل بهم عنها يميناً ولا شمالاً، وإذا تركوه ذهبوا إلى بُنيّات الطرق.

وقد ضرب النبي ﷺ لهذا مثلاً[4]، فخطّ ذلك الخط

---

(١) انظر: القاموس (مادة: سرط) ص ٨٦٥.

(٢) انظر: ابن جرير (١/ ١٧٠)، المحتسب (١/ ٤٣)، الدر المصون (١/ ٦٤).

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٢٢٧.

(٤) جاء هذا في حديث أخرجه الإمام أحمد في المسند، رقم: (٤١٤٢، ٤٤٣٧)، =

المستقيم، وخط حوله خطوطاً كثيرة؛ ليبين أن دين الله مستقيم، وأن حوله بدع، وبُنَيّات طرق، من سلكها ضل وهلك ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ الآية [الأنعام: آية ١٥٣].

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٤٠، ٤١].

هذه الآية الكريمة عاب الله فيها الكفار بسخافة العقول[1]، وأنهم إذا نزلت بهم شدّة من عظائم الشِّدَد أخلصوا في ذلك الوقت الدعاء إلى الله، وتركوا دعاء غير الله؛ لعلمهم بأنه لا ينفع ولا يضر، فإذا نجّاهم الله من تلك الكربة، وأمِنوا: رجعوا إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله. وهذه سخافة عقول؛ لأنهم في وقت الشدائد يُخلصون إلى الله، ثم إذا كان في غير ذلك الوقت رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر!! وهذا ذمّ من الله للكفار، ذمهم به في آيات كثيرة من كتابه؛ ذلك أن الإنسان إذا نزلت به عظيمة من عظائم الشدة ــ في الدنيا ــ والأهوال، فإن الالتجاء في ذلك الوقت إلى من ينقذه. هذا من

= (٦/ ٨٩، ١٩٩) (تحقيق أحمد شاكر)، والحاكم (٢/ ٣١٨) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». اهـ، وابن جرير في التفسير، رقم: (١٤١٦٨، ١٤١٧٠)، (١٢/ ٢٣٠).

وقد أطال ابن كثير في تخريجه وذكر طرقه. انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٩٠)، والحديث صححه أحمد شاكر (رحمه الله) في تعليقه على المسند، وتفسير ابن جرير، والألباني في تعليقه على كتاب السنة لابن أبي عاصم (١/ ١٣).

(١) سيأتي عند تفسير الآية (١٥١) من هذه السورة.

خصوص خالق الكون (جل وعلا)، هذا أمر من خصائص الله، ليس فيه شرك لأحد. فالله (جل وعلا) إذا نزلت بالناس الشِّدَد، والبلايا، والفظائع العظام فملجؤهم الذي يلجؤون إليه هو خالقهم (جل وعلا). وسيدهم في ذلك وقائدهم فيه: هو سيدنا محمد ﷺ، كان إذا نزل به المكروه والشدائد أخلص الالتجاء في ذلك الوقت لمن له ذلك الحق الخالص، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: آية ٩].

وهذا المستغيث هو محمد ﷺ يلتجيء إلى الله عند الشدة ليشرّع ذلك [لأُمته][1]، ويبين لهم أن هذا حق ربهم الخالص له وحده.

وقد أوضح الله هذا المعنى بالسورة الكريمة ـ سورة النمل ـ حيث قال: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل: آية ٥٩] وفي القراءة الأخرى: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾[2] الجواب: الله خير من كل شيء. ثم[3] قال: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: آية ٦١] ذكر في هذه الآيات خلقه البحر، والجبال، وما فعل من عظائم ربوبيته (جل وعلا)، وهذه خصائصه وحقوقه الخالصة. ثم قال في

---

(١) في الأصل: لخلقه.

(٢) قرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب بالياء، وقرأ الباقون بالتاء. انظر: المبسوط في القراءات العشر ص ٣٣٤.

(٣) قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ . . .﴾ الآية [النمل: آية ٦٠].

الأثناء: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: آية ٦٢] ثم قال: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ نُشُرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [النمل: آية ٦٣] وفي القراءة الأخرى: ﴿نُشْراً بين يدي رحمته﴾[1] ثم قال: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النمل: آية ٦٤] هذه حقوق الله الخالصة له، فنحن معاشر المؤمنين نخلصها لله، إرضاء لله ولرسوله ﷺ، واقتداء برسوله؛ ولئلا نتعدى حدود الله، ونصرف حقوقه لغيره، والكفار يعلمون هذا، ويعلمون أن هذه حقوق الله الخالصة له، فإذا كان وقت الجدّ، ورأوا الشدائد[2]، كأن يهيج عليهم البحر بأمواجه وأهواله فيظنوا الموت، عند هذا يُخلصون العبادة والدعاء لله وحده، فإذا أنجاهم الله رجعوا إلى ما كانوا عليه، كما عابهم فيه في آية الأنعام هذه ـ التي نحن بصددها ـ وأمثالها في القرآن كثيرة، كقوله في سورة بني إسرائيل: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: آية ٦٧] يعني: بمسيس الضر: إن هاجت عليهم الأمواج، وعصفت الريح، وكادت السفينة تغرق بما فيها ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ أي: غاب عنكم كل ما كنتم تدعونه واضمحل ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وأنقذكم من ذلك الكرب في البحر

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب: (نُشُراً) بضم النون والشين.
وقرأ حمزة والكسائي وخلف (نَشْراً).
وقرأ ابن عامر (نُشْراً) بضم النون وسكون الشين.
وقرأ عاصم: (بُشْراً) بالباء وسكون الشين.
انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٩.

(٢) انظر: أضواء البيان (٢/ ١٩٠ ـ ١٩٢).

﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: ورجعتم إلى كفركم، ثم قال: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: الآيات ٦٧ ـ ٦٩] وقال جلّ وعلا: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ في هذا الوقت ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: الآيتان ٢٢، ٢٣]، ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: آية ٣٢]، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: آية ٦٥] وأمثال هذا في القرآن كثيرة جداً.

وكان سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل ـ رضي الله عن عكرمة وأرضاه ـ : كان شديد العداوة للنبي هو وأبوه، فلما فتح النبي ﷺ مكة في عام ثمان من الهجرة هرب عكرمة، وركب في سفينة من البحر الأحمر رائحاً إلى الحبشة، فلما لججت بهم السفينة في البحر هاجت عليهم الريح، وأيقنوا بالهلاك، وطغت عليهم الأمواج، فإذا جميع من في السفينة يتنادون، وينادي بعضهم بعضاً: احذروا في هذا الوقت أن تدعوا غير الله؛ لأنه لا يخلصكم من هذا إلا الله وحده. فلما سمعهم يقولون قال: والله إن كان لا يُنجي من كربات البحر إلا هو، فلا يُنجي من كربات البر إلا هو، ثم قال: اللّهم لك عليّ العهد إن أنجيتني من هذه لأضعنّ يدي في يد محمد ﷺ فلأجدنه رؤوفاً رحيماً، فأنجاهم الله، فرجع وأسلم، وصار من خيار أصحاب

النبي ﷺ[1]، فنحن معاشر المؤمنين، إذا نزلت بنا البلايا، كأن يهيج علينا البحر في سفينة، أو تقع أمور لا يقدر على دفعها إلا الله، فاقتداءً بنبينا، وعملاً بكتابنا، وتوحيداً لربنا، نعطي الله حقه الخالص، ولا نفعل كما يفعل الكفار؛ لأن الله عاب الكفار؛ لأنهم وقت الشدائد يخلصون العبادة لمن خلقهم، وفي وقت الرخاء يرجعون لشركهم؛ ولذا قال جلّ وعلا: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ [الأنعام: آية ٤٠] هذه الكلمة المشهور فيها عند علماء العربية[2] وعلماء التفسير: أنها كلمة أطلقتها العرب بهذه (التاء) مفتوحة، سواء كان المخاطب ذكراً أو أنثى، أو جماعة أو اثنين، إلا أن (الكاف) بعدها حرف خطاب يَتَلَوَّن بِتَلَوُّن المخاطبين، ككاف الخطاب في الإشارة في (ذلكم)، و (ذلك) و (ذلكن)، ومعناها عند الجمهور: أَخْبِرْنِي. والتحقيق: أن الكاف فيها لا محل له من الإعراب؛ لأنه حرف خطاب؛ وأنها كلمة وضعتها العرب بمعنى: أَخْبِرْنِي.

﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أخبروني، أخبروني أيها الكفار الذين تعدلون بالله غيره، وتصرفون حقوقه لغيره، وتدعون معه غيره، أخبروني إن

---

(١) أخرج قصة عكرمة (رضي الله عنه) هذه: الحاكم (٣/ ٢٤١)، وابن عساكر في تاريخه. انظر: (مختصر تاريخ دمشق) (١٧/ ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨)، وأوردها الحافظ في الإصابة (٢/ ٤٩٧) وعزاها للدارقطني، والحاكم، وابن مردويه. والذي في سنن الدارقطني (٤/ ١٦٧ ـ ١٦٨) طرف الخبر في أمر النبي ﷺ ـ حينما فتح مكة ـ بقتل أربعة، ثم قال الدارقطني: «وذكر باقي الحديث». اهـ.

(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٥١)، القرطبي (٦/ ٤٢٣)، البحر المحيط (٤/ ١٢٤ ـ ١٢٨)، الدر المصون (٤/ ٦١٥ ـ ٦٢٢).

جاءتكم بليّة من البلايا ﴿ إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ ﴾ بأن هاج عليكم البحر ورأيتم الموت عياناً ﴿ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ من بلاء عظيم وداهية عظمىٰ، ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ ﴾؟؟ أتدعون في ذلك الوقت غير الله من هذه الأصنام التي تعبدون دونه؟ والمعنى: كَلَّا لا تدعون في ذلك الوقت إلا إياه وحده.

كما صرح به في قوله: ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ [الأنعام: آية ٤١] وقدم المفعول للحصر، أي: لا تدعون وقت الشدائد إلا إياه وحده؛ لأنكم تعلمون أنه هو الذي بيده إزالتها، وأن غيره لا يقدر على رفع الكربات عنكم، ثم قال: ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴾ استشكل بعض العلماء (إلى) بعد (تدعون) وقد قال بعض المحققين[1]: إن [(دعا) قد تُضمَّن مادة (لَجَأَ) كما قد تتعدى بـ][2] (إلى) كما في قوله: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وكما قال الشاعر[3]:

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٢٩)، الدر المصون (٤/ ٦٣١).

(٢) في الأصل: « (تدعون) قد تُضَمَّن (مادة: دعا) قد تتعدى إلى». ولا يخفى أن الكلام بهذا السياق مُختل؛ وذلك أن (مادة: دعا) تتعدى بنفسها إلى المفعول إذا كانت بمعنى السؤال والاستغاثة والطلب، كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ [الزمر: آية ٨]. وقد تأتي بمعنى الحث على فعل شيء أو تركه، وحينها تتعدى بـ (إلى) كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: آية ٣٣]. وهنا في آية الأنعام المُراد بالدعاء: سؤال الله واللَّجأ إليه، وقد استشكل بعض العلماء تعدية (تدعون) بـ (إلى)، وبناء على ذلك وقع الخلاف في توجيه ذلك، فقيل: معنى الآية: «فيكشف ما تدعون ــ أي: تطلبون وتحثون ــ إلى كشفه». وبهذا يصح تعدية (تدعون) بـ (إلى). وقيل: بل هي على معنى سؤال الله وطلبه، ولكنها قد ضُمِّنَت معنى (تلجؤون) فصح تعديتها بـ (إلى). والله أعلم.

(٣) البيت لبشامة بن حزن النهشلي. وهو في البحر المحيط (٤/ ١٢٩)، الدر المصون (١/ ٤٦٨).

وإن دعوتِ إلى جُلّى ومكرمةٍ يوماً سَرَاةَ كرام الناس فادعينا

الشاهد: أن (دعا) تعدى بـ (إلى).

﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾ هذا الذي تدعون الله إليه، أي: إلى أن يكشفه عنكم، ويزيله عنكم، قد يكشفه إن شاء، وإن شاء لم يكشفه، فهذه قُيِّدت بالمشيئة.

قال بعض العلماء[1]: هذه قُيدت بالمشيئة، وآية البقرة أُطلقت، لم تقيد، وهي قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: آية ١٨٦] ولم يقل: إن شئت، وهنا قيّد بالمشيئة.

قال بعض العلماء: يُحمل المطلق على المقيد، ويُقيّد بالمشيئة.

وأظهر القولين: ما قاله بعض العلماء: أن آية البقرة مطلقة، وأن دعاء المؤمن لا يُرد إلا إذا كان بإثم أو قطيعة، وما جرى مجرى ذلك، وهذه التي قُيدت بالمشيئة: في دعاء الكفار، أما دعاء المؤمنين فلم يُقيد بالمشيئة.

وعلى كل حال لا شيء إلا بمشيئة الله، إلا أن وعد الله صادق، وقد وعد المؤمنين بالإجابة، ولم يقيده بشيء، وإنما جاء بقيد المشيئة في دعاء الكفار.

ثم قال: ﴿وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ۝٤١﴾ فيه للعلماء وجهان[2]:

---

(١) انظر: أضواء البيان (١/ ١٢١).

(٢) انظر: القرطبي (٦/ ٤٢٣)، البحر المحيط (٤/ ١٢٩)، الدر المصون (٤/ ٦٣٢).

أن معنى ﴿ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ تتركونه عمداً، تنسون الشركاء، أي: تتركون دعاءها وقت الشدة عمداً؛ لعلمكم بأن الكربات والشدائد لا يكشفها إلا الله (جل وعلا)، فتتركونها عمداً.

والنسيان يُطلق على ترك الشيء عمداً، كما قال: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ [الأعراف: آية ٥١] معناه: نتركهم عمداً كما تركوا العمل للقاء يوم القيامة عمداً. وهذا معروف في كلام العرب، أنها تُطلق النسيان على ترك الفعل عمداً، وتطلقه على تركه نسياناً.

الوجه الثاني: أنه من شدة الهول نسوا غير الله (جل وعلا)، ولم يخطر في أذهانهم إلا الله؛ لأنهم عارفون أنه لا يكشف الكربات إلا هو؛ ولذا قال: ﴿ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

[٣/أ] / ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنعام: الآيات ٤٢ ـ ٤٧].

يقول الله جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ

أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٤٢ ـ ٤٥].

يقول الله (جل وعلا) لنبيه: لستَ أول نبي كذّبه قومه، فقد أرسلنا قبلك رسلاً كراماً، وجاؤوا بالبينات والمعجزات الواضحات، فكذبتهم أممهم كما كذّبتك أمتك. وكل هذا من تسلية النبي ﷺ.

واللام في (لقد) توطئة لقسم محذوف (والله لقد أرسلنا) وصيغة الجمع في ﴿أَرْسَلْنَا﴾ للتعظيم.

وفي هذه الآية الكريمة حذفان، كلاهما دلّ المقام عليه[1]:

الحذف الأول: حذف المفعول به، وتقديره: (ولقد أرسلنا رسلاً إلى أمم من قبلك) فحذف المفعول لدلالة المقام عليه، وحذف الفَضْلَة إذا دل المقام عليها سائغ مطّرد.

الحذف الثاني الذي دلّ المقام عليه: هو حذف (الفاء) وما عَطَفَت. وحَذْف (الفاء) وما عَطَفَت إن دل المقام عليه: فهو مطّرد في لغة العرب، كثير في القرآن، أشار له ابن مالك في الخلاصة بقوله[2]:

وَالفَاءُ قَدْ تُحْذَفُ مَعْ مَا عَطَفَتْ ....

وتقديره هنا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ أي: (أرسلنا رسلاً) ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فكذبت تلك الأمم ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ ابتلاء لمّا كذبوا. هذان الحذفان.

---

(١) انظر: القرطبي (٦/ ٤٢٤)، البحر المحيط (٤/ ١٣٠)، الدر المصون (٤/ ٦٣٢).

(٢) الخلاصة ص ٤٨، وانظر شرحه في: الأشموني (٢/ ١١٩).

والأمم هنا: جمع أمة. والمعروف عند علماء العربية: أن لفظ (الأمة) أُطلق في القرآن العظيم أربعة إطلاقات مشهورة، ولو قيل إن هنالك إطلاقاً خامساً لكان غير بعيد.

أما إطلاقات لفظ (الأمة) في اللغة وفي القرآن فمن أشهرها[1]:

إطلاق (الأمة) على الطائفة المتفقة في الدين. أي: في نحلة كائنة ما كانت. وهذا أكثر إطلاقاتها ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: آية ٢٤]، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ [يونس: آية ٤٧]، ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: آية ٣٨].

الإطلاق الثاني: إطلاق (الأمة) على الرجل العظيم المُقتدى به، وقد أطلق الله (الأمة) بهذا المعنى على نبيه إبراهيم في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: آية ١٢٠].

الإطلاق الثالث: إطلاق الأمة على البُرْهَة والقطعة من الزمن، ومنه بهذا المعنى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: آية ٤٥] أي: تذكر بعد برهة من الزمان، ومن هذا الإطلاق قوله تعالى في أول سورة هود: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [هود: آية ٨] أي: إلى برهة معينة في علمنا من الزمن.

الإطلاق الرابع: إطلاق الأمة على الشريعة، والدين، والملة.

العرب تقول: «هذه أمتنا». أي: ديننا، وشريعتنا، ومِلتُنا. ومنه بهذا المعنى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: آية ٥٢] أي: شريعتكم، وطريقتكم، ودينكم.

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٤٤٥، نزهة الأعين النواظر ص ١٤٢، إصلاح الوجوه والنظائر ص ٤٢.

ومنه بهذا المعنى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزخرف: آية ٢٣] أي: على شرع، وملّة، ودين. ومنه بهذا المعنى قول نابغة ذبيان[1]:

حَلَفتُ فلم أَتْرُكْ لنَفْسِكَ ريبةً وهل يأثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهو طائعُ؟

يعني: أن صاحب الدين والشرع لا يأثم ويخالف دينه وشرعه وهو طائع.

والإطلاق الخامس: ــ الذي قلنا إنه لو زاده إنسان لكان غير بعيد[2] ــ هو ما جاء في الآية الماضية بالأمس من إطلاق (الأمة) على الجنس من الحيوانات والطيور، كما قال تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ [الأنعام: آية ٣٨] فقد أطلق تعالى على كل نوع من أجناس الدواب والطيور اسم (الأمة).

وقوله هنا: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ﴾ [الأنعام: آية ٤٢] هذه الأمم هي أمم بني آدم، كما جاء مفصلاً في بعض الآيات: أرسل نوحاً إلى قومه، وبيّن لنا ما قابلوه به، وكذلك فصّل لنا سير جماعة منهم، كقضية نوح مع قومه، وهود مع قومه، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى وهارون مع فرعون، ونحو ذلك مما بيّنه القرآن.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ أي: أرسلنا رسلاً ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ أي: من الناس الذين مضوا من قبلك، في الزمن الماضي، يعني: فكذبوا رسلهم؛ لأن الله ما أرسل رسولاً إلى قوم إلا كذبوه وأهلكهم الله،

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص ٥٥.

(٢) وهو موجود في نزهة الأعين النواظر ص ١٤٤، إصلاح الوجوه والنظائر ص ٤٤.

ولم يُستثنَ من هذا أمة إلا أمة يونس، كما سيأتي في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: آية ٩٨] أما غيرهم من الأمم فكل أمة تكذّب رسولها فيهلكها الله، كما قال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: آية ٤٤].

وقال هنا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأنعام: آية ٤٢] أصل (الأخذ) في لغة العرب: هو التناول بقوة وشدة(١). فكل ما تناولته بقوة وشدة فقد أخذته. وأَخْذ الله عظيم، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه)، أن النبي ﷺ قال: «**إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته**» ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: آية ١٠٢](٢) و ﴿ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في هذه الآية: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ كلاهما مصدر أُنث بألف التأنيث الممدودة

---

(١) لم أقف على من اعتبر ذلك أصلاً لمعنى (الأَخْذ) في كلام العرب. وإنما يُفسِّرون (الأَخْذ) بالتناول وما في معناه. وفسّره الراغب في المفردات بأنه حَوْزُ الشيء وتحصيله، وذلك تارة بالتناول، وتارة بالقهر. (انظر: المفردات، مادة: أخذ ص ٦٧) وسيأتي قول الشيخ رحمه الله: «قدمنا أن (الأَخْذ) إذا أُسند إلى الله هو الأخذ بقوة وشدة...». اهـ، عند تفسير الآية رقم (٤٤) من هذه السورة. والذي يظهر أن هذا مراد الشيخ رحمه الله هنا لكن سبق لسانه إلى غيره، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ...﴾، حديث (٤٦٨٦) (٨/ ٣٥٤)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، حديث (٢٥٨٣)، (٤/ ١٩٩٧).

تأنيثاً لفظياً، وأكثر العلماء[1] على أن (البأساء): هي ما كان من جهة الفقر، والفاقة، والجوع، وضياع الأموال. وأن (الضراء): هي ما كان من قبيل أمراض الجسوم وآلامها، وما يقع فيها. والمعنى: أنّا ابتليناهم بالضر في أموالهم وفي أبدانهم فأفقرناهم، وأعدمنا أموالهم، حتى صاروا في جوع، وفي فقر، وفي فاقة، اختبرناهم بهذا ليُنيبوا إلى الله، ويبتهلوا إليه، فلم ينفع فيهم هذا الاختبار بالشّر، فلما لم ينجح فيهم هذا الاختبار بالشّر ابتليناهم بالخير، وبدّلنا عنهم السيئة بالحسنة، فجعلنا لهم مكان المرض صحة وعافية، ومكان الفقر غنى، ومكان الجوع شبعاً، فلم ينفع فيهم هذا أيضاً. والله (جل وعلا) يبتلي خلقه بالشر والخير ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: آية ٣٥]، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦٨].

وهذه الآية الكريمة ــ من سورة الأنعام ــ بينت أن الله إذا أرسل رسولاً إلى قوم ابتلاهم أولاً بالشدائد، فسلّط عليهم الفقر، والجوع، والفاقة، فإذا لم ينفع فيهم هذا أزال عنهم ذلك، وأغناهم، وصحّحهم، وأغدق عليهم نعم الدنيا، حتى يهلكهم وهم في غفلة، في أشد وقتٍ غفلةً وبطراً ــ والعياذ بالله ــ وقد صرح تعالى في سورة الأعراف أن هذا النوع من الابتلاء ــ المبدوء بالابتلاء بالشر ثم الابتلاء بالخير ــ عام في جميع الأمم التي أُرسلت إليها الرسل، وهنا ــ في الأنعام ــ لم يأتِ بصيغة عامة، وإنما قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: آية ٤٢] وقوله: ﴿أُمَمٍ﴾ جمع مُنكّر.

---

(١) انظر: ابن جرير (٣/٣٤٩ ــ ٣٥٠)، (٤/٢٨٨)، (١١/٣٥٤)، القرطبي (٦/٤٢٤).

والتحقيق: أن الجموع المنكّرة إذا كانت في سياق الإثبات ليست من صيغ العموم[(١)]، [ومن][(٢)] زعم من علماء الأصول: «أن الجمع المُنكَّر من صيغ العموم» فهو قول مردود، كما هو معروف في الأصول، أما في الأعراف فقد بيّن أن هذه السنة من سنن الله، أنها عامة حيث قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ۝٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: الآيتان ٩٤، ٩٥] يعني: بدلنا مكان الجوع شبعاً، ومكان الفقر غنى، ومكان المرض صحة وعافية؛ ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩٥﴾ هذه سُنة الله في خلقه، ذكرها هنا في الأنعام، وبيّن الشمول والعموم في الأعراف.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢﴾ [الأنعام: آية ٤٢] (التضرع): التذلل والخضوع لله[(٣)]، وكثيراً ما يظهر أثر ذلك في الدعاء بأن يبتهل ذلك الذليل الخائف من الله يبتهل متضرعاً يناجي ربه (جلّ وعلا). و (الضارع): هو الذليل الخائف، و (الضراعة): الذل والخشوع والخوف، وهو معنى معروف في كلام العرب، مشهور في كلامهم، ومنه قول الشاعر[(٤)]:

---

(١) في هذه المسألة راجع: شرح الكوكب المنير (٣/ ١٣٩)، شرح مختصر الروضة (٢/ ٤٧٣)، أضواء البيان (١/ ٢١٨)، (٣/ ٣٢١)، (٤/ ١٧٤).

(٢) في الأصل: «وما».

(٣) انظر: المفردات (مادة: ضرع) ص ٥٠٦.

(٤) البيت لنهشل بن حري، أو ضرار بن نهشل، وقيل غير ذلك. وعجزه:

ومُخْتَبِط مِمَّا تُطيح الطوائح

وهو في الكتاب لسيبويه (١/ ٢٨٨، ٣٦٦، ٣٩٨)، المحتسب (١/ ٢٣٠)، الخصائص (٢/ ٣٥٣)، الخزانة (١/ ١٤٧).

=

لِيُبْكَ يـزيـدٌ ضـارعٌ لخصـومـةٍ ....

أي: (ذليل) يبكيه ذليل؛ لأنه ملجأ له.

وفي هذه الآية سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: المعروف في لغة العرب، أن حرف (لعل) أنه للترجّي والتوقع، والله عالم محيط علمه بعواقب الأمور، فكيف يُصرّح بلفظ هو يدلّ على الترجي والتوقع، وكيف يصح في كلام الله الترجي والتوقع، وهو القادر على كل شيء، المحيط علمه بعواقب الأمور؟ هذا وجه السؤال.

وللعلماء عن هذا جوابان[١]:

أحدهما: أن (لعل) هنا للتعليل. والمعنىٰ: أخذناهم بالبأساء والضراء لأجل أن يتضرعوا. ولا شك أن (لعل) أنها من حروف التعليل. وقد سُمع في لغة العرب من كلام العرب الفصحاء التعليل بـ (لعل). ومن إتيان «لعل» للتعليل في كلام العرب قول الشاعر[٢]:

فقُلْتُم لَنَا كُفُّوا الحُرُوبَ لَعَلَّنَا ... نكـفُّ ووثَّقْتُـم لنـا كُـلَّ مـوثـق

فلما كَفَفْنَا الحربَ كانَتْ عُهُودُكُم ... كَشِبـهِ سَـرَابٍ بـالمَـلا مُتَـأَلِّـق

فقوله: «كفّوا الحروب لعلنا نكف» يعني: كفّوا الحروب لأجل أن نكف عنكم.

ومـن هنـا قـال بعـض العلمـاء: كـل (لعـل) فـي القـرآن فهـي للتعليـل، إلا التـي فـي سـورة الشعـراء ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: آية ١٢٩] قالوا بمعنى: كأنكم تخلدون[٣].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

الوجه الثاني: أن (لعل) على بابها من أنها للترجي والتوقع، إلا أن معنى الترجي والتوقع فيها هو بحسب ما يظهر للناس، أمّا الله (جل وعلا) فهو عالم بما كان وما يكون. ومما يؤيد هذا: أن الله عالم في أزله بأن فرعون شقي يموت كافراً ــ والعياذ بالله ــ وهو يقول لموسىٰ وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: آية ٤٤] على ترجيكما وتوقعكما بحسب ما يظهر لكما. أمّا عاقبة الأمر وما يؤول إليه فهي عند الله جلّ وعلا.

وهذا معنى قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام: آية ٤٢] لأجل أن يتضرعوا. أي: لترجّي تضرعهم بحسب ما يظهر للناس الجاهلين بعواقب الأمور.

ثم قال: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ [الأنعام: آية ٤٣] قد قدمنا بالأمس[1] أن لفظة (لولا) أصلها تأتي في اللغة العربية وفي القرآن مشتركة بين معنيين، إلا أن أحد المعنيين ينقسم إلى قسمين، فتكون أقسام (لولا) ثلاثة في القرآن وفي كلام العرب. (لولا) في القرآن إذن تَردُ على ثلاثة أقسام، بثلاثة معان معروفة:

الأول: هي (لولا) المعروفة عند العلماء بأنها حرف امتناع لوجود، والمعنى: أنها تدل على امتناع شيء لوجود شيء نحو: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: آية ٢١] يعني: أنه هنا انتفىٰ عدم الزكاة والطهارة لوجود فضل الله. وهذا معروف مشهور.

(١) مضى عند تفسير الآية رقم (٣٧) من هذه السورة.

الثاني: هو (لولا) التحضيضية. ومعنى (لولا) التحضيضية: أن (لولا) حرف يدل على طلب الفعل بحثّ وحضّ؛ ولذا سُميت حرف تحضيض. وهذه هي التي تنقسم قسمين؛ لأن لها حالتين: تارة يكون الفعل المطلوب فيها بحرف التحضيض ـ الذي هو (لولا) ـ تارة يكون مُمْكناً تداركه مُمْكِناً فعله، وتارة يكون ذلك الفعل لم يبقَ فعله ممكناً؛ لأن فرصته ضاعت ومضت، ولم يمكن تداركه. وإذا كان فعله ممكناً فهي المعروفة بالتحضيضية نحو: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ [المنافقون: آية ١٠] (لولا) هنا معناه: أطلب منك يا رب بطلبٍ شديد مُحضَّض عليه، بحثٍّ وحضٍّ أن تؤخرني ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾... الآية.

النوع الثاني: ـ ومنه الآية التي بين أيدينا ـ هي أن يكون الفعل المطلوب بأداة الطلب التي هي حرف التحضيض ـ أعني (لولا) التحضيضية ـ يكون الفعل فات تداركه ولم يبق ممكناً أبداً. فهي في هذا المعنى ينقلب تحضيضها إلى التوبيخ والتنديم، تارة يُوبّخ بها موجود، كقوله للذين تكلموا في عائشة وصفوان: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: آية ١٦] هذا العمل المطلوب بـ (لولا) ضاعت فرصته عليهم؛ لأنهم قد تكلموا بما لا يليق، فهي في هذا المعنى ينقلب تحضيضها إلى التوبيخ والتنديم. فكأنه يوبخهم ويندمهم على ما فرط منهم. وتارة يكون المُوبّخ بها قد مات ولم يكن موجوداً، كقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ [الأنعام: آية ٤٣] لأن وقت نزول الآية هؤلاء الأمم قد ماتوا وانقضوا في أزمان متناهية، قد مضوا في الزمان الماضي، فلا يمكن حصول الفعل

منهم، وليسوا موجودين حتىٰ يسمعوا التوبيخ. ولكن المقصود من توبيخ هذا الذي غاب ومات ليعتبر به غيره، فيعلم بأن قصص القرآن إنما قُصّت علينا لنعتبر بها ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: آية ١١١] ولذا كان من الحسن أن يُوبّخ أولئك لنعتبر بتوبيخهم فنجتنب ذلك الأمر الذي استحقوا التوبيخ من أجله، هذا معناه؛ ومن هذا المعنى ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ [هود: آية ١١٦] لأن القرون مضت، فهو توبيخ لغائبين، وتنديم لهم؛ ليعتبر به المخاطبون؛ ولذا قال: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: آية ٤٣] كان المطلوب منهم وقت وجودهم ـ بحثٍّ وشدةٍ ـ أن يتضرعوا، واختبرهم الله بالبأس أن يتضرعوا.

ويُفهم من الآية أن المسلم إذا ابتلاه ربه بمصائب الدنيا، من أمراض أو مصائب في الأموال أو جوع أو نحو ذلك: أن عليه أن يتضرع إلى ربه (جل وعلا) ليزيل عنه ذلك؛ لأنه وبّخ هؤلاء وذمهم على عدم التضرع إليه عند نزول الشدائد بهم، وهذا معنى قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ ثم قال: ولكنهم لم يتضرعوا ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ لأن القلوب القاسية تشتد كما تشتد الحجارة، فكما أن الحجر الصلب القوي إذا أردت أن تُدخل في جوفه ماء لا يدخل، فكذلك قلب الكافر لصلابته وقسوته إذا أردت أن تُدخل فيه الموعظة والفهم عن الله لا يدخل؛ لشدة قسوة القلب ـ والعياذ بالله ـ .

وقوله: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ اعلم أن الشيطان في لغة العرب[1] يُطلق على كل

---

(١) في معنى (الشيطان). انظر: تفسير ابن جرير (١/١١)، المقاييس في اللغة، كتاب الشين، باب الشين والطاء وما يثلثهما (مادة: شطن) ص ٥٢٤، اللسان =

عاتٍ متمرد كائناً ما كان. فكل عاتٍ متمرد فهو (شيطان) في لغة العرب التي نزل بها القرآن، سواء كان من الإنس، أو من الجن، أو من غيرهما. إلا أن (الشيطان) كان بالحقيقة العُرفية يسبق إلى إبليس وذرية إبليس. أما في الوضع اللغوي فكل متمرد عاتٍ تسميه العرب (شيطاناً)، سواء كان من الإنس، أو من الجن، أو من غيرهما، ومن إطلاق (الشيطان) على المتمرد العاتي من بني آدم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة: آية ١٤] أي: عُتاتهم المتمردين من رؤساء الكفرة، وقوله تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: آية ١١٢] وقد جاء حديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ: «**أن من الإنس شياطين**»[(١)]. وكل

= (مادة: شطن) (٢/ ٣١٧)، القرطبي (١/ ٩٠)، الدر المصون (١/ ١٠)، الأضواء (٢/ ٢٠٨).

(١) ولفظ الحديث المشار إليه عن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد فجلست، فقال: «**يا أبا ذر هل صليت؟**» قلت: لا، قال: «**قم فصل**». فقمت فصليت ثم جلست، فقال: «**يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن**». قلت يا رسول الله: وللإنس شياطين؟ قال: «**نعم**...» الحديث.

وقد أخرجه أحمد (٥/ ١٧٨، ١٧٩)، والنسائي، كتاب الاستعاذة «الاستعاذة من شر شياطين الإنس»، حديث رقم: (٥٥٠٧)، (٨/ ٢٧٥)، وابن جرير في التفسير (١١/ ٥٣ ـ ٥٥)، وابن حبان (الإحسان) (١/ ٢٨٧)، والطيالسي ص ٦٥، والبيهقي في الشعب (٧/ ١٧٨)، كلهم من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وللحديث طرق متعددة لا تخلو من ضعف إلا أن بعضها قد يتقوى ببعض. والله أعلم.

وهذا الحديث له شاهد من حديث أبي أمامة عند أحمد (٥/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦)، =

عات متمرد من الإنس فهو (شيطان)، كما دلّ عليه: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ ومنه بهذا المعنى قول جرير ـ وهو عربي قُح ـ قال[1]:

أيامَ يدعُونَني الشيطانَ من غَزَلٍ   وكُنَّ يَهْوَيْنَني إذْ كُنْتُ شيطانَا

ومن إطلاق (الشيطان) على غير الإنس والجن حديث: «الكلب الأسود شيطان»[2]. وما جرىٰ مجرىٰ ذلك. هذا إطلاق (الشيطان) في لغة العرب، وهو حقيقة عُرفية في إبليس وذريته؛ لأن ذرية إبليس شياطين، يفعلون كما يفعل، كما يأتي في قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: آية ٥٠].

واعلم أن المادة التي اشتُقَّ منها (الشيطان) اختلف فيها علماء العربية على قولين[3]، أشار لكل واحد منهما الشيخ عمرو ـ أعني

= والطبراني في الكبير (٨/ ٢٥٨)، وابن أبي حاتم في التفسير (٤/ ١٣٧١).
قال ابن كثير بعد أن ساق بعض طرق الحديث: «فهذه طرق لهذا الحديث، ومجموعها يفيد قوته وصحته. والله أعلم». اهـ من التفسير (٢/ ١٦٦)، وانظر في الكلام على سنده: مجمع الزوائد (١/ ١٥٩ ـ ١٦٠)، الفتح الرباني (١٩/ ٢٩)، تعليق شاكر على ابن جرير (١١/ ٥٣ ـ ٥٤)، ضعيف سنن النسائي ص ٢٤٢، الجامع لشعب الإيمان (هامش) (٧/ ١٧٨).

(١) البيت في المقاييس في اللغة، كتاب الشين، باب الشين والطاء وما يثلثهما ص ٥٢٤، القرطبي (١/ ٩٠)، اللسان (مادة: شطن) (٢/ ٣١٧)، والمثبت في هذه المصادر: «وهُن يهوينني».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يستر المصلي، حديث (٥١٠)، (١/ ٣٦٥).

(٣) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الشين، باب الشين والطاء وما يثلثهما (مادة: =

سيبويه ــ في كتابه[١]. وباختلاف القولين يختلف وزن (الشيطان) بالميزان الصرفي، فجماعة من العلماء ــ وهو أصح القولين ــ قالوا: إن مادة (الشيطان) أصلها من (شَطَنَ)، ففاء المادة شين، وعينها طاء، ولامها نون، (شطن). ومعنىٰ هـٰذه المادة في لغة العرب معناها: البعد، فكل شيء شطن فهو بعيد جداً. وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[٢]:

نأت بسعادَ عنكَ نوىً شَطُون فبانتْ والفؤادُ بها حزين

«نوىٰ شطون» أي: بعيدة. ومما يدل على أن (الشيطان) أصله من (شطن) قول أمية بن أبي الصلت الثقفي ــ وهو عربي قُح ــ يمدح سليمان بن داود (عليهما الصلاة والسلام وعلىٰ نبينا)، قال في مدحه[٣]:

أيُّما شاطِنٍ عصاهُ عكاهُ ثم يُلْقَىٰ في السِّجْن والأكبال

عبّر عن (الشيطان) بالشاطن، والشاطن: اسم فاعل (شَطَنَ) بلا خلاف، وهذا مما يؤيد أن مادة (الشيطان) من (شَطَنَ) بمعنىٰ بعُد.

= شطن) ص ٥٢٤، وباب الشين والياء وما يثلثهما (مادة: شيط) ص ٥٤٥، اللسان (مادة: شطن) (٢/ ٣١٧) (مادة: شيط) (٢/ ٣٨٩)، الدر المصون (١/ ١٠)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ١٥٣.

(١) الكتاب (٣/ ٢١٧ ــ ٢١٨).

(٢) البيت للنابغة، وهو في ديوانه ص ٧٢، والمثبت في الديوان وغيره من المصادر التي وقفت عليها: «رهين» بدلاً من: «حزين».

(٣) البيت في المقاييس في اللغة ص ٥٢٥، ابن جرير (١/ ١١٢)، اللسان (مادة: شطن) (٢/ ٣١٧)، القرطبي (١/ ٩٠)، الدر المصون (١/ ١٠).
ومعنى (عكاه) أي: شَدَّه.

ومناسبتها للتسمية هي بُعده عن رحمة الله ـ والعياذ بالله (جل وعلا) ـ وعلى هذا القول أن (الشيطان) من مادة (شَطَنَ) فوزنه بالميزان الصرفي (فَيْعَال).

القول الثاني: أن (الشيطان) أصله من مادة (شاط يشيط) إذا هلك، والعرب تقول: (شاط يشيط) إذا هلك، وعليه فإنما سُمي شيطاناً لهلاكه ـ والعياذ بالله ـ لأنه هالك مخلد يوم القيامة في عذاب الله. والعرب تقول: (شاط يشيط). إذا هلك، وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس[1]:

قد نَخْضِبُ العيرَ من مكنونِ فائِلِهِ[2] وقد يَشِيطُ على أرماحِنا البطلُ

يعني بقوله: (يشيط) أي: يموت ويهلك. وعلى هذا فوزن (الشيطان) بالميزان الصرفي: (فَعْلَان) فعلى أنه من (شاط) فوزنه: (فَعْلَان)، وعلى أنه من (شَطَن) فوزنه: (فَيْعَال)، هذا وزنه بالميزان الصرفي، واختلاف العلماء في اشتقاقه ومعناه.

والمراد بالشيطان هنا: جنس الشيطان، وهو إبليس وذريته، والعياذ بالله من تضليلهم.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ الشيطان يزين للكفرة والعصاة أعمالهم الخبيثة، وذلك التزيين إنما هو بالوسوسة، يوسوس لهم، وينفث في قلوبهم ما يزين لهم به المعاصي والكفر ـ والعياذ بالله ـ وهذا معنى قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) البيت في القرطبي (١/ ٩٠)، اللسان (مادة: شيط) (٢/ ٣٩٣).

(٢) الفائل: عرق في الفخذين يكون في خربة الورك.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: آية ٤٤].

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ النسيان هنا معناه: الترك عمداً.

وقد بيّنّا أن مادة (النسيان) تطلق في القرآن وفي اللغة العربية إطلاقين[1]:

يطلق (النسيان) على ترك الفعل عمداً نحو قوله: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: آية ١٩] وكقوله: ﴿ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ﴾ [السجدة: آية ١٤] والله لا ينسى أبداً النسيان الذي هو زوال العلم؛ لأن الله يقول: ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ [طه: آية ٥٢] ويقول: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ [مريم: آية ٦٤] فهذا الاصطلاح [معروف][2] تقول العرب: «أمرت زيداً فنسي أمري». يعنون تركه عمداً.

الثاني: هو (النسيان) بمعنىٰ زوال العلم. كالنسيان الاصطلاحي المعروف. ومنه قوله: ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [الكهف: آية ٦٣]، وقوله: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الأنعام: آية ٦٨]، ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ [المجادلة: آية ١٩] هذا (النسيان) بمعنىٰ زوال العلم، والمراد في الآية: النسيان بمعنىٰ الترك عمداً، وهو قوله: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ ﴾ [الأنعام: آية ٤٤] أي: تركو عمداً ﴿ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ ما ذكرهم الله به من البأساء والضراء، فلم يتضرعوا في حالة الضر، ولم يشكروا في حالة النعيم؛ لأن الله بيّن أن الكافر عند حالة النعماء أنه فخور أَشِرٌ بَطِر، وعند حالة الضراء يؤوس قنوط،

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنعام.

(٢) زيادة ينتظم بها الكلام.

لا يدعو الله، ولا يضرع إليه، كما قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود: الآيتان ٩ ـ ١٠] هو فخور فَرِح أَشِر بَطِر وقت العافية، يؤوس قنوط وقت الشدة. وهذا قد استثنىٰ الله منه عباده المؤمنين، حيث قال في سورة هود، لما ذكر هذه الصفات الذميمة عن الإنسان، استثنىٰ منها المؤمنين الطيبين، قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود: آية ١١] وقد بيّن النبي ﷺ في الحديث الصحيح أن المؤمن الطيب مخالف لهذه الصفات الخبيثة حيث قال ﷺ: «**عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس هذا إلا للمؤمن**»(١). المؤمن عندما يأتيه البأساء والضراء يضّرّع إلى رب العالمين صابراً محتسباً فيثيبه الله، ويعظم له الأجور، وإذا كان وقت السراء، وأنعم الله عليه، كان شاكراً نعم الله، مراعياً بذلك حقوق الله (جل وعلا)، ويكون ذلك خيراً له. وهذا أيضاً خير له، كما في الحديث الصحيح.

ومعنى قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟﴾ أي: تركوا وأعرضوا عما ذُكروا به من الباساء والضراء، حوّلنا لهم البؤس إلى نعمة ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ قرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا الشامي ـ أعني ابن عامر ـ: ﴿فَتَحْنَا﴾ بتخفيف التاء. وقرأه ابن عامر من السبعة

---

(١) أخرجه ـ بنحوه ـ مسلم في صحيحه، من حديث صهيب (رضي الله عنه)، كتاب الزهد والرقاق، باب: المؤمن أمره كله خير، حديث رقم: (٢٩٩٩)، (٤/٢٢٩٥).

﴿فَتَّحْنَا﴾ بتشديد التاء[١] .

وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: كيف قال الله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهو أصدق من يقول، مع أن كثيراً من الأشياء لم تفتح عليهم أبوابه، لم تفتح عليهم أبواب الهدىٰ، ولا أبواب التوفيق، ولا أبواب طاعة الله، ولا أبواب خيرات الجنة. ويصدق عليها اسم (الشيء)؟

وللعلماء عن هذا جوابان[٢] :

أحدهما: ما قاله بعض العلماء أن المعنىٰ: فتحنا عليهم أبواب كل شيء مما كنّا أغلقناه عليهم أيام الابتلاء بالشر. يعني فتحنا لهم أبواب الصحة وقد كانت مغلقة أيام المرض، وفتحنا لهم أبواب الغنىٰ بعد أن كانت مغلقة أيام الامتحان بالشر وهكذا.

الوجه الثاني: أن هذا من العام المخصوص، وجرت العادة في القرآن بأن يذكر الله (كل شيء) وهو يُراد به أنه عام مخصوص. كقوله في بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: آية ٢٣] مع أن بعض الأشياء لم تُؤته بلقيس. وكقوله في مكة المكرمة حرسها الله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: آية ٥٧] مع أن بعض الثمار لا يُجبىٰ إليها. فهذا من العام المخصوص، وهو أسلوب عربي معروف، وتذكر العرب مثل هذا تقصد به الأغلبية. وهذا معنى قوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ .

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٤ .

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٣٥٨)، القرطبي (٦/٤٢٦)، الموافقات (٣/٢٦٨ ـ ٢٨٦)، قواعد التفسير ص ٦٠٨ .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ [الأنعام: آية ٤٤] يعني ولم يزل ذلك الفتح ممتداً إلى غاية، هي كونهم فرحوا بما أوتوا. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ أي: ما أُعطوا من الصحة بدل المرض، ومن الغنىٰ بدل الفقر، ومن الري والشبع بدل الجوع، فرحوا بهذا فَرَحَ أَشَرٍ وبَطَر، لأنه ما كل فرحٍ مذمومٍ؛ لأن الفرح المذموم: هو الفرح بالدنيا المحضة، والأَشَر والبَطَر، لا من حيث أنها تُقرب إلىٰ الله ولا ترضيه. هذا الفرح المذموم المصحوب بالأَشَر والبَطَر، وعندما فعلوه أهلكهم الله. وهذا هو الذي ذمّ الله به الإنسان بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ [هود: آية ١٠] أما الفرح بالخير، والفرح بالدين، ومعرفة القرآن فهذا أمر مطلوب من كل مسلم، كما نصّ الله على ذلك آمراً به بالسورة الكريمة ــ سورة يونس ــ حيث قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: آية ٥٨] ولام الأمر في قوله: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ تدل على أن ذلك النوع من الفرح مأمور به من الله. والأمر إن تجرد من القرائن اقتضىٰ الوجوب، كما هو معروف في فن الأصول[(١)].

وقوله هنا: ﴿فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ أي: بما أُعطوا من الصحة، والعافية، والغنىٰ، والأموال، والدَّعة، والراحة، فرح بَطَر وأَشَر، حتىٰ إذا حصل فيهم ذلك: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ قدَّمنا أن (الأخذ) إذا أُسند إلى الله هو الأخذ بقوة وشدة[(٢)]. كما قال: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ

---

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/ ٣٩)، أضواء البيان (١/ ٢٦٠)، (٣/ ٢٢٢، ٣٥٧، ٤٤٢)، (٤/ ٥٠٥)، (٥/ ١١٣، ١١٤، ٢٤٥)، (٦/ ٢١٦، ٢٣١، ٢٥٣)، قواعد التفسير ص ٤٧٩.

(٢) مضى قريباً عند تفسير الآية (٤٢).

شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: آية ١٠٢].

وقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ مصدر مُنكّر بمعنىٰ الحال[١]. ومعنى البغتة: الفجأة. وذلك أشد ما يُؤخذ به الإنسان؛ لأنه إذا علم بالعذاب قبل نزوله يكون مُتجلداً مستعداً. أما إذا بغته قبل استعداد له فهذا أشد وأنكى؛ ولأجل هذا بعينه أخبر الله المؤمنين بالبلايا التي تَرِدُ عليهم قبل أن تقع؛ ليكونوا مستعدين لها، ولئلا تفاجئهم. حيث قال لهم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: آية ١٥٥] أخبرهم بأن الابتلاء سيأتيهم؛ لئلا يباغتهم، ويكونوا مستعدين له قبل نزوله، ولذا قال: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (الفاء) فاء السببية، و (إذا) هي الفجائية[٢]، و (المبلسون): جمع المُبْلِس، والمُبْلِس: اسم فاعل الإبلاس. و (الإبلاس) في لغة العرب يطلق على معان متقاربة، هو في الحقيقة يرادف الوجوم، والوجوم هو: أن يكون الإنسان ساكتاً منقطعاً لا يقدر أن يتكلم؛ لشدة اليأس من الخلاص من البلايا والدواهي التي وقع فيها. ومعنى ﴿مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾: آيسون قانطون مما وقعوا فيه من عذاب الله ـ والعياذ بالله ـ إياساً وقنوطاً يمنعهم من أن يتكلموا. فمعناه: ساكتون لا يُحيرون جواباً من شدة اليأس والقنوط مما نزل بهم ـ والعياذ بالله ـ وكل من دهاه أمر فتحيّر غير قادر أن يتكلم لشدة الأمر الذي دهاه تقول له العرب: (أَبْلَسَ)[٣]. وهو معنىٰ معروف في

---

(١) انظر: القرطبي (٦/ ٤٢٦).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٣١)، الدر المصون (٤/ ٦٣٤).

(٣) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٦٠ ـ ٣٦٣)، القرطبي (٦/ ٤٢٦)، البحر المحيط (٤/ ١٣١)، الدر المصون (٤/ ٦٣٥).

كلام العرب، ومنه قول رؤبة بن العجاج[١] في رجزه:

يَا صَاحِ هل تَعْرِفُ رسماً مُكْرَسا[٢] قال: نعم أعرفُه وأبلسا

أي: تحيّر مندهشاً لا يقدر أن يتكلم. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قال بعض العلماء: اشتقاق (إبليس) من (الإبلاس)[٣]، وهو اليأس الشديد، والقنوط من الخير، حتى يبقىٰ صاحبه ساكتاً لا يُحير جواباً.

ثم قال جل وعلا: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ﴾ [الأنعام: آية ٤٥] (الدابر): اسم فاعل دبَرَ القومَ يَدْبُرُهم، العرب تقول: «دبَرَهُ يَدْبُرُه» إذا كان يمشي خلفه؛ لأنه يمشي عند دُبره[٤]. كما تقول العرب: «قَفّاه». إذا كان يمشي عند قَفاه ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ [البقرة: آية ٨٧] وأولاد الناس كأنها دابر لهم يدبرهم ويتبعهم، كلما انقضىٰ قَرن دبَرَه قرن. أي: كان ذلك القرن تابعاً له، كأنه يمشي عند دُبُرِه كما يمشي التابع عند دُبرِ المتبوع، فالدابر يُقال للخَلَف، وآخر القوم، كأولادهم. ومعنىٰ (قُطع دابرهم): استؤصلوا ولم يبق منهم تابع؛ لإهلاك الأولاد مع الآباء، حتىٰ ينقرضوا كُلًّا ـ والعياذ بالله

---

(١) البيت في: ابن جرير (١/ ٥٠٩)، (١١/ ٣٦٣)، القرطبي (٦/ ٤٢٧).

(٢) المكرس: الذي صار فيه الكرس، وهو أبوال الإبل وأبعارها يتلبد بعضها على بعض في الدار.

(٣) انظر: ابن جرير (١/ ٥٠٩)، القرطبي (٦/ ٤٢٧).

(٤) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٦٤)، القرطبي (٦/ ٤٢٧)، البحر المحيط (٤/ ١٣١).

جل وعلا ــ وهذا معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول أمية بن أبـي الصلت الثقفي(١):

فأُهلكوا بعذابٍ حَصَّ دَابِرَهُم فَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ صَرْفاً ولا انْتَصَرُوا

(حص دابرهم): يعني قطع دابرهم، وأهلك البقية، فلم يبق منهم تابع؛ لأن الولد كأنه دابر للوالد، أي: تابع له يقفوه من بعده ويُحيي ذِكْره بعد موته. ومعنىٰ: (قَطْع الدابر) أنه هلك الأولاد والآباء، وانقضىٰ الجميع، فلم يبق منهم تابع. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

و (الظلم) هنا معناه: الشرك. كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: آية ١٣]، ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: آية ٢٥٤]، ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: آية ١٠٦].

ثـم قـال: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعـام: آيـة ٤٥] أثنىٰ الله (جل وعـلا) علـى نفسه الكـريمـة بهـذا الثنـاء العظيـم؛ ليُعلّم خلقـه أن يحمـدوا الله (جـل وعـلا) ويثنـوا عليـه عنـد إهلاكـه الظلمة الذين ليس فيهم خير، وليس فيهم إلا الشر للبـلاد والعبـاد، فإراحـة المسلمين مـن الظلمـة الـذين ليس فيهم إلا الضرر، مـن غير أن يكون هنالك نفـع، نعمـة من نعم الله، علّـم الله خلقـه أن يحمدوه عليها.

---

(١) البيـت فـي ابـن جـريـر (١١/ ٣٦٤)، القـرطبـي (٦/ ٤٢٧)، الـدر المصـون (٤/ ٦٣٥).

و (الحمد) في لغة العرب[١]: هو الثناء[٢] باللسان على المحمود بجميل صفاته، سواء كان من باب الإحسان، أو من باب الاستحقاق. وهو معنىً معروف في كلام العرب.

و (الشكر) في لغة العرب[٣]: فعل ينبىء عن تعظيم المنعم بسبب كونه مُنعماً. إلا أن الشكر اصطلاحاً هو الحمد لغة، والحمد لغة هو الشكر اصطلاحاً[٤].

[٣/ب] والمعنىٰ: كل ثناء جميل ثابت لخالق / السماوات والأرض. فمعنىٰ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أنه سيد الخلائق ومُدبّر شؤونهم الذي لا يستغنون عنه طرفة عين، وكل من يُدبّر الأمور ويسوسها تقول العرب له (رباً)، و (الرّبَابَة): سياسة الأمور وتدبيرها، تقول العرب: «فلان رب هذا الحي». يعنون: أنه هو المدبِّر شؤونه. وهو معنىً معروف في كلام العرب[٥]، ومنه قول علقمة بن عَبَدَةَ التميمي[٦]:

---

(١) انظر: المفردات (مادة: حمد) ص ٢٥٦، المصباح المنير (مادة: حمد) ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «الحمد: الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبة لها». اهـ. الفتاوى (٨/ ٣٧٨)، وانظر: (٦/ ٢٥٩، ٢٦٦)، واللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب ص ٢١٣.

(٣) راجع ما مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٤) انظر: الكليات ص ٣٦٦، ٥٢٣، ٥٣٤، ٥٣٥، وفي الفرق بينهما راجع (اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب ص ٢١٤).

(٥) انظر: المفردات (مادة: رب) ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(٦) البيت في المجمل ص ٢٧٩، المفضليات ص ٣٩٤، المفردات (مادة: رب) ص ٣٣٧.

وكُنْتَ امْرَأً أَفْضَتْ إِلَيْكَ رِبَابَتِي وَقَبْلَكَ رَبَّتْنِي فَضِعْتُ ربُوبُ

معنى: (ربتني ربوب) أي: ساستني ساسة، وملكتني ملوك قبلك.

وهذا معنى معروف في كلام العرب، تقول العرب: «رَبَّه يربُّه»، إذا ساسه ودبّر شأنه. وقد عرفتم في السيرة أن صفوان بن أمية بن خلف طلب من النبي ﷺ مهلة ينظر في نفسه، واستعار النبي ﷺ منه بعض السلاح والدروع، وحضر مع النبي ﷺ غزوة حنين، وكان معه رجل آخر، فلما وقع بالمسلمين ما وقع، حيث صلوا الصبح في غلس الصبح، تبقى بقية من الظلام، وانحدروا في وادي حنين، ووجدوا مالك بن عوف النصري ألبد لهم هوازن في مضيق من مضايق وادي حنين، وشدّوا عليهم شدة رجل واحد، وهم في غفلة، حتى كانت الرماح والسهام كأنها مطر تزعزعه الريح، ووقع بالمسلمين ما وقع حيث قال الله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: آية ٢٥] فعند هذا قال ذلك الرجل الذي مع صفوان[1]: الآن بطل سحر محمد ﷺ. وظنوا أن الهزيمة ستستمر، وأن هوازن يغلبونه ويملكون. فقال له صفوان بن أمية ـ وهو عدّو في ذلك الوقت للنبي ﷺ ـ قال لذلك الرجل: اسكت فُضّ فُوك، لئن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من

---

(١) وهو كلدة بن حنبل، ويقال: ابن عبد الله بن الحنبل، وسماه ابن إسحاق: جبلة بن الحنبل. انظر: السيرة لابن هشام ص ١٢٩٠، وفي الإصابة (٣/ ٣٠٥): «كلدة بن حسل. ويقال: ابن عبد الله بن الحسل. وعند ابن قانع: كلدة بن قيس بن حسل». اهـ.

هوازن[١]. قوله: «يربني» يعني: يسودني فيسوسني ويدبر شؤوني. هذا أصله معنىٰ (الرب). والرب الحقيقي الذي يُدبر خلائق الكون هو خالق السماوات والأرض (جل وعلا)، لا تقع في الدنيا تحريكة ولا تسكينة إلا بمشيئته وتدبيره.

و ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾: يطلق على أهل السماوات وأهل الأرض وما بينهما[٢]، فالعَالَم اسم لِما سوىٰ الله، وقد دلت آية من سورة الشعراء أن (العالمين) شامل لأهل السماوات والأرض وما بينهما، حيث قال الله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤﴾ [الشعراء: الآيتان ٢٣ ــ ٢٤] وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ۝٤٦﴾ [الأنعام: آية ٤٦].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: معناه أخبروني. وقد قدمنا[٣] أن العرب تطلق (أرأيت) بمعنىٰ: أخبرني، وتستعملها استعمالين، إذا جعلت معها الكاف، كقوله: «أرأيتك» أو: «أرأيتكم» لزمت التاء الفتح، وكانت الكاف تتغير بحسب تغيّر

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/١٢٨)، والطبري في تاريخه (٣/١٢٨)، وذكره ابن هشام في السيرة ص ١٢٨٦، ١٢٩٠، والهيثمي في المجمع (٦/١٧٩ ــ ١٨٠)، وابن كثير في تاريخه (٤/٣٢٧)، وصححه الألباني في تعليقه على فقه السيرة ص ٤٢٢، وانظر: مرويات غزوة حنين (١/١٤٣، ١٦٣).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٠ ــ ٤١) من هذه السورة.

المخاطب، وإذا حذفوا منها الكاف، كانت التاء تتغير بحسب تغيّر المخاطب، وهي معناها: أخبرني.

والمحققون من علماء العربية: أنها مع تحويل معناها إلى (أخبرني) أنها تطلب مفعولين، وهي ومفعولاها بمعنىً: أخبرني عن كذا. وعليه فقوله هنا: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني. المفعول الأول: أرأيتم سمعكم وأبصاركم إن أخذها الله من هو الذي يأتيكم بها؟ فالمفعول الأول في قوله: أرأيتم سمعكم وأبصاركم إن أخذها الله، من هو الذي يأتيكم [بها][1]؟ والمفعول الثاني: الجملة[2].

أولاً: هذه الآية تهديد للخلائق، وهو أن الله (جل وعلا) أعطاهم هذه العيون التي يبصرون بها، وهذه الآذان التي يسمعون بها، وهذه القلوب المشتملة على العقول التي يفهمون بها، وهذا أعطاه لهم لأجل أن يعتبروا هذه النعم فيشكروا لمن منّ بها فيطيعوه، كما قال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: آية ٧٨] أي: لأجل أن تشكروا له هذه النعم فتطيعوه، كأنه يقول لهم هنا: هذه النعم الجلائل التي أنعمت بها عليكم من هذا البصر الذي تبصرون به، والسمع الذي تسمعون به، والقلب الذي تفهمون به، منحتكم إياها لتشكروني ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون: آية ٧٨] لما كفرتم نعمي أخبروني إن

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) قال في الدر المصون (٤/ ٦٣٥): «المفعول الأول محذوف تقديره: أرأيتم سمعكم وأبصاركم إن أخذها الله. والجملة الاستفهامية في موضع الثاني». اهـ، ولأبي حيان نحوه في البحر المحيط (٤/ ١٣٢).

أخذت نعمي، وسلبتُها منكم، فتركتكم عمياً بعد الإبصار، وتركتكم صُمّاً بعد السماع، وتركتكم لا عقول لكم بعد الإدراك، فصرتم لا بَصر عندكم تبصرون به، ولا سمع تسمعون به، ولا عقل تفهمون به، من هو الذي يقدر أن يَرِدّ عليكم هذه المنافع، ويجعلكم تسمعون وتبصرون وتفهمون؟! المعنىٰ: لا أحد يقدر أبداً على ذلك إلا الله وحده. يعني: لما كان إنعام الله عليكم بهذه المثابة، وقدرته على سلب إنعامه عنكم بهذه المثابة، ما كان ينبغي لكم أن تتمردوا، وتكفروا، وتصرفوا نِعمه (جل وعلا) فيما يسخطه. وهذا في الحقيقة أمرٌ يعرق منه الجبين، ويخجل منه من له عقل، أن الله مع عظمته، وجلاله، وكماله يمنّ على الواحد منّا مع ضعف المسكين وحقارته، ويمنّ عليه بهذه النعم، ويفتح له هاتين العينين في هذا الوجه، على هذا الأسلوب الجميل الغريب، ويعطيه هذا السماع، ويعطيه هذا العقل، ثم يصرف هذه النعم فيما يسخط خالقه (جل وعلا)، فهذا أمر فظيع، يعرق منه جبين العاقل، ويستحي منه من له عقل.

وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أرأيتم ـ أخبروني ـ أيها الناس ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ في أخذه السمع وجهان[1]:

أحدهما: أنه يأخذ الأذن بحاستها، ولا يترك لها أثراً، ويأخذ العين حتى يترك الوجه مطموساً، كما قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ [النساء: آية ٤٧].

الوجه الثاني: أن المعنىٰ أنه يأخذ حاسة الإبصار، والسمع، والعقل، وإن كانت الجوارح باقية؛ لأن صورة العين إذا نزع منها

---

(١) انظر: القرطبي (٦/ ٤٢٨)، البحر المحيط (٤/ ١٣٢).

الإبصار لا فائدة فيها، وجرم الأذن إذا نزع منه السماع لا فائدة فيه. هذان الوجهان معروفان.

وقوله: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ ﴿مَّنْ﴾ مبتدأ و ﴿إِلَٰهٌ﴾ خبره، و ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ نعت للإله. والفعل في قوله: ﴿يَأْتِيكُم بِهِ﴾ في محل النعت أيضاً. مَنْ إله غير الله يرده عليكم[1]؟

في هذه الآية الكريمة سؤالان عربيان معروفان:

أحدهما: أن الله هنا أفرد السمع وجمع الأبصار والقلوب، حيث قال: ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فجمع الأبصار، وجمع القلوب، وأفرد السمع ولم يجمعه، وهكذا في سائر القرآن، يجمعُ ما ذكر مع السمع، ويُفرد السمع، ولا يجمعه في القرآن؟

السؤال الثاني: أن الله ذكر أشياء متعددة في قوله: ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ ثم ردّ عليها ضمير اسمه الواحد في قوله: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ بضمير مذكر مفرد؟

هذان السؤالان العربيان في هذه الآية الكريمة. والجواب عنهما معروف من لغة العرب.

أما الجواب عن الأول ــ وهو إفراد السمع في سائر القرآن ــ فلعلماء العربية فيه وجهان معروفان:

أحدهما[2]: أن أصل (السمع) مصدر، وأنّه مصدر: سمعه،

---

(١) انظر: القرطبي (٦/ ٤٢٨)، الدر المصون (٤/ ٦٣٦).

(٢) انظر: القرطبي (١/ ١٩٠)، (٦/ ٤٢٧)، البحر المحيط (١/ ٤٩)، الدر المصون (١/ ١١٤).

يسمعه، سمعاً، والعرب إذا نعتت بالمصدر ألزمته الإفراد والتذكير، كما قال ابن مالك في الخلاصة(١):

وَنَعَتُــوا بمصــدرٍ كثيــراً فـالْتَـزَمُـوا الإفـراد والتـذكيـرا

وقالوا لأجل هذا: لم يُجمع السمع في القرآن أبداً.

الوجه الثاني(٢): هو ما تقرر في علوم العربية: كل مفرد هو اسم جنس فمن أساليب اللغة العربية أن يُطلق مفرده مُراداً به الجمع، نظراً إلى أن أصله اسم شامل للجنس. وهذا كثير في القرآن، وفي كلام العرب في حالاته الثلاث، أعني بقولي: «في حالاته الثلاث» أن يكون مُنكَّراً، وأن يكون مُعَرَّفاً بالألف واللام، وأن يكون مضافاً.

فمن أمثلته في القرآن واللفظ مُنكَّر: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القمر: آية ٥٤] يعني: وأنهار، بدليل قوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ الآية. [محمد: آية ١٥] وكقوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: آية ٧٤] يعني: أئمة، وكقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: آية ٥] يعني: أطفالاً، وكقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا﴾ [المؤمنون: آية ٦٧] يعني: سامرين تهجرون، وكقوله جل وعلا: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ [المائدة: آية ٦] ويعني: إن كنتم جنبين أو أجناباً. وقوله: ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: آية ٦٩] أي: رفقاء ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: آية ٤]

---

(١) الخلاصة ص ٤٥، وانظر شرحه في: الأشموني (٢/ ٦٨).

(٢) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/ ١٢٩ ـ ١٣٦)، البحر المحيط للزركشي (٣/ ٩٧، ١٠٨، ١٤٦)، أضـــواء البيـــان (١/ ٩٢، ٣/ ٢٥٣)، (٤/ ٣٣٢)، (٥/ ٢٩)، (٧٧٦)، (٧/ ٧٣٠)، قواعد التفسير ص ٥٥٣.

أي: أنفسا. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ [التحريم: آية ٤] مظاهرون. وهو كثير جداً.

ومن أمثلته في القرآن واللفظ مُعرّف قوله جل وعلا: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران: آية ١١٩] يعني: بالكتب كلها، بدليل قوله: ﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٢٨٥]، ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: آية ١٥] وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾ [الفجر: آية ٢٢] يعني: الملائكة، بدليل قوله: ﴿صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ لأن الملَك الواحد لا يكون صفاً صفاً، وكما يدل عليه قوله في البقرة: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: آية ٢١٠] وكقوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر: آية ٤٥] يعني: الأدبار، بدليل قوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥﴾ [الأنفال: آية ١٥] وكقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: آية ٧٥] يعني: الغرف، بدليل قوله: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: آية ٢٠] ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ يعني: الأعداء. وهو كثير جداً.

ومن أمثلته واللفظ مضاف قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: آية ٦٣] أي: أوامره، وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: آية ٣٤] أي: نعم الله، وقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: آية ٦١] أي: أصدقائكم. وهو كثير في القرآن.

والشيخ سيبويه في كتابه[١] يقول: «إن اسم الجنس إذا كان مفرداً: يوجد قصد الجمع به بِقِلّة»، ونحن نقول: بتتبع القرآن واللغة

(١) الكتاب (١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).

العربية فهو بكثرة، عكس ما قاله الشيخ عمرو سيبويه ـ رحمه الله ـ وهو كثير في كلام العرب، ومن أمثلته في كلام العرب: ما أنشده سيبويه في كتابه من قول علقمة بن عَبَدَةَ التميمي[(١)]:

بها جيفُ الحَسْرَى فأما عِظَامُها فَبِيضٌ، وأما جِلْدُها فَصَلِيبُ

يعني: وأما جلودها فصليبة. وأنشد له أيضاً سيبويه قول الآخر[(٢)]:

كُلُوا في بعض بَطْنِكُم تَعُفُّوا فإن زَمَانَكُم زمنٌ خَمِيصُ

أنشد له هذين البيتين فقط، وهو في كلام العرب كثير، ومنه قول عقيل بن عُلّفة المري[(٣)]:

وكان بنو فَزَارَة شَرَّ عمّ وكنتُ لهم كَشَرِّ بني الأَخِينَا

يعني بقوله: «شر عم» شّر أعمام. ومنه قول العباس بن مرداس السُّلمي[(٤)]:

فقُلْنَا أسْلِمُوا إنَّا أخوكم وقد سَلِمَت من الإِحَن الصدور

يعني: إنّا إخوانكم. ومنه قول جرير[(٥)]:

إذا آبَاؤُنا وأبوكَ عُدُّوا أبانَ المُقْرفات من العِرَاب

(١) البيت في المصدر السابق، المفضليات ص ٣٩٤، الدر المصون (١/ ١١٤).
(٢) البيت في الكتاب (١/ ٢٠٩)، المحتسب (٢/ ٨٧).
(٣) البيت في الخزانة (٢/ ٢٧٦)، اللسان (مادة: أخا) (١/ ٣١).
(٤) البيت في ديوانه ص ٧١، الخصائص (٢/ ٤٢٢)، الخزانة (٢/ ٢٧٧)، اللسان (مادة: أخا) (١/ ٣١).
(٥) ديوان جرير ص ٢٩.

يعني: وأباؤك. ومنه قول قعنب بن أم صاحب[١]:

ما بالُ قومٍ صَدِيْقٍ ثُمَّ ليس لهم عَقْلٌ وليس لهم دِيْنٌ إذا ائْتُمِنُوا

قال: «ما بال قوم صديق» يعني: أصدقاء. ومن هذا المعنىٰ ـ بنفسه ـ قول جرير قال[٢]:

نَصَبْنَ الهوى ثم ارتَمَيْنَ قلوبنا بـأَعْيُـنِ أعـداء وهُـنَّ صـديـق

يعني: وهن صديقات. ومن هذا المعنى قول الآخر[٣]:

يـا عـاذلاتـي لا تَـزِدْن مـلامـة إن العَـوَاذلَ ليـس لـي بـأميـر

وهو كثير جداً. والقصد التمثيل، وعلىٰ هذا خرّج بعضهم [إفراد][٤] (السمع)؛ لأنه اسم جنس أُطلق وأُريد به الجمع، كما بيّنّا نظائره في القرآن، وفي لغة العرب.

الجواب الثاني: عن رجوع ضمير مذكر مفرد إلىٰ أشياء متعاطفة حيث قال: ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ يُجاب عنه بجوابين[٥]:

---

(١) البيت في اللسان (مادة: صدق) (٢/ ٤٢١)، أضواء البيان (٥/ ٣٠)، ولفظ شطره الثاني فيهما:

.... ديـن وليـس لهـم عقـل إذا ائتمنـوا

(٢) ديوان جرير ص ٣١٥.

(٣) البيت في الخصائص (٣/ ١٧٤)، مغني اللبيب (١/ ١٧٧)، ولفظه فيهما:

يـا عـاذلاتـي لا تـردن مـلامتـي إن العـواذل لسـن لـي بـأميـر

وأما اللفظ الذي ذكره الشيخ هنا فهو المثبت في الأضواء (٥/ ٣٠).

(٤) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٥) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧)، القرطبي (٦/ ٤٢٨)، البحر المحيط (٤/ ١٣٢)، الدر المصون (٤/ ٦٣٦).

أحدهما: أن قوله: (به) أي: بما ذُكر، أي: بذلك الشيء المأخوذ، وهذا معروف في كلام العرب، ولما قال رؤبة بن العجاج في رجزيته القَافِيَّة المشهورة، قال فيها[1]:

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَق كأنه في الجِلْدِ تَوْليعُ البَهَق

فقال له واحد: لِمَ قلت: كأنه بالإفراد؟ إذا كنت تعني (الخطوط) لا بد أن تقول: «كأنها»، وإذا كنت تعني (السواد والبلق) لا بد أن تقول: «كأنهما»، فمن أين قلت «كأنه» بالإفراد؟

قال له: (كأنه) أي: ما ذُكر.

الوجه الثاني: هو ما عُرف في القرآن، وفي لغة العرب، أنه قد تأتي المتعاطفات سواء كانت متعاطفات بـ(واو)، أو متعاطفات بـ(أو)، أو متعاطفات بـ(فاء)، ويرجع الضمير على واحد منها، وتكون الأُخر مفهومة من ذلك[2]؛ لأنه لما رجع علىٰ واحد فُهم أن الباقي مثله، وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب. فمن أمثلته في القرآن في العطف بـ(أو): ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: آية ٢٧٠]، وقال جل وعلا: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾ [النساء: آية ١١٢] بالإفراد، وقال (جل وعلا) في مثل هذا: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: آية ١١] فرده إلى التجارة دون اللهو. وفُهم منه أن اللهو كذلك انفضوا إليه أيضاً. مع أنه ربما رجع لهما معاً، كقوله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: آية ١٣٥] وهو في العطف

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

بـ (الواو) ــ كما هنا ــ كثير جداً، ومنه قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ [التوبة: آية ٣٤]، وقوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا﴾ [البقرة: آية ٤٥]، وقوله جل وعلا: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة: آية ٦٢]، وقوله جل وعلا: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ [الأنفال: آية ٢٠] وهو كثير في القرآن، ومن أمثلته في كلام العرب قول نابغة ذبيان(١):

وقد أراني ونُعماً لاهيين بها　　　والدهرُ والعيشُ لم يهمم بإمرار

ولم يقل: «يهمما».

وقول الآخر(٢):

إن شرخَ الشباب والشَّعَر الأسْـ　　　ـوَدَ ما لم يُعاص كان جُنُونَا

ولم يقل: (ما لم يُعاصيا). هذا كثير في كلام العرب.

ومن أمثلته في المتعاطفات بالفاء: قول امرىء القيس في معلقته(٣):

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٢) البيت لحسان (رضي الله عنه)، وهو في الموضع السابق.

(٣) هذا هو الشطر الأول من البيت، وأما شطره الثاني فقوله:

. . . .　　　لِمَا نَسَجَتها من جَنُوب وشَمْأَل

وقبله:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل　　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وسقط اللوى: منقطع الرمل، والدخول وحومل: قيل إنهما موضعان في شرق اليمامة.

وتوضح والمقراة: قيل إنهما موضعان قريبان من الدخول وحومل.

انظر: ديوانه ص ١١٠.

فَتُوضحَ فالمِقْرَاة لم يَعْفُ رَسْمُها ....

فردّ الضمير على أحدهما، وهذا كثير في كلام العرب.

وأظهر الوجهين: الأول، أن المعنىٰ ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي: بما ذُكر مما أخذه الله منكم. كقوله جل وعلا: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: آية ٦٨] أي: ذلك المذكور، ولم يقل: «ذلكما»، ونظيره قول ابن الزبعري[١]:

إن للشــر وللخيــر مــدىٰ وكــلا ذلــك وَجْــهٌ وقَبَــل

هذا معروف في كلام العرب، وهذا معنىٰ قوله: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ وهذه الآية الكريمة ينبغي لكل مسلم أن يعتبر بها، فيعلم أن الله شقّ له في وجهه عينين، وصبغ له بعضهما بصبغ أسود، وبعضهما بصبغ أبيض، وأعطاه لهما سِلْكاً من جفونه، وجعل لعينيه شحماً لئلا يجففها الهواء، وجعل ماء عينه مِلْحاً لئلا تُنتن الشحمة، وجعل له عقلاً، وهو هذا العقل الذي يميز به بين الأشياء، ويفعل[٢] به هذه الأفعال الغريبة العجيبة، وأعطاه حاسة السماع، كل هذا أعطاه له ليبـذل هـذه النعـم فيمـا يـرضـي ربـه (جـل وعـلا)، فـلا ينبغـي منـه ولا يجمل به أن يستعين بنعم ربه على معصية خالقه (جل وعلا)، فهذا عمل لا يليق بعاقل. ثم إنه يُلاحظ قدرة الله، وعظمته، وجلاله، وأنه قادر علىٰ أن ينزع منه السمع، والبصر، والعقل، فيتركه كالجماد لا يسمع شيئاً، ولا يبصر شيئاً، ولا يعقل شيئاً، فلا ملجأ له غير الله يزيل ذلك عنه؛ ولذا قال: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

ثم إن الله عجَّب نبيه من جراءة الإنسان، وجهله، وإعراضه عن الحق، مع فقره، وحاجته، وفاقته إلى ربه (جل وعلا)، فقال له: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ معنىٰ تصريف الآيات: هو نقلها من حال إلى حال بأساليب واضحة بيِّنة، تارة ـ يعني ـ بالوعيد، وتارة بالوعد، وتارة بالابتلاء بالسراء، وتارة بالضراء، بأنواع مختلفة من جهات مختلفة، ومع هذا ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ بعض المحققين من العلماء يقول: إن (ثم) في هذا المكان[1] للاستبعاد[2]، وأن التراخي المفهوم بـ (ثم) أنها للاستبعاد؛ لأنه يستبعد عند العقول السليمة أن يكون الله مع عظمته وجلاله، ومع ما يُحسن به إلىٰ الإنسان يُصرِّف له الآيات، ومع هذا هو يصدف، أي: يُعرض. فمعنىٰ قوله: ﴿يَصْدِفُونَ﴾ أي: يعرضون، ويصدون، والعرب تقول: «صَدَفَ عنه، يَصْدِفُ، صَدْفاً وصُدُوفاً»، إذا أعرض عنه ومال[3].

و (صَدَفَ) تُستعمل استعمالين[4]: تستعمل مُتعدية للمفعول، تقول: «صَدَفْتُه عن قوله». أي: صددته عنه حتى أعرض عنه. وتستعمل لازمة، صدف فلان عن كذا: إذا أعرض عنه، وهو معنىٰ معروف في كلام العرب، ومنه قول ابن رواحة[5]:

---

(١) في الأصل زيادة: (إنها).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٣/ ١٣٤).

(٣) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦)، القرطبي (٦/ ٤٢٨)، الدر المصون (٤/ ٦٣٦).

(٤) انظر: ما سيأتي عند تفسير الآية (١٥٧) من سورة الأنعام.

(٥) البيت في الدر المنثور (٣/ ١٢)، والأضواء (٢/ ٢٨٣)، وعزاه لأبي سفيان بن الحارث، ولفظ الشطر الثاني فيهما: =

عجبتُ للطف الله فينا وقد بداَ له صَدْفُنَا عن كل وحي مُنَزَّلِ

(صَدْفُنَا) أي: إعراضُنَا. ومن هذا المعنىٰ قول ابن الرّقاع يمدح نسوة، قال[1]:

إذا ذكرْنَ حَدِيْثاً قُلْنَ أَحْسَنَهُ وَهُنَّ عن كُلِّ سُوء يُتّقى صُدُفُ

جمع صادفة، أي: مُعرضات صادات عنه، وهذا يُستبعد؛ لأن (ثم) هنا للاستبعاد كما حققه بعض العلماء؛ لأنه يُستبعد ممن صرّف له خالقه الآيات، وبيّن له هذا من البيان، يستبعد منه بعد هذا: الإعراض والصدود عن الله جل وعلا.

ومن إتيان (ثم) للاستبعاد قول الشاعر[2]:

ولا يكشفُ الغمَّاءَ إلا ابن حُرة يرىٰ غَمَراتِ الموتِ ثم يزورُهَا

لأن من عاين غمرات الموت يُستبعد منه اقتحامها والوقوع فيها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٤٧]، ﴿قُلْ﴾ لهم يا نبي الله: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ كان الحسن البصري يقول: ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ أي: ليلاً أو نهاراً[3]، وهذا التفسير ليس كما ينبغي، بل التحقيق أن معنىٰ بغتة: أي: أتاكم العذاب في

= .... له صدفنا عن كل حق منزل

(١) البيت في ابن جرير (١١/ ٣٦٦)، القرطبي (٦/ ٤٢٨)، البحر المحيط (٤/ ١١٧)، الدر المصون (٤/ ٦٣٦)، الأضواء (٢/ ٢٨٣).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٤) من سورة البقرة.

(٣) انظر: القرطبي (٦/ ٤٢٩).

حال كونه باغتاً. أي: مُفاجئاً[١] من أن تعلمونه بأسباب، ولا علم لكم به.

وقوله: ﴿جَهْرَةً﴾ أن يأتيكم العذاب بعد أن تُعاينوا أسبابه، وتروا أوائله، حتى يقع بكم ﴿جَهْرَةً﴾ عياناً وأنتم تنظرون إليه[٢].

هذا التحقيق في الفرق بين البغتة والجهرة هنا. إن أتاكم عذاب الله مفاجئاً من غير أن يتقدم لكم به علم، أو جهرة بأن عاينتم مبادئه، ورأيتم أول نزوله، حتى وقع جهاراً وأنتم تنظرون. ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ هذا الاستفهام بمعنىٰ النفي؛ ولذا جاء مُقابلاً بـ (إلا) التي تُقابل النفي[٣]. والمعنىٰ: ما يُهلك إلا القوم الظالمون الكافرون.

وفي الآية سؤال معروف: جاء في الأحاديث الصحيحة[٤] أن العذاب إذا نزل بقوم كفار شمل من فيهم من المسلمين، وهذه الآية بينّت أنه لا يُهلك إلا القوم الظالمون؟

أُجيب عن هذا: بأن العذاب لو شمل وأهلك من هو معهم، أن هذا الهلاك تمحيص له، وأنه يبعث يوم القيامة في نعمة من الله ورحمة وأجور.

وقال بعض العلماء: لا يتعين هذا كما دلت عليه قصص

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٨٦)، القرطبي (٦/ ٤٢٩).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٨٦).

(٣) انظر: الدر المصون (٤/ ٦٣٧).

(٤) ورد في هذا المعنى من حديث أم سلمة، وعائشة، وزينب بنت جحش (رضي الله عنهن). انظر: جامع الأصول (٢/ ٢٣١)، (١٠/ ٤١٥)، (١١/ ٧٢٦).

الرسل؛ لأن الغالب أن الكلام في الأمم والرسل، والقرآن قد قصّ علينا أن كل أمة علم الله أن الهلاك سيأتيها أمر نبيها ومن معه فخرجوا منها ونجوا، كما ذكر أنه نَجَّىٰ هوداً بقوله: ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ۝٥٨﴾ [هود: آية ٥٨]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا﴾ [هود: آية ٩٤]، ﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا﴾ [هود: آية ٦٦] إلى غير ذلك مما جاء مفصلاً في الآيات، وهذا يبين معنىٰ قوله: ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٧﴾ [الأنعام: آية ٤٧].

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٤٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٤٩ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۝٥١ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ [الأنعام: الآيات ٤٨ ـ ٥٢].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٤٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنعام: الآيتان ٤٨ ـ ٤٩].

كان كفار مكة يكثرون الاقتراحات على النبي ﷺ[١] ومما يقترحون عليه أن يقولوا له: سلْ ربك أن ينزل علينا كثيراً من الأرزاق من خزائن رزقه، وأن يُعلمنا بالغيب لنتّقي ما يضر ونجتلب ما ينفع.

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من هذه السورة.

ومما اقترحوا إنزال الآيات كما في قوله في هذه الآية السابقة ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ وقد بيّن الله بعض اقتراحاتهم في سُور من كتابه، كقوله في سورة بني إسرائيل: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾، قال الله له: قل لهم: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء: الآيات ٩٠ ـ ٩٣] وبيّن في آية الأنعام هذه أن الله ما أرسل المرسلين لتكون بيدهم خزائن السماوات والأرض، أو يكونوا ملائكة، أو يقترح عليهم من شاء كل ما شاء من التعنتات، لا ليس الأمر كذلك ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ لا لأن تكون بأيديهم الخزائن، ولا ليكونوا ملائكة، ولا ليقترح عليهم كل متعنت ما شاء أن يقترح عليهم، لا.

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ صيغة الجمع في قوله: ﴿ نُرْسِلُ ﴾ لتعظيم، والمرسلون جمع (المُرْسَل)، والمراد بهم هنا: المرسلون من بني آدم، مع أن المرسلين يكونون من الآدميين ومن غيرهم كالملائكة، كما يأتي في قوله: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: آية ٧٥].

وقوله: ﴿ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ حال[١]، وقوله: ﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾ قال معطوفة على حال[٢]. والمعنىٰ: ما نرسلهم إلا في حال كونهم

(١) انظر: الدر المصون (٤/ ٦٣٧).
(٢) انظر: الدر المصون (٤/ ٦٣٧).

مبشرين ومنذرين، وقد حُذِف هنا معمول البشارة ومعمول الإنذار، وتقديره: إلا مبشرين من أطاعهم بالجنة وما عند الله من الخير، ومنذرين من عصاهم بالنار وما عند الله من النكال. فحذف المفعول والمُتَعَلَّق لدلالة الكلام عليهما.

وقد قدمنا غير ما مرة: أن (المُبشِّر) اسم فاعل (التبشير). والتبشير والبشارة: هو الإخبار بما يسر، قال بعض العلماء: سُمي الإخبار بما يسر (بشارة): لأن الإنسان إذا سمع خبراً يسره أثّر ذلك في دمه فجرىٰ دمه جرياناً من البشارة فظهر أثر ذلك على بشرته، ومنها ــ قالوا ــ سموها (بشارة).

والبشارة أغلب ما تُطلق على الإخبار بما يسر خاصة، وجاء في القرآن العظيم إطلاقها علىٰ الإخبار بما يسوء كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: آية ٢١].

والعلماء الذين يقولون بالمجاز في القرآن، معلوم أنهم يُسمّون مثل قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ يجعلون هذا من نوع (الاستعارة العنادية)، و (الاستعارة العنادية) عندهم يقسمونها إلى: تهكمية، وتمليحية، كما هو معلوم في فن البيان[١].

ومن منع المجاز في القرآن من العلماء ــ وهو الذي نرى أنه الأصوب ــ يقول: هذا أسلوب من أساليب اللغة العربية، فالعرب يستعملون البشارة غالباً فيما يَسُر، وربما استعملوها فيما يسوء، إذا دلت على ذلك قرائن تفهمه، والكل أسلوب من أساليب اللغة

(١) انظر: جواهر البلاغة ص ٢٥١.

العربية[١]. ومعلوم عن العرب أنهم يطلقون البشارة نادراً على الخبر بما يسوء، ومن إطلاق البشارة علىٰ الخبر السيّىء قول الشاعر[٢]:

وبَشَّرْتَني يا سَعْدُ أن أحبتي جَفَونِيْ وقالوا الودّ موعده الحَشْرُ

فجفاء الأحبة أمر يسوء، والبشارة به بشارة بسوء، ومنه قول الآخر[٣]:

يبشرني الغُرابُ بِبَيْنِ أهلي فَقُلْتُ له: ثَكِلْتُكَ مِنْ بشير

هذا أسلوب عربي معروف، وعلماء البيان يسمونه نوعاً من أنواع المجاز، ونوعاً من أنواع الاستعارة، يسمونه (الاستعارة العنادية)، كما بينّا أقسامها عندهم.

والقصر في قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ هو الذي يسميه البلاغيون: قصراً إضافياً[٤]؛ لأنه يرسلهم بأعمالٍ أُخر طيبة من تعليم الأداب، والمكارم، وغير ذلك مما هو زائد على البشارة والإنذار.

والبشارة: الإخبار بما يسر، والإنذار: الإعلام المقترن بتهديد خاصة[٥]. والإنذار أخص من مطلق الإعلام؛ لأن الإنذار لا يطلق إلا

---

(١) انظر: القرطبي (١/٢٣٨)، المفردات (مادة: بشر) ص ١٢٤ ــ ١٢٥، البحر المحيط (١/ ١١١)، الدر المصون (١/ ٢٠٩ ــ ٢١٠).

(٢) البيت في البحر المحيط (١/ ١١١)، الدر المصون (١/ ٢١٠)، ولفظه الشطر الثاني هكذا:

. . . . جفوني وإن الودَّ موعدُهُ الحشر

(٣) البيت في البحر المحيط (١/ ١١١)، الدر المصون (١/ ٢٠٩).

(٤) انظر: جواهر البلاغة ص ١٥٠.

(٥) انظر: المفردات (مادة: نذر) ص ٧٩٧.

على إعلام مقترن بتهديد. فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ من أطاعنا بالجنة، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من عصانا بالنار، ثم بيّن من هم المُبَشَّرون، وما صفاتهم، ومن هم المُنْذَرُون وما صفاتهم، فقال مبيّناً صفات المُبَشَّرين على ما يسمونه: (اللف والنشر المرتب)، فمن آمن وعمل صالحاً فلهم البشارة العظمىٰ؛ بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، مع ما ينالون من النعيم.

وقوله: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ أصل الإيمان في لغة العرب: التصديق[1]. وهو في اصطلاح الشرع: التصديق التام، أعني: التصديق من الجهات الثلاث، وهو تصديق القلب بالاعتقاد، واللسان بالإقرار، والجوارح بالعمل. فالإيمان: قول وعمل[2]، كما عليه مذهب أهل السنة والجماعة، والآيات والأحاديث الدالة عليه لا تكاد تُحصىٰ. في الحديث: «من صام رمضان إيماناً»[3] فسمّىٰ الصوم:

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة البقرة.

(٢) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٨٣٠ ـ ٨٥١)، (٥/ ٨٨٥ ـ ٨٨٩)، تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٩٢ ـ ٤٣٧)، الإيمان لابن تيمية ص ١١٢ ـ ١٢٥، ١٣٥ ـ ١٤١، ١٥٢، ١٦٢، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٨ ـ ١٨١، ١٩٠، ٢٠٧، ٢٤٥، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٨١ ـ ٢٨٧، ٣٠٠.

(٣) كلاهما من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، وقد أخرجهما الشيخان. انظر: البخاري، كتاب الإيمان، باب: قيام ليلة القدر من الإيمان (٣٥)، (١/ ٩١)، تطوع قيام رمضان من الإيمان (٣٧)، (١/ ٩٢)، باب: صوم رمضان احتساباً من الإيمان (٣٨)، (١/ ٩٢)، وقد أخرجهما في مواضع أخرى. انظر: الأحاديث (١٩٠١، ٢٠٠٨، ٢٠٠٩، ٢٠١٤)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح ص ٧٥٩، ٧٦٠، (١/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤).

إيماناً. «من قام ليلة القدر إيماناً»[١] فسمّى الصلاة: إيماناً ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة: آية ١٤٣] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل أن تُنسخ. وفي الحديث الصحيح: «الإيمان بضع وستون» وفي بعض رواياته: «وسبعون بضعاً، أعلاها شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق»[٢] وفي هذا الحديث الصحيح أن هذا الفعل ــ الذي هو إماطة الأذىٰ عن الطريق ــ يُسمّىٰ: إيماناً كما هو معروف.

والعادة المقررة عند العلماء: أن الإيمان إذا جاء مطلقاً ولم يُعطف عليه العمل الصالح فهو يشمل الإيمان من الجهات الثلاث: يشمل إيمان القلب بالاعتقاد، وإيمان اللسان بالإقرار، وإيمان الجوارح بالعمل. وإذا عُطف عليه العمل الصالح، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [يونس: آية ٩] وقوله هنا: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ [الأنعام: آية ٤٨] انصرف الإيمان إلى ركنه الأكبر، وهو الاعتقاد القلبي[٣]، وصار الإصلاح بعده يُراد به الأعمال، كما قال تعالى هنا: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ آمن قلبه، وأذعن، واعتقد ما يجب اعتقاده إثباتاً ونفياً، وأصلح ــ مع ذلك الإيمانِ القلبي عَمَلَه ــ بجوارحه ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ آمن قلبُهُ، وأصلح عمَلَ جوارحه، بأن

---

(١) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة هامش (٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: أمور الإيمان، حديث رقم: (٩)، (١/ ٥١)، ومسلم كتاب الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان، حديث رقم: (٣٥)، (١/ ٦٣) وقول الشيخ (رحمه الله) هنا: «بضعاً» سبق لسان، وإنما الرواية: «شعبة».

(٣) انظر: الإيمان الكبير لابن تيمية ص ١ ــ ١١.

امتثل الأوامر، واجتنب النواهي، هذا القسم من الناس هم المُبَشَّرون الذين فيهم ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ وقال الله فيهم: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني يوم القيامة: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

و(الخوف) في لغة العرب: هو الغمّ من أمر مستقبل خاصة.

و(الحزن) في لغة العرب: هو الغمّ من أمر قد فات ومضىٰ. تقول: «فلان أُصيب بالأمس، فهو اليوم حزين»، وتقول: «فلان خائف»، أي: يغتمّ من أمر مستقبل. هذا أصله معنىٰ (الخوف)، ومعنىٰ (الحزن)[1] ـ أعاذنا الله والمسلمين منهما ـ وربما وُضع أحدهما موضع الآخر، وربما أطلقت العرب (الخوف) على غير (الحزن)، ومن إطلاقات العرب الخوف: إطلاقها الخوف على العلم[2]، تقول العرب: «إني أخاف أن يقع كذا» بمعنىٰ: أعلم أن يقع كذا، وقد بينّا هذا المعنىٰ في سورة البقرة في الكلام على قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٣٢] قال بعض العلماء معنىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا﴾ أي: فإن علمتم ألا يقيما حدود الله. ومن إطلاق (الخوف) لا بمعنىٰ (الحزن)، بل بمعنىٰ العلم اليقيني: قول أبـي محجن الثقفي في بيتيه المشهورين[3]:

إذا مُتُّ فادفني إلى جَنْبِ كَرْمَةٍ تُروّي عظامي في الممات عروقها

(١) في الفرق بين الخوف والحزن انظر: القرطبي (١/ ٣٢٩)، الكليات ص ٤٢٨.

(٢) الكليات ص ٤٢٩، الخزانة (٣/ ٥٥٠ ـ ٥٥١)، الدر المصون (٢/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).

(٣) البيتان في الخزانة (٣/ ٥٥٠)، الدر المصون (٢/ ٢٦٥)، الكامل لابن الأثير (٢/ ٣٣١)، الإصابة (٤/ ١٧٥).

ولا تدفنني بالفلاة فإنني   أخاف إذا ما مِتُّ ألا أذوقها

لأنه هو عالم بأنه إذا مات لا يشرب الخمر في قبره أبداً، فقوله: «أخاف» أطلق الخوف في شيء هو عالم به علماً يقيناً؛ ولذا قال هنا: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: لا يغتمون من أمر مستقبل؛ لأن مستقبلهم كله طيب، ليس يُترقب فيه شيء فيه أذية، وإنما فيه الفرح والسرور، ولا يحزنون على شيء فائت؛ لأنهم لم يفتْهم شيء إلا وعندهم أضعاف أضعافه من أنواع النعيم، فلا يفوتهم مطلب يحزنون عليه، ولا يخافون من ضرر ولا غم مستقبل يخافون منه.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال نحوي، وهو أن يقول طالب العلم: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أُهملت (لا) هنا ولم تعمل، فَلِمَ لا يقول: «لا خوفَ عليهم»، كما قال: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ [البقرة: آية ١٩٧]؟

والجواب عن هذا[1]: أن (لا) لا تعمل إلا في النكرات، سواء قلنا إنها التي لنفي الجنس، أو قلنا إنها العاملة عمل (ليس)، والجملة الأخيرة: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨﴾ المبتدأ فيها ضمير، والضمائر معارف، فلا يجوز أن تعمل فيها (لا) بكل حال، فلما مُنع عملها في الجملة الثانية لمكان الضمير وهو مُعرّف، وامتنع عملها فيها، أُلغي عملها في الأُولى لتنسجم الجملتان وتتفقا في الإهمال دون الإعمال.

[٤/أ] / ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنعام: آية ٤٩].

---

(١) انظر: القرطبي (١/ ٣٢٩).

هذا هو القسم الثاني الذي فيه الإنذار ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: جحدوا آيات هذا القرآن العظيم، وزعموا أنه أساطير الأولين، أو أنه سحر، أو شعر، أو من كهانة الكهان. الذين كفروا هذا الكفر، وهم أظلم الناس، كما تقدم في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأنعام: آية ٢١].

﴿أُولَئِكَ﴾ هؤلاء الذين هذه صفتهم ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ والمسيس معناه: وقوع الشيء على الشيء مباشرة من غير أن يحول بينهما حائل. وعبَّر بالمسيس ليبين أن حرّ ذلك العذاب وألمه يباشرهم مباشرة عظيمة شديدة من غير حائل، كما يأتي في قوله: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة: آية ٧] لأنها تباشر الأجسام، وتغوص فيها حتى تحرق سويداء القلب، وداخل جسم الإنسان؛ ولذا قال: ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الأنعام: آية ٤٩] أي: عذاب الله، وعذاب الله (جل وعلا) لا يماثله عذاب ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ۝٢٦﴾ [الفجر: الآيتان ٢٥ ــ ٢٦].

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الباء) سببية، و(ما) مصدرية. والمعنىٰ: يمسهم العذاب بسبب كونهم كانوا فاسقين في دار الدنيا.

و(الفسق) في لغة العرب: الخروج. وهو في اصطلاح الشرع: الخروج عن طاعة الله[1]. والعرب كل ما خرج إنسان عن شيء سمّته (فاسقاً). ومنه قول رؤبة بن العجاج[2]:

يَهْوِيْنَ في نَجْدٍ وغَوْراً غائِراً فواسِقاً عن قَصْدِهَا جَوائِراً

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

لأنه يذكر مراكب ضلت طريقها التي كانت تمشي عليها، فقال: «فواسقاً عن قصدها» أي: خوارج عن الطريق التي كانت تقصدها. هذا أصل (الفسق) في لغة العرب.

وهو في اصطلاح الشرع: الخروج عن طاعة الله. والخروج عن طاعة الله جنس تحته نوعان:

أحدهما: الخروج الذي هو أكبر أنواع الخروج وأعظمها، وهو: الخروج عن طاعة الله بالكفر الصُّراح. هذا أكبر أنواع الفسق. وكثيراً ما يطلق في القرآن اسم (الفسق) على هذا؛ لأنه صرّح بأنهم كذبوا بآيات الله، وهذا أعظم الكفر، ثم سمّىٰ هذا الكفر فسقاً بقوله: ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ لأنه أعظم أنواع الخروج عن طاعة الله. ومنه بهذا المعنىٰ قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة: آية ٢٠] هذا الفسق بمعنىٰ الخروج الأكبر، أي: الخروج عن طاعة الله بالكفر والعياذ بالله.

النوع الثاني من أنواع الفسق: هو خروج دون خروج، وفسق دون فسق، بأن يخرج الإنسان عن طاعة الله إلى المعصية، خروجاً لا ينقله من اسم الإسلام إلى الكفر، كارتكاب الكبيرة. ومنه بهذا المعنىٰ قوله في القاذفين: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور: آية ٤] فهذا القذف خروج عن طاعة الله، ولم يبلغ بصاحبه الكفر، بدليل قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ [النور: آية ١١] ولم ينقلهم عن اسم المسلمين بسبب قذفهم. ولا يُقال: إن عبد الله بن أُبيّ منهم، وإنه منافق كافر؛ لأن دين الإسلام يحكم له بشهادة أن

لا إلـه إلا الله في الظاهر، فكان يحضر جُمعات المسلمين وجماعاتهم باسم الإسلام، فالله (جل وعلا) يقبل من المنافقين كلمة (لا إلـه إلا الله) ظاهراً، كما أرادوا أن يخدعوه فهو يخدعهم حيث يقبلها منهم ظاهراً في الدنيا، وهو يُعدّ لهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: آية ١٤٢].

ومن هذا النوع من الفسق الذي لم يُخرج عن دين الإسلام: قوله في قصة الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما كذب علىٰ بني المصطلق[1]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الآية

---

(١) القصة مشهورة، وقد رواها عدد من الصحابة والتابعين، إلا أن جميع طرقها لا تخلو من ضعف. وإليك من نُقلت عنهم هذه القصة على سبيل الاختصار:

١ ــ الحارث بن ضرار: عند أحمد (٤/ ٢٧٩)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢٧٤)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٠/ ٣٣٠٣)، والواحدي في أسباب النزول ص ٣٩١، وابن عساكر في تاريخ دمشق (مختصر ابن منظور) (٢٦/ ٣٣٧)، وانظر: الهيثمي في المجمع (٧/ ١٠٨)، تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٨ ــ ٢٠٩)، الكافي الشاف ص ١٥٦، (وعزاه لأحمد وابن مردويه)، الإصابة (١/ ٢٨١)، (٣/ ٦٣٨)، الدر المنثور(٦/ ٨٧)، (وعزاه لأحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه) تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٣/ ٣٣٣).

٢ ــ علقمة بن ناجية. عند الطبراني في الكبير (١٨/ ٦ ــ ٧)، وانظر: مجمع الزوائد (٧/ ١٠٩ ــ ١١٠)، الإصابة (٢/ ٥٠٦)، أُسد الغابة (٤/ ٨٨)، الدر المنثور(٦/ ٨٨)، (وعزاه لابن منده والطبراني وابن مردويه).

٣ ــ جابر بن عبد الله. عند الطبراني في الأوسط (٤/ ٤٧٧ ــ ٤٧٨)، وانظر: مجمع الزوائد (٧/ ١١٠)، الكافي الشاف ص ١٥٦، تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٣/ ٣٣٤)، الدر المنثور(٦/ ٨٨)، الفتح السماوي (٣/ ١٠٠٢). =

[الحجرات: آية ٦].

وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام: آية ٤٩] ومسيس العذاب هذا: هو الذي

= ٤ ــ أم سلمة. عند الطبراني في الكبير (٢٣/ ٤٠٠ ــ ٤٠١)، وراجع (٢٣/ ٢٩٠)، وابن جرير (٢٦/ ١٢٣)، وانظر: الهيثمي في المجمع (٧/ ١١٠)، تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٩)، الكافي الشاف ص ١٥٦، (وعزاه لإسحاق والطبراني)، والزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٣٣٢)، الدر المنثور (٦/ ٨٨)، (وعزاه لإسحاق بن راهويه وابن جرير والطبراني وابن مردويه)، الفتح السماوي (٣/ ١٠٠١).

٥ ــ ابن عباس. عند عبد الرزاق في التفسير (٢/ ٢٣١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٥٤)، وابن جرير (٢٦/ ١٢٣ ــ ١٢٤)، وانظر: ابن كثير (٤/ ٢٠٩)، الدر المنثور (٦/ ٨٨)، (وعزاه لابن جرير وابن مردويه والبيهقي في السنن وابن عساكر).

٦ ــ مجاهد. عند ابن جرير (٢٦/ ١٢٤)، البيهقي في الكبرى (٩/ ٥٥)، وانظر: مجمع الزوائد (٧/ ١١١)، (وعزاه للطبراني)، الاستيعاب (٣/ ٦٣٢)، ابن كثير (٤/ ٢١٠)، الإصابة (٣/ ٦٣٨)، الدر المنثور (٦/ ٨٨)، (وعزاه لآدم وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي).

٧ ــ قتادة عند ابن جرير (٢٦/ ١٢٤)، وانظر: الاستيعاب (٣/ ٦٣٢)، تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٠)، الإصابة (٣/ ٦٣٧ ــ ٦٣٨)، الدر المنثور (٦/ ٨٩)، (وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير).

٨ ــ عكرمة. انظر: الإصابة (٣/ ٦٣٨)، الدر المنثور (٦/ ٨٩)، (وعزاه لعبد بن حميد).

٩ ــ ابن أبي ليلى. انظر: الاستيعاب (٣/ ٦٣٢).

وهو مروي عن غير هؤلاء مثل: يزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل بن حيان، كما في ابن جرير (٢٦/ ١٢٤)، عبد الرزاق في التفسير (٢/ ٢٣١)، وابن كثير (٤/ ٢١٠).

أنذرتهم به الرسل في دار الدنيا إن لم يقلعوا عن ذلك التكذيب والكفر، كما في قوله هنا: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ﴾ [الأنعام: آية ٤٨].

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠﴾ [الأنعام: آية ٥٠].

أول الرسل الذين أُرسلوا إلى أهل الأرض بعد أن وقع فيهم الكفر والشرك بالله: هو نبي الله نوح، كما قدمنا في قوله: ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: آية ١٦٣].

فدلّ على أنه أول ذلك النوع الذي يُرسل إلىٰ الناس بعد أن كفروا، وآخرهم: محمد ﷺ. فالله قال لأولهم في سورة هود: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ [هود: آية ٣١] ومثل هذه القصة بعينها كانت فيما أُنزل على محمد ﷺ حيث قال: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٥٠] قل لهم يا نبي الله: لا أدّعي لكم دعوىٰ بعيدة ولا كاذبة، ولا أخرج لكم عن طوري وحقيقتي، لا أقول لكم: إن عندي خزائن الله.

والخزائن: جمع الخزانة، وهي المحل الذي تخزن فيه الأرزاق ونحوها[1]، فخزائن الملوك مثلاً: المحل الذي يجعلون فيه العدة من الطعام والسلاح وما جرىٰ مجرىٰ ذلك. وكل شيء عند الله في خزانة؛ لأن الله جميع الأشياء كلها في خزائنه

(١) انظر: المفردات (مادة: خزن) ص ٢٨٠، القرطبي (٦/ ٤٣٠).

(جل وعلا)، كما سيأتي في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: آية ٢١] لا أقول لكم: إن بيدي الأرزاق والآيات، وما اقترحتم من كل شيء، وخزائن الأمور ليست بيدي، وإنما هي بيد الله، وإنما أنا عبد أُرسلت إليكم [لأُبشِّر] من أطاعني بالجنة، [وأُنذر] من عصاني بالنار[1]، وأبلغكم رسالات ربي، وأوضح لكم طريق الخير والشر، وأُقيم لكم المعجزات الواضحات التي لا تترك لمنصف في صدق شيئاً؛ ولذا قال: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ الجمهور من العلماء علىٰ أن هذا معطوف على ما قبله[2]، وأنه من جملة ما أُمر أن يقوله. وتقرير المعنىٰ: قل لهم أيضاً: لا أعلم الغيب. كما قال الله له: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾ [الأعراف: آية ١٨٨]، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ بل أقول لكم: إني رجل ابن رجل وابن امرأة، أذهب إلى السوق، وأشتري منه حاجتي. لأنهم قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ﴾ [الفرقان: آية ٧] كيف يرسل الله من يأكل ويشرب، ويروح إلى السوق؟ والله يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ﴾ [الفرقان: آية ٢٠]، ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء: آية ٨] هذه سنة الله في رسله.

---

(١) في الأصل: «لأنذر من أطاعني بالجنة، وأبشر من عصاني بالنار» وهو سبق لسان.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٣٤)، الدر المصون (٤/ ٦٣٨).

وقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ كان المعتزلة يستدلون بظاهر هذه الآية علىٰ أن الملائكة أفضل من الآدميين[١]؛ لأن هذه كأنها مناصب عالية. لا أقول لكم إني في رتبة إلهية، بحيث تكون عندي خزائن السماوات والأرض، وأعلم الغيب، ولا أدّعي لكم الرتبة الأخرى الكبيرة، التي هي رتبة المَلَك.

وأكثر العلماء علىٰ أن خِيار الرسل من الآدميين أفضل من الملائكة[٢].

وهذا النوع من الخلاف والبحث مما فيه: «من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»؛ لأننا لم نؤمر به، ولم نكلف به، والخوض فيه لا حاجة لنا فيه، ولا لنا من ورائه نفع.

وقد قدمنا مراراً: أن أكثر العلماء على أن أصل المادة اللغوية التي منها (المَلَك)[٣] أنها: (أَلَكَ) ففاء الفعل همزة، وعينها لام، ولامها كاف، (أَلَكَ) وأصل هذه المادة، مادة (الهمزة واللام والكاف)، معناها: الرسالة. والأَلُوكة: الرسالة، والمألُكة: الرسالة.

---

(١) انظر: الكشاف (٢/ ١٥).

(٢) في هذه المسألة انظر: الحجة في بيان المحجة (٢/ ٣٨٧)، القرطبي (١/ ٢٨٩)، (٦/ ٤٣٠)، (٩/ ٢٧)، (١٠/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥)، (١١/ ٢٧٨)، (٢٠/ ١٤٥)، مجموع الفتاوى (٤/ ٣٥٠ ـ ٣٩٣)، (١٠/ ٣٠٠)، بدائع الفوائد (١/ ٦٦)، (٣/ ١٦٣)، شرح الطحاوية ص ٤١٠ ـ ٤٢٣، البداية والنهاية (١/ ٥٤)، منهج الجدل والمناظرة (١/ ٥٢١).

(٣) انظر: ابن جرير (١/ ٤٤٤ ـ ٤٤٧)، القرطبي (١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣)، اللسان (مادة: ألك) (١/ ٨٤ ـ ٨٥)، الدر المصون (١/ ٢٤٩ ـ ٢٥١)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠.

وغُـلامٍ أَرْسَلَتْـهُ أُمُّـه بـأَلُـوكٍ فَبَـذَلْنَـا مـا سـأَلْ[١]

والعرب تقول: (أَلِكْنِي إليها): (حمل إليها مَأْلَكتي) أي: رسالتي فبلِّغها عني، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[٢]:

أَلِكْنـي إليهـا وخيـرُ الـرسـو لِ، أعلمهـم بنـواحـي الخَبَـر

وعلىٰ هـذا فـأصـل المَلَـك: (مَـأْلَـك) علـى وزن (مفْعَـل) مـن (الأَلُوكَة) وهي: الرسالة. فدخله القلب الصرفي المعروف، وهو جعل العين مكان الفاء، والفاء مكان العين، فجُعلت الهمزة التي كانت موضع الفاء في موضع العين، فصار: (مَلْأَكَ)، ووزن (المَلأَك) بالميزان الصرفي: (مَعْفَل) لأن العين جاءت في موضع الفاء، والفاء في موضع العين. وربما نطقت العرب به علىٰ هذا القلب بلفظ (مَلْأك)، كقول الشاعر[٣]:

ولسـتَ لإنسـيٍ ولكـنَّ مـلأكـاً تحـدّر مـن جـوّ السمـاء يصـوبُ

فخففت همزة المَلأَك، وأُلقيت حركتها على اللام، فقيل: (مَلَك). كما تسقط في قوله: (سَلْهُم). أصلها: (اسألهم). ومما

---

(١) البيت للبيد، وهو في ابن جرير (١/ ٤٤٦)، القرطبي (١/ ٢٦٢)، اللسان (مادة: ألك) (١/ ٨٥)، الدر المصون (١/ ٢٥٠).

(٢) البيت في ابن جرير (١٣/ ٧)، القرطبي (٧/ ٢٥٥)، اللسان (مادة: ألك) (١/ ٨٥).

(٣) نسبه بعضهم لعلقمة بن عبدة، وبعضهم نسبه إلى غيره. وهو في الكتاب (٤/ ٣٨٠)، المفضليات ص ٣٩٤، ابن جرير (١/ ٣٣٣)، القرطبي (١/ ٢٦٣)، الدر المصون (١/ ٢٥٠)، اللسان (مادة: ألك) (١/ ٨٥) ولفظه في بعض هذه المصادر:

وَلَسْـتَ لإِنسِـيٍّ ولكـنْ لِمَـلأَكٍ تَنَـزَّلَ مِـنْ جَـوِّ السَّمَـاءِ يَصُـوبُ

يدل على أن أصله: (مَأْلَك)، وأن الهمزة أصلها فيه؛ لأنه يجمع على (ملائكة) فتأتي الهمزة التي خففت من الأصل. هذا أصله عند جمهور العلماء، ومن يقول: إن أصله من (المَلْك) قول ضعيف.

وعلى هذا الذي قررنا، فَوَزْنُ (الملك) حالياً: (مَعَل) لأن الفاء المزحلقة إلى مكان العين ساقطة منقولة حركتها. فوزنه (مَعَل) بإسقاط الفاء، قالوا: وإنما سُمّي المَلَك مَلَكاً من (المَألُكة) وهي الرسالة؛ لأن الملائكة عباد الله المكرمون، الذين يحملون مَآلِكَ الله، أي: رسالاته، كما يأتي في قوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: آية ٥] فمنهم من يُرسل لتكثير الريح، ومنهم من يُرسل لتكثير المطر، ومنهم من يُرسل لقبض الأرواح، ومنهم من يُرسل لحفظ الأعمال، ومنهم من يُرسل لحفظ الآدميين لئلا تتخطفهم الشياطين، كما يأتي، في أحد التفسيرات في قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ الآية [الرعد: آية ١١].

وقوله جل وعلا: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (إن) هنا هي النافية. والمعنىٰ: ما أتبع إلا ما أوحاه ربي إليّ، لا أزيد عليه، ولا أخرج عن طوري، فأنا رسول كريم، أوحىٰ الله إليَّ أن أنذركم وأبشركم، وأنا أتبع ما يوحىٰ إلي، فمن أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني دخل النار.

وبهذه الآية وأمثالها في القرآن يتمسك الظاهرية بأن القياس لا يجوز في الشرع[1]. قالوا: لأن النبي قال: ما أتبع إلا ما يُوحىٰ

(١) انظر: القرطبي (٧/ ١٧١ ـ ١٧٣)، وسيأتي للشيخ (رحمه الله) بحث مطوّل في هذه المسألة عند الكلام على الآية (١٢)، من سورة الأعراف.

إلي. فحصر الاتباع في المُوحىٰ إليه، والله يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: آية ٢١] فعلينا أن لا نتبع إلا خُصوص الوحي، ولا نخرج عنه إلىٰ رأي. وأمثال هذا من الآيات التي يستدل بها الظاهرية كثيرة جداً[1].

ونحن نقول: إن الجواب: أنّا لا نخرج عمَّا يُوحىٰ، إلا أن ما يُوحىٰ منه ما هو منصوص به ظاهر، ومنه ما هو مفهوم من حكم المنصوص به، ولا خروج في هذا عن حكم الوحي؛ لإجماع العقلاء علىٰ أن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، فالشرع قد يذكر الشيء ويسكت عن نظيره المماثل له في علة الحكم فيفهم العقلاء أنه مثله، وهذا الجمود الذي يدّعيه ابن حزم متمسكاً بعشرات أو مئات الآيات من هذا النوع، يقول: كل ما نصّ عليه الله فحكمه ظاهر، وما لم يأتِ في نص من كتاب الله، ولا سنة نبيه، فهو مسكوت عنه، وهو عفو، ولا لنا أن نبحث عنه، ولا نسأل عنه؛ لأن الله سكت عنه غير نسيان، بل سكت عنه رحمةً بنا، فليس لنا أن نبحث عنه.

هذا الذي يقوله ابن حزم، ويستدل عليه بعشرات الآيات، نحن نقول بِمُوجَبِهِ. ومعنىٰ: (نقول بمُوجَبِه) أننا نقدح فيه بالقادح المعروف في علم الأصول بـ(القول بالمُوجَب)[2]، وهو أن نقول: أنت صادق فيما قلت، ولكن هذا لا حجة لك فيه، ولا يقطع نزاعنا معك. والمعنىٰ: نحن نصدقك بأن الله أباح أشياء، وحرّم أشياء،

---

(١) انظر: الإحكام ص ٩٤٦، المحلى (١/ ٥٦).

(٢) وهو بفتح الجيم وبالكسر، وهو نفس الدليل؛ لأنه الموجِبُ للحكم.

وفي الاصطلاح: تسليم مقتضىٰ الدليل مع بقاء النزاع في الحكم. انظر: شرح الكوكب المنير (٤/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠)، نثر الورود (٢/ ٥٤١).

وسكت عن أشياء رحمةً بنا لا نسياناً، والتي سكت عنها ليس لنا البحث عنها، وهي عفو، ولكن هذا الذي تقول أنت: إن الله سكت عنه، نحن نقول: أنت في هذا لست بمُصيب، بل الله لم يسكت عنه، بل بيّن حكمه بذلك الشيء الذي نصّ عليه، وأمثال هذا كثيرة في كتاب الله وفي سنة نبيه، فنحن معاشر عامّة المسلمين نعلم أن الله (جل وعلا) لمّا قال في الوالدين: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ ابن حزم يقول: ضَرْبَ الوالدين مسكوت عنه، ولم تدل هذه الآية على منعه[١]!! ونحن نقول: هذا غير صحيح، بل آية: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: آية ٢٣] ليست ساكتة عن ضرب الوالدين؛ لأن النهي عن التأفيف يُفهم منه قطعاً من دلالة هذه الآية أنه أحرم وأحرم وأحرم؛ لأنه أشد إيذاء، كذلك حديث أبي بكرة الثابت في الصحيحين، أن النبي ﷺ قال: «**لا يقضين حَكَمٌ بين اثنين وهو غضبان**»[٢]. صرح النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح أن القاضي في وقت الغضب لا يجوز له أن ينظر في قضايا الناس؛ لأن الغضب أمر مُشَوِّش للفكر، لا يتمكن معه القاضي من استيفاء النظر في الحقوق، فلو حكم في ذلك الوقت، فهو مظنه لضياع حقوق الناس، وسكت النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح عما لو كان القاضي مُشوش الفكر تشويشاً أعظم من الغضب، كأن كان في حزن أو سرور مُفْرِطَين، أو كان في جوع

---

(١) انظر: الإحكام لابن حزم ص ٩٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الأحكام، باب: هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان؟ حديث رقم: (٧١٥٨)، (١٣/ ١٣٦)، مسلم، كتاب: الأقضية، باب: كراهة قضاء القاضي وهو غضبان، حديث رقم: (١٧١٧)، (٣/ ١٣٤٢).

أو عطش مُفْرِطَين، أو كان في حقن أو حقب مُفْرِطين؛ فإنه ينال من شدة العطش، ومن شدة الجوع، ومن شدة الحزن، ومن شدة السرور، ومن شدة الحقن (وهو ــ بالنون ــ : مدافعة البول. والحَقْب ــ بالباء ــ : مدافعة الغائط، إذا كان في هيجان شديد للخروج). هذه الأشياء تشوش فكر الإنسان حتى لا يبقىٰ له نظر تشويشاً أشد من الغضب.

فيقول ابن حزم: هذه مسكوت عنها، فالحكم في وقتها عفو!!

ونحن نقول: لا والله، ليست مسكوتاً عنها؛ لأن النبي ﷺ لما نبّه علىٰ أن القاضي في وقت الغضب لا يجوز له أن يحكم، عرفنا أن هذا الحديث في معنىٰ: أن كل مُشَوِّش للفكر يمنع من استيفاء النظر، ويؤدي إلى ضياع حقوق الناس، أن الحكم في وقته ممنوع، كذلك صحّ عن النبي ﷺ أنه نهىٰ عن البول في الماء الراكد[1]، وسكت عما لو بال في قارورة وصبها في الماء من القارورة. فمقتضىٰ ما يقوله ابن حزم: أنه لو قطّر فيه قطرات قليلة من ذكره مباشرة: هذا منطوق به، ولو صبّ فيه مئات الأطنان من الأواني: أن هذا مباح ومسكوت عنه!! وهذا هَوَسٌ لا يقوله عاقل؛ لأن النبي ﷺ إنما نهىٰ عنه لأن البول يُقذّره، وصَبّه فيه من الإناء لا فرق بينه وبين بوله فيه مباشرة.

(١) أخرجه الشيخان بألفاظ متقاربة. انظر: البخاري، كتاب الوضوء، باب البول في الماء الدائم، حديث رقم: (٢٣٩)، (١/٣٤٦)، مسلم، كتاب الطهارة، باب: النهي عن البول في الماء الراكد، الحديثان: (٢٨١، ٢٨٢)، (١/٢٣٥).

مثلاً النبي ﷺ نهىٰ الإنسان عن أن يُضحّي بالشاة العوراء(١)،

---

(١) جاء ذلك من حديث علي، والبراء، وعتبة بن عبد السلمي (رضي الله عنهم).
أما حديث علي (رضي الله عنه) فهو قوله: «أَمَرَنَا رسول الله ﷺ أن نَسْتَشْرِفَ العين والأذن، ولا نضحي بعوراء ولا مُقَابَلَة ولا مُدَابَرَة ولا خَرْقَاء ولا شَرْقَاء».
وقد أخرجه أحمد (١/ ٨٠، ١٠٨، ٩٥، ١٠٥، ١٢٥، ١٣٢، ١٤٩، ١٥٢)، والدارمي (٢/ ٤)، وأبو داود في الضحايا، باب ما يُكره من الضحايا، حديث رقم: (٢٧٨٧)، (٧/ ٥٠٨)، والترمذي في الأضاحي، باب ما يُكره من الأضاحي، حديث رقم: (١٤٩٨)، (٤/ ٨٦)، وأخرجه في موضع آخر برقم: (١٥٠٣)، والنسائي في الضحايا، باب المُدَابَرة، حديث رقم: (٤٣٧٣)، (٧/ ٢١٦)، وأخرجه في موضع آخر برقم: (٤٣٧٥)، وابن ماجه في الأضاحي، باب ما يُكره أن يُضَحَّى به، حديث رقم: (٣١٤٣)، (٢/ ١٠٥٠)، وابن خزيمة (٢٩١٤، ٢٩١٥)، والطحاوي في شرح المعاني (٤/ ١٦٩، ١٧٠)، والحاكم (٤/ ٢٢٤، ٢٢٥) وصححه، والبيهقي (٩/ ٢٧٥). بعضهم يرويه مختصراً فيقتصر على صدر الحديث، وهو قوله: «أَمَرَنَا رسول الله ﷺ أن نَسْتَشْرِفَ العين والأذن». وبعضهم يرويه بتمامه (على اختلاف في بعض ألفاظه). وإنما صحَّ من هذا الحديث صدره، دون قوله: «ولا نضحي بعوراء...» إلخ. انظر: صحيح أبي داود (٢/ ٥٣٩)، وضعيفه ص ٢٧٤، صحيح النسائي (٣/ ٩١٤)، وضعيفه ص ١٧٧، ١٧٨، وصحيح ابن ماجه (٢/ ٢٠٢)، وضعيفه ص ٢٤٩، وضعيف الترمذي ص ١٧٥ ـ ١٧٦، الإرواء (٤/ ٣٦٢)، التعليق على المشكاة (١٤٦٣)، التعليق على ابن خزيمة (٢٩١٥).
وأما حديث البراء (رضي الله عنه) فهو قوله ﷺ: **«أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء بيِّنٌ عَوَرُها، والمريضة بيِّنٌ مرضها، والعرجاء بين ظَلَعُها، والكسير التي لا تُنقي»**. وهو حديث ثابت صحيح أخرجه مالك (١٠٣٥)، والطيالسي ص ١٠٢، وأحمد (٤/ ٢٨٤، ٢٨٩، ٣٠٠، ٣٠١)، والدارمي (٢/ ٤)، وأبو داود في الضحايا، باب ما يكره من الضحايا، حديث رقم: (٢٧٨٥)، (٧/ ٥٠٥)، والترمذي في الأضاحي، باب ما لا يجوز من الأضاحي، حديث =

وسكت عن الشاة العمياء، فلا نقول: إن الشاة العمياء عفو، ومن شاء أن يُضحّي بها؛ لأنّا نقول: إن النص المانع من التضحية بالعوراء يُعرف منه حكم العمياء.

وهذا ـ لو تتبعنا ـ أمثالُه كثيرة في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

واستدل بعض العلماء ـ من علماء الأصول ـ بآية الأنعام هذه علىٰ أحد قولين؛ في مسألة اختلف فيها العلماء؛ لأنه معلوم في علم الأصول أن العلماء مختلفون: هل النبي ﷺ يمكن أن يجتهد في شيء، أو لا يجتهد في شيء؟[1].

= رقم: (١٤٩٧)، (٤/ ٨٥)، والنسائي في الضحايا، باب ما نُهي عنه من الأضاحي، حديث رقم: (٤٣٦٩)، (٧/ ٢١٤) وأخرجه في موضعين آخرين برقم: (٤٣٧٠، ٤٣٧١)، وابن ماجه في الأضاحي، باب ما يُكره أن يُضَحَّى به (٢١٤٤)، (٢/ ١٠٥٠)، وابن خزيمة (٢٩١٢)، والطحاوي في شرح المعاني (٤/ ١٦٨، ١٦٩)، وابن حبان (الإحسان): (٥٨٨٩، ٥٨٩١ ـ ٥٨٩٢)، والحاكم (١/ ٤٦٧) وصححه، والبيهقي (٥/ ٢٤٢)، (٩/ ٢٧٤) وابن الجارود (٤٨١، ٩٠٧)، وانظر: صحيح أبي داود (٢/ ٥٣٩)، صحيح الترمذي (٢/ ٨٨)، صحيح النسائي (٣/ ٩١٣، ٩١٤)، صحيح ابن ماجه (٢/ ٢٠٢)، الإرواء (٤/ ٣٦٠ ـ ٣٦١).

وأما حديث عُتْبَة بن عَبْد السلمي (رضي الله عنه) وفيه: «إنما نهى رسول الله ﷺ عن المُصْفَرَّة والمُسْتَأْصَلَة، والبَخْقَاء، والمُشَيَّعَة، والكَسْرَاء». والبَخْقَاء: هي التي تبخق عينها، أي يذهب بصرها. وقد أخرجه أبو داود في الضحايا، باب ما يُكره من الضحايا، حديث رقم: (٢٧٨٦)، (٧/ ٥٠٦)، والحاكم (٤/ ٢٢٥) وصححه، والبيهقي (٩/ ٢٧٥). وهو ضعيف الإسناد، وانظر: ضعيف أبي داود ص ٢٧٤.

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (٤/ ٤٧٥)، نثر الورود (٢/ ٦٢٩ ـ ٦٣١).

فالذين قالوا: الاجتهاد ممنوع عليه، استدلوا بهذه الآية من سورة الأنعام، وآية النجم، وما جرىٰ مجراهما. قالوا: لأن النبي قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ﴾ [الأنعام: آية ٥٠] فحصر ما يتبع في الوحي، وهذا يمنع الاجتهاد، وأنه لا سبيل إلى الاجتهاد.

وآية النجم التي أشرنا إليها هي قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣ ــ ٤].

فأجابوا عن هذا قالوا: وقعت وقائع تدل على الاجتهاد في الجملة، كما دلت عليه آيات من كتاب الله، كقوله في سورة الأنفال: قال له الله (جل وعلا) لما اجتهد في أُسارىٰ أهل بدر، ولم يقتلهم، قال الله ــ كأنه لائم له، مقرّع له ــ : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ﴾ [الأنفال: آية ٦٧] فقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ قالوا: دليل علىٰ أنه أسر الأسارىٰ اجتهاداً منه، ولو كان بوحي لما لامه الله هذا اللوم. وكقوله في براءة: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٤٣﴾ [التوبة: آية ٤٣] فلو كان ذلك العفو بوحي لما قال له: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ قالوا: هذه النصوص وأمثالها معناه: أنه يفعل بعض الأمور من غير وحيٍ صريح، بل باجتهاد منه.

وكان بعض العلماء يقول: أما ما يقول: إنه يُوحىٰ إليه، فلا شك أنه وحي من الله، وهو الذي فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣ ــ ٤].

وأظهر الأقوال: أن الشرع والتحليل والتحريم، أنه لا يحكم

فيه إلا بالوحي، كما جاءت قصص متعددة أنه إذا جاءه الأمر لا وحي فيه: كف عنه وأحجم، ينتظر حكم الله فيه، حتى يأتيه الوحي فيه، وأن مثل الحروب كما ذكرنا في قصة بدر، ومن أُسر منهم هنالك، والأمور الدنيوية، أنه ربما يفعل فيها الأمر، ولا يفعله إلا جائزاً؛ لدلالة ظواهر الشرع عليه. إلا أنه ربما يكون غيره أولىٰ منه؛ ولهذا يقول الله: لِمَ فعلت كذا؟ من حيث إن غيره أولىٰ منه، وإن كان جائزاً. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

ثم أمر الله نبيه أن يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: آية ٥٠]. الله (تبارك وتعالىٰ) ذكر طائفتين من الناس، طائفة ذكرها في قوله: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٤٨] وطائفة ذكرها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [الأنعام: آية ٤٩] فهؤلاء الذين عموا عن طريق الحق حتى دخلوا النار، هؤلاء ــ والعياذ بالله ــ عُمي، وهؤلاء الذين أبصروا فعملوا لله حتى دخلوا الجنة، فهؤلاء هم المبصرون، كما قال تعالىٰ في سورة هود يضرب المثل بفريق الكفار وفريق المؤمنين: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود: آية ٢٤] فالأعمىٰ والأصم: هو فريق الكفار، والسميع والبصير: هو فريق المؤمنين، كما قال هنا: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: آية ٥٠] لا والله لا يستويان، فالأعمىٰ هو من طمس الله بصيرته ولم ينور قلبه بنور الإيمان؛ لأن الله يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ ومن أراد أن يعرف معنىٰ هذه الآية ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: آية ٤٦] فلينظر إلى رجلين يمشيان في الطريق، أحدهما: صحيح العينين قوي البصر،

حديده جداً، وهو مفقود العقل. والثاني: أعمىٰ، إلا أنه عاقل. فيجد ذا العينين الصحيحتين الذي يفقد عقله، يجده يضرب الجدار، ويقع على الحيّة، ويقع على العقرب، ويسقط في البئر، ويسقط علىٰ النار، لا يُبصر شيئاً، ويرىٰ ذلك الكفيف الذي عنده عقله، عصاه أمامه، يروغ كما يروغ الثعلب، ويُحصّل جميع منافعه، فيعلم حقيقة قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

إذا أدرك القلبُ المروءةَ والتُّقىٰ فإنَّ عمىٰ العينين ليس يَضِيْرُ[(١)]

وذكر غير واحد كابن عبدالبرّ في استيعابه، وغير واحد من المؤرخين، أن ابن عباس (رضي الله عنهما) أخبره النبي ﷺ أنه سيعمىٰ في آخر عمره[(٢)]، وقال عند ذلك[(٣)]:

إنْ يَأْخُذِ الله من عَيْنَيَّ نُورَهما ففي لساني وقلبي عنهما نُورُ

عقلي ذكي وقلبي غير ذي دَخَلٍ وفي فمي صَارِمٌ كالسيف مأثور

والحاصل أن الأعمىٰ هنا: هو الكافر، والبصير: هو المسلم المؤمن؛ لأن المؤمن على نور من ربه، وبصيرته يُشِعُّها نور الوحي.

---

(١) البيت لبشار بن برد، وهو في ديوانه (٤/ ٥١)، وشطره الأول: (إذا أبصر المرء...).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٩٢)، وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/ ٣٥٦)، وابن عساكر في تاريخه (مختصر ابن منظور ١٢/ ٢٩٥، ٢٩٩)، والذهبي في السير (٣/ ٣٤٠) وقال: «إسناده لين». اهـ، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٧٧) وفيه من لم أعرفه». اهـ.

(٣) البيت في الاستيعاب (٢/ ٣٥٦)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٥٧)، ولفظ صدر البيت الثاني:

قلبي ذكي وعقلي غيرُ ذي دَخَلِ

والكافر ـ والعياذ بالله ـ مطموس البصيرة، والله يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

ثم قال (جل وعلا): ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ قد قدمنا مراراً[1] أن هذه الهمزة التي تأتي في القرآن كثيراً قبل أداة عطف ـ كالتي تأتي قبل (الفاء) و (الواو) و (ثم)، وهي كثيرة في القرآن، قد قدمنا مراراً أن فيها للعلماء وجهان:

أحدهما ـ واختاره غير واحد، وإليه جنح ابن مالك في ألفيته ـ : أن الهمزة تتعلق بجملة محذوفة، والفاء أو الواو تعطف الجملة التي صُدّرت بها على الجملة المعطوفة التي هي مُتَعَلَّق الاستفهام، ولا بد أن يكون في الجملة المذكورة ما يدل وتفهم منه الجملة المقدرة، وعليه فتقديره هنا: أفلا تتفكرون؟ أتغفلون عن هذه الأشياء، فلا تتفكرون حتى تفهموها؟ وما جرىٰ مجرىٰ ذلك. وهذا هو الذي اختاره ابن مالك في الخلاصة حيث قال[2]:

وحَـذْفَ متبـوعٍ بـدا هُنـا استبـح ....

وهنالك جماعة آخرون يقولون: إن همزة الاستفهام هي في الرتبة بعد حرف العطف، إلا أنه لما كان للاستفهام صدر الكلام تزحلقت الهمزة عن محلها، وتقدمت على أداة العطف، وهي بعدها في الرتبة. وعلىٰ هذا فيكون المعنىٰ: (فألا تتفكرون) فتكون الفاء عاطفة للجملة المُصَدَّرة بالاستفهام على ما قبلها، كأنه يقول: فأعطف على ذلك وأذكر بعده توبيخكم وتقريعكم أنكم لا تتفكرون

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

حتى تفهموا عن الله آياته.

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنعام: آية ٥١].

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وأصح الأقوال في مرجع الضمير: أنه راجع للقرآن[١] المُعبّر عنه بقوله: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ أنذر بما يوحى إليك ـ الذي لا تتبع إلا إياه ـ أنذر به الذين يخافون.

وفي الآية هنا سؤال، وهو: لِمَ قصر الإنذار على الذين يخافون أن يحشروا في حال كونهم متجردين من الأولياء والشفعاء من دون الله، مع أن القرآن إنذار للأسود والأحمر ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ عن بكرة أبيهم ﴿ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: آية ١]، وكقوله: ﴿ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ [يونس: آية ٢] لِمَ خصّ هنا الذين يخافون؟[٢].

أجاب بعض العلماء عن هذا السؤال: بأن من أساليب القرآن العظيم، واللغة العربية، أن يُقصر الفعل علىٰ الذين ينتفعون به؛ لأن غير المنتفع به هو في شأنه كلا شيء. ونظير الآية من القرآن: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ق: آية ٤٥] مع أنه تذكير للأسود والأحمر ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ [يس: آية ١١] وهو منذر للأسود والأحمر ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ ﴾ [فاطر: آية ١٨] وهو منذر للأسود والأحمر. أي: بأنهم هم المنتفعون.

---

(١) انظر: القرطبي (٦/ ٤٣٠)، البحر المحيط (٤/ ١٣٤).

(٢) انظر: المصدرين السابقين، والأضواء (٦/ ٢٢٤).

ومعنىٰ: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ أعلمهم بما عند الله في الأوامر والنواهي، مقترناً ذلك الإعلام بالتهديد والتخويف من خالق السماوات والأرض إن لم يمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه.

وقوله: ﴿ يَخَافُونَ ﴾ هو معنىٰ الخوف على بابه[١]. ﴿ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ مادة (خاف) تتعدّى بنفسها، وتتعدّىٰ بالحرف. وهي هنا متعدية بنفسها، والمصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿ أَن يُحْشَرُوٓاْ ﴾ في محل نصب معمول به للخوف. والمعنىٰ: يخافون الحشر إلى ربهم. والحشر معناه: جمع الناس.

وقوله: ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ هذه الجملة الفعلية المصدرة بهذا الفعل الناقص هي في محل الحال[٢]. وهذه الحال هي التي يَنْصَبُّ عليها الخوف. أي: يخافون حشر الناس في حال كونهم ليس لهم من دون الله وليّ ولا شفيع.

ومعنىٰ: ﴿ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ الوليّ في لغة العرب[٣]: هو كل من ينعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويواليك؛ ولذا كان كل قريب للرجل من عَصَبَتِهِ يُسمىٰ (ولياً)، وكل صديق حميم يسمىٰ (ولياً)؛ ولهذا كان الله وليّ المؤمنين، والمؤمنون المتقون أولياء الله؛ لأن الإيمان سبب منعقد بين العبد وربه، يكون بسببه الله يوالي العبدَ بالإحسان والرحمة والجزاء، والعبدُ يوالي الله بالطاعات ونحو ذلك. والمعنىٰ: ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ يحشرون في حال كونهم وقت ذلك

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٣٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: المفردات (مادة: ولي) ص ٨٨٥.

الحشر ليس لهم ﴿وَلِيٌّ﴾ أحد بينهم وبينه سبب يجعله يواليهم فيكون ولياً لهم يمنعهم مما أراد الله أن يفعل بهم إذا عصوه.

وقوله: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ (الشفيع) في لغة العرب[١]: فعيل بمعنىٰ فاعل. أصله: (شافع). وأصل (الشفاعة) مشتقّة من (الشَّفْع)، و(الشَّفْع) ضد الوتر، وإنما قيل للشفيع: (شفيع) لأن صاحب الحاجة كان فرداً في حاجته فلما جاء إلى من يشفع له شَفَعَه فصارا اثنين في حاجته، ومنها قيل له: (شفيع)؛ لأنه من (الشَّفْع).

والشفاعة في الاصطلاح[٢]: هي التوسط للغير في جلب [نفع][٣] أو دفع ضرّ، وهو علىٰ قسمين: شفاعة في الدنيا وشفاعة في الآخرة، أما شفاعة الدنيا فهي قد تكون عند الملوك، وعند غيرهم من العظماء، وهي نوعان[٤]: إذا كان الإنسان يشفع لينقذ مظلوماً، أو يحقق حقاً، أو يبطل باطلاً، أو يوصل إنساناً إلى حقه الممنوع منه فهذه الشفاعة طيبة، صاحبها مأجور عليها، وهي التي قال فيها النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء**»[٥]. وتارةً تكون الشفاعة هي التوسط في أمر خبيث لا يجوز، كأن يتوسط رجل لرجل في امرأة لتمكنه من نفسها، أو يتوسط له عند سلطان لينزع حق رجل آخر، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك من الشفاعة، أو يشفع ليسقط حداً من حدود الله. وهذه الشفاعة

(١) المصدر السابق (مادة: شفع) ص ٤٥٧.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.
(٣) في الأصل: مكروه.
(٤) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.
(٥) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

خبيثة، قبيحة، صاحبها يؤزر عليها، وهي من عظائم الذنوب، وقد أشار الله إلى هذا التفصيل في سورة النساء في قوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء: آية ٨٥].

أما الشفاعة في الآخرة فكلها لله جل وعلا ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ [الزمر: آية ٤٤] لا شافع ذلك اليوم إلا بإذن الله.

والشفاعة يوم القيامة قسمان: شفاعة باطلة مردودة، وهي التي كان يفهمها الكفار، وهي من أنواع الكفر بالله، وهي: ادعاء الكفار أن الأصنام تشفع لهم بلا إذن من الله (جل وعلا)، إذ من المعلوم أن الأوثان لا تشفع بإذن الله كما قال: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس: آية ١٨] وهذا النوع من الشفاعة سماه الله في سورة يونس: (شِركاً) حيث قال: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ وهذا النوع إنما سماه الله (شِرْكاً) ــ وله المثل الأعلىٰ ــ لأن فيه نوعاً من القدح في عظمة الربوبية. وضرب العلماء لهذا مثلاً قالوا: ــ ولله المثل الأعلىٰ ــ ترىٰ أكبر جبارٍ طاغٍ في الدنيا يتقطع غيظاً علىٰ مجرم، ونيّته أنه يقطع ذلك المجرم عضواً عضواً، فيمكنه الله من ذلك المجرم ويقع في قبضته، ونيّته أن يُنكِّله أعظم نكال، فيأتي واحد من عظماء دولته ــ رجل له عظمة وجاه، وله شعبية عظيمة ــ ويتجرأ على ذلك الملك رغم أنفه، ويقول له: بارك الله فيك شفّعني في هذا المجرم!! فينظر ذلك الملك، يقول: إذا رددت شفاعة هذا العظيم قد يكون ضداً علي، وحرباً علي، فقد يأتيني بغائلة!! فيخاف المسكين، ويضطر إلىٰ أن يشفعه رغم أنفه.

فخالق السماوات والأرض لا يقدر أحد أن يُدل عليه بعظمة ولا جاه، ولا يخاف من أحد أن يدبر عليه شيئاً؛ ولذا يقول مخاطباً لخلقه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥] الجواب: لا أحد يمكن أن يتجاسر علىٰ ذلك أبداً؛ لأن هذا ملك الملوك الذي لا يخاف من أحد، ولا يمكن أحداً أن يدبر شيئاً ضده؛ ولذا قال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: آية ٢٣].

فالحاصل أن الشفاعة يوم القيامة قسمان: قسم مقبول، وقسم مردود، ولقبوله شرطان إذا حصلا كانت الشفاعة شرعية واقعة، وإذا فُقدا أو واحد منهما فالشفاعة ممنوعة شرعاً. أما هذان الأصلان:

فأحدهما: أن يكون المشفوع له مسلماً؛ لأن الله (جل وعلا) لا يقبل شفاعة لكافر ألبتة، كما قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: آية ٤٨]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: آية ٢٨] مع أنه يقول: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: آية ٧].

الثاني: أن يأذن خالق السماوات والأرض (جل وعلا)، فإذا أذن الله في الشفاعة، وكان المشفوع له مؤمناً. بهذين الشرطين تكون شفاعة مقبولة واقعة في الشرع، دلّ عليها كتاب الله وسنة نبيه.

ومما يوضح هذا المعنىٰ: أن سيد الخلائق على الإطلاق ــ نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ــ عنْده وعد صادق من الله في دار الدنيا، كما يأتيكم في تفسير قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: آية ٧٩] عنده وعد من الله بالشفاعة الكبرىٰ، وهو عالم أن الله لا يخلف وعده، فإذا وقع الناس في مأزق يوم القيامة، وجاؤوا إلى آدم، وقال كلامه المعروف، ثم جاؤوا إلى

نوح، ثم إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ، حتى إذا بلغوا النبي ﷺ قال لهم: «أنا لها»(١). لأنه عالم بالوعد الصادق من خالق السماوات والأرض، ومع علمه بالوعد، وعظم جاهه، ومكانته عند الله، لم يتجرأ أن يشفع من غير إذن؛ بل خرّ ساجداً، فألهمه الله (جل وعلا) من المحامد ما لم يلهمه لأحد قبله ولا بعده، ولم يزل ساجداً حتىٰ قيل له: ارفع رأسك، وسلْ تُعْطَ، واشفع تُشفع. هذا مصداق لقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥] الجواب: لا أحد، فالشفاعة للكفار ممنوعة بتاتاً، والشفاعة بغير إذن الله

---

(١) حديث الشفاعة رواه عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، منهم:

١ ـ أبو هريرة، عند البخاري في الأنبياء، باب قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، حديث رقم: (٣٣٤٠)، (٦/ ٣٧١)، وطرقه (٣٣٦١، ٤٧١٢).

ومسلم في الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم: (١٩٤)، (١/ ١٨٤).

٢ ـ أنس، عند البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، حديث رقم: (٧٤١٠)، (١٣/ ٣٩٢)، ومسلم في الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها. حديث رقم: (١٩٣)، (١/ ١٨٠).

٣ ـ أبو هريرة وحذيفة، عند مسلم (الموضع السابق)، حديث رقم: (١٩٥)، (١/ ١٨٦).

٤ ـ أبو بكر الصديق، عند أحمد (١/ ٤)، والدارمي في الرد على الجهمية ص ٥٧، ٨٨، وابن أبي عاصم في السنة (٧٥١، ٨١٢)، وأبي يعلى ص ٥٦، ٥٧، وابن حبان (الإحسان) (٨/ ١٣٤)، والدولابي في الكنى (٢/ ١٥٥).

٥ ـ ابن عباس، عند أحمد (١/ ٢٨١، ٢٩٥)، وأبي يعلى (٤/ ٢١٣)، والطيالسي ص ٣٥٣.

ممنوعة بتاتاً. وقد دلت السنة الصحيحة علىٰ أن الشفاعة للكفار خرج منها فرد واحد لا نظير له، وهو ما ثبت في الصحيحين: أن شفاعة النبي ﷺ نفعت أبا طالب، مع أنه مات كافراً. إلا أن هذا النفع لهذا الكافر الذي هو وحيد لم يكن له نظير، إنما كان في نَقْلٍ من موضع من النار إلى موضع آخر أخفّ منها؛ ولذا ثبت في الصحيحين: «**لعله تنفعه شفاعتي فَيُجْعَل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه، له نعلان يغلي منهما دماغه**»[1]. والعياذ بالله جل وعلا.

فهذه شفاعة خاصة نفع الله بها كافراً نفعاً مخصوصاً، وهو نقله من محل من النار إلى محل أخف منه من النار والعياذ بالله جل وعلا.

وهذا معنى قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ الشفيع المنفي هنا: هو الشفيع الذي يشفع لكافر، أو يشفع بغير إذن الله (جل وعلا). أما الذي يشفع بإذن الله للمؤمن فهذا ثابت كتاباً وسنةً.

وأنواع الشفاعة كثيرة، وليست مخصوصة بالأنبياء، بل يشفع الصالحون، والمؤمنون وغيرهم ممن أراد الله أن يشفّعه فيمن شاء من خلقه.

قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ في (لعل) هنا وجهان بيّناهما بالأمس:

أحدهما: أنها للتعليل[2]، وعليه فالمعلل هو الإنذار المذكور في قوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أي: أنذر الذين يخافون، أنذرهم لأجل أن يتقوا. أي: لأجل أن يؤثّر فيهم ذلك الإنذار ويخوفهم فيتقون الله جل وعلا.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

وأصل الاتقاء في لغة العرب[١]: هو اتخاذ الوقاية التي تقيك من المكروه. وهذا معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان[٢]:

سقط النَّصِيْفُ ولم تُرِدْ إسقاطَه   فتَنَاولَتْه واتقتنا باليد

أي: جعلت يدها وقاية بيننا وبينها، حيث جعلته؛ دون وجهها لئلا نراه. هذا أصل (الاتقاء)، تقول العرب: «اتقيت السيوف بمجنِّي»، و «اتقيت الرمضاء بنعلي».

هذا أصل (الاتقاء)، وهو في اصطلاح الشرع[٣]: اتخاذ العبد وقاية تقيه من عذاب الله وسخطه.

وهذه الوقاية مركبة من شيئين هما: امتثال أمر الله، واجتناب نهي الله. ومعلوم أن مادة (الاتقاء) أصلها من (وَقَى) ففاء المادة واو، وعينها قاف، ولامها ياء، فهي مما يسميه الصرفيون: (اللفيف المفروق). فأصل الاتقاء من الوقاية: (و. ق. ى). إلا أنها دخلها (تاء) الافتعال، كما تقول في (قَرب): اقترب، وفي (كسب): اكتسب، وفي (قطع): اقتطع، وفي (وقىٰ): اوْتَقَىٰ. والقاعدة المقررة في التصريف: أن كل فعل واوي الفاء إذا دخله (تاء) الافْتِعَال أُبدلت الفاء التي هي الواو تاء، وأُدغمت في التاء، فقيل فيه: (اتّقىٰ). فهذا التشديد مركب من حرفين: الأول منهما أصله واو في محل فاء الكلمة. والثاني: تاء الافتعال الزائدة. هذا أصل

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

المادة[١]. ومعنىٰ ﴿يَتَّقُونَ﴾: يجعلون وقاية بينهم وبين عذاب الله وسخطه، هذه الوقاية هي امتثال أمره بإخلاص علىٰ الوجه الذي شرع، واجتناب نهيه جل وعلا. وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

[٤/ب] / ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: آية ٥٢].

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا ابن عامر: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ وقرأه ابن عامر وحده: ﴿بالغُدوةِ والعشي﴾ بضم الغين والواو المفتوحة. وهما قراءتان صحيحتان[٢]، ولغتان فصيحتان.

وسبب نزول هذه الآية الكريمة: أن عظماء الكفار ــ بعض الروايات: كفار قريش[٣]، وفي بعضها: عظماء غيرهم من العرب، كالأقرع بن حابس من سادات تميم وعيينة بن حصن من سادات

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٤.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: في فضل سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه)، حديث رقم: (٢٤١٣)، (٤/١٨٧٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه).
وقد جاء من حديث ابن مسعود (رضي الله عنه) عند أحمد، حديث رقم: (٣٩٨٥)، والطبراني في الكبير، حديث رقم: (١٠٥٢)، (١٠/٢٦٨)، وابن جرير (١١/ ٣٧٤ ــ ٣٧٥)، والواحدي في أسباب النزول ص ٢١٧.
وورد أيضاً من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) عند ابن جرير (١١/ ٣٧٥)، كما ورد عن عدد من التابعين مرسلاً. انظر: ابن جرير (١١/٣٧٨ ــ ٣٨٠) الواحدي في أسباب النزول ص ٢١٨.

الفزاريين[١]. وأشهر الروايات وأولاها بالصواب: أن الكفار الذين قالوا هذا كفار مكة؛ لأن الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن إنما جاؤوا للنبي ﷺ في المدينة بعد الهجرة، وهذا مما يؤيد الروايات الواردة بأنهم عظماء الكفار من أهل مكة ـ كانوا يأتون النبي ﷺ فيجدون معه ضعفاء المسلمين الفقراء، كخَبَّاب، وعمار، وصهيب، وبلال، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك. وفي بعض الروايات الثابتة أن من الذين قالوا فيه ذلك من الفقراء: سعد بن أبي وقاص وجماعة معه. قالوا للنبي: نحن كبار رؤساء العرب، وإن اتبعناك اتبعك الناس، ونُحن لا نرضىٰ أن نجالس هؤلاء الأَعْبُد، ويؤذينا نَتَنُ جِبَابِهم ـ لأنهم كانوا يلبسون جِبَاباً من الصوف ليس لهم غيرها، فيكون فيها ريح العرق ـ اطرد عنّا هؤلاء النتنى لنجلس معك ونكلمك. وفي بعض الروايات أنهم قالوا له: إن جئناك فأقمهم عنا حتىٰ نقول لك ما نشاء، وإن خرجنا فإن شئت فاقعد معهم. وفي بعض الروايات: أنه ﷺ همّ بأن يجعل للعظماء الرؤساء مجلساً ليس فيه أولئك. وذكروا أنه دعا علياً (رضي الله عنه)، وأخذ الصحيفة ليكتب فيها عليّ؛ لأنهم قالوا له: اكتب لنا ذلك. فجاءه جبريل وأنزل الله عليه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ ثم لمّا نزلت ألقىٰ الصحيفة وامتنع من طردهم، وكان يجلس معهم، فإذا أراد القيام قام عنهم قبل أن يقوموا فأنزل الله عليه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب مجالسة الفقراء، حديث رقم: (٤١٢٧)، (٢/ ١٣٨٢)، والبيهقي في الدلائل (١/ ٣٥٢)، وابن جرير (١١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧)، والواحدي ص ٢١٧، وانظر: صحيح ابن ماجه (٢/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧).

آية ٢٨] فكانوا إذا جاء وقت قيامه يقومون ليفسحوا له في القيام؛ لأنهم يعرفون أنهم إن لم يقوموا لا يمكنه أن يقوم. هذا سبب نزول الآية.

والمعنىٰ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ [الأنعام: آية ٥٢] يعني: لأجل أن الكفار الفجرة يحبون ذلك ويرغبون فيه، كما قال له: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: آية ٢٨].

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ يدعونه معناه: يعبدونه ويتضرعون إليه. وذهبت جماعة من العلماء إلى أن المراد بالدعاء هنا: الصلاة[1]؛ لأنها أعظم العبادات، وهي فيها دعاء. يقول المصلي فيه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة: آية ٦] ثم يقول: آمين. ففيها أعظم دعاء، وقد ثبت في حديث مسلم عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: أن المسلم إذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ قال الله: «**هذه لعبدي ولعبدي ما سأل**»[2]. كما بيّنّاه مراراً.

وعلىٰ هذا فقوله: ﴿ بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ يعني بـ (الغداة): صلاة الصبح، وبـ (العشي): صلاة العصر.

وقال بعض العلماء: الآية أعم من الصلاة. وهو الظاهر؛ لأنهم يدعون الله ويعبدونه بأنواع العبادات من صلاة وغيرها، أول النهار وآخره.

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٨١ ـ ٣٨٨).

(٢) مسلم، كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، حديث رقم: (٣٩٥)، (١/ ٢٩٦).

وفي تخصيص الغداة والعشي للعلماء أوجه[(١)]:

أحدها: أن العرب إذا أرادت الدوام أطلقت الليل والنهار، والغداة والعشي. يعنون أنهم دائمون علىٰ ذلك.

القول الثاني: أن أول النهار وآخره من أفضل الأوقات التي تُنتهز فيها فرصة العبادات.

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ إذا جاء في القرآن العظيم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ معناه: أن ذلك العمل بإخلاص لله (جل وعلا)، ليس فيه رياء ولا سمعة، ولا طلب غرض من أغراض الدنيا.

وصفة (الوجه) صفة من صفات الله (جل وعلا) أثبتها لنفسه، وأثنىٰ علىٰ هذه الصفة ثناءً خاصاً لم يُثن به على صفة غيرها حيث قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: آية ٢٧].

ونحن في هذه الدروس القرآنية مراراً[(٢)] نقول لكم: إن الطريق السليمة ـ التي إن متم عليها ولقيتم الله عليها في هذا المأزق الذي ضلّ فيه الآلاف [فإنكم تلقون ربكم بعقيدة صحيحة في هذا الباب][(٣)] ـ أنها مركزة على ثلاثة أُسس، كل واحد منها في ضوء القرآن العظيم بغاية الوضوح، من لقي الله على اعتقاد هذه الأسس الثلاثة لقيه سالماً، ومن أخلّ بواحد منها دخل في مهواة، قد لا يتخلص منها.

---

(١) انظر: القرطبي (٦/ ٤٣٢)، البحر المحيط (٤/ ١٣٥).

(٢) للشيخ (رحمه الله) محاضرة في موضوع الصفات، وقد طُبعت بعنوان (منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات)، وانظر: الأضواء (٢/ ٣٠٤ ـ ٣٢١).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

أول هذه الأسس الثلاثة هو ــ أيها الإخوان ــ أن تلزموا قلوبكم بالطهارة من أقذار التشبيه، وتُنزهوا خالق الكون (جل وعلا) عن أن يُشبهه شيء من خلقه في أي صفة من صفاته، كائنة ما كانت، ومَنِ الخلق حتىٰ يشبهوا خالق السماوات والأرض؟ كيف يشبهونه وهم أثر من آثار قدرته وإرادته؟ فالأثر لا يشابه مخترعه.

وهذا الأصل هو الأساس الأكبر في معرفة الله، والحجر الأساسي لصلة العبد بربه صلة صحيحة على أساس صحيح، وهو تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة الخلق. وهذا الأساس منصوص في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: آية ٤]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: آية ٧٤] لأنه لا مثيل له ولا شبيه.

وهذا الأصل هو الأصل الأعظم في التوحيد، وهو أساس الصلة الصحيحة بين العبد وربه، فمن حقق هذا الأصل قرب من الخير، ومن لم يحقق هذا الأصل جرّه إلى تشبيهات وإلىٰ معاني لا خلاص منها. فإذا حقق العبد هذا الأصل، وألزم قلبه بأن يعلم أن خالق السماوات والأرض أعظم وأكبر وأنزه وأجل من أن يشبهه شيء من خلقه بأي صفة من صفاتهم [فإنه يكون قد طَهَّر قلبه من دَنَس التعطيل وأقذار التشبيه](١).

والأساس الثاني: هو أن يصدق الله بما وصف به نفسه، ويصدق رسوله بما وصف به ربه، تصديقاً مبنياً على أساس ذلك التنزيه، على غرار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

[الشورى: ١١] فلا يتنطع بين يدي الله، وينفي عن الله وصفاً مدح الله به نفسه، أو مدحه به من قال في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣ ــ ٤] إذ لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: آية ١٤٠] ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ.

وهذا الأصل الثاني علّمناه خالق الكون (جل وعلا) تعليماً سماوياً أعظم، لا يقع في الحق بعده لبس، وذلك قوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فإتيانه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فيه سرّ أعظم، ومغزىً أكبر، وتعليم خالق السماوات والأرض، وإيضاحه لهذه العقائد إيضاحاً كالشمس.

والمعنى: لا تتنطع يا عبدي، يا مسكين، اعرف قدرك، ولا تنف عني صفة سمعي وبصري مدعياً أنك إن أثبتَّ لي سمعي وبصري شبهتني بالحيوانات التي تسمع وتبصر، لا، ما هكذا الأمر. المعنى: أَثْبِت لي سمعي وبصري، وراع في ذلك الإثبات قولي قبله مقترناً به: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فأول الآية تنزيه كامل من غير تعطيل، وآخرها إيمان بالصفات إيماناً تاماً من غير تشبيهه ولا تمثيل، فعلينا أن نُنَزِّه خالقنا (جل وعلا) بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وأن نُثبت له ما أثبت لنفسه، ولا نقول إذا أثبتناه: كنا مشبهين؛ لأن الحيوانات تتصف بهذا!! ولأجل هذا وصف نفسه بالسمع والبصر، مع أنهما من حيث هما سمع وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فكل الحيوانات تسمع وتبصر؛ ولذا وصف نفسه بالسمع والبصر بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يعني: لا تنفِ عني سمعي وبصري بدعوىٰ

أنك إن أثبتهما كنت مشبهاً لي بالحيوانات التي تسمع وتبصر، لا. أثبت لي صفة سمعي وبصري إثباتاً مراعىً فيه قولي قبله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ ولأجل هذه الحكمة قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

فأول هذين الأصلين ـ الذي هو الأساس الأكبر للتوحيد والصلة بالله صلة صحيحة ـ: تنزيه خالق السماوات والأرض عن أن يُشبه شيئاً من خلقه بأي شيء من صفاتهم.

الأساس الثاني: هو أن لا تتنطع ـ أيها المسكين ـ وتنفي عن الله وصفاً مدح به نفسه، أو أثنىٰ عليه به رسوله، بل أثبت له هذا الوصف مراعياً في ذلك أنه (جل وعلا) ليس كمثله شيء، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ بعد: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

فعلينا أن ننزه الله عن مشابهة الخلق، وعلينا أن نُصَدِّق الله بما وصف به نفسه، ونُصَدِّق رسوله بما وصف به ربه، ولا يخطر في عقولنا التشبيه بصفات المخلوقين. ومَنْ المخلوقون حتى تشبه صفاتهم صفات خالقهم؟ أليسوا أثراً من آثار قدرته وإرادته؟ وكيف تشبه الصنعة صانعها؟

ولو تَنَطّعَ مُتنطّع وقال: نحن ما عرفنا صفة سمع ولا بصر منزهةً عن صفة الخلق، وما علمنا صفة وجه منزهة عن صفات الخلق، وما علمنا كيفية صفة استواء منزهةً عن استواءات الخلق، فبينوا لنا كيفية هذه الصفات حتى نعقل كيفية منزهة نعتقدها.

فنقول في هذا: قال مالك بن أنس: السؤال عن هذا

بدعة[١]. ولكن نتنزل معه ونقول: أيها المتنطع: هل عرفت كيفية الذات الكريمة المقدسة المتصفة بهذه الصفة؟ فلا بد أن يقول: لا، فنقول: معرفة كيفية الاتصاف بهذه الصفات متوقفة على معرفة كيفية الذات.

هذان أصلان:

الأول منهما: تنزيه خالق السماوات عن أن يشبه شيئاً من خلقه.

الثاني: تصديقه فيما وصف به نفسه، وعدم تكذيبه، وتصديق رسوله بما وصف به ربه تصديقاً مبنياً على أساس التنزيه، على نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١] فأول الآية تنزيه من غير تعطيل، وآخرها إثبات للصفات من غير تشبيه ولا تمثيل، وإن كانت الحيوانات تسمع وتبصر.

الأصل الثالث: هو أن نقطع طمعنا عن إدراك كيفية صفات الله (جل وعلا). والله قد نص على عجز الخلق عن الإحاطة بإدراك كيفياته. أشار إلىٰ ذلك في السورة الكريمة ـ سورة طه ـ حيث قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: آية ١١٠].

هذه الأصول الثلاثة:

الأول: تنزيه الله.

---

(١) الرد على الجهمية للدارمي ص ٣٣، البيهقي في الأسماء والصفات ص ٥١٥، اللالكائي رقم: (٦٦٤)، شرح السنة (١/ ١٧١)، مختصر العلو رقم: (٢٠٨)، فتح الباري (١٣/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧).

الثاني: الإقرار بصفات الله مبنياً على أساس التنزيه على غِرار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾.

الثالث: قطع الطمع عن إدراك الكيفية.

وأنا أؤكد لكم ـ أيها الإخوان ـ أنّا جميعاً سننتقل من هذه الدار إلىٰ القبور، وننتقل سريعاً من القبور إلى عرصات القيامة. ولا شك أننا هناك نُناقَش عن كل ما قدمنا، وما أسلفنا من خير أو شر، ومما يسألنا الله عنه: هل ما مدحت به نفسي وأثنيت به على [نفسي][1] أو أثبته لي [رسولي يُعد تشبيهاً؟ لو متم يا إخواني وأنتم على هذا المعتقد، أترون الله يوم القيامة يقول لكم: لِمَ نزهتموني عن مشابهة الخلق؟ ويلومكم على ذلك؟ لا وكلاّ، والله لا يلومكم على ذلك. أترون أنه يلومكم على أنكم آمنتم بصفاته، وصدقتموه فيما أثنى به على نفسه، ويقول لكم: لِمَ آمنتم بما أثبتُّ لنفسي..][2] ولا بما قد نص رسولي ﷺ فيما أثنىٰ به علي، تصديقاً مبنياً على أساس التنزيه. لا وكلاّ، أبداً، فهو طريق سلامة محققة، ولا يقول له: لِمَ لا تدعي أن عقلك المسكين القصير محيط بكيفيات صفاتي؟ لا أبداً. فهذه طريق سلامة محققة، وهي التي سار عليها النبي ﷺ، والسلف الصالح، والقرون المشهود لهم بالخير، بيضاء ليلها كنهارها؛ لأن علىٰ العبد أن ينزه خالقه عن مشابهة الخلق، وأن يؤمن

---

(١) في هذين الموضعين انقطع الصوت في التسجيل. وقد استدركتُ النقص من المواضع التي تكلم فيها الشيخ (رحمه الله) على هذه المسألة بنحو هذا الكلام، كما في محاضرة الصفات ص ٤٤ ـ ٤٥، ومن كلامه في هذا التفسير كما في الأنعام عند الآيتين (١٠٣، ١٥٨)، الأعراف (٥٤، ٩٩، ١٤٤)، التوبة (٢١).

(٢) نفس المصدر السابق.

بصفات ربه، ولا يُكَذِّب ربه، ولا نبيه، إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، ويعرف قدر عقله، ويعلم أنه عاجز عن الإحاطة بكيفيات خالق السماوات والأرض.

الأصل الأول بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ والثاني بقول: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ والثالث بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ فعلينا ــ معاشر المؤمنين ــ أن نُمر آيات الصفات وأحاديثها، ونصدق الله بما مدح به نفسه، ونعلم أنه لا يمدح نفسه بنقص ولا باطل، ولا يثني على نفسه إلا بكمال وجلال، ونُنزه ربنا عن صفات المخلوقين، فبالتنزيه نسلم من ورطة التشبيه، وبالإيمان والتصديق بصفات الله نسلم من ورطة التعطيل ونكون مؤمنين موحدين منزهين، لسنا مرتطمين في تشبيه، ولسنا مرتطمين في تعطيل، هذا هو الوجه فيما جاء من هذه الصفات؛ ولذا قال الله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ ابتغاء وجه الله. فالمعنىٰ: أن ذلك العمل خالص لله، لا يشوبه رياء ولا سمعة ولا غرض من أغراض الدنيا. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: آية ٥٢] هذه الآية والآيات التي نزلت مثلها في قضية نوح في سورة هود[1]، وفي سورة

(١) وهي قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [هود: آية ٢٩] وقوله في الآية بعدها: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [هود: آية ٣٠] وذلك بعد قولهم له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: آية ٢٧].

الشعراء[١]، معناها: أن الكفار قالوا له: هؤلاء الضعاف النتنى الذين معك، ليس لهم إيمان، ولا معرفة بالله، ولا التجاء إلىٰ الله، وإنما هم يقولون هذا الكلام لتسمعهم وتعطيهم شيئاً يأكلونه ويشربونه، فهم يراؤون لأجل الطعام. الله (جل وعلا) بَرَّأَهُم من هذه الدعوىٰ، وبيّن أنهم مخلصون لله، وقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، ثم قال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ يعني: عملهم لهم، صالحه لهم وطالحه عليهم، ولست مأخوذاً بالتنقيب عنهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ يعني: لستَ محاسباً بما يفعلون، وليسوا محاسبين بما تفعل، فعليك أن تأخذ بالظاهر من أحوالهم ـ الإيمان ـ مع أن الله نص له علىٰ أن باطنهم سليم، وأن نيتهم صحيحة، وأنهم بريئون مما قال الكفار حيث قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

ثم قال: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٢﴾ قال بعض العلماء[٢]: الفاء الأُولى ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ في جواب النفي، والفاء الأخرىٰ من جواب النهي. والمعنىٰ: لا تطرد الذين يدعون ربهم فتكون من الظالمين، ما عليك من حسابهم من شيء فتطردهم. أي: لو كان حسابهم عليك، لو كانوا فعلوا في الباطن شيئاً أمكن أن تطردهم؛ لئلا يكون فعلوه في الباطن[٣]. لكن لو فرضنا أنهم فعلوا في الباطن غير طيب فحسابهم عليهم لا عليك، فأي موجب تطردهم

---

(١) وهي قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤﴾ [الشعراء: آية ١١٤].

(٢) انظر: القرطبي (٦/ ٤٣٤)، البحر المحيط (٤/ ١٣٨)، الدر المصون (٤/ ٦٤٥).

(٣) المعنى المُراد تقريره هو: لو كان حسابهم مُوْكَلاً بك فوقع منهم شيء في الباطن فلك أن تطردهم لأجل ما وقع منهم في الباطن.

عليه، فعلى كل حال فقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ قولاً واحداً منصوب في جواب النفي؛ لأنها فاء السببية بعد النفي نحو ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾[1] [فاطر: آية ٣٦]، ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه معطوف عليه ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ بسبب طردهم.

الثاني: أنه في جواب ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ فتكون من الظالمين. وأن الجملة اعتراضية بين هذا وهذا.

والطرد: الإبعاد.

والظالمون: قد قدمنا أن معناه وَضْع الشيء في غير موضعه[2]. ومن طَرَدَ مسلماً طيباً كريماً يستحق التقدير والإحسان على خَاطِرِ خبيثٍ خسيسٍ ــ يستحق الطرد ــ فقد وضع الأمر في غير موضعه، حيث طرد من يستحق القُرْب على خاطرِ من يستحق البُعد؛ ولذا قال: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

[3]وهذه القضية أجرىٰ الله العادة بأن الرؤساء يقولون للأنبياء: اطردوا هؤلاء النتنى الضعاف، لا نؤمن بكم ومعكم هؤلاء. والدليل على هذا: أن نوحاً ــ صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ نبينا ــ أول الأنبياء، قالوا له: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/ ٢٩٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٣) مضى قريباً.

هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [هود: آية ٢٧] وطلبوا منه أن يطردهم؛ ولذا قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [هود: آية ٢٩]، وقال في شأنهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ [هود: آية ٣٠]، وقال في هذا في سورة الشعراء: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: آية ١١١] وبينوا له أن أعمالهم رياء ـ كما قال هؤلاء في أصحاب النبي ـ فقال نوح: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ١١٢ ـ ١١٣] ليس علي من حسابهم من شيء، ولا عليهم من حسابي من شيء، ثم قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الشعراء: آية ١١٤] لا أطردهم أبداً. فالقصة شبيهة بالقصة؛ ولذا قال هنا: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

[٥/أ] / ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٥٣ ـ ٥٥].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: آية ٥٣].

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: وكذلك الفتون المتقدم الذي فتن الله فيه أغنياء العرب ورؤساءهم فتنهم بضعفاء المسلمين حيث احتقروهم، وأبوا أن يجالسوا النبي ﷺ وهم معه في المجلس، وقالوا له: اطردهم عنا، فإنّا لا نرضىٰ أن نجلس معهم. حتى أنزل الله في ذلك ما أنزل.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما فتن هؤلاء الأغنياء بهؤلاء الفقراء، كذلك

فتنا بعضهم ببعض، فالله يفتن بعض الناس ببعض، يفتن الغني بالفقير، والفقير بالغني.

وقد قدمنا مراراً أن الفتنة أُطلقت في القرآن ثلاثة إطلاقات، وبعضهم يقول: أربعة إطلاقات[1]، أما الإطلاقات الثلاث الذي لم يخالف فيها أحد:

فمنها إطلاق الفتنة علىٰ (الاختبار)، وهو أشهرها في القرآن.

ومنها إطلاق الفتنة على (الإحراق بالنار)؛ لأن العرب تقول: فتنت الذهب، إذا سبكته في النار وأذبته، أي: ليتبين أخالص هو أم زائف. ومن إطلاق الفتنة على مطلق الوضع في النار قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾ [الذاريات: آية ١٣] أي: يحرقون بالنار ــ والعياذ بالله ــ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: آية ١٠] أي: أحرقوهم بنار الأخدود على أصح التفسيرين.

وكذلك تطلق الفتنة علىٰ نتيجة الاختبار إن كانت سيئة خاصة، كالمعاصي والكفر، فإن الكفار والعصاة اختبرهم الله بالأوامر والنواهي، فكانت نتيجة الاختبار فيهم غير محمودة حيث كفروا وعصوا؛ ولذا يُطلق اسم (الفتنة) على الكفر والمعاصي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: آية ١٩٣] أي: حتىٰ لا يبقى شرك. وهذا أصح التفسيرين، والدليل على صحة هذا التفسير: قوله ﷺ: «**أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله**»[2].

---

(١) انظر: المفردات (مادة: فتن) ص ٦٢٣، نزهة الأعين النواظر ص ٤٧٧، إصلاح الوجوه والنظائر ص ٣٤٧.

(٢) هذه الجملة وردت في عدة أحاديث رواها عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة منهم: =

فغاية «حتىٰ يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله» في هذا الحديث الصحيح يفسر الغاية في قوله: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: لا يبقىٰ أحد إلا وهو يشهد أن لا إلـٰه إلا الله على أظهر التفسيرين، وخير ما يُفسر به القرآن بعد القرآن: السنة الصحيحة؛ لأن النبي ﷺ قيل له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: آية ٤٤] فالسنة بيان للقرآن.

الرابع: إطلاق الفتنة بمعنىٰ (الحجة)، كما قاله بعض العلماء في قوله المتقدم: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: آية ٢٣] أي: حجتهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ على القول بذلك.

والمراد بالفتنة في هذه الآية التي نحن بصددها: الاختبار والابتلاء. أي: ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: اختبرنا وابتلينا بعضهم

= ١ ـ ابن عمر (رضي الله عنه)، عند البخاري في الإيمان، باب: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] رقم: (٢٥)، (١/ ٧٥)، ومسلم في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، حديث رقم: (٢٢)، (١/ ٥٣).

٢ ـ أبو هريرة (رضي الله عنه)، عند البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة، حديث رقم: (١٣٩٩)، (٣/ ٢٦٢)، ومسلم في الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، حديث رقم: (٢٠، ٢١)، (١/ ٥١، ٥٢).

٣ ـ جابر (رضي الله عنه)، عند مسلم في الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ورقمه في الباب (٣٥)، (١/ ٥٣).

٤ ـ أنس (رضي الله عنه)، عند البخاري في الصلاة، باب: فضل استقبال القبلة، حديث رقم: (٣٩٢)، (١/ ٤٩٧).

٥ ـ النعمان بن بشير (رضي الله عنه)، عند النسائي في تحريم الدم، حديث رقم: (٣٩٧٩)، (٧/ ٧٩ ـ ٨٠).

٦ ـ أوس بن حذيفة (رضي الله عنه)، عند النسائي في تحريم الدم الأحاديث (٣٩٨٠ ـ ٣٩٨٣)، (٧/ ٨٠ ـ ٨١).

ببعض. فالأغنياء يُبتلون بالفقراء، والفقراء يُبتلون بالأغنياء، وقد بين الله في سورة الفرقان: أن هذا الابتلاء يحتاج إلى صبر، وأن لله فيه حكمة كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: آية ٢٠] غالباً الأغنياء يُبتلون ويُفتنون بما يعطيه الله للفقراء من الدين والإيمان بالله (جل وعلا)، والفقراء غالباً يُبتلون بما يعطيه الله للأغنياء من الدنيا، فيقول الفقراء: كيف أُعطي هؤلاء الغنى والدنيا، ونحن خير منهم ولم نعطها؟ ويحسدونهم على غناهم، كما أن الأغنياء يقولون: كيف يكون هؤلاء الفقراء على حق ودين ويكونون أفضل منا ونحن خير منهم؟

وهذا النوع من الابتلاء هو المقصود هنا. أي: جعلنا فقراء المسلمين ابتلاءً وامتحاناً لأغنياء الكفار، حيث قالوا: هؤلاء الضعفاء كيف يعبأُ الله بهم وهم لا جاه لهم ولا مكانة؟ وهؤلاء لا يعبأُ الله بهم، ولو كان ما هم عليه فيه خير لكنا سابقين إليه؛ لأنّا أفضل منهم وأولىٰ منهم بكل خير. كما قال تعالى عن الكفار في هذا الموضوع: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: آية ١١]، وكما قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم: آية ٧٣] أينا أحسن مجالس وأكثر غنىً وأثاثاً؟ يعنون: أنّا أفضل منكم، ولو لم نكن أفضل عند الله منكم في الآخرة لما فضلنا عليكم في الدنيا!! يقيسون الدنيا على الآخرة، ويحتقرون المسلمين، ويحلفون أن هؤلاء الضعفاء لا يرحمهم الله، ولا يعبأُ بهم لسقوط مكانتهم فيما يظنون. كما يأتي في الأعراف في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: آية ٤٩] وكانوا إذا رأوهم

يحتقرونهم، ويسخرون منهم، ويغمز بعضهم بعضاً فيقولون: هؤلاء الضعفاء الفقراء، والأعبُد الموالي الذين لا يعبأُ بهم أحد، هم الذين يقول محمد ﷺ: إن لهم عند الله المكانة العظيمة، وأنهم خير منا، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطففين: آية ٣٠] أي: يغمز بعضهم بعضاً احتقاراً لضعفاء المؤمنين، كانوا يسخرون منهم في دار الدنيا، ويتغامزون عليهم، ثم إنه يوم القيامة يكون أولئك الضعفاء في أعلىٰ عليين، ويسخرون في ذلك الوقت من الذين كانوا يسخرون منهم، كما في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [البقرة: آية ٢١٢] وقد نص الله تبارك وتعالىٰ في السورة الكريمة ـ سورة الصافات ـ علىٰ أن أهل الجنة يمكنهم أن ينظروا أهل النار، وقد يتكلمون مع بعضهم، كما جاء في قصة ذلك الرجل المقصوص خبره في الصافات، وذلك كما بينه المفسرون[1]: أنه كان رجلان شريكين في تجارة كثيرة، ثم اقتسما، وأخذ كل منهما نصيبه، وأحدهما مؤمن، والثاني كافر، وكان المؤمن ينصح الكافر للدين، والكافر يرشد المؤمن إلىٰ الكفر وإنكار البعث ـ والعياذ بالله ـ فتزوج الشريك الكافر امرأة حسنة جميلة، وأعطاها مالاً طائلاً، فقال شريكه المؤمن: اللَّـٰهم إن فلاناً تزوج امرأة جميلة، وأعطاها كذا وكذا، وإني أخطب إليك من نساء الجنة بمثل المهر الذي تزوج به، وتصدق بقدر ذلك المهر. ثم إن فلاناً ـ الكافر ـ اشترىٰ بساتين وضياعاً، فقال أيضاً صاحبه: اللهم إن فلاناً اشترىٰ كذا وكذا بكذا، وإني

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٣/ ٥٩)، وأورد السيوطي في الدر (٥/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦) روايات متعددة في هذا المعنى.

أشتري منك في الجنة بذلك الثمن، فتصدق بالثمن علىٰ الفقراء والمساكين. حتى افتقر ذلك المؤمن، وجاء لشريكه الكافر يطلب أن يكون عنده أجيراً، فامتنع أن يشغله، ولامه ووبخه، فدخل ذلك المؤمن الجنة وذلك الكافر النار، وكان ذلك المؤمن يتحدث [مع] جلسائه [في][1] الجنة، وقال لهم: كان لي في الدنيا صديقٌ صاحِبٌ من أمره كيت وكيت، فاطِّلعوا معي لنرىٰ حاله وما هو عليه في النار، فأخبروه أنهم لا يعرفونه معرفة سابقة، ولا حاجة لهم فيه، وأنه هو إن شاء يطّلع لينظر إليه، فاطّلع فرآه في النار، وقال له ذلك الكلام الذي ذكره الله في الصافات، أشار الله إلى هذه القصة بقوله في أهل الجنة: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ إنكاراً للبعث ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ إنّا لمُجازَوْن؟ لا يكون ذلك. إنكاراً منه للبعث ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ يعني: مطلعون معي في النار لنشرف على حاله ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات: الآيات ٤٨ ــ ٥٧].

ومعنىٰ قوله (جل وعلا) هنا: ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: جعلنا بعضهم فتنة لبعض، كما جعل الله فقراء المسلمين الضعفاء، الذين ليس لهم مال ولا جاه في ذلك الوقت، كبلال، وعمار، وصهيب، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك من الفقراء، الذين ليسوا أصلاً من قريش، ولا مال عندهم، فتن الله بهم أولئك الأغنياء. كأن الله (جل وعلا) قال: إنه من حكمته أن يفتنهم بهم ليقولوا هذا القول محتقرين

(١) في الأصل: «في جلسائه في الجنة». وهو سبق لسان.

لهؤلاء، ليسوا عارفين بحقيقة الأمر ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ لأجل أن يقولوا. أي: أن يقول أولئك الأغنياء محتقرين لأولئك الفقراء إنكاراً: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنون: أهؤلاء المساكين الفقراء الذين لا يُعبأُ بهم، ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ فأعطاهم المنّة العظمى، وهي التوفيق والإيمان لما يرضي الله جل وعلا، والفضل برضا الله (جل وعلا) عنهم، إنكاراً لهم أن الله يمنّ على الضعفاء في زعمهم أنهم أحق بذلك منهم، وأن الذي هم عليه لو كان حقاً لكان أولئك الأغنياء سابقين إليه. كما قال عنهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: آية ١١]، وقال الواحد منهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: آية ٥٠]، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: آية ٣٦]، ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم: آية ٧٧] هذا كله جهل منهم، يظنون أن الله ما أعطاهم الغنىٰ والجاه في الدنيا إلا لأنهم يستحقون ذلك، وأن لهم مكانة عند الله وشرفاً استحقوا به ذلك، والله (جل وعلا) كذبهم مراراً في هذه المقالة الكاذبة، قال: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم﴾ يعني: التي تفتخرون بها في الدنيا وتقيسون عليها الآخرة ﴿بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: آية ٣٧]، وقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٥٥ ـ ٥٦] وبين أن ذلك استدراج من الله، كما قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٨٢ ـ ١٨٣]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: آية ١٧٨]، ولذا قال هنا: ﴿لِّيَقُولُوٓا۟﴾ محتقرين ضعفاءَ المسلمين ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الضعفاء الذين لا مكانة لهم،

ولا مال، ولا جاه ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أي: أعطاهم المنّة العظمىٰ برضاه، ودينه، وهداه ﴿مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ أي: لم يعطنا نحن ذلك؟ كما قال قوم صالح عنه: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر: آية ٢٤]، إلىٰ أن قالوا: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [القمر: آية ٢٥] أجاءه الوحي من الله من بيننا، ولم يكن أفضلنا ولا أغنانا؟ هذا لا يمكن أبداً!! كما قال كفار مكة: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: آية ٣١] صاحب مال وجاه؛ لأن محمداً ﷺ لم يكن عنده الغنى، وقد ردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: آية ٣٢] لا وكلا؛ ولذا قال هنا: ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ واللام هنا (لام كي)، وهي للتعليل، والله يبتلي الخلق ليقع منهم ما يشاء الله من خير وشر، وله في ذلك حكمة، وبيّن أنه يبتلي لينجح بعض الناس في ذلك الامتحان، ويسقط بعضهم في ذلك الامتحان، أوضح ذلك في سورة المدثر، حيث قال (جل وعلا) ــ لأنه لما جاء في القرآن أن خَزَنَة جهنم تسعة عشر ملكاً، كان هذا فتنة للكفار، حيث قالوا: كيف ونحن الآلاف المؤلفة يقهرنا تسعة عشر شخصاً؟ فقال لهم واحدٌ منهم كان قوياً: أنا أكفيكم منهم كذا وكذا ــ قدر سبع عشرة ــ وأنتم تقتلون الباقي فنحتل الجنة، وندخلها قهراً[1]!! ولذا قال الله ــ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ ثم قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ثم بيّن نتيجة هذه الفتنة، وهذا الاختبار، وصرح بأن قوماً ناجحون فيه، وقوماً بعكس ذلك. قال: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ثم قال في غير الناجحين: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٩/١٥٩ ــ ١٦٠).

مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ كذلك قوله هنا: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ محتقرين ضعفاء المسلمين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ لا يمكن ذلك؛ لأن الله لو كان ما أعطاهم خيراً لأعطانا؛ لأنّا أولىٰ منهم وأعظم وأحق بالخير ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: آية ١١] رد الله عليهم هنا بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ هذا النوع من الاستفهام هو الاستفهام المسمىٰ بـ(استفهام التقرير) والمقصود من استفهام التقرير ليس السؤال عن شيء يفهمه السائل، بل المراد به: حمل المُخاطَب على أن يُقّر فيقول: «بلىٰ»، ولا يكون استفهام التقرير إلا في شيء لا يمكن أن يُنازع فيه، وإن كان يمكن فيه النزاع فالمُخاطِب يَعْرِفُ المخاطَبُ أنه لا ينازع في ذلك الشيء، وأنه مُقر به. فمثال الذي لا يمكن أن يكون فيه نزاع قوله هنا: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ الجواب: بلىٰ، هو والله أعلم. ولا يمكن جواب غير هذا لأحد. أما الجواب الذي يمكن الخلاف فيه، إلا أن المخاطِب يعلم أن المخاطَب مُقرّ به ويكفيه ذلك عن غيره: فكقول جرير يمدح عبد الملك بن مروان(١):

أَلَسْتُم خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وأَنْدىٰ العَالَمِيْنَ بُطُونَ رَاحِ

فهو يعلم أن الممدوح يعتقد هكذا، وإن كان غيره قد يخالف ويقول: ليسوا أندى الناس بطون راح.

وقوله: ﴿بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ هذه (الباء) التي تأتي بعد (ليس) وبعد (ما) النافية باطراد إنما فائدتها أنها تدل علىٰ توكيد النفي، فالنفي الذي تدخل فيه هذه (الباء) أوكد من غيره، فإن هذه (الباء)

---

(١) انظر: الخصائص (٢/ ٤٦٣)، (٣/ ٢٦٩)، مغني اللبيب (١/ ١٦).

تؤكد الإسناد الخبري في حالة السلب، كما يُؤَكَّد الإسناد الخبري بـ (إن) و (اللام) في حالة الإثبات.

﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ جمع الشاكر. و (الشاكر): اسم فاعل الشكر، و(الشكر) أصله في لغة العرب: الظهور[1]. ومنه: ناقة شكور. يظهر عليها السِمن، ومنه سَمَّت العرب (العُسْلُوج) الذي ينبت في الشجرة التي كانت مقطوعة إذا ظهر فيها غصن جديد بعد أن لم يكن، قالوا: (شَكِير)؛ لأنه يظهر بعد أن لم يكن ظاهراً. هذا أصله في اللغة.

وهو في القرآن[2] يُطلق من الرب لعبده، ومن العبد لربه، كما قال في شكر الرب لعبده: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ۝١٥٨﴾ [البقرة: آية ١٥٨]، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤﴾ [فاطر: آية ٣٤]، وقال في شكر العبد لربه هنا: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام: آية ٥٣]، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: آية ١٤]، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: آية ٣].

قال بعض العلماء: معنىٰ شكر الله لعبده: هو إثابته الثواب الجزيل عن عمله القليل. ومعنىٰ شكر العبد لربه: هو أن يصرف العبد نِعم ربه فيما يرضي ربه.

فعلينا جميعاً أن نصرف نعم ربنا فيما يرضيه، فهذه العيون التي فتح لنا في أوجهنا علىٰ هذا الشكل الغريب شُكْرُها عند الله أن لا ننظر بها في شيء إلا في شيء يرضي مَنْ خَلَقَها ومنّ بها (جل وعلا).

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

وهذه اليد التي فرّق الله أصابعها، وشدّ رؤوسها بالأظفار، شُكْرُ نعمة من أنعم بها أن لا نمدّها ولا نبطش بها إلا في شيء يرضي من خَلَقَها ومنّ بها. وهذه الرِّجْل التي جعلها الله للإنسان، يمشي عليها إلى حيث يشاء، شُكْرُ نعمتها أن لا يمشي بها الإنسان إلا إلى شيء يرضي من خَلَقَها ومنّ بها. وهكذا، فالجاه إذا منّ الله علىٰ إنسان بجاه وقبول كلمة فشُكْرُ هذا أن لا يستغل ذلك الجاه والنفوذ إلا في شيء يرضي من خَلَقَه ومنّ به، وكذلك الأموال، شُكْرُ المال أن لا يصرفه العبد ولا يفعل فيه إلا شيئاً يرضي خالقه (جل وعلا) الذي منّ به.

وفي(١) الحقيقة أن الإنسان يفعل أموراً يعرق منها الجبين، ويخجل منها العاقل؛ لأن هذا الإنسان المسكين الضعيف يمنّ عليه هذا الخالق الجليل العظيم بهذه النعم، ثم يصرف هذه النعم أمام ربه فيما يسخط ربه (جل وعلا) ويغضبه، فهذا أمر يعرق منه الجبين، وهو عظيم جداً، فعلىٰ المسلم أن يستحيي من ربه الذي خلقه وأنعم عليه، ويحترز من أن يصرف نعمة من نعم خالقه إلا في شيء يرضي خالقه (جل وعلا)، وعلىٰ الأقل إلا في شيء لا يُسخِطِ مَنْ خلقه (جل وعلا) ويغضبه عليه.

هذا أصل شُكْر العبد لربه كما قاله العلماء. وقد قدمنا معنىٰ الشكر لغة(٢). ومادة «شكر» لها حالتان(٣): قد تتعدّى إلى النعمة، وتعديها إلى النعمة تتعدىٰ إليها بنفسها بلا حرف بإطباق أهل اللسان العربي، كأن تقول: «شكرت نعمة زيد». ومنه قوله جل وعلا:

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز (٣/ ٣٣٤)، الدر المصون (١/ ٣٥٧)، (٢/ ١٨٤).

﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: آية ١٩] أما إذا أوقعت الشكر علىٰ نفس المنعم، كأن ينعم عليك إنسان فتقول له: «أنا أشكر لك». فاللغة العربية الفصحىٰ هي تعديته باللام، ولا تكاد العرب تعديه بنفسه، تقول: «شكرت لك، وشكر الله لك». ولا تقول: «شكرتك». وتقول: «أحمد الله وأشكر له». ولا تقول: «أشكره». فاللغة الفصحىٰ هي تعدية (شكر) إلى المنعم باللام لا بالفعل بنفسه. [هذه][1] هي لغة القرآن، وهي اللغة الفصحىٰ بإطباق أهل اللسان العربي، ولم يأتِ في القرآن مادة (الشكر) مُعدّاة إلىٰ المنعم إلا باللام، نحو قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ ولم يقل: «أن اشكرني» ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: آية ١٤]، ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: آية ١٥٢] ولم يقل: «واشكروني» فيُعدّيها للمفعول.

وظن قوم أن تعدية (شكر) إلى المنعم بالفعل نفسه لا بالحرف أنها لحن، وقالوا: (أشكره) لحن، و(شكرتك) لحن. والتحقيق: أنه ليس بلحن، وأنه لغة مسموعة في كلام العرب، إلا أن تعديته باللام أجود. ومن إطلاق مادة (الشكر) متعدية إلىٰ المنعم بنفسها لا باللام قول أبي نُخيلة[2]:

شكرتُكَ إن الشكر حبلٌ من التُّقىٰ   وما كل مَنْ أَوْلَيْتَهُ نعمةً يقضي

فإن هذا الشاعر العربي قال: «شكرتك». ومن هذا المعنىٰ قول جميل ابن معمر الشاعر المشهور، قال[3]:

---

(١) في الأصل: هذا.

(٢) البيت في عيون الأخبار (٣/ ١٦٥)، اللسان (مادة: شكر) (٢/ ٣٤٤).

(٣) ديوان جميل بن معمر ص ١٠٢.

خَلِيْلَـيَّ عُـوْجَـا اليـومَ حتـى تُسَلِّمـا
علـىٰ عَـذْبَـةِ الأنيـاب طيبـة النَّشْـرِ
فـإنكمـا إن عُجْتُمـا لـي سـاعـة
شكـرتكمـا حتـىٰ أُغَيَّـبَ فـي قبـري

فقوله: «شكرتكما» لم يقل: «شكرت لكما» علىٰ هذه اللغة القليلة. وهذا معنىٰ قوله: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٥٤].

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ في هذين الحرفين[(١)] ثلاث قراءات سبعيات[(٢)]: قرأه ابن عامر وعاصم: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ بفتح همزة الحرفين، ووافقهما نافع في فتح الحرف الأول، وخالفهما فكسر الثاني، وباقي السبعة يكسرها في الحرفين ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة إنه من عمل منكم﴾ ثم يقرؤون: ﴿فإنه غفور رحيم﴾ وهم: ابن كثير،

---

(١) المراد بالحرفين: الهمزة في قوله: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ﴾ والهمزة كذلك في قوله: ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ﴾.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، هذه هي قراءة السبعة في هذين الحرفين.

ومعنىٰ الآية الكريمة ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ جمهور المفسرين(١) علىٰ أن المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هم الفقراء، فقراء المؤمنين الذين طلب الكفار طردهم وإبعادهم وقت مجالستهم للنبي ﷺ، فجمع الله لهم بين ثلاثة أشياء تدل علىٰ عِظم مكانتهم، وعِظَم منزلتهم عند الله (جل وعلا)، وإن احتقرهم الكفرة الفجرة:

الأول: هو نهيه ﷺ عن أن يطردهم.

وشهادة الله لهم بالإخلاص والعبادة حيث قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

ونهىٰ النبي عن طردهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ثم في سورة الكهف أمره بالصبر معهم، وأن لا يقوم حتى يقوموا ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ ونهاه أن يطيع الكفرة فيهم ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: آية ٢٨] ثم هنا أمره إذا جاؤوا أن يتلقاهم، ويُسلِّم عليهم، ويخبرهم

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٧٦ ـ ٣٨٠) (ولم يرجع هذا القول)، وابن عطية (٦/ ٥٩) (وعزاه للجمهور)، والقرطبي (٦/ ٤٣٥)، البحر المحيط (٤/ ١٣٩)، والشوكاني (٢/ ١٢٤).

بسعة رحمة الله (جل وعلا)؛ لتطمئن قلوبهم، ويُسروا بذلك. وعلىٰ هذا فالمعنىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: وهم ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ إذا جاؤوك ﴿فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ فابتدرهم وسلم عليهم.

وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ فيه ثلاثة أوجه[1]:

أشهرها: أن النبي ﷺ أُمر بأن يُسلم عليهم مبتدئاً إياهم بالسلام.

القول الثاني: ﴿فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي من ربكم. وعلىٰ هذا التفسير فالله يُقرئهم السلام على لسان نبيه ﷺ لما احتقرهم أعداء الله.

الوجه الثالث: أن السلام من النبي ﷺ، وأنه ردٌّ لسلامهم عليه، وهذا لم يقم ما يدل عليه، فأشهرها: أن النبي أُمر بالتسليم عليهم.

ومعنىٰ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾ هنا مبتدأ، و ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ خبره، وإنما سوَّغ الابتداء به وهو نكرة: أنه مُشَمٌّ رائحة الدعاء[2]، وقد تقرر في فن العربية: أن النكرة إن كان فيها معنىٰ الدعاء بِخَيْر، نحو: (سلام)، أو بِشَرّ، نحو: (ويل لهم)، أنها يجوز الابتداء بها[3].

و ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ معناه: سلمكم الله من الآفات والمحذور.

---

(١) انظر: القرطبي (٦/ ٤٣٥)، البحر المحيط (٤/ ١٤٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٤٠)، الدر المصون (٤/ ٦٤٩).

(٣) انظر: التوضيح والتكميل (١/ ١٦٩).

وهذه تحية الإسلام، هي أكمل تحية وأفضلها؛ لأن معنىٰ (السلام عليكم): سلمكم الله (جل وعلا) من الآفات ومما يؤذيكم. وهي أحسن من تحية الجاهلية الذين كانوا يقولون: (حياك الله) فـ(السلام عليكم) أفضل من (حياك الله)، وإنما كانت أفضل منها لأن معنىٰ (السلام عليكم): سلمكم الله من كل ما يؤذي ومن جميع الآفات. ومعنىٰ (حياك الله) لا تزيد (حياك الله) على معنىٰ أطال الله حياتك؛ وهذا الدعاء لا يستلزم الفائدة؛ لأنه كم من إنسان تكون حياته ويلاً عليه، وضرراً عليه، ويكون يتمنىٰ الموت. وما كل حياة مرغوبة ولا مرغوب فيها، بل رُبَّ حياةٍ الموتُ خير منها، وهذا معروف في كلام العرب، وقد سمعتم بعض الناس من المتأخرين، وإن كان مثله يذكر للمثال لا للاستدلال يقول(١):

ألا موتٌ يُباعُ فأشتريه ... فهذا العَيْشُ ما لا خير فيه
ألا رحِمَ المُهَيْمِنُ نَفْسَ حُرٍّ ... تَصَدَّقَ بالوفاة على أخيه

فهذا الذي يطلب من يتصدق عليه بالموت لا يرغب في [الحياة](٢) فلو قلت له: «حياك الله» لقال لك ــ البعيد ــ: «لا حياني الله»!! لأنه يرغب في الموت، بخلاف (السلام عليكم) فليس هذا معناه، ومن هذا المعنىٰ قول الأعشىٰ أو غيره في الأبيات التي اختُلف

(١) الأبيات للوزير المهلبي وهو في زهر الآداب (١/ ١٣٩ ــ ١٤٠)، صبح الأعشى (١/ ٤١)، قصص العرب (٣/ ٢٦٤)، معجم الأدباء (٣/ ٩٧٧)، وفيه بين البيتين بيت آخر وهو قوله:

إذا أبصرتُ قبراً من بعيد ... وددتُ لو أنني فيما يليه

(٢) في الأصل: (الموت) وهو سبق لسان.

في قائلها[١]:

المــرءُ يــرغــبُ فــي الحيــا ة وطــول عيــشٍ قــد يضــره
تفنــــىٰ بشــــاشتــــه ويبــ ـقــى بعــد حلــو العيــش مُــره
وتســــوؤهُ الأيــــامُ حتــ ــىٰ مــا يــرىٰ شيئــاً يســره

فمن كان بهذه المثابة لا خير له في الحياة.

وقوله في هذه الآية: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ ليس يمكن لأحد أن يلزم الله شيئاً، ولكن الله يلزم نفسه ما شاء، ومعنىٰ إلزامه: أن يُخْبِر به، ووعده (جل وعلا) صادق لا يتخلف، فما وعد الله به فهو واجب الوقوع لازمه محتوم؛ لأن الله لا يخلف الميعاد، وقد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح من حديث أبي هريرة ما يدل علىٰ أن الله (جل وعلا): كتب في كتاب فهو عنده فوق عرشه: «إن رحمتي غلبت غضبي»[٢]، وسيأتي في قوله جل وعلا: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٦] فرحمة الله (جل وعلا) وسعت كل شيء، ولا يهلك على الله إلا هالك. ألا ترون ما يدل على نظائر كثيرة من هذا في القرآن؟ تعلمون أنه لا أحد أشنع قولاً من الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، ومع هذه الفرية

---

(١) هذه الأبيات نسبها بعضهم لمضرس بن ربعي، كما في (المعمرون والوصايا) لأبي حاتم، كما تُنسب لأبي العتاهية، وهي في ديوانه ص ١٠٤، وهي في الحماسة للبحتري ص ٩٥، مع بعض الاختلاف في اللفظ.

(٢) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ...﴾، حديث رقم: (٣١٩٤)، (٦/ ٢٨٧)، وأخرجه في مواضع أُخرى. انظر: الأحاديث (٧٤٠٤، ٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٣، ٧٥٥٤)، ومسلم، كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى، حديث رقم: (٢٧٥١)، (٤/ ٢١٠٧).

العظمىٰ، والوقوع في جَنَاب الله (جل وعلا) بهذا الأمر الهائل العظيم، فالله مع هذا يستعطفهم ويتلطف بهم للتوبة ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: آية ٧٤] ويأمر نبيه أن يخاطب الكفرة الفجرة ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: آية ٣٨] ومن أصرح ذلك: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ هذا خطاب موجه بخصوص المسرفين على أنفسهم دون غيرهم، يقول لهم الله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: آية ٥٣] فأمرُ النبي ﷺ من خالق السماوات والأرض أن يوجه هذا الخطاب العظيم لخصوص المسرفين يدل علىٰ سعة رحمة الله جل وعلا ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ لم يقل: «الذين آمنوا»، ولا «الذين أخلصوا». خص به المسرفين علىٰ أنفسهم ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ الآية؛ ولذا قال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ [الأنعام: آية ٥٤] على قراءة من قرأ: ﴿أَنَّهُۥ﴾ بفتح (أنه) هنا، وهي في هذا الحرف قراءة ابن عامر، وعاصم، ونافع. فالمصدر المنسبك من (أن) وصلتها يعرب بدلاً من الرحمة[1]. والمعنىٰ: كتب ربكم على نفسه الرحمة. معنىٰ هذه الرحمة: هي غفرانه لمن عمل منكم سوءاً. فقوله: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ مُفسِّر لتلك الرحمة مُبين لها، فهو بدل منها، وعلىٰ قراءة من قرأ: ﴿إنه من عمل منكم سوءاً﴾ فهو على الاستئناف، قُطع مما قبله، وكان مستأنفاً، و (إنَّ) إذا كانت في ابتداء الجُمَل الاستئنافية كُسِرت. والضمير في (إنه) ضمير الشأن.

---

(١) انظر: القرطبي (٦/ ٤٣٦)، البحر المحيط (٤/ ١٤١)، الدر المصون (٤/ ٦٥٠).

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ﴾ قال بعض العلماء: ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ هنا شرطية، وجوابها مقترن بالفاء. وقال بعضهم: هي موصولة، والمبتدأ إذا كان موصولاً اقترن خبره بالفاء، كما قدمناه مراراً.

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ السوء: هو كل ما يسوء صاحبه إذا رآه في صحيفته.

والأعمال قد دل الكتاب والسنة على أنها أربعة أنواع[1]، كلها إذا عملها الإنسان على غير الوجه المشروع كان عاملاً سوءاً، والله (جل وعلا) يقول: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: آية ٣٠] أي: لكراهتها إياه.

العمل على أربعة أنواع، هي التي إذا عملها الإنسان على غير الوجه المشروع كان عمله عمل سوء:

منها: فعله ــ المعروف ــ كالزنى والسرقة.

الثاني: فعل اللسان، فهو عمل، والدليل علىٰ أن قول اللسان من الأفعال: أن الله صرح أن قول اللسان من الأفعال في سورة [الأنعام][2]، في قوله جل وعلا: ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: آية ١١٢] فأطلق على زخرف القول اسم (الفعل)، فدل علىٰ أن قول اللسان فعل. هذان قسمان: الفعل ــ المعروف ــ بأحد الجوارح، وفعل اللسان.

---

(١) انظر: نثر الورود (١/ ٧٨)، مذكرة أصول الفقه ص ٣٨ ــ ٤٠.

(٢) في الأصل: (الأعراف) وهو سبق لسان.

الثالث: العزم المُصَمِّم[١]؛ لأن عزم الإنسان المُصَمِّم دلت السنة الصحيحة علىٰ أنه من الأفعال السيئة التي تُدخل صاحبها النار، والدليل على ذلك: ما ثبت في الصحيحين من حديث أبـي بكرة (رضي الله عنه): «**إذا التقىٰ المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» قالوا: يا نبـي الله قد عرفنا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»[٢]. فقولهم: ما بال المقتول؟ سؤال من الصحابة واستفهام عن إبراز السبب الذي دخل به المقتول النار، فبين النبـي ﷺ جواباً مطابقاً للسؤال أن حرصه وعزمه المُصَمِّم على قتل أخيه هو السبب الذي أدخله النار. أما الهم الذي لم يكن عزماً مُصَمِّماً، فليس من الأفعال، كما قال جل وعلا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: آية ١٢٢] وإتباعه لذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ دل على أنه هَمٌّ لم يستقر، ولم يكن عزماً مَصَمِّماً حتى يُعد من الأفعال، ومن ذلك الهم ــ الذي ليس من العزم المُصَمِّم الذي هو من الأفعال ــ ما في الحديث: «**وإذا هم بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة**»[٣] / وإنما كُتبت له حسنة؛ لأنه تركها لوجه الله (جل [٥/ب]

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٢٠)، فتح الباري (١١/ ٣٢٤ ــ ٣٢٩)، (١٢/ ١٩٧)، نثر الورود (١/ ٧٨)، مذكرة أصول الفقه ص ٣٩.

(٢) البخاري، كتاب الديات، باب: قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا...﴾، حديث رقم: (٦٨٧٥)، (١٢/ ١٩٢)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، حديث رقم: (٢٨٨٨)، (٤/ ٢٢١٣).

(٣) هذه الجملة رواها عن النبـي ﷺ ثلاثة من الصحابة:

الأول: أنس بن مالك (رضي الله عنه) في حديث الإسراء الطويل الذي أخرجه الشيخان وغيرهما. إلا أن هذه الجملة لم ترد في لفظ البخاري وإنما هي في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، =

وعلا)، فكان تركه إياها امتثالاً لأمر الله، وكانت بذلك حسنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: الآيتان ٤٠ ــ ٤١].

الرابع: هو الترك، والترك من الأفعال الحقيقية، فهو فعل على التحقيق(١)، وإن خالف فيه من خالف، فمن ترك الصلاة حتى ضاع وقتها فقد عمل بهذا الترك عملاً سيئاً يدخل به النار، وكان ابن السبكي في بعض تآليفه في الأصول يقول: طالعت كتاب الله لأجد فيه آية تدل علىٰ أن الترك فعل فما وجدت فيه شيئاً يدل علىٰ أن الترك فعل إلا شيئاً يفهم من آية في سورة الفرقان هي قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾ [الفرقان: آية ٣٠] قال: الاتخاذ أصله من الأخذ، والأخذ: التناول. فقال: تناولوه

= وفرض الصلوات، حديث رقم: (١٦٢)، (١/ ١٤٥).
الثاني: حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، حديث رقم: (٧٥٠١)، (١٣/ ٤٦٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب: إذا هم العبد بحسنة كُتبت، وإذا هم بسيئة لم تُكتب، حديث رقم: (١٢٨ ــ ١٣٠)، (١/ ١١٧ ــ ١١٨).
الثالث: حديث ابن عباس عند البخاري، كتاب الرقاق، باب: من هم بحسنة أو بسيئة، حديث رقم: (٦٤٩١)، (١١/ ٣٢٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب: إذا هم العبد بحسنة كُتبت، وإذا هم بسيئة لم تُكتب، حديث رقم: (١٣١)، (١/ ١١٨).

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٨٢ ــ ٢٨٥)، القواعد والفوائد الأصولية ص ٦٢، المسودة ص ٨٠، المستصفى (١/ ٩٠)، شرح مختصر الروضة (٢/ ٢٤٢ ــ ٢٤٧)، شرح الكوكب المنير (١/ ٤٩١)، نشر الورود (١/ ٧٨)، مذكرة أصول الفقه ص ٣٨ ــ ٤٠، أضواء البيان (٦/ ٣١٧).

مهجوراً. فدل علىٰ أن الهجر فعل.

ونحن نقول: إنّا باتباع كتاب الله وجدنا آيات صريحة من كتاب الله تدل بصراحة لا شك فيها علىٰ أن الترك من الأفعال، منها: آيتان في سورة [المائدة][1]، ذكرناهما فيما مضىٰ، إحداهما قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: آية ٦٣] فسمىٰ عدم نهيهم وتركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سماه: (صُنْعاً)، والصُّنع أخص من مطلق الفعل، ومنه قوله تعالى في المائدة أيضاً: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ ثم قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: آية ٧٩] يعني به تركهم للتناهي عن المنكر، سماه (فعلاً) وأنشأ له الذم بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾. هذه الأقسام الأربعة هي الأفعال، واللغة العربية تدل علىٰ أن الترك من الأفعال، وقد قال بعض الصحابة لما أراد النبي ﷺ عند أول مجيئه لهذه المدينة مهاجراً عند بنائه هذا المسجد الكريم، كانوا يحملون المؤونة ليبنوه، وواحد جالس، فرأى النبيَّ ﷺ يعمل معهم، فقال راجزاً[2]:

لئن قعدنا والنبي يعملُ ... لَذَاكَ منا العملُ المُضَلَّل

فسمىٰ تركهم للعمل سماه (عملاً مضللاً) وبهذا يُعلم أن قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ أن عمل السوء قد يكون بفعل أحد الجوارح، وقد يكون بفعل اللسان، وقد يكون

---

(١) في الأصل: (الأنعام) وهو سبق لسان.

(٢) البيت في السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٢٢)، نثر الورود (١/ ٧٩).

بالعزم المصمم، كما قال النبي ﷺ: **«إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»**[(١)]. وقد يكون بترك ما أوجبه الله جل وعلا.

هذه الأعمال التي يعملها الإنسان سيئة.

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا﴾ السوء: كل عمل يسوء صاحبه إذا رآه في صحيفته يوم القيامة.

وقوله: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ الجار والمجرور في منزلة الحال. أي: حال كونه متصفاً بالجهالة. ولا يعصي الله أحد إلا هو متصف بجهالة؛ لأن المعاصي غالباً لا تحمل عليها إلا أغراض دنيوية عاجلة، ومن آثر هذا الغرض الدنيوي العاجل علىٰ ما عند الله (جل وعلا) فهو جاهل، وإن كان في الجملة يعلم أن فعله هذا حرام، وأنه عالم بما يأتي، فلا بد أن يكون جاهلاً من تلك الحيثية، وكل من وقع في أمر لا ينبغي تقول له العرب: «جاهل»[(٢)]، و«وقع فيه بجهل»، وهو كلام معروف في كلام العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، ومن هذا المعنىٰ قول الشاعر[(٣)]:

علىٰ أنها قالت عَشِيَّةَ زُرْتها جَهِلْتَ علىٰ عمد ولم تَكُ جاهلاً

تعني أنه فعل ما لا ينبغي أن يفعل، وهذا معنىٰ قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾.

﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد ذلك العمل الذي عمل به السوء بجهالة ﴿تَابَ وَأَصْلَحَ﴾.

---

(١) مضى تخريجه قريباً.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٣) البيت في مشاهد الإنصاف ص ٩٣.

قوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ دليل على أن التوبة ليست قولاً باللسان مع الرجوع للمعاصي، هذا ليس كما ينبغي، بل يتوب توبة نصوحاً، ثم بعد ذلك يصلح ولا يرجع لما كان يعمل من السوء، وحذف مفعول (أصلح) لقصد التعميم، وأصلح جميع أقواله، وأفعاله، ونياته، وقصده، فلم يفعل إلا طيباً.

والتوبة عند العلماء تتركز على ثلاثة أسس[1]، إذا اجتمعت كلها فالتوبة نصوح، وإذا اختل واحد منها فليست بتوبة نصوح:

أولها: أن يُقلع عن الفعل إن كان متلبساً به.

والثاني: أن يندم على الفعل الذي صدر منه ندماً شديداً ويأسف.

والثالث: أن ينوي أن لا يعود إلى الذنب حتى يعود اللبن في الضرع.

ومعلوم أن التوبة واجبة بإجماع المسلمين من كل ذنب يجترمه الإنسان، وتأخيرها ذنب يحتاج إلى توبة، والله أمر بها أمراً صارماً، قال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: آية ٣١] وقوله: ﴿تُوبُوٓاْ﴾ صيغة أمر واجبة، فالتوبة واجبة من كل ذنب بإجماع المسلمين. وقد بيّن (جل وعلا) أنها مظنة لغفران الذنوب حيث قال جل وعلا: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ وأتبع ذلك بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: آية ٨] فـ (عسى) من الله عظيمة تدل على أن من تاب توبة نصوحاً كفّر الله عنه سيئاته.

---

(١) انظر: القرطبي (٥/ ٩١).

واعلموا أن العلماء مطبقون علىٰ أن التوبة تتركز علىٰ هذه الأشياء الثلاثة: الإقلاع عن الذنب إن كان متلبساً به، والندم على فعل الذنب، ونية أن لا يعود إلى ذلك الذنب.

ومعروف أن في أركان التوبة ـ هذه ـ إشكالات وسؤالات معروفة عند العلماء[1]، منها: أن الندم ركن من أركان التوبة بالإجماع، والتوبة واجبة بالإجماع، وركن الواجب واجب، فالندم علىٰ الذنب واجب إجماعاً، وهذا مما لا خلاف فيه، ومحل الإشكال في هذا الركن من أركان التوبة هو أن يقول المُسْتَشْكِل: أما الندم فإنه ليس من أفعال الإنسان الاختيارية، وإنما هو انفعال وتأثر نفساني، والانفعالات والتأثرات النفسانية ليست تحت قدرة البشر، وليست من أفعال البشر، وليست من عمل البشر باختيارهم حتى يُطلق عليها أنها واجبة، ونحن نشاهد هذا، ترى الرجل البائع المغبون إذا باع وغُبِن في بيعه غبناً شديداً تراه في شدة الندم، وهو يتجلد ويحاول أن يدفع الندم عن نفسه فلا يستطيع، فهذا يبين أن الندم ليس من الأفعال الاختيارية، وإنما هو انفعال، وتأثر نفساني، وترىٰ الرجل ـ والعياذ بالله ـ إذا كان يعشق امرأة جميلة، بارعة في الجمال، إذا نال منها قبلة، إذا أراد أن يتندم يتخيل له خيال ذلك الجمال فينبسط إليه قلبه، ولا يستطيع الندم؛ فلذا كُنَّا نعاين الرجل قد يريد أن يندم ولا يندم، وقد يريد أن لا يندم فيندم، فالندم انفعال نفساني، وتأثر ليس من الأفعال الاختيارية، فكيف نقول: إنه واجب، وإنه ركن للواجب؟ هذا السؤال الأول.

---

(١) انظر: الأضواء (٦/ ٢٠٦).

والجواب عن هذا هو ما حققه بعض العلماء من أن الندم لا يعجز عنه الإنسان إلا إذا كان مسترسلاً مع النفس، محابياً لها فيما [لا] ينبغي[١]؛ لأن أسباب الندم قائمة بكثرة، متوفرة كل التوفر، ومن أخذ بالأسباب كان في استطاعته حصول المسبب[٢]، ذلك لأن عامة العقلاء يطبقون علىٰ أن الإنسان إذا قُدِّم إليه شراب في غاية الحلاوة واللذاذة، لا يوجد شراب أحلى منه، ولا ألذ، إلا أن هذا الشراب فيه سم قاتل فتاك، فعامة العقلاء لا يَسْتَحْلُون حلاوة هذا الشراب، ولا يلتذون بلذته، لما فيه من السم القاتل الفتاك، وحلاوة المعاصي ــ أعاذنا الله والمسلمين منها ــ تنطوي علىٰ السم القاتل الفتاك، وهو سخط رب العالمين وغضبه (جل وعلا)؛ لأن الإنسان لا يدري إذا سخط عليه ربه أن يهلكه في وقته، ثم يجعله في عذاب، فإذا عرف الإنسان أن حلاوة المعاصي تنطوي علىٰ السم القاتل الفتاك من سخط رب العالمين، وألزم نفسه بالحقائق، وعرف أنه تَعَرَّض لسخط خالق السماوات والأرض بلذة فانية، تنطوي على السم الفتاك من سخط رب العالمين، فالعاقل إذا أخذ هذه الأسباب على حقيقتها، ولم يجامل نفسه، ولم يُحابها، لا بد أن يندم، فبسبب كون أسباب الندم متيسرة، متوفرة، قائمة، وأن من أخذ بالأسباب غالباً يُحَصِّل المُسَبَّب، من هنا قيل: إن الندم واجب من هذه الحيثية.

الثاني: أن الإنسان قد يتوب إلى الله توبة نصوحاً، ويحاول الإقلاع عن الذنب، ولكنه يكون تمادى فعله الأول متمادياً[٣] لا يقدر

---

(١) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر: البرهان للزركشي (٢/ ٢٠٣ ــ ٢٠٤)، قواعد التفسير (٢/ ٧٨٤).

(٣) أي: أن تأثيره باق مستمر.

على نزعه، فهل يكون تائباً؛ لأنه فعل مقدوره، أو لا يكون تائباً؛ لأنه لم يُقْلِع[(١)]؟ ومن أمثلة هذا عند العلماء: رجل كان مبتدعاً، وبث بدعته في الناس، حتى طار بها أتباعه في مشارق الأرض ومغاربها، وجنوبها وشمالها، وبقوا علىٰ ذلك البدعة، ومعلوم أن من سَنّ سُنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، وأعمال أولئك من ذنوبه؛ لأنه سنّها لهم، والله يقول في رؤساء الضلال الذين يسنون البدع والضلالات: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: آية ١٣]، ويقول فيهم: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: آية ٢٥] هذا المبتدع الذي طارت بدعته في مشارق الأرض ومغاربها، ففسادها منتشر، إذا عرفنا أنه كان مبتدعاً وراجع التوبة، هل نقول: هو تائب توبة مستكملة الشروط؛ لأنه فعل قدر ما يقدر عليه؟ أو نقول: ليس بتائب؛ لأنه لم يقلع؛ لأن شر فعله باق متماد في مشارق الأرض ومغاربها؟ ومن هذا المعنىٰ: إذا غصب الرجل أرضاً نحو عشرين كيلاً مربعاً، ثم ندم على الغصب وأراد أن يخرج منها، لو أدركه الموت وهو ماش خارجاً منها، هل نقول: مات تائباً؛ لأنه فعل قدر ما يستطيع؟ أو نقول: لم يمت تائباً؛ لأنه أخذ الأرض بغير وجه شرعي، ومات وجرمه باق فيها: سالب أرضاً لغيره؟ وكذلك الإنسان، إذا رمىٰ إنساناً بسهم من بعيد، فلما فارق السهم الرمية وتاب وأقلع قبل أن يصيب السهم المرمي، فلو فرضنا أن هذا الإنسان عندما رمىٰ السهم، والسهم في الهواء، وأقلع وتاب إلى الله توبة نصوحاً، فأخذه أحد وقطع رأسه قبل أن يصل السهم إلى المرمي، فنقول: هل مات تائباً؛ لأنه فعل

(١) انظر: الموافقات (١/ ٢٣١)، نثر الورود (١/ ٢١٥).

قدر ما يقدر عليه؟ أو نقول: لم يتب؛ لأنه لم يقلع؛ لأن شر فعله باقٍ متماد؟ ولهذا نظائر كثيرة.

للعلماء في هذا الأخير وجهان، كما هو مقرر في الأصول، وأظهر القولين وأجراهما علىٰ قواعد الشرع: أنه تائب، وأن توبته كاملة؛ لأنه فعل قدر طاقته، وما عجز عنه فهو معفو؛ لأن النبي ﷺ يقول: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»(١). والله يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: آية ١٦] هذا هو الظاهر. وهذا معنىٰ قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ إصلاحه لعمله يأتي بثلاثة أشياء(٢)، إذا تحصلت هذه الأشياء كان عمله صالحاً، وإذا اختلتْ أو واحد منها كان العمل غير صالح.

أولها: أن يكون عمله مطابقاً لما جاء به محمد ﷺ؛ لأن الله مَلِك لا يقبل أن يُتقرب إليه إلا تقرباً مطابقاً لما شرع، والله يقول: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: آية ٢١] ويقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: آية ٧]، ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: آية ٨٠]، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ الآية [آل عمران: آية ٣١] هذا هو الأول من الثلاثة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، حديث رقم: (٧٢٨٨)، (١٣/ ٢٥١)، ومسلم، كتاب الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر، حديث رقم: (١٣٣٧)، (٢/ ٩٧٥)، وفي كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، ورقمه في كتاب الفضائل (١٣٠)، (٤/ ١٨٣٠ ـ ١٨٣١).

(٢) انظر: أضواء البيان (٣/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣).

الثاني: أن يكون العبد الذي جاء بذلك العمل ـ مطابقاً لما جاء به النبي ﷺ، أن يكون ـ فيما بينه وبين الله ـ في نيته التي لا يطّلع عليها إلا الله. أن يكون مخلصاً لله؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: آية ٥]، ويقول: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: آية ١١] فمن عبد بغير إخلاص جاء بما لم يُؤمر به؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: آية ٥].

الثالث: من هذه الأمور الثلاثة: أن يكون ذلك العمل ـ الذي وقع بإخلاص، مطابقاً للشرع ـ أن يكون مبنياً على أساس التوحيد والإيمان الصحيح، والعقيدة الصحيحة؛ لأن العقيدة كالأساس، والعمل كالسقف، فإذا وجد السقف أساساً ثبت عليه، وإن لم يجد أساساً انهار؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: آية ١٢٤] فجعل الإيمان قيداً في ذلك العمل، وبيّن مفهوم قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أن العامل لو كان غير مؤمن فعمله لا فائدة فيه، كما قال في أعمال غير المؤمنين: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: آية ٢٣]، ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ [إبراهيم: آية ١٨]، ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ [النور: آية ٣٩]، وقوله جل وعلا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: آية ١٦] إلى غير ذلك من الآيات، وهذا معنىٰ قوله: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٥٤] على قراءة: ﴿فإنه غفور رحيم﴾[1] فالهمزة مكسورة للاستئناف.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٣ ـ ٥٤) من سورة الأنعام.

وعلىٰ قراءة ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٤﴾ فهو خبر مبتدأ محذوف، وتقرير المعنىٰ: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ﴾ أي: فله غفران الله (جل وعلا)؛ لأن المصدر المنسبك من (أن) وصلتها يُسبك من لفظ باسم المُسْتَقِلَّيْنِ فيها، أي الفعل فمعنىٰ ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٤﴾ فغفران الله، أي: فله غفران الله ورحمته (جل وعلا)، وهذا أظهر الوجهين، واختاره سيبويه، خلافاً لمن قدّره مبتدأ لخبر محذوف؛ لأن حذف المبتدأ أكثر من حذف الخبر. وغلط من قال: إنه معطوف على (أنه) الأولى؛ لأن العطف لا يصح هنا؛ لأن بينهما أداة شرط، ولو قلنا إن (مَنْ) موصولة، وجعلناه معطوفاً، لم يبق هنالك خبر للمبتدإ الذي هو (مَنْ)، فكونه عطفاً على (أن) الأولى لا يصح، وإن غلط فيه جماعة[1].

ومعنىٰ قوله: ﴿غَفُورٌ﴾ أي: كثير المغفرة لعباده ﴿رَّحِيمٌ﴾ يرحم عباده (جل وعلا)، والرحيم: مختص بالمؤمنين في الآخرة، كما بيّناه في البسملة[2]، وكما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: آية ٤٣].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأنعام: آية ٥٥] في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعيات[3]: قرأه من القراء نافع وحده: ﴿ولِتَسْتَبينَ سبيلَ المجرمين﴾ بالتاء في ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾

---

(١) انظر: القرطبي (٦/٤٣٦)، البحر المحيط (٤/١٤١)، الدر المصون (٤/٦٥٠ ـ ٦٥٤).

(٢) انظر: الأضواء (١/٤٠).

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٥، حجة القراءات ص ٢٥٣، تفسير ابن جرير (١١/٣٩٥).

ونَصْبِ (سبيلَ المجرمين)، وعلىٰ هذه القراءة فـ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ تاؤه تاء خطاب والفاعل محذوف لزوماً، تقديره: أنت. وعليه فالمعنىٰ: ولتستبين أنت يا نبـي الله سبيلَ المجرمين.

وقرأه حمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم: ﴿وليستبينَ سبيلُ المجرمين﴾ بالياء وضم (السبيلُ)، علىٰ أن (السبيل) مذكر ﴿وليستبينَ سبيلُ المجرمين﴾ و (السبيلُ) يُذكر ويُؤنث[1]، وتذكيره لغة التميميين وغيرهم من أهل نجد. وعلىٰ لغة التذكير قراءة حمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم في قوله هنا: ﴿وليستبينَ سبيلُ المجرمين﴾ أي: يظهر ويتضح طريق المجرمين. ومن تذكير (السبيل) قوله في الأعراف: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: آية ١٤٦] بتذكير (السبيل).

وقرأ باقي السبعة، وهم: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم، قرأ هؤلاء: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ بالتاء في (تستبين) ورفع (السبيلُ)، على أن ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ فاعل (تستبين) وأن (السبيل) مؤنثة، وتأنيث (السبيل) كهذه القراءة كقوله في سورة يوسف: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف: آية ١٠٨] ولم يقل: هذا سبيلي.

فتحصّل أن قراءة التاء ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ رفع بعدها ـ غير نافع ـ (السبيل) فقالوا: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: لتظهر وتتضح طريق المجرمين. والتاء في قراءة هؤلاء: هي تاء المؤنثة، كما

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٩٦)، القرطبي (٦/ ٤٣٧)، الدر المصون (٤/ ٦٥٥)، بصائر ذوي التمييز (٣/ ١٨٥).

تقـول: «تستبين هنـد وتقوم فلانـة». و «تستبيـن السبيـل» على أنهـا مؤنثة.

أمـا علىٰ قراءة نافـع: فالتاء في (تستبين) تاء خطاب ليست تاء تـأنيـث، والفـاعـل غيـر (السبيـل)، مضمـر، أي: ولتستبيـن أنـت يا نبـي الله سبيلَ المجرمين.

و (استبان) تأتي لازمة ومتعدية[1]، (استبان) و (أبان) و (تبيّن) هذه الأفعال الثلاثة من المزيد من (بان) تأتي في لغة العرب لازمة ومتعدية، أما (استبان) فقد جاءت لازمة على قراءة الجمهور، مَنْ قرؤوا: ﴿وليستبينَ سبيلُ المجرمين﴾ ومَنْ قرؤوا ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ على قراءتهم كلهم فـ (تستبين) هنا لازمة، و (سبيل المجرمين) فاعل، ولا مفعول للفعل، أما علىٰ قراءة نافع: ففعل الاستبانة هنا متعد إلىٰ المفعول؛ لأن المعنىٰ: ولتستبينَ أنت سبيلَ المجرمين، أي: تتبينها وتعرفها. فهاتان القراءتان فيهما مثال للزوم (استبان) ولتعديها.

ونحو (استبان): (أبان) و (بيّن) فالعرب أيضاً تستعمل (أبان) لازمة، تقول: «أبان هذا الأمر واتضح». بمعنىٰ: ظهر. وتستعملها متعدية للمفعول، تقول: «أبان زيد كلامه، وأبان الله الأمر الفلاني». كما هو معروف، ومن إتيان (أبان) لازمة: يكثر في القرآن اسم فاعلها ﴿ كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: آية ٥٩] و (الكتاب المبين) هو من (أبان) اللازمة. ومن إتيان فاعل (أبان) اللازمة: قول كعب بن زهير في بانت سعاد[2]:

---

(١) انظر: الدر المصون (٤/ ٦٥٥)، الأضواء (٦/ ٢٢٤).

(٢) شرح قصيدة كعب بن زهير، لابن هشام ص ٢١٠.

قنواءُ في حَرَّتيها للبصير بها عتقٌ مبينٌ وفي الْخَدينِ تَسْهيلُ

(مبين): اسم فاعل (أبان) اللازمة، بمعنىٰ: بيّن ظاهر. ومن إتيان (أبان) لازمة: قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي[(١)]:

لو دبَّ ذرٌّ فوقَ ضاحي جِلْدِها لأبان من آثارهن حُدورُ

يعني: لظهر من آثار النمل حُدور، أي: ورم. و (أبان) لازمة، وفاعلها: الحدور، ولا مفعول لها، ومنه قول جرير[(٢)]:

إذا أباؤُنَا وأبوكَ عُدُّوا أبان المُقْرِفَاتِ[(٣)] من العِرَاب[(٤)]

أي: ظهر وتبين المقرفات من العِراب، وكذلك (بَيَّن) تأتي لازمة في كلام العرب، ومنه المثل: (قد بَيَّنَ الصبحُ لذي عينين)[(٥)] معناه: بيّن الصبح، أي: بان وظهر وتبين. ومنه بهذا المعنىٰ قول قيس بن ذُريح في رواية الجمهور[(٦)]:

وللحُبِّ آياتٌ تَبَيَّنُ بالفتى شحوبٌ وتعرىٰ من يديه الأصابع[(٧)]

فرواية الجمهور، فيمن روىٰ بيت ابن ذُريح هذا يرويه:

---

(١) البيت في اللسان (مادة: بين) (١/ ٣٠٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٣) جمع (مُقْرِف) وهو من الفرس وغيره: ما يُداني الهُجْنَة، أي أُمه عربية لا أبوه. انظر: القاموس (مادة: القِرْف) ص ١٠٩١.

(٤) العراب: هي التي عتقت وسلمت من الهُجنة. انظر: القاموس (مادة: العُرب) ص ١٤٥.

(٥) انظر: الأمثال لأبي عبيد ص ٥٩، معجم الأمثال العربية (٣/ ٢٦٠).

(٦) البيت في اللسان (مادة: بين) (١/ ٣٠٢).

(٧) في اللسان: الأشاحم.

(شُحوبٌ) بالضم، والمعنىٰ: وللحب آيات تبين بالفتى، أي: تظهر وتلوح بالفتىٰ. ما هذه الآيات؟ شحوب وتعرى من يديه الأصابع. وروىٰ بيت ابن ذريح هذا ثعلب، رواه ثعلب:

وللحب آياتٌ تُبيِّنُ بالفتىٰ شحوباً ....

بالنصب[1] وعلى هذه الرواية فلا شاهد في البيت. ومن إتيان (بيّن) لازمة قول جرير[2]:

رأى الناسُ البصيرة فاستقاموا وبيَّنَت المراضُ من الصحاح

يعني: ظهرت وتبينت. وقوله يهجو الفرزدق[3]:

وجُوه مُجاشع طُليت بلؤمٍ يبين في المُقلد والعذار

ومعنىٰ الآية الكريمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ وكذلك التفصيل الذي فصلنا لك فيه آيات هذه السورة الكريمة مما كنا نُفَصِّل، كذلك التفصيل والبيان الواضح نُفصل آيات القرآن في كل ما يحتاج إليه الخلق من أمور دينهم وفي كل إبطال المقالات الباطلة التي يأتي بها الخصوم ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: آية ٣٣].

وقوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ ــ على قراءة الجمهور من (استبان) اللازمة ــ معناه: ولتظهر طريق المجرمين، و (المجرمون) جمع (المجرم)، و (المجرم): اسم فاعل (الإجرام)، و (الإجرام): ارتكاب الجريمة، و (الجريمة): الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) ديوان جرير (١/ ٩٠)، الأضواء (٦/ ٢٢٥).

(٣) ديوان جرير ص ١٤٦، الأضواء (٦/ ٢٢٥).

النكال، تُستعمل مادته رباعية وثلاثية، تقول: «أجرم»، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ [المطففين: آية ٢٩] وتقول: «جرم الذنب، فهو جارم»، ففاعل الثلاثية: (جارم) علىٰ القياس، وفاعل الرباعية (مجرم) علىٰ القياس، ومن إطلاقه ثلاثياً قول الشاعر(١):

ونَنْصُرُ مولانَا ونَعْلَمُ أنَّه كما الناسِ مَجْرومٌ عليه وجَارِمُ

لأن (المجروم) و (الجارم) اسم مفعول، واسم فاعل لجرم الثلاثية إذا ارتكب الجريمة(٢).

وقوله هنا: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: ولتظهر طريق المجرمين، وعلىٰ قراءة نافع: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ لتستبين يا نبي الله طريق المجرمين وتتبينها وتعلمها. والنبي وإن كان عالماً بسبيل المجرمين فإنه يشرع على لسانه لأمته، فيخاطب ليشرع على لسانه لأمته كما بيّنا(٣).

وفي هذه الآية الكريمة سؤالان معروفان:

أحدهما: في الواو، واو ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ علامَ عطف، وبمَ يتعلق(٤)؟

الثاني: لم خَص سبيل المجرمين، ولم يذكر سبيل المؤمنين(٥)؟

---

(١) البيت لعمرو بن براقة، وهو في الأمالي (٢/ ١٢٢).

(٢) انظر: اللسان (مادة: جرم) (١/ ٤٤٥)، المصباح المنير (مادة: جرم) ص ٣٨.

(٣) انظر: القرطبي (٦/ ٤٣٧)، البحر المحيط (٤/ ١٤١)، وانظر: ما سيأتي عند تفسير الآية (٩٠) من هذه السورة.

(٤) المصدران السابقان، الدر المصون (٤/ ٦٥٦).

(٥) المصادر السابقة.

الجواب عن الأول: أن الواو في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ تتعلق بمحذوف، واختلفوا في تقديره، قال بعضهم: هو مُقدر بعدها وتقرير المعنىٰ: ولأجل أن تستبين سبيل المجرمين فصلنا لك هذا التفصيل. أي: ولأجل استبانتها فصلنا. وقال بعض العلماء: هو معطوف على علّة محذوفة، فدل المقام عليه: وكذلك نفصل الآيات لنبين لكم، ولتستبين سبيل المجرمين.

أما الجواب عن السؤال الثاني: وهو لِمَ خص سبيل المجرمين؟ فللعلماء عنه جوابان:

أحدهما: أن سبيل المجرمين إذا عُرفت عُرفت منها سبيل المسلمين؛ لأن الأشياء تُعرف بأضدادها، وإذا عرف الإنسان الشر عرف أن مقابله هو الخير، وكان حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) ـ كما ثبت عنه في الصحيحين ـ يسأل عن الشر ليعرفه، ومعرفة الشر على هذا طيبة يعلمها الناس ليتجانبوها ويعلموا أن ما سواها هو الخير، كما ثبت في الصحيحين عن حذيفة (رضي الله عنه): كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني[1].

قال بعض العلماء: في الآية هنا حذف الواو وما عَطَفَت، أي:

---

(١) أخرجه البخاري مختصراً، كتاب مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارة، حديث رقم: (٥٢٥)، (٨/٢)، وأخرجه في مواضع أُخرى. انظر: الأحاديث (١٤٣٥، ١٨٩٥، ٣٥٨٦، ٧٠٩٦)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، حديث رقم: (١٨٤٧)، (٣/ ١٤٧٥).

لتستبين سبيل المجرمين وسبيل المؤمنين. قالوا: ومنه ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: آية ٨١] أي: والبرد ﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: آية ١٣] أي: [وما تحرك][1]، وحَذْف الواو وما عَطَفت إن دل المقام عليه معروف في كلام العرب، وإليه أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله[2]:

والفَاءُ قد تُحذف مع ما عَطَفَتْ والـواوُ إذْ لا لَـبْسَ . . . .

يعني: وكذلك الواو تُحذف مع ما عَطَفَت كالفاء إن لم يكن هنالك لبس.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٥٦ ـ ٥٩].

يقول الله جل وعلا: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام: آية ٥٦].

---

(١) في الأصل: «والنهار». وهذا سبق لسان أو وهم من الشيخ ـ رحمه الله ـ لأن النهار مذكور في الآية. وإنما الذي يذكره العلماء عند هذه الآية هو ما أثبته أعلى، والله أعلم. انظر: قواعد التفسير (١/ ٣٧٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من هذه السورة، وبقية البيت: «وهي انفردت».

كان الكفار يقولون للنبي ﷺ: اعبُد معنا آلهتنا مرة، ونعبد معك إلهك مرة أُخرىٰ!! فأمر الله نبيه أن يقول لهم: إنه لا يعبد ما يدعون من دون الله، قل لهم يا نبي الله: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ أي: نهاني ربي ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ والمعنىٰ: نهاني أن أعبد الأصنام التي تعبدونها من دون الله، والمصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ مجرور بحرف محذوف، لأن (نهىٰ) تتعدىٰ بـ(عن) تقول: «نهاني ربي عن كذا». كما تقدم في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: آية ٢٦] لأن (نهىٰ) تتعدىٰ بـ(عن)، والمصدر المنسبك من (أن) وصلتها يَطَّرد جره بحرف الجر المحذوف، كما هو معروف[(١)]، وتقرير المعنىٰ: نهاني ربي عن أن أعبد الذين. وسَبْك المصدر: نهاني ربي عن عبادة الذين تدعون من دون الله، وهذا نهي عظيم، ومعلوم أن النبي ﷺ لا يعبد شيئاً من دون الله؛ إلا أن الله يأمره وينهاه ليشرع على لسانه لأمته.

إذا عرفتم أن المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ﴾ مجرور بـ(عن) محذوفة، فاعلموا أن علماء العربية مختلفون في المصدر المنسبك من (أن) وصلتها المجرور بحرف محذوف، هل محله الجر أو محله النصب[(٢)]؟ وفائدة هذا الخلاف تظهر فيما لو عَطَفَت عليه اسماً خالصاً، فعلىٰ أن محله النصب ينصب المعطوف بعده، وعلىٰ أن محله الخفض يخفض المعطوف عليه، وكبراء النحويين ــ منهم الخليل والكسائي فمن حاذاهم ــ يقولون:

---

(١) انظر: الدر المصون (٤/ ٦٥٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

إن محله النصب، وخالفهم في هذا الأخفش الصغير علي بن سليمان النحوي المشهور ـ قال: محله الخفض؛ لأنه مخفوض بالحرف المحذوف. قال: والدليل علىٰ ذلك أنّا وجدنا في كلام العرب الفصحاء خفض المعطوف عليه، كقول الشاعر[١]:

وما زُرْتُ ليلىٰ أن تكون حبيبةً إلـيَّ ولا دَيْـنٍ بهـا أنـا طـالبـهُ

فالرواية: «ولا دَينٍ» بالخفض وهو معطوف علىٰ مصدر مُنْسَبِك من (أن) وصلتها، مجرور بحرف محذوف، وهو: «أن تكون» في قـولـه: «ومـا زرتُ ليلـىٰ أن تكـون حبيبـة» أي: لكـونهـا حبيبـة، ولا لِدَين. وقد أجاز سيبويه الوجهين، واحتج جماهير النحويين عن هذا البيت ـ الذي أنشده الأخفش مدعياً به أن المصدر المنسبك من «أن» وصلتها المجرور بحرف محذوف، أن محله الخفض ـ أجابوا عن ذلك: بأن محله النصب، وأن خفض «ولا دَيْن» ـ بالجر ـ أنه من نوع العطف المعروف بعطف التوهم، وعطف التوهم معروف عند النحويين، وهو أن تكون الكلمة منصوبة أو مرفوعة، إلا أنها يجوز فيها أن تُجر فيتوهمون أنها مجرورة، يتوهمون الوقوع من مطلق الجواز، ويعطفون عليها بالجر، ومنه قول زهير وهو عربـي قح جاهلي[٢]:

بَدَا لِيَ أَنِّي لستُ مُدْرِكَ ما مضى ولا سـابـقٍ شيئـاً إذا كـان جـائيـاً

فإن الرواية بنصب (مُدركَ)، وخفض (سابقٍ)؛ لأن «لستُ مدرك ما مضىٰ» يجوز جره بالباء؛ لأن خبر ليس يجوز جره بالباء،

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

فتوهموا أنها مجرورة من جواز دخول الباء عليها، فعطف عليها بالجر، ونظيره قول الآخر[١]:

مشائيمُ ليسُوا مُصلحين عشيرةً ولا ناعبٍ إلا بِبَيْن غُرابُها

فعطف (ناعب) بالجر علىٰ (مصلحين) وهو منصوب لتوهم دخول الباء.

وقوله جل وعلا: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ﴾ أي: نهاني ربي عن عبادة الأوثان، والأصنام، والمعبودات التي تعبدونها من دون الله؛ لأن الله يقول لنبيه في هذا المنوال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ﴾ أي بل الله وحده ﴿فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: الآيتان ٦٥، ٦٦]. هذا معنىٰ قوله: ﴿إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون من دون الله (جل وعلا) من جميع أنواع العبادات، قل لهم يا نبي الله: ﴿لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ الأهواء: جمع (هَوَى)، بفتحتين، و (الهوىٰ): ميل النفس، وأكثر ما يطلق في الشرع: إلىٰ ميلها إلى ما [لا][٢] ينبغي[٣]. و(الهوىٰ): هو ميل النفس إلى ما لا ينبغي هنا. فـ ﴿أَهْوَآءَكُمْ﴾ يعني: مهوياتكم التي تميل إليها نفوسكم باتباع الهوىٰ والباطل، كما قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) انظر: المفرادت (مادة: هوى) ص ٨٤٩، المصباح المنير (مادة: هوى) ص ٢٤٦، جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٣٨)، الدر المصون (٤/ ٤٩٩)، الكليات ص ٩٦٢.

آية ٢٣] وهمزة (الأهواء) مبدلة من (ياء)، علىٰ القياس المعروف: أن كل واو أو ياء تطرفت بعد ألف زائدة وجب إبدالها همزة. وأصل الهوىٰ: (هَوَيٌ) بفتحتين[١]. والمادة مما يسميه علماء الصرف: اللفيف المقرون[٢]. عينها واو، ولامها ياء، قُلبت الياء في محل اللام ألفاً، فقيل لها: «هوىٰ» وأُبدلت عند التكسير همزة، كما هو معروف في فن الصرف[٣]، والمعنىٰ: لا أتبع أهواءكم الباطلة في عبادة الأصنام والإشراك بالله (جل وعلا)؛ لأني لا أتبع الهوىٰ، ولا أتبع إلا الحق، كما يأتي في كونه على بينة من ربه. وهذا من جملة ما أمره ربه أن يقول.

﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ قُرِىء بإدغام الدال في الضاد ﴿قد ضَّللت إذاً﴾ وقرأه بعض السبعة بالإظهار[٤] ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾. ﴿إِذًا﴾ معناه: إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت ولم أكن من المهتدين. والمعنىٰ: لا أضل، ولا أخرج عن طريق الهدىٰ، ولا أتبع أهواءكم أبداً.

وهذه الآية تدل علىٰ أن من اتبع هواه بغير علم ولا دليل أنه ضال، وأنه ليس من المهتدين.

---

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٤٧٨، التوضيح والتكميل (٢/ ٤٨٢).

(٢) انظر: الكليات ص ٧٩٨.

(٣) انظر: شرح الكافية (٤/ ٢١٢٩ ـ ٢١٣٠)، الدر المصون (١/ ٤٩٩)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٢٧١، التوضيح والتكميل (٢/ ٤٨٢).

(٤) انظر: النشر (٢/ ٣).

/ ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٥٧]. [٦/أ]

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ لما أمر الله نبيه ﷺ أن يقول للكفار: إنه لا يعبد معبوداتهم، ولا يتبع أهواءهم، وأنه لو فعل ذلك كان ضالاً غير مهتد، أمره أن يقول لهم: إنه على بينة من أمره ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ البينة: هي البيان والدليل القاطع، الذي لا يترك في الحق لبساً[1]. وأصله صفة مشبهة من (بان يَبِينُ)، إذا ظهر، فهو (بيّنٌ). وإنما أُنثت (البينة) لأنها كأنها تُضَمَّن معنىٰ الحجة الواضحة التي يعضدها الدليل القاطع، الذي لا يترك في الحق لبساً ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي: بيان، وبرهان، وعلم، ويقين من ربي، وليس لي في الحق شك معه، وهذا معروف في كلام العرب، كل أمر واضح لا يترك في الحق لبساً يسمونه: (بينة)؛ ولأجل هذا أُطلقت (البينات) على معجزات الرسل ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف: آية ١٠١] أي: بالمعجزات؛ لأنها لا تترك في الحق لبساً. وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[2]:

أَبَيِّنَةً تَبْغُونَ بعدَ اعْتِرَافِهِ وقَولِ سُويدٍ: قد كَفَيْتُكُمْ بِشْرا

يعني: هذا أمر واضح في البيان، لا يُحتاج معه إلى ما يبين الحقيقة.

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٣٩٧)، القرطبي (٦/ ٤٣٨)، المفردات (مادة: بان) ص ١٥٧.

(٢) البيت في ابن جرير (١١/ ٣٩٨).

وقوله: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ ذكَّر الضمير مع أن (البينة) مؤنثة لفظاً نظراً إلى المعنىٰ؛ لأن (البينة) معناها البيان والبرهان واليقين ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: ذلك البرهان واليقين الذي أنا عليه، المُعبر عنه بالبينة، وهذا هو الظاهر، خلافاً لمن قال: إن الضمير عائد إلىٰ الله، أي: كذبتم بالله (جل وعلا) أنه المعبود وحده جل وعلا[١].

﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ كان الكفار يقولون للنبي ﷺ: هذا الذي تهددنا به من عذاب الله، إن كنت صادقاً، إن كنت نبياً فعجله علينا الآن[٢]. كما بيّن الله ذلك عنهم في آيات من كتابه، كقوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: آية ١٦] والقِط في لغة العرب: أصله كتاب الجائزة الذي يكتبه الملك[٣]. فالملك إذا أراد أن يُجيز الوفود كتب لكل رئيس جائزة معينة في صكّ، وذلك الصكّ يُسمىٰ: (القِط). وعليه فقولهم: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ معناه: عَجِّل لنا نصيبنا من مَلِك السماوات والأرض الذي تقول إنه نصيبنا منه، وهو العذاب في الدنيا والآخرة، كما قال الشاعر، وهو نابغة ذبيان[٤]:

(١) انظر: القرطبي (٦/٤٣٨)، البحر المحيط (٤/١٤٢)، الدر المصون (٤/٦٥٧).

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي ص ٢١٩.

(٣) انظر: اللسان (مادة: قطط) (٣/١١٧).

(٤) البيت للأعشىٰ، وهو في ديوانه ص ١١٨، ولفظه في الديوان:

وَلاَ المَلِكُ النعمانُ يَوْمَ لَقِيتَه ... بِإمّتِهِ يُعْطِي القُطُوطَ ويَأفِقُ

وقوله: (بإمته) أي: نعمته.

ولا الملكُ النعمانُ حينَ لَقِيتَه على مُلكه يُعطي القُطُوط ويأْفِقُ

ومعنىٰ (يأفق) أي: يفضل في العطاء بعضهم علىٰ بعض ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ [الأنفال: آية ٣٢]، ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ [هود: آية ٨] أيّ شيء يحبس العذاب ويؤخره، ولِمَ لا تعجله؟ والله يقول: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [العنكبوت: آية ٤٥]، ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: آية ١٨] ونحو ذلك من الآيات الدالة علىٰ استعجالهم العذاب[1]، وقالوا له: إن كنت نبياً حقاً فعجّل لنا العذاب الذي تهددنا به، فأمره الله أن يقول لهم ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ (ما) وهو الاسم المبهم الموصول واقعة على العذاب، والمعنىٰ: ليس بيدي العذاب الذي تطلبون استعجاله عليكم ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: آية ١٦] ليس بيدي، وإنما هو بيد الله وحده.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝٥٧﴾ قرأ هذا الحرف قارىء أهل المدينة، وقارىء أهل مكة ـ أعني: نافعاً، وابن كثير ـ وقرأ معهما عاصم من الكوفيين، هؤلاء الثلاثة من القراء السبعة ـ أعني: نافعاً، وابن كثير، وعاصماً ـ قرؤوا: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ بضم القاف، وصاد مهملة مضمومة. وقرأ باقي السبعة ـ وهم: أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي ـ قرؤوا: ﴿يقْضِ الحق﴾ بسكون القاف والضاد المكسورة[2].

---

(١) انظر: أضواء البيان (٢/ ١٩٤، ٤٩٠)، (٣/ ٧٨)، (٥/ ٧١٦)، (٧/ ٢٣).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٥.

وعلىٰ قراءة الحَرَمِيَّيْن وعاصم ـ أعني: نافعاً، وابن كثير، وعاصم ـ فمعنىٰ: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يتلو علينا في كتابه الحق الواضح، الذي لا لَبْسَ فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: آية ٣] وعلىٰ هذا فإعراب (الحق) واضح؛ لأنها مفعول به لـ (يقص).

وأما على قراءة البصري والشامي والاثنين من الكوفيين[1] ﴿يقضِ الحق﴾ ففي إعراب (الحق) إشكال، وبِمَ نُصبت؟ وفي إعرابه للعلماء ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه نعت لمصدر محذوف، أي: ما ناب عن المطلق. والمعنىٰ: يقضي القضاء الحق، الذي لا جور فيه، ولا حيف.

الثاني: أنه منصوب بنزع الخافض. أي: يقضي بالحق، فحُذف حرف الجر فنُصب الاسم. ومما يدل علىٰ هذا قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ [غافر: آية ٢٠].

الوجه الثالث: أن (يقضي) معناه: يصنع. أي: يصنع الحق؛ لأن كل أعماله التي يعملها، من تشريع وإثابة، وعقاب، كله حق واقع موقعه منه (جل وعلا). والعرب تُطلق (القضاء) وتريد (الصُّنْع) وهو معنىٰ معروف في كلام العرب[2]، ومنه قول أبي ذؤيب

---

(١) البصري: أبو عمرو، والشامي: ابن عامر، والكوفيان هنا: حمزة والكسائي.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٤٣)، الدر المصون (٤/ ٦٥٧ ـ ٦٥٩).

الهذلي[١]:

وعليهما مَسْرُودتان قَضَاهُما داودُ أو صَنَعُ السوابِغِ تُبَّعُ

قضاهما: يعني صنعهما.

وقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (إن) هي النافية، والألف واللام في (الحكم) هي للاستغراق، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب[٢]؛ لأن سبب نزول الآية في الحكم الكوني القدري، حيث قالوا له: عجل لنا العذاب، وأنزل علينا الآيات. فأخبرهم الله أن ذلك الحكم الكوني القدري من تعجيل العذاب وإنزال الآيات إنما هو لله وحده، هو الذي بيده ذلك، وعموم الآية يقتضي أن الحكم من حيث هو: هو لله (جل وعلا) وحده، كذلك الحكم الشرعي له وحده. ويدل على دخول الحكم الشرعي: أنه قال في الآية: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝٥٧﴾ لأن (الفاصلين) جمع (الفاصل)، وهو الذي يفصل الخصوم، وينصف بينها، ويُحقِّق الحق بينها. ولا شك أن الحكم من حيث هو حكم سواء كان شرعياً أو قدرياً فإنه لله وحده، فالأحكام القدرية له، لا يقع تحريك ولا تسكين، ولا خير ولا شر، ولا شيء كائن ما كان إلا بحكمه (جل وعلا) وقدرته ومشيئته. وكذلك الأحكام الشرعية، لا تشريع لأحد، ولا تحليل لأحد إلا له (جل وعلا) وحده، فالحلال ما أحلّه الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله؛ لأنه من المعلوم أنه لا تشريع إلا للسلطة العليا،

(١) البيت في البحر المحيط (٤/ ١٤٣)، الدر المصون (٢/ ٨٦).

(٢) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه (٣/ ١٩٨، ٢١٠، ٢٢٠)، شرح الكوكب المنير (٣/ ١٧٧)، قواعد التفسير (٢/ ٥٩٣).

والسلطة الحاكمة على السماوات والأرض هي التي لها الأمر والنهي والتشريع. فالتشريع لرب العالمين ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾ [غافر: آية ١٢] ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٥٧] ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦﴾ [الكهف: آية ٢٦] فالحاكم هو الله، والتشريع تشريع الله، والنبي ﷺ مُبلّغ عن الله شرعه لخلقه، والمشرع هو الخالق جل وعلا.

ويُفهم من هذا أن من زيَّن له الشيطان أن يكون مُشرِّعاً يُحلل ويُحرم، ويضع النُّظم والقوانين ليُحكّمها في دماء الناس وأموال الناس وأعراضهم وعقولهم: أن هذا متمرد على نظام السماء، يُحاول أن يجعل لنفسه خصوصية خالق السماوات والأرض، عُتواً وتمرداً علىٰ الله، فهو كافر، وقد دلّ القرآن العظيم في آيات كثيرة أن من يتبع نظماً وقوانين وضعية شرّعها الشيطان علىٰ ألسنة أوليائه مُدعياً أن تشريع خالق السماوات والأرض لا يصلح لتنظيم العالم، ولا يُساير التطور، فمن يرىٰ هذا، ويرىٰ نظام إبليس هو الذي يقوم بمصالح البشر، ونظام خالق السماوات والأرض ـ الذي خلق هذا الكون وهو أعلم بمصالحه ـ أنه لا يُساير التطور، ولا ينظم علاقات الدنيا علىٰ الوجه الذي ينبغي: فهذا لا شك بين أهل العلم في أنه كافر كفراً بواحاً مخرجاً عن دين الإسلام[1]، والآيات القرآنية الدالة علىٰ هذا كثيرة جداً، من ذلك ما بيناه مراراً: أن إبليس عليه لعنة الله، لما جاء تلامذته وإخوانه من أهل مكة، وأراد أن يُهيىء لهم وحي الشياطين ليجادلوا به النبي ﷺ، قال لهم: سلوا محمداً

(١) انظر: الأضواء (٧/ ١٦٢).

عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ فلما أخبرهم أن الله هو الذي قتلها، قالوا له من وحي الشيطان: ما ذبحتموه بأيديكم ـ يعنون المذكاة ـ تقولون: حلال، وطاهر، وطيب، مستلذ، وما ذبحه الله بيده الكريمة ـ يعنون الميتة، أن الله قتلها ـ تقولون: هو حرام، ميتة، مستقذر، فأنتم إذاً أحسن من الله!! وأنزل الله في وحي الشياطين جواباً لنبيه عنه[1] قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] يعني الميتة، وإن زعم أولياء الشيطان أنها ذبيحة الله، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي: وإن أكل الميتة لفسق، وخروج عن طاعة الله، ثم قال ـ وهو محل الشاهد ـ ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾ وإن أطعتموهم في تحليل الميتة إنكم لمشركون.

اعلم أن تحليل الميتة وتحريمها ليس عقيدة من العقائد، ولا أصلاً من الأصول، وإنما هو فرع من الفروع. مضغة لحم شرّع الله علىٰ لسان نبيه تحريمها؛ لأنها ماتت ولم يُذكر عليها اسم الله، وشرّع إبليس علىٰ لسان أوليائه تحليلها، فهذا نظام إبليس، وهو تحليل الميتة، وهذا نظام خالق السماوات والأرض الذي شرعه على لسان نبيه. الله يقول: هذه ماتت حتف أنفها، ولم تُذَك ولم يُذكر اسم الله عليها. والشيطان يُشرّع بفلسفته ويقول: هذه ذبيحة الله، وما ذبح الله أطهر وأحل مما ذبحتموه بأيديكم، والله يقول بالمقارنة بين تشريع الشيطان وتشريع الله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾ إن أطعتموهم في تحليل الميتة الذي هو تشريع إبليس، تاركين تحليل وتشريع الله

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٧٧ ـ ٨٢) الأضواء (٧/ ١٦٩)، وسيأتي تخريجه عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

ـ وهو تحريمها ـ إنكم لمشركون.

وهذه الآية الكريمة من سورة الأنعام هي عند علماء العربية[(١)] مثال لحذف لام توطئة القسم، قالوا: والأصل: (ولئن أطعتموهم) فحُذفت اللام الموطئة للقسم. قالوا: والقرينة علىٰ لام القسم: أنه لو كان الشرط وحده ليس معه قَسَم لاقترنت الجملة بالفاء، لقال: «وإن أطعتموهم فإنكم لمشركون» فلمّا لم تقترن بالفاء علمنا أن عدم اقترانها بالفاء لأنها جواب القسم المقدر المحذوفة لامه، لقرينه عدم الفاء؛ ولأن الشرط إذا جاء معه القسم ـ يكون القسم قبله ـ ويكون الجواب والقسم، ويُحذف جواب الشرط، كما هو معروف في علم النحو[(٢)].

وإذا تقرر هذا، فقد أقسم الله ـ كما قلنا ـ في هذه الآية الكريمة على أن من أطاع الشيطان واتبع تحليله مخالفاً لتشريع الله أنه مشرك، وهذا الشرك شرك ربوبية؛ لأن التشريع، والأمر، والنهي للرب الخالق، فالشيطان أراد أن يشارك الله في السُلطة العليا، والأمر والنهي، فمن اتبعه فكأنه جعله رباً، وهذا الشرك في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ هو شرك أكبر مخرج عن ملة الإسلام، وسيوبخ

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢١٣)، الدر المصون (٥/ ١٣٢)، الأضواء (٧/ ١٧٠).

(٢) المراد: أنه إذا اجتمع شرط وقسم، وكان القسم سابقاً على الشرط، فالجواب للقسم، وجواب الشرط يكون محذوفاً؛ لأن الجواب في هذه الحالة للسابق منهما. انظر: البحر المحيط (٤/ ٣٤٥)، ضياء السالك (٤/ ٥٣)، التوضيح والتكميل (٢/ ٣٢١)، النحو الوافي (٤/ ٤٨٦)، الدر المصون (٥/ ٣٨٥).

الله مرتكبه على رؤوس الأشهاد، كما بيّنه الله في سورة يس في قوله: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] عبادتهم للشيطان التي عهد الله إليهم في دار الدنيا النهي عنها ليس معناها أنهم يسجدون للشيطان، ولا يركعون له، ولا يصومون، ولا يصلون له، وإنما هو اتباعهم تشاريعه ونظمه، تاركين تشريع الله ونظامه؛ ولذا قال: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ واتبعوا تشريعي ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: الآيتان ٦٠، ٦١] ثم بيّن (جل وعلا) كثرة من اتبع نظام الشيطان واختار تشريعه ودينه عن تشريع الله، وبيّن مصيرهم، قال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: آية ٦٢] أليست عندكم عقول تعلمون أن التشريع هو تشريع الله الذي خلقكم فتمتثلوا أوامره، وتجتنبوا نواهيه، وتتركوا تشريع الشيطان؛ لأن كله كفر ومعاص ــ والعياذ بالله ــ ثم بين مصير من كان يتبع نظام الشيطان ويترك نظام الله فقال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: الآيتان ٦٣ ــ ٦٥] إلىٰ آخر الآيات؛ ولأجل هذا المعنىٰ قال نبي الله إبراهيم الخليل الذي قال له الله: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: آية ١٢٤] وشهد له في قوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: آية ٣٧]، وبقوله له: ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: آية ١٢٤]، قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: آية ٤٤] عبادته للشيطان التي ينهاه عنها ليست السجود له، ولا الركوع، ولا الصيام، وإنما هي اتباع نظامه من عبادة الأصنام،

ومعاصي الله (جل وعلا)؛ ولذا قال تعالىٰ: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: آية ١١٧] يعني: لا يعبدون إلا الشيطان؛ لأن اتباعهم لتشريعه ونظامه وتركهم تشريع الله ونظامه هو عبادتهم له؛ ولذا سمى الله (تبارك وتعالىٰ) في هذه السورة ـ سورة الأنعام ـ سمى فيها الذين يُطاعون في معاصي الله، سماهم (شركاء) حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٣٧] فسماهم (شركاء) لمَّا زينوا لهم الحرام واتبعوهم فيه. وقد صح عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه سأل النبي ﷺ عن آية التوبة ـ وكان عدي هذا نصرانياً ـ قال له: يا نبي الله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣١] كيف اتخذوهم أرباباً؟ يعني أنهم لم يسجدوا، ولم يركعوا لهم، ولم يصوموا لهم. قال له ﷺ: **«ألم يُحلوا لهم ما حرم الله، ويحرموا عليهم ما أحل الله، فاتبعوهم؟»** قال: بلىٰ. قال: **«بذلك اتخذوهم أرباباً»**[1].

---

(١) أخرجه الترمذي، في التفسير، باب: ومن سورة التوبة، حديث رقم: (٣٠٩٥)، (٥/٢٧٨)، وعقَّبه بقوله: «هذا حديث غريب لا نعرفه! إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغُطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث». اهـ.

كما أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٧/١٠٦)، والطبراني في الكبير (١٧/٩٢)، والبيهقي في السنن (١٠/١١٦)، وابن جرير (١٤/٢٠٩ ـ ٢١١)، وقال عنه شيخ الإسلام (وهو حديث حسن طويل) (الإيمان ص ٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣/٥٦)، وغاية المرام ص ١٩، والحديث له شواهد يتقوى بها، والله أعلم.

وهو نصٌّ في أن من يتبع تشريع الشيطان تاركاً تشريع الله، أنه اتخذ الشيطان رباً، ومعنىٰ هذا واضح؛ لأن الأمر والنهي والتحليل والتحريم لا يكون إلا للأعظم الذي بيده كل شيء، فإذا جعله لغير الله فقد أعطي منصب الربوبية الكامل لغير الله (جل وعلا)، وجعله رباً غير الله، وبيّن الله (تعالى) في سورة النساء أن الذي يريد أن يُحَكِّم قوانين الشيطان دون نظام الله، ويَدَّعي مع ذلك أنه مؤمن، أن دعواه هذه كاذبة بعيدة، تستحق أن يُتعجب منها، والآية التي بيّن الله بها هذا هي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: آية ٦٠] والتحاكم إلىٰ الطاغوت يشمل كل تحاكم إلىٰ غير ما أنزله الله، فقوله: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ صيغة يُعجِّب الله بها نبيه، يقول: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ كيف يزعمون الإيمان، ومع ذا يريدون التحاكم للطاغوت، فهذا شيء لا يجتمع!! ولذا عجَّب الله منه نبيه.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ فالواقع أن خالق السماوات والأرض له الحكم كله، له الحكم الكوني القدري، وله الحكم الشرعي، فهو الذي يفعل ما يشاء، ولا يكون خيراً ولا قدراً إلا ما شاءه جل وعلا. وكذلك له الحكم الشرعي، فهو الذي يأمر، وهو الذي ينهىٰ، وهو الذي يُحلل، وهو الذي يُحرم، فالحلال ما أحلّه الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، فليس لأحد تحليل ولا تحريم، ولا شرع دين ولا نظام. وقد بينّا أن من ادعىٰ أنه يملك هذه السلطة ــ وهي سلطة التشريع ــ أنه جعل نفسه له أن يأخذ حقوق الله الخالصة له؛ لأجل ربوبيته فيجعلها لنفسه.

وهذا الذي ذكرنا ـ أن اتباع نظام إبليس، وترك نظام خالق السماوات والأرض ـ أنه كفر، قد بينا في هذه الدروس مراراً أن النظم ليست كلها على وتيرة واحدة، بل هي نوعان: نظام إداري، ونظام شرعي.

أما النظام الإداري الذي لا يخالف نصوص الشرع، بل قد تشهد أصول الشرع للمصلحة فيه، فهذا ليس أحد يقول: إنه كفر، ولا حرام، والصحابة (رضي الله عنهم) جعلوا بعد النبي ﷺ أشياء كثيرة من هذا، ولم يقع بينهم فيها خلاف، بينّا بعض أمثلتها، من ذلك أنه في زمن النبي ﷺ وزمن أبي بكر لم يكن الجُند مكتوباً في ديوان، فمن أراد أن يتخلف قد يتخلف ولا يُطلع على تخلفه إلا بعد زمن؛ ولأجل ذلك ثبت أن النبي ﷺ لما تخلف عنه ـ في غزوة تبوك ـ كعب بن مالك (رضي الله عنه) لم يتفقد كعباً، ولم يسأل عنه حتى وصل تبوك[1]، ولم يَدْرِ أهو موجود في الجيش أو غير موجود فيه؛ لأنهم لم يكن عندهم ديوان، وكذلك زمن أبي بكر، فلما كانت الخلافة إلى عمر كتب أسماء الجُند في ديوان، فدوّن جميع أسماء المقاتلين في ديوان[2]، فصار إذا تخلف واحد عُرف من وقته أنه

---

(١) قصة تخلف كعب (رضي الله عنه) أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب: إذا تصدق أو وقف بعض رقيقه أو دوابه فهو جائز، حديث رقم: (٢٧٥٧)، (٥/ ٣٨٦)، وأخرجها في مواضع متفرقة. انظر: الأحاديث (٢٩٤٧)، (٢٩٤٨)، (٢٩٤٩)، (٢٩٥٠)، (٣٠٨٨)، (٣٥٥٦)، (٣٨٨٩)، (٣٩٥١)، (٤٤١٨)، (٤٦٧٣)، (٤٦٧٦)، (٤٦٧٧)، (٤٦٧٨)، (٦٢٥٥)، (٦٦٩٠)، (٧٢٢٥)، ومسلم، كتاب التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، حديث رقم: (٢٧٦٩)، (٤/ ٢١٢٠).

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٨/ ٣١٩)، التراتيب الإدارية (١/ ٢٢٥).

تخلف، وعرف مُقَاتِلَة كل جهة من الجهات، وجعل كل جهة في جهتهم يحمونها مما يكون إليهم، وصارت كل جهة أهلها أهل ديوان، فكتب أسماء الجند في ديوان. هذا نظام عسكري لم يفعله النبي ﷺ ولا أبو بكر، ولكنها مصلحة محضة لا تخالف نصاً من كتاب الله ولا سنة نبيه، فهي مصلحة عملها عمر بن الخطاب، ولم يخالف أحد من الصحابة مع كثرتهم وعلمهم. ومن هذا المعنىٰ: أن زمن النبي ﷺ وزمن أبي بكر لم يكن عند المسلمين سجن يقفون فيه الجُناة، ولا يسجنون فيه، فلما كانت الخلافة لعمر (رضي الله عنه) اشترىٰ دار صفوان بن أمية في مكة، وجعلها سجناً يقف فيه الناس حتى ينظر في أمورهم، وربما سجن به بعض المذنبين[١]. فهذا السجن هو مصلحة إدارية لم تكن في زمن النبي ﷺ ولا أبي بكر، والقصد مطلق التمثيل.

فهذا النوع من ضبط الأمور وتنظيم الإدارة بما لا يخالف نصاً من كتاب الله ولا سنة نبيه، فهذا لا نقول: إنه كفر، ولا نقول: إنه حرام. وهو من المصالح المرسلة التي عمل بها الصحابة، ولم يخالف منهم أحد، وكان مالك يجعل هذا النوع أصلاً من أصول مذهبه[٢]، وهو (المصالح المرسلة) قال: لأن الصحابة أجمعوا عليه؛ لأن أفضل الصحابة بعد النبي ﷺ أبو بكر، عمل بالمصلحة المرسلة لما حضرته الوفاة ـ يعني باحتضار الوفاة، في ذلك الوقت

---

(١) انظر: البخاري، الخصومات، باب الربط والحبس في الحرم (٥/ ٧٥)، تغليق التعليق (٣/ ٣٢٦)، أخبار مكة للأزرقي (٢/ ١٦٥، ٢٦٣)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٢٢)، التراتيب الإدارية (١/ ٢٩٨).

(٢) انظر: نثر الورود (٢/ ٥٠٥).

يتوب المجرم، وينيب الظالم، أحرى أبو بكر (رضي الله عنه)، فهذا فرعون الذي كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: آية ٢٤] لمّا عاين الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: آية ٩٠]، ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ [غافر: آية ٨٤] أحرى أبو بكر في آخر لحظة من حياته ـ عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: كتب أبي وصيته في سطرين: هذا ما أوصى ابن أبي قحافة: إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذلك ظني به، وإن يَجُرْ فلا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾ [الشعراء: آية ٢٢٧][1]. لم ترد آية في كتاب الله، ولا نص من سنة رسول الله لأبي بكر أن ينيب عمر على الناس، ولكن رأىٰ المصلحة تقتضي ذلك، ففعل هذه المصلحة، ولم ينكر عليه أحد من الناس، فتوليته له من المصلحة المرسلة[2]، لا من قياس العهد على العقد، كما قال به بعض الناس.

والحاصل أن النظام نوعان: نظام لا يتعرض لقواعد الشرع، وإنما هو تنظيم مصلحي لا يتعرض للقواعد، فهذا هو الذي ذكرنا أنه لا بأس به، وأن الصحابة فعلوه.

والثاني: نظام تشريعي، وهو الذي كنا نتكلم عليه ونورد فيه الآيات، كالذي يقول: إن الأنثىٰ تَمتُّ بالقرابة التي يَمتّ بها الذكر، فتفضيله عليها ظلم وجور. وكالذي يقول: إن تعدد الزوجات يجعل الرجل دائماً في شغب، ولو أخذ واحدة لكان معها في خفض ودعة،

---

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ١٤٢)، عيون الأخبار (١/ ١٤)، مختصر تاريخ دمشق (١٣/ ١٢٠).

(٢) انظر: نثر الورود (٢/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧).

وأن الشغب دائم لا يزول، وأن هذا أمر لا يصلح في الاجتماع. والذي يقول: إن قطع اليد عمل وحشي لا ينبغي أن يكون في النظم التي يعامل بها الإنسان. وما جرىٰ مجرىٰ ذلك، مع أن كل هذه الأمور حكمته بالغة، وسنبين ـ إن شاء الله ـ حِكَم الجميع إن مررنا على الآيات التي هي بها.

فهذا النوع من النظام هو الضلال والكفر، وقد بيّن الله أن من يقول: إن الأنثىٰ كالذكر في الميراث، أنه ضال، كما قال (جل وعلا) في آية الصيف، الآية الأخيرة من سورة النساء: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ ثم أتبعه بقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: آية ١٧٦] يبين لكم هذا البيان كراهة أن تقولوا: هما سواء في الميراث فتضلوا. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ [الأنعام: آية ٥٧]: يقص الحق كقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: آية ٣] و ﴿يقضِ الحقّ﴾ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ [غافر: آية ٢٠] ﴿وَهُوَ﴾ (جل وعلا) ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ الذين يفصلون بين الخصوم، وسيفصل بين الخلائق يوم القيامة، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [السجدة: آية ٢٥].

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٥٨].

هذا أمر من الله لنبيه أن يقول للكفار الذين يستعجلون بالعذاب

ويقولون له: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: آية ١٦] ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: آية ٣٢]، ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ [هود: آية ٨] قل يا نبي الله لهؤلاء المتمردين المتعنتين، الذين يستعجلون بالعذاب تعنتاً وعناداً: ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: العذاب الذي تستعجلون به، لو كان بيدي لعجّلته عليكم، وقُضي الأمر بيني وبينكم، وسلمت من ذلك لأنني علىٰ حق، وأهلككم العذاب هلاك استئصال، واسترحت منكم.

وفي هذه الآية الكريمة سؤالان، لطالب العلم أن يسأل عنهما: أحدهما نحوي، والثاني وحيي[1].

أما النحوي فهو أن يقول طالب العلم: همزة (أن) إذا فُتحت

---

(١) لم يذكر السؤال الثاني هنا، وقد ذكره في أضواء البيان (٢/ ١٩٤)، حيث قال: تنبيه: قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ الآية، صريح في أنه ﷺ لو كان بيده تعجيل العذاب عليهم لعجله عليهم، مع أنه ثبت في الصحيحين من حديث عائشة (رضي الله عنها): أن النبي ﷺ أرسل الله إليه ملك الجبال، وقال له: إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين ــ وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها ــ فقال ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً**».
والظاهر في الجواب: هو ما أجابه به ابن كثير ــ رحمه الله ــ في تفسير هذه الآية، وهو أن هذه الآية دلّت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبون تعجيله في وقت طلبهم تعجيله لعجله عليهم، وأما الحديث فليس فيه أنهم طلبوا تعجيل العذاب في ذلك الوقت، بل عرض عليه الملك إهلاكهم فاختار عدم إهلاكهم، ولا يخفى الفرق بين المتعنت الطالب تعجيل العذاب وبين غيره.

دلت علىٰ مصدر، فهي في محل اسم مفرد؛ لأنها إن فُتحت سدّت مَسَدَّ مصدر، وهذا المصدر ـ طبعاً ـ معروف أنه اسم، و (لو) حرف شرط، وحروف الشروط لا تتولىٰ إلا الجمل الفعلية، فَلِمَ تولى حرف الشرط اسماً، وهو هذا المصدر المنسبك من (أن) وصلتها؟ هذا وجه السؤال.

والجواب عنه: هو ما حققه علماء العربية: أن المصدر المنسبك من «أن» وصلتها فاعل فعل محذوف، والفعل المضمر هو الذي يلي حرف الشرط، وتقدير المعنىٰ: لو ثبت أن عندي، لو ثبت كون ما ستطلبونه عندي لعجلته عليكم. ولم يكن بعده إلا فعل، والمصدر المنسبك من (أن) وصلتها فاعل الفعل. هكذا يقولون[1].

﴿لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ قضاء الأمر هنا كناية عن إنزال العذاب عليهم، واستراحته منهم.

ومن قال: «إن قضاء الأمر هنا معناه ذبح الموت»[2]. فهو غلط ووهم منه؛ لأن ذلك الذي معناه ذبح الموت هو في آية مريم، وليس في هذه الآية، وهو قوله (جل وعلا) في أُخريات مريم: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [مريم: آية ٣٩] فقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ تفسير آية مريم[3] هذه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ

(١) انظر: ضياء السالك (٤/ ٦٦).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٤٠٠).

(٣) البخاري، كتاب التفسير، باب (وأنذرهم يوم الحسرة)، حديث رقم: (٤٧٣٠)، (٨/ ٤٢٨)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون، حديث رقم: (٢٨٤٩)، (٤/ ٢١٨٨)، وانظر: حديث رقم: (٢٨٥٠)، ولفظه عند البخاري: عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: =

﴿ٱلْأَمْرُ﴾ قال: إذ ذُبح الموت ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾ أنذرهم وهم في غفلة ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ وذُبح الموت. ولا يصح في آية الأنعام هذه هذا التفسير؛ لأن المعنىٰ هنا: ﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لعجلت لكم العذاب الذي تطلبونه فهلكتم، ونفذ القضاء بيني وبينكم. ونفوذ القضاء: هو إهلاك الظالم وبقاء المطيع سالماً، وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٨﴾ أي: الكافرين الذين يتعنتون ويستعجلون، هو أعلم بهم، عالم من يهدي الله فيتوب، ومن يخذله فلا يتوب، وعالم بالوقت الذي يأتيهم فيه العذاب، وعالم بما يستحقون من العذاب، ووقت مجيئه لهم، وسيكون ذلك على حسب ما سبق في علمه (جل وعلا). وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٨﴾.

قال بعض العلماء: صيغة التفضيل هنا ليست على بابها؛ لأن المقرر في علم العربية: أن صيغة التفضيل تدل على مشاركة بين المُفَضَّل والمُفَضَّل عليه، إلا أن المُفَضَّل أكثر في المصدر من المُفَضَّل عليه[1]. و (زيد أعلم من عمرو) يدل علىٰ أنهما مشتركان

= قال رسول الله ﷺ: «يُؤتى بالموتِ كهيئةِ كبش أملَحَ، فيُنادِي منادٍ: يا أهل الجنة فيَشرئبُّون ويَنظُرون، فيقول: هل تَعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلُّهم قد رآه. ثم يُنادي: يا أهل النار، فيَشرَئبون ويَنظُرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلُّهم قد رآه. فيُذبَح. ثم يقول: يا أهلَ الجنة، خلودٌ فلا مَوت. ويا أهلَ النار، خلودٌ فلا موت». ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾، وهؤلاء في غفلةِ أهل الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾.

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/ ١٢٦).

في العلم، إلا أن المُفَضَّل يفضل فيه المُفَضَّل عليه. والعلم بالظالمين: بأحوالهم وما يؤولون إليه، ووقت نزول العذاب عليهم، هذا لا يُشارك الله فيه أحد، وهذا إنما يعلم الله وحده؛ ولذا يقولون: إنَّ صيغة (أَفْعَل) هنا بمعنىٰ (الوصف) بمعنىٰ: والله عليم بالظالمين، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ لأن هذه لا يشاركه فيها غيره، وقد تقرر في علم العربية: أن صيغة (أَفْعَل) قد تأتي مراداً بها الوصف من غير إرادة التفضيل[١] وشواهد ذلك كثيرة في كلام العرب، ومنه قول الشَّنْفَرَى[٢]:

وإنْ مُدّت الأيدِي إلىٰ الزاد لم أكن بأعجَلِهِم إِذْ أجشعُ القومِ أعجلُ

يعني بـ (أجشع القوم): هو العَجِل منهم، وكقول الفرزدق[٣]:

إن الذي رفع السماء بنىٰ لنا بيتاً دعائمه أعزُّ وأَطولُ

يعني عزيزة طويلة. وهذا أسلوب معروف في كلام العرب.

يقول الله جل وعلا: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: آية ٥٩].

ذكر بعض أهل العلم أن سبب نزول هذه الآية الكريمة: أن النبي ﷺ جاءه بدوي فقال له: إني تركت امرأتي حُبلىٰ، وتركت قومي في جدب، فأخبرني عما في بطن امرأتي: أذكراً هو أم أنثى؟ وأخبرني عن الوقت الذي يأتي فيه الغيث لقومي فإنهم مُجدبون. ثم

(١) المصدر السابق (٢/ ١٣٣).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (٢/ ١٣٤)، خزانة الأدب، (٣/ ٤٨٦)، وفيه: (سمك السماء).

قال له: ولقد عرفت الوقت الذي وُلدت فيه، فأخبرني عن الوقت الذي أموت فيه. فأنزل الله: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[1].

ومفاتح الغيب المذكورة في هذه الآية هي المذكورة في أُخريات سورة لقمان في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: آية ٣٤]. وتفسير النبي ﷺ لمفاتح الغيب هنا بأنها الخمس المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلى آخرها، ثبت في الصحيح عن أبي هريرة[2] وعبد الله بن عمر[3]، [٦/ب] وجاء بأسانيد لا بأس عليها عن / قوم آخرين من الصحابة، منهم بريدة[4]، وابن مسعود[5]، وابن عباس[6]، وصحابي من

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢١/ ٨٧)، وابن أبي حاتم (٩/ ٣١٠١)، عن مجاهد مرسلاً، وعزاه في (الدر) إلى الفريابي، وابن أبي حاتم. وأورده الواحدي في أسباب النزول بغير سند ص ٣٤٧، وذكر في (الدر) نحوه عن عكرمة، وعزاه إلى ابن المنذر. انظر: الدر المنثور (٥/ ١٦٩).

(٢) البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام، حديث رقم: (٥٠)، (١/ ١١٤)، وأخرجه في موضع آخر. انظر: الحديث (٤٧٧٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، الأحاديث (٨ ـ ١٠)، (١/ ٣٦ ـ ٤٠).

(٣) البخاري، كتاب الاستسقاء، باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، حديث رقم: (١٠٣٩)، (٢/ ٥٢٤)، وأخرجه في مواضع أُخرى. انظر: الأحاديث (٤٦٢٧، ٤٦٩٧، ٤٧٧٨، ٧٣٧٩).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٥٣).

(٥) أخرجه ابن جرير (٢١/ ٨٩)، وانظر: الدر المنثور (٥/ ١٦٩).

(٦) أخرجه أحمد (١/ ٣١٩).

بني عامر[١]: أن النبي ﷺ فسر مفاتح الغيب المذكورة هنا بأنها المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[٢]؛ لأن هذه الخمس أمهات عظيمة لها أهميتها من أمهات علم الغيب، ففسر النبي بها هذه الآية؛ لأن الساعة هي أفظع أمر وأهم أمر يوجد، ليس علمها إلا عند الله وحده، كما قال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: آية ١٨٧] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: الآيات ٤٢ ـ ٤٤] ولما سأله جبريل في حديثه المشهور عن الساعة. قال له: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. وبيّن له شيئاً من أماراتها[٣].

هذه هي مفاتح الغيب، فالوقت الذي تقوم فيه الساعة لا يعلمه إلا الله وحده (جل وعلا)، لا يعلمه أحد ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: آية ١٨٧]، ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ الوقت الذي ينزل فيه المطر لا يعلمه إلا الله وحده ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ الذي هو في رحم أمه لا يعلم حقيقته إلا الله، أذكر هو أم أنثىٰ؟ قبيح أو جميل؟ شقي أو سعيد؟ لا يدري الإنسان ماذا يكسب غداً. والمراد بـ (ما يكسب غداً): من خير أو شر، ما يكسب من الحسنات التي تقربه لله، وما يكسب من السيئات التي تبعده عن الله (جل وعلا)، ويدخل في ذلك: ما يكسبه من مال ونحوه؛ لأن الله قد يغنيه من حيث لا يشعر،

---

(١) أحمد في المسند (٤/ ١٢٩، ١٦٤)، وانظر: الدر المنثور (٥/ ١٦٩، ١٧٠) من حديث أبي عامر الأشعري رضي الله عنه.

(٢) انظر: الأضواء (٢/ ١٩٥).

(٣) هذا الحديث رواه جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، وقد مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

وقد يفقره من حيث لا يشعر؛ لأن الله بيده كل شيء ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ لا يعرف الإنسان المحل الذي فيه قبره، وإن كان ساكناً في محل وإذا كتب الله أجله في محل لا بد أن تكون له حاجة إلى ذلك المحل، فيذهب إليه ليدركه أجله فيه، وينفذ قضاء الله كما سبق في علمه الأزلي، وجاء بذلك حديث عن جماعة من أصحاب النبي ﷺ: أن الله إذا كتب أن يموت رجل في محل، لا بد أن يجعل له حاجة إلىٰ ذلك المحل حتى يذهب إليه ويدركه أجله فيه(١). هذه مفاتح الغيب الخمس التي بين النبي أنها معنى هذه الآية، وخير التفسير تفسيره ﷺ.

وقد بيّن (جل وعلا) في آية عامة أن الغيب كله لا يعلمه إلا الله، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: آية ٦٥] وقد بينّا فيما مضىٰ أمثلة لمصداق هذه الآيات، وبينّا أن أعظم الخلق: الملائكة، والرسل، والملائكة لما قال لهم الله: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؟ أجابوا بأن قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: آية ٣٢] وقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ النكرة فيه مبنية مع (لا) والنكرة لا تُبنىٰ على الفتح مع

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٢٧)، والترمذي في السنن، كتاب القدر، باب: ما جاء أن النفس تموت حيث ما كُتب لها، حديث رقم: (٢١٤٦)، (٤/ ٤٥٢)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه، وانظر: صحيح الترمذي (٢/ ٢٢٧)، المشكاة (١/ ٣٩).
وأخرجه الترمذي أيضاً من حديث أبي عزة (رضي الله عنه). انظر: السنن، حديث رقم: (٢١٤٧)، (٤/ ٤٥٣)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٠٣ ـ ١٣٠٤)، (٩/ ٣١٠٢)، وانظر: صحيح الترمذي (٢/ ٢٢٧)، ولفظ الحديث عند الترمذي: «إذا قضىٰ الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة».

(لا) إلا التي هي لنفي الجنس. فمعنىٰ الآية: أنهم نفوا جنس العلم من أصله عن أنفسهم إلا شيئاً علمهم الله إياه. وهؤلاء الرسل الكرام (عليهم صلوات الله وسلامه) مع ما أعطاهم الله من العلم والمكانة يقولون: إنهم لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله. هذا سيدهم وخاتمهم ﷺ قد بينّا أن الله أمره قال: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: آية ٥٠] وأمره أيضاً في سورة الأعراف أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: آية ١٨٨] وقد قال في أُخريات أيام حياته صلوات الله وسلامه عليه: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة**»[1]. كما هو معروف. وقد بينا أن نبي الله نوحاً ذكر الله عنه في سورة هود: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: آية ٣١] وقد بينّا أمثلة من هذا، فهذا سيد ولد آدم علىٰ الإطلاق، وأفضل الرسل، وأعلم الناس (صلوات الله وسلامه عليه)، رُميت أحب أزواجه بأعظم فرية، أم المؤمنين عائشة، لما رموها

---

(١) قطعة من حديث جابر (رضي الله عنه) عند البخاري، كتاب الحج، باب تقضي الحائض المناسك كلّها إلا الطواف بالبيت، حديث رقم: (١٦٥١)، (٣/ ٥٠٤)، وأطرافه في: (١٥٦٨، ١٥٧٠، ٢٥٠٦، ٤٣٥٢، ٧٢٣٠، ٧٣٦٧)، ومسلم، كتاب الحج، باب: بيان وجوه الإحرام، حديث رقم: (١٢١٣، ١٢١٦، ١٢١٨)، (٢/ ٨٨١ ـ ٨٨٥).

وقد روى هذا الحديث أيضاً البراء بن عازب (رضي الله عنه) عند أبي داود، والنسائي. وأخرج الشيخان نحوه من حديث أنس ولفظه: «**لولا أن معي الهدي لأحللت**».

بصفوان بن المُعَطل في غزوة بني المُصْطَلق، كما قص الله القصة مُوضحة في سورة النور، كان (صلوات الله وسلامه عليه) مع ما آتاه الله من العلم والمكانة العظيمة لا يدري أحق ما قالوا عن زوجته أم كذب، وكان يقول: «**كيف تيكم؟**» وفَقَدَت منه العطف الذي كانت تجده إذا مرضت، وكان يقول لها غير دارٍ بالحقيقة: «**يا عائشة إن كنتِ ألممتِ بذنب فتوبي، وإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله**». ولم يعلم بالحقيقة حتى أخبره عالم الغيب والشهادة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ [النور: آية ١١] فسماه: إفكاً، ثم قال في آخر الآيات: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ [النور: آية ٢٦] فلم يعلم الحقيقة إلا بعد أن علمه الله إياها. ولما نزلت عليه آيات براءتها في بيت أبي بكر، وسُرِّي عنه وهو يتبسم، وقال: «**أمَّا أنت يا عائشة فقد برأك الله**». فقالت لها أمها أم رومان: «قومي إليه فاحمديه». قالت لها: «والله لا أحمده، ولا أحمد اليوم إلا الله؛ لأنه لم يبرئني، وإنما برأني الله»[(١)]. وهذا نبي الله إبراهيم، وهو هو، ذَبَحَ عجله، وتعب هو وامرأته بإنضاج العجل وحَمْلِه، كما قال الله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩﴾ [هود: آية ٦٩] ولم يدرِ أن الذين ينضج لهم عجله أنهم ملائكة كرام لا يأكلون! ولأجل عدم علمه بذلك لما لم يأكلوا خاف منهم ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: آية ٧٠] وما هذا إلا لأنه لا يعلم بحقيقتهم، وما درىٰ عن الأمر حتىٰ أخبروه! سألهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧﴾؟ [الحجر: آية ٥٧]

---

(١) البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، حديث رقم: (٢٦٦١)، (٥/ ٢٦٩)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك، حديث رقم: (٢٧٧٠)، (٤/ ٢١٢٩).

﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود: آية ٧٠] ولما ارتحلوا من عنده، ونزلوا على نبي الله لوط، وكانوا في صفة شباب مُرد حسنة ثيابهم، حسنة ريحهم، خاف عليهم أن يفعل بهم قومه فاحشة اللواط، فحزن أشد الحزن؛ ولذا قال تعالى عنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود: آية ٧٧] وما سبب مساءته بهم وضيقه ذرعاً بهم ـ كقوله: إن ذلك يوم عصيب ـ إلا لعدم علمه بحقيقة الواقع، حتى قال ذاك الكلام المؤسف المحزن: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: آية ٨٠] ولم يعلم بحقيقة الأمر حتى أخبروه، وقالوا له: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ الآيات [هود: آية ٨١]. وقال المفسرون[1]: عند ذلك نشر جبريل أجنحته عليه وِشَاحُه، وضرب أوجههم بريشة من جناحه، فتركها ليس فيها محل العيون، لا أثر فيها للعيون، كأن وجوههم لم تكن بها عيون أصلاً!! كما أشار الله إلىٰ ذلك في سورة القمر بقوله في قصة لوط، والملائكة، وقوم لوط: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ والعياذ بالله ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر: آية ٣٧]. وهذا نبي الله يعقوب قال الله فيه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: آية ٦٨] مدحه الله بالعلم الذي علمه، ومع هذا فولده يوسف كان في مصر، ما بينه وبينه ثمان مراحل، لا يعلم عن أمره شيئاً ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: آية ٨٤] يقول لأولاده: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: آية ٨٧] يطلب من أولاده التحسس ليعثروا له على خبر، وهو لا يدري عنه حقيقة حتى

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٧/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

جاء البشير بالقميص، كما هو مبين في سورة [يوسف][(١)]. وهذا نبي الله نوح، وهو هو، لمّا قال له ربه: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون: آية ٢٧] ظن أن ولده الفاجر أنه من أهله، ولم يدر أنه ليس من أهله حتىٰ قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود: آية ٤٥] ولم يعلم بحقيقة الأمر حتى قال له عالم الغيب والشهادة ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: آية ٤٦] كان جوابه أن قال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: آية ٤٧]. وهذا نبي الله سليمان أعطاه الله الريح، غدوها شهر، ورواحها شهر، وسخر له مَرَدَة الشياطين مع قدرتهم علىٰ الطيران في آفاق الأرض، ما كان يدري عن قصة (...)[(٢)] بلقيس وجماعتها حتى جاءه الهدهد الضعيف المسكين، وكان قد خرج بغير إذن، وكان نبي الله سليمان يتهدده ويتوعده على الخروج بلا إذن، كما قصّ الله في سورة النمل: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل: الآيتان ٢٠، ٢١] فعلم من تاريخ اليمن، ومن جغرافية اليمن، ما لم يعلمه سليمان (عليه السلام)!! وهذا العلم الضئيل البسيط ـ علم تاريخ وجغرافية ـ أعطىٰ هذا الضعيف قوة، وكان له سلاحاً، وقوّاه علىٰ سليمان، حيث كان هو يعلم شيئاً يجهله

---

(١) في الأصل: (هود)، وهو سبق لسان.

(٢) في هذا الموضع كلمة غير واضحة. ولعلها: «أهل مأرب» والكلام مستقيم بدونها.

سليمان؛ ولذا قام غير مبالٍ بالوعيد، مع أن سليمان ملك نبي، له هيبة الملك، وهيبة النبوة، ومع هذا وقف ذلك الهدهد بين يديه وقفة البطل غير مكترث بالوعيد، وإنما قوّاه أنه علم شيئاً من جغرافية اليمن وتاريخهم لم يعلمه سليمان، ونسب الإحاطة إلىٰ نفسه، ونفاها عن سليمان، وقال له: إني ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل: آية ٢٢] وهذا النبأ بيَّن فيه بعض تاريخهم، أنهم كفرة يسجدون للشمس، وأن ملكتهم امرأة، قال: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: الآيتان ٢٣، ٢٤] وعند خبر الهدهد إياه لم يعلم أيضاً حقيقة الأمر؛ لأنه [ما كان يعلم صِدْق][(١)] الهدهد؛ ولذا قال مُخاطِباً له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النمل: آية ٢٧] ثم أرسله بكتاب، كما في هذه الآيات من سورة النمل، كل هذه الأمور من [عدم][(٢)] علم الأنبياء الكرام، والملائكة الكرام هذه الأمور من الغيب كله مصداق لقوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[(٣)] [النمل: آية ٦٥] وقوله هنا: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: آية ٥٩].

والله (جل وعلا) يُطلع رسله علىٰ ما شاء من غيبه، ويُطلع ملائكته علىٰ ما شاء من غيبه، كما بينه في آيات من كتابه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾

---

(١) في الأصل كلمتان غير واضحتين، وما بين المعقوفين زيادة ينتظم بها الكلام.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) انظر: الأضواء (٢/ ١٩٦).

الآية [الجن: الآيتان ٢٦، ٢٧]، وكقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: آية ١٧٩] أي: فيطلع من اجتبى من رسله علىٰ ما شاء من غيبه، وقد أطلع نبينا ﷺ علىٰ أمور كثيرة، أخبر بكثير منها، منه ما حفظه الناس حتى وقع، ومنه ما نسوه.

وهذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن العظيم أجمع العلماء علىٰ أنه أكبر واعظ وأعظم زاجر نزل من السماء إلىٰ الأرض، فهي أعظم موعظة تُلقى يتعظ بها الناس. إلا أنّه مع الأسف تمر على آذانهم ولم تكن في قلوبهم!! وهذا أكبر واعظ؛ لأنه أطبق العلماء على أن أعظم المواعظ، وأعظم الزواجر، هو واعظ المراقبة والعلم.

وضرب العلماء لهذا مثلاً قالوا[1] ـ ولله المثل الأعلى ـ: لو فرضنا أن هذا البراح من الأرض، فيه ملك قتّال للرجال إن انتُهكت حرماته، سفّاك للدماء إن انتُهكت حرماته، ذو قوة وعزة ومَنَعَة، وحوله جيوشه، وحول هذا الملك بناته ونساؤه وجواريه، أيخطر في بال أحد أن أولئك الحاضرين مجلس هذا الملك الجبار يقوم واحد منهم بغمزة عين إلى حرم ذلك الملك، أو ريبة؟ لا، وكلا، كلهم خاضعون خاشعة عيونهم، خاشعة جوارحهم، غاية أمانيهم السلامة!! ولا شك أن خالق الكون ـ وله المثل الأعلى ـ أعظم بطشاً، وأشد نكالاً إن انتُهكت حرماته، وحِمَاه في أرضه محارمه.

ولو قيل لأهل بلد: إن أمير ذلك البلد يبيت عالماً بكل ما يفعلونه في الليل من الخسائس والدسائس لباتوا متأدبين، لا يفعلون

(١) انظر: الأضواء (٣/ ١٠).

إلا شيئاً طيباً!! وهذا خالق السماوات والأرض، الملك الجبار، يخبرهم في آيات كتابه، لا تكاد تقْلب ورقة واحدة من أوراق المصحف الكريم إلا وجدت فيها هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٩]، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٣٤]، ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ [النحل: الآية ١٩]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ الآيات [الأنعام: آية ٥٩]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: آية ١٦]، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: آية ٢٣٥]، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: آية ٦١] فينبغي علينا جميعاً أن نعتبر بهذا الزاجر الأكبر، والواعظ الأعظم، وأن لا نتناساه، لئلا نهلك أنفسنا، ونعتقد أنّا لو كنّا في حضرة ملك جبار من ملوك الدنيا يموت ويأكله الدود، أنّا بحضرته وملاقاته لا يمكننا أن نفعل إلا شيئاً يسرّه ويرضيه، فعلينا أن نعلم أننا بين يدي ملك السماوات والأرض (جل وعلا)، وأنه أعظم بطشاً وأفظع نكالاً إن انتُهكت حرماته، وأنه عالم بكل ما نُسرّ وما نعلن، فعلينا أن نعتبر هذا لنتعظ، فقد بيّن النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور[1] (. . .)[2] أن جبريل أراد أن يبين هذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم لأصحاب النبي ﷺ لمّا لم ينتبهوا له. وإيضاح ذلك: أن الله بيّن لنا في آيات من كتابه أن الحكمة التي خلق من أجلها الخلق والسماوات والأرض، وخلق من أجلها الموت والحياة، هي أن يبتلي خلقه، أي: يختبرهم بنقطة واحدة، هي نقطة العمل، من يحسن عمله فيأتي به حسناً كما ينبغي، ومن لا يحسنه؛

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، والكلام مستقيم بدونها.

ولذا قال في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ثم بين الحكمة والعلة الغائية قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: آية ٧]، ولم يقل: أيكم أكثر عملاً، وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بيّن الحكمة في ذلك قال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: آية ٧]، وقال في أول سورة المُلك: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ثم بيّن الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: آية ٢] ولم يقل: أكثر عملاً، فدلت هذه الآيات القرآنية أنّا خُلقنا لنُختبر ونُبتلى في شيء هو إحسان العمل، ولا شك أن العاقل يقول: إذا كان ربي (جل وعلا) خلق الخلائق، والسماوات والأرض، والموت والحياة؛ لأجل الابتلاء في إحسان العمل، يا ليتني عرفت الطريق إلى إحسان العمل لأنجح بهذا الاختبار.

وجاء جبريل يبين هذا المغزى الأكبر، والمقصد الأعظم لأصحاب النبي ﷺ حيث قال للنبي ﷺ: يا محمد (صلوات الله وسلامه عليه) أخبرني عن الإحسان ـ المعنى الذي خُلق الخلق لأجل الاختبار فيه ـ فبين النبي ﷺ أنه لا طريق إلى الإحسان الذي خُلقنا من أجله إلا باعتبار هذا الزاجر الأكبر، والواعظ الأعظم، وهو مراقبة خالق السماوات والأرض، والعلم بأنه رقيب، علمه محيط بكل شيء؛ ولذا قال له: «**الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». ولا شك أن من عَبَدَ الله كأنه يرىٰ الله، وإذا تَنَزَّل فقال: لا أرىٰ الله، فهو عالم أن الله يراه، مطّلع عليه، من كان يعمل أمام الملك الجبار، وهو مطلع عليه، ناظر إليه، لا يمكن أن يسيء العمل، فلا بد أن يحسن العمل ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا

غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف: آية ٧] في هذه الآيات القرآنية زاجر أعظم، وواعظ أكبر.

وإذا علمتم من هذا أن الغيب لا يعلمه إلا الله، كما قال هنا: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: آية ٥٩] وقال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: آية ٦٥] فاعلموا أن كل طريق يفعلها الإنسان ليصل بها إلىٰ شيء من الغيب أنها طريق باطلة، وبعضها يكون كفراً؛ لأن الغيب من خصائص الله التي اختص بعلمها، ولا يعلم الناس إلا ما علمهم الله؛ ولأجل ذلك لا يجوز اتخاذ شيء يدّعي صاحبه أنه يصل به إلى الغيب، فكل ذلك حرام، كالطَّرْق[1]، والزَّجْر[2]، والعيافة[3]، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك من الأمور التي يُراد بها الاطلاع على الغيب. وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «**من أتىٰ عرافاً فسأله عن شيء لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً**»[4]. هذا لفظ مسلم في

---

(١) الطرق: ضرب الكاهن بالحصى. انظر: القاموس (مادة: طرق) ص ١١٦٦، وانظر: الأضواء (٢/ ١٩٩).

(٢) قال في القاموس: الزجر: «العيافة والتكهن» القاموس (مادة: زجر) ص ٥١١، وفي المعجم الوسيط: «زَجَر الطير: أثارها ليتيمن بِسُنُوحِها أو يتشاءم ببروحها». اهـ المعجم الوسيط (مادة: زجر) (١/ ٣٨٩)، وانظر: الأضواء (٢/ ١٩٩).

(٣) عيافة الطير: زجرها. والمقصود الاعتبار بأسمائها ومساقطها وأصواتها، فيتفاءل بذلك أو يتشاءم، والعائف هو المتكهن بالطير أو غيرها. انظر: القاموس (مادة: عاف) ص ١٠٨٦، وانظر: الأضواء (٢/ ١٩٩).

(٤) مسلم، كتاب السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان، حديث رقم: (٢٢٣٠) (٤/ ١٧٥١)، وفيه (ليلة) بدل (يوماً).

صحيحه، والمراد بالعرّاف: هو من يدعي أنه يعرف موضع الضالة، وموضع الشيء المسروق وما جرىٰ مجرىٰ ذلك، مع أن العَرَّاف قد يدخل فيه الكاهن، والحازي، والزاجر[١]. وهذه أمور كلها حرام، وهي من أمور الشر، فبعضها يكون كفراً. وما تجري به العادة في هذه البلاد من أن الواحد يأتي للواحد هنا ويقول: ضاعت لنا شاة أو جفرة، فاعرف لي محلها بعرافة أو بشيء!! هذا من كبائر الذنوب، وصاحبه لن تقبل له صلاة أربعين ليلة على لسان محمد ﷺ، كما ثبت عنه في صحيح مسلم. والسائل والمسؤول كلاهما في غاية الضلال. فهذه أمور لا تجوز، وكل هذا يدخل في الكهانة. فالكهانة، والطَّرْق، والزَّجْر، والعرافة، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك، كل هذا حرام[٢]، ولا يجوز منه شيء الزجر ولا العيافة.

والمراد بالعيافة: زجر الطير، وادعاء أهلها الذين يزجرونها أنهم يعرفون المغيبات، ويطّلعون علىٰ الأمور من أحوال طيران الطيور، من أسمائها، وألوانها، وجهاتها، ومواقعها التي تقع عليها. وهذا النوع من العيافة كان موجوداً عند العرب، ومما اشتهر به من قبائل العرب: بنو لهْب، حتىٰ كان الشاعر يقول فيهم[٣]:

خبير بنو لهْبٍ فلا تكُ مُلغياً مَقَالَةَ لِهْبِيٍ إذا الطير مَرَّت

والطَّرْقُ بعض العلماء يقول: هو الخط الرملي الذي يخطّونه، ويدّعون به الإطلاع علىٰ الغيب. وبعضهم يقول: هي حجارة كان

---

(١) انظر: القرطبي (٧/ ٣)، الأضواء (٢/ ١٩٨).

(٢) انظر: الأضواء (٢/ ١٩٧).

(٣) البيت في ضياء السالك (١/ ١٣٦)، وانظر: المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية (١/ ١٤٦)، وهو في الأضواء (٢/ ١٩٩).

يرمي بها النساء، ويزعمون أنهم يطّلعون بها على الغيب. وقد صدق لبيد حيث قال[١]:

لعمرك ما تدري الضواربُ بالحصىٰ ولا زاجراتُ الطير ما الله صانعُ

والذي يعمل هذه العلوم الشرية ويقول: «عرفت منها غيباً». فهو ضال. وبعض العلماء يقول: إنه في [مسائل منها][٢] كافر. قالوا: فمن قال: «أنا أعلم الوقت الذي يأتي فيه المطر، وأعلم ما في بطن هذه المرأة هل هو ذكر أو أُنثىٰ. جزم ابن العربي المالكي في أحكام القرآن[٣]، والزجاج[٤]، أن من يقول هذا أنه كافر. اللهم إلا إذا ادّعىٰ أنه يستند لعادات وأمور، كالذي يقول: إذا اسودت حلمة ثدي المرأة الأيمن فهو ذكر، وإذا اسودت حلمة الثدي الأيسر فهو أُنثىٰ[٥] والظاهر أن هذه عوائد أجراها الله بمشيئته وقدره، فهذا قد لا يُكفَّر عند من قالوا هذا، ولكنهم يقولون: يُنهى. وكذلك الذي يقول: العادة جرت بأن الحامل إن كانت ترى جنبها الأيمن أثقل فهو ذكر، وإن كانت ترىٰ جنبها الأيسر أثقل فهو أنثى[٦]. هذه كلها أمور باطلة. ومن ادعىٰ أن السحابة [تُمطر][٧] بعلة: أن الله ربط بمجاري

---

(١) البيت في الدر المصون (١٠/ ٧٥١)، الأضواء (٢/ ١٩٩).

(٢) في هذا الموضع كلمة غير واضحة في الأصل، وهي شبيهة بما أَثْبَتُّ.

(٣) أحكام القرآن (٢/ ٧٣٨)، وانظر: القرطبي (٧/ ٢)، الأضواء (٢/ ١٩٧).

(٤) معاني القرآن وإعرابه (٤/ ٢٠٢).

(٥) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٧٣٨)، والقرطبي (٧/ ٢)، إكمال إكمال المُعْلم (١/ ٧٦)، الأضواء (٢/ ١٩٧).

(٦) نفس المصدر السابق.

(٧) في الأصل كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام.

عادته أن النوع الفلاني ينزل الله عنده [المطر][(١)] ناسباً الأمر لله، وأنها عادات ربطها الله، وإن شاء خرمها. مثل هذا لا يُكفّر صاحبه، ولكنه ينهىٰ. ولو قال: إن عنده مقدمات يعلمها هو من نفسه يعلم بها أذكراً هو أم أنثىٰ، ويعلم بها أن المطر سينزل. فهذا الذي جزم ابن العربي بكفره، والزجاج، وغير واحد من العلماء، والذين كفروه قالوا: لأنه كذَّب كلام الله، وعارض كلام الله الصريح: أن هذا لا يعلمه إلا الله، أما الذين يقولون: إن في اليوم الفلاني ستكسف الشمس ويخسف القمر. وعامة العلماء علىٰ أن هؤلاء لا يُكّفرون؛ لأن هذا شيء قد يُدرك بالحساب؛ لأن الله يقول في قضية القمر: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: آية ٣٩] ويقول فيه: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: آية ٥] إلا أن علماء المالكية منعوا علىٰ من علم هذا بالحساب أن يبوح به. قالوا: ولو تكلم به لوجب علىٰ الإمام تعزيره وحبسه. قالوا: لأنه يشوش علىٰ الجهلة الذين لا يُميزون بين الأمور الغيبية، وبين ما جعل الله له منها علامات يُعرف بها، وما لم يجعل له علامات واختص الله بعلمه[(٢)]. وعلىٰ كل حال فهذه الأمور، قول إنسان لإنسان: «فتش لي بعلم غيب القراءة علىٰ محل الضّالة». هذا ـ والعياذ بالله ـ ضلال كبير، من كبائر الذنوب. ولو جاء واحد وقال لإنسان: «افعل لي هذا»، أو سَأله عن شيء: «أين ضالتي؟» أو شيئاً من المسروق، لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة، كما صرح النبي ﷺ بذلك. هذا السائل، فكيف بالذي يفعل ذلك ويتعاطاه؟ وقد أجمع

(١) في الأصل: «السحاب» وهو سبق لسان.

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٧٣٩)، القرطبي (٧/ ٣)، الأضواء (٢/ ١٩٨).

العلماء أن ما يدفع للكاهن من الحلوان وللعراف أنه مما لا يجوز، كل تلك المكاسب بإجماع العلماء[١] باطلة، كالذي يُعطى للكاهن لكهانته ويسمىٰ حلواناً، والذي يُعطى للنائح في نياحته، والذي يُعطى للمُغَنِّي في غِنَائه، والذي يُعطى لكل مبطل ولهو، والذي يُعطى لاطلاع الغيب، كل ذلك من المكاسب السيئة التي هي حرام بإجماع العلماء، لا يجوز شيء منها.

ومعنىٰ قوله: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ ﴿وَعِندَهُۥ﴾ أي: عند الله وحده جل وعلا ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ في مفرد المفاتح هنا وجهان معروفان عند العلماء[٢]:

أحدهما: أن مفرد المَفَاتح هنا (مَفتح) بفتح الميم، و (المَفتح) بفتح الميم هو الخزانة. وعلىٰ هذا فالقول ﴿وَعِندَهُۥ﴾ جل وعلا ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: خزائن الغيب، يعلم كل ما يغيب مما يجهله خلقه. وهذا مروي عن ابن عباس، وجزم به السدي.

القول الثاني: أن واحد المفاتح في هذه الآية أنه (مِفْتَح) بكسر الميم. و (المِفتح) بكسر الميم هو المفتاح. وقد تقرر في فن التصريف أن (المِفْعَل) وزن قياسي لآلات الفعل، و (المفْتَح): آلة الفتح، فهو أمر قياسي، بحسب الميزان الصرفي[٣] أن يكون على (مِفْعَل) ويأتي علىٰ مفتاح (مِفْعَال) أيضاً.

---

(١) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ١٩١، القرطبي (٧/ ٣)، الأضواء (٢/ ١٩٨).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٤٠١)، القرطبي (٧/ ١)، البحر المحيط (٤/ ١٤٤)، الدر المصون (٤/ ٦٥٩)، أضواء البيان (٢/ ١٩٥).

(٣) انظر: ضياء السالك (٣/ ٤٨).

قال بعض العلماء[١]: (المِفْتَح) أفصح من (المِفتاح). والذين قالوا: إن (المفاتح) جمع (مفتاح)، وأنها قُصرت، وأن القياس (المفاتيح)؛ لأن المفرد (مفتاح) إلا أنها قُصرت، كما قالوا في القطر: قواطر، وقالوا في المحراب: محارِب، هذا لا يُحتاج إليه؛ لأن (المفتاح) فيه لغة فصيحة هي (المِفْتَح) بلا ألف. وعليها فتكون (مفاتح) جمع لـ (المفتاح) قياساً. وعلىٰ كل التقديرين فالمعنىٰ: إنما خزائن الغيب ومفاتحه التي يُفتح بها ويظهر كل هذا عند الله وحده، لا يعلمها إلا هو وحده (جل وعلا)، ولا ينافي ذلك أن الله يُعَلِّمها لمن شاء.

المعنىٰ أنه ليس عند أحد قدرة ولا اكتساب يكتسب هذه، ولا مانع من أن يعلِّم الله ما شاء من خلقه، فقد يَعْلَمُ الملائكةُ الموكلون بالسحاب الوقت الذي تنزل فيه السحاب؛ لأن الله يقول لهم: احملوا هذا المطر حتى تنزلوه في وقت كذا، في موضِع كذا، فهم يعلمون هذا بتعليم الله قبل أن يعلمه غيرهم، وكذلك المَلَك الموكل بالرحم، كما ثبت في حديث ابن مسعود الصحيح[٢]: أنه يقول: أذكر أم أنثىٰ، شقي أم سعيد؟ فيخبره الله وهو في بطن أمه قبل أن يعلم به الآخرون. وهكذا.

وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ ثم

(١) انظر: القرطبي (٧/ ١)، البحر المحيط (٤/ ١٤٤).

(٢) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، حديث رقم: (٣٢٠٨) (٦/ ٣٠٣)، وأخرجه في مواضع أُخرى من صحيحه. انظر: الأحاديث (٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه... حديث رقم: (٢٦٤٣)، (٤/ ٢٠٣٦).

قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يعني يعلم ما يختص بعلمه، ويعلم كل شيء، الذي يعلمه الخلق هو يعلمه، والذي لا يعلمه إلا هو وحده فقد استأثر بعلمه جل وعلا.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ﴾ والتحقيق أن البرّ ضد البحر(١)، والمراد بـ ﴿مَا فِي الْبَرِّ﴾ أي: جميع ما في [البر](٢).

قال الله تعالى:

/ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٧٤ ـ ٨٢]. [٧/أ]

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٧٤].

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٤٥).

(٢) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين في الأصل: «البحر»، وهو سبق لسان.

قرأ هذا الحرف نافع، وأبو عمرو، وابن كثير[١] ﴿إِنِّيَ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ وقرأه الباقون من السبعة: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ وهما قراءتان سبعيتان، ولغتان فصيحتان.

ووجه مناسبة هذه الآية الكريمة للتي قبلها التي كنا نفسرها بالأمس: أن الكفار قالوا للنبي ﷺ وأصحابه: ارجعوا إلى ديننا، فاعبدوا معنا معبوداتنا، وأنزل الله في ذلك: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾ [الأنعام: آية ٧١][٢] لما بيّن الله أنهم دعوهم إلىٰ عبادة الأوثان، وأنهم لا يمكن أن يرجعوا إلىٰ [الكفر][٣] بعد أن علمهم الله الدين، وعلمهم توحيده الصحيح ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ هذا لا يكون، بيّن الله في هذه الآية سفاهة عقول مشركي مكة، وهم يقولون إن إبراهيم جدهم، وإنه علىٰ دين صحيح، وملة حنيفية سمحة!! فأمر الله نبيه أن يذكر لهم قصة إبراهيم مع أبيه وقومه، وتفنيده لعبادة الأوثان، وتحذيرهم من ذلك؛ ليعلموا أن الذي يدعونكم إليه أنه كفر وضلال وسفه، وأنه مخالف لملّة إبراهيم التي يقرون بأنها حسنة[٤].

---

(١) انظر: النشر (٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٤٥٢).

(٣) في هذا الموضع يوجد مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٤) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٦٣).

ومعنىٰ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ واذكر يا نبي الله ﴿إِذْ﴾ أي: حين ﴿قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ جرت عادة العلماء أن يُقدّروا الناصب لـ (إذْ) يقدروه: (اذكر)[(١)].

ولطالب العلم أن يقول: أين القرينة علىٰ أن العامل في هذا الظرف الذي هو (إذ) أنه لفظة (اذكر)، أين قرينة ذلك؟

الجواب: أن العلماء فهموا ذلك من استقراء القرآن، وأن الله في القصص يأتي بلفظة (اذكر) عاملة في (إذْ) هذه ونحوها، كقوله: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: آية ٢١]، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦] ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٨٦] ونحو ذلك في القرآن، كذلك قوله هنا: واذكر ﴿إِذْ قَالَ﴾ أي: حين قال نبي الله وخليله إبراهيم قال: ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ التحقيق الذي لا شك فيه أن (آزر) بدل، أو عطف بيان من الأب[(٢)]، وأنه أبوه، وإن كان عامة المؤرخين يقولون: إن أبا إبراهيم اسمه (تارح). وقد أجاب عن هذا ابن جرير وغيره[(٣)]، قالوا: لا أصدق من الله، وذكر هنا أن أباه (آزر)، وقد يكون له اسمان، أي: اسم ولقب، أحدهما: (تارح)، والثاني: (آزر). وهذه قراءة السبعة، وجماهير القراء[(٤)]، وهناك قراءات

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) في سورة البقرة.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٦٣).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (١١/ ٤٦٨)، القرطبي (٧/ ٢٢)، البحر المحيط (٤/ ١٦٣)، ابن كثير (٢/ ١٥٠)، كلمة الحق للشيخ أحمد شاكر ص ٣٠٢.

(٤) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٦.

شاذة[١]: منها من قرأ: **﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزرُ﴾** بضم الراء. وعلىٰ هذا فالمعنىٰ: يا آزرُ أتتخذ أصناماً آلهة. ومنهم من يقول: إن (آزر) ليس اسم أبيه، إنما هو اسم صنم[٢]. والذين قالوا: هو اسم صنم، قالوا: كثُرت عبادته لذلك الصنم، وملازمته إياه حتى نُبز به، كما قيل في ابن قيس الرُّقَيَّات[٣]؛ لأنه تَشَبَّب بنساء متعددة، كلهن تُسمىٰ (رقية)، فنبزوه بها. وفيه قراءات شاذة غير هذا، وأقوال أُخر لا مُعَوَّل عليها.

واعلموا أن قصة أبـي إبراهيم هذه ذكرها الله مراراً كثيرة في سور متعددة من كتابه، وكلها صريح في أنه أبوه لا عمّه، ولم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله حرف واحد يدل علىٰ أنه عمّه، إلا أن أهل السير أُولعوا بأن قالوا: أبوه: عمّه. والذي يجب علينا جميعاً هو تصديق الله، وأن لا نُحرّف كلام الله، ولا نفسره بغير معناه إلا بدليل يجب الرجوع إليه من كتاب أو سنة، فاحترام الله واجب، واحترام كتابه واجب، ومن أَوْجَبِ احترامه: أن لا نحرفه، ولا ننقل لفظاً[٤] منه عن ظاهره المتبادر منه إلا بدليل يجب الرجوع إليه، لا سيما والله في آيات كثيرة من كتابه جاء بالقصة بعبارات مختلفة، منها ما هو في الخطاب، ومنها ما هو في غيره، كلها صريحة في أنه أبوه لا عمّه.

---

(١) انظر: المحتسب (١/ ٢٢٣)، ابن جرير (١١/ ٤٦٧).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٤٦٧)، القرطبـي (٧/ ٢٢)، ابن كثير (٢/ ١٤٩).

(٣) هو عبيد الله بن قيس، أحد بني عامر بن لؤي. انظر: الشعر والشعراء ص ٣٦٦.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة البقرة.

والأبُ إذا أطلقته العرب انصرف إلىٰ أب الرجل الذي وَلَدَه، ولا يجوز أن يُحمل علىٰ أنه عمه إلا بدليل يجب الرجوع إليه، لا سيما لو كثُر ذكره في القرآن بعبارات كثيرة مختلفة، علىٰ أنحاء مختلفة، كلها صريح في أنه أبوه، فنقلها إلى عمه من غير دليل من كتاب ولا سنة تجرؤ علىٰ الله وعلىٰ كتابه بما لا يجوز. وأهم شيء في التعظيم والاحترام: كلام خالق السماوات والأرض، والحذر من أن يُبدل أو يُحرف، الله قال هنا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: آية ٧٤] وقال في موضع آخر في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٥١، ٥٢] وقال في الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٦٩، ٧٠] وقال في سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ إلى آخر الآيات. [مريم: الآيات ٤١ ــ ٤٣]. وقال في براءة: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: آية ١١٤] وهذا كثير في القرآن، وكذلك قال نفس إبراهيم: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: آية ٨٦] فجاء مراراً كثيرة بكلام خالق السماوات والأرض، وليس لنا أن نُحَرِّف كلام الله، ولا أن نحمله علىٰ غير معناه إلا بدليل يجب الرجوع إليه من كتاب وسنة، وكونه أباه لو كان فيه منقصة أو مضرّة علىٰ إبراهيم لما كان إبراهيم يقول: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: آية ٨٦]، ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: آية ١١٤] فشرف إبراهيم،

وجلالته، ومكانته هي هي، لا ينقصها شيء من ذلك، وعلىٰ كل حال فعلينا أن نُصَدِّق الله، ولا نُحَرِّف كلامه، ونحمله علىٰ غير معناه افتراء علىٰ الله من غير برهان من كتاب ولا سنة.

ومعنىٰ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ واذكر ﴿إِذْ قَالَ﴾ نبي الله ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ وخليله ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ وكان في قوم يعبدون الكواكب السيارة السبعة، ويعبدون تماثيل أصنام أرضية، فلهم معبودات أرضية، ومعبودات سماوية، معبوداتهم الأرضية: أصنام، وتماثيل، يزعمون أنهم يجعلون صورها وأشكالها علىٰ هيئة الملائكة، ويعبدونها لتشفع لهم عند الله، وكذلك يعبدون الكواكب السيارة التي هي الشمس، والقمر، وزُحل، والمشتري، والزهرة، وعطارد، والمريخ، كما هي معروفة. قال لهم نبي الله إبراهيم موبخاً لهم مُسَفِّهاً أحلامهم: قال لأبيه (آزر) مُنكراً عليه بهمزة الإنكار: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ المعنىٰ: أتتخذ تماثيل مصورة من حجارة، أو من غيرها من الأجسام، تتخذها آلهة تعبدها من دون الله، وتصرف لها حقوق الله، مع أنها لا تنفع ولا تضر؟ هذا مما لا يليق!! كما قال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: آية ٤٢] وقد أفحمهم بالحجة في سورة الأنبياء، ذلك كما قصّه الله في الأنبياء[(١)]، والصافات[(٢)]، أنه ما كان يجد فرصة يكسر أصنامهم فيها؛ لأنه إن كسرهم وهم ينظرون أهانوه وآذوه، وكان يرتقب فرصة يكسرهم فيها، حتى جاء يوم عيدهم، فجاؤوا بطعامهم وشرابهم

---

(١) كما في قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ والآيات بعدها.

(٢) كما في قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ والآيات بعدها.

ووضعوه عند الأصنام، وقالوا للأصنام: اجعلوا لنا البركات والخيرات في هذا الطعام والشراب حتى نرجع من عيدنا، وقالوا لإبراهيم: اخرج معنا إلى عيدنا. ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾. يريد أن يتخلص منهم ليكسر الأصنام، فلما خرجوا جاء إلى الأصنام وبيده الفأس، فوجد الطعام عندهم ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ مستهزئاً بهم، لِمَ لا تأكلون من الطعام؟ كما قال في الصافات: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الصافات: آية ٩١]، ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: آية ٩٣] يضربهم ويُكسرهم بيمينه بالفأس، فلما كسرهم ترك كبيرهم، وهو أعظم صنم عندهم، يقولون: إنه مرصّع بالجواهر، وأن عليه ياقوتتان. علق الفأس في عنقه(١)، فلما جاؤوا من عيدهم وجدوا الأصنام مكسّرة، والفأس معلقاً في عنق الكبير، فقالوا: من فعل هذا بآلهتنا؟ فدُلوا على إبراهيم، كما فصَّله الله في سورة الأنبياء: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء: الآيات ٥١ ــ ٥٤] وكما قال هنا في الأنعام: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٧٤] فأجابوا: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنبياء: آية ٥٥] فأجابهم أنه جاء بالحق: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء: آية ٥٦] ثم قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ يعني بكيدها: أن يكسرها من حيث لا يحضر أحد يراه ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ وفي القراءة الأخرى:

---

(١) انظر: تاريخ ابن جرير (١/ ١٢٢)، البداية والنهاية (١/ ١٤٥).

﴿جِذَٰذًا﴾(١) أي: كسَّرهم ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾ فلما رجعوا ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ يعيبهم ويقول: إنه يكيدهم ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾ يشهدون عليه أنه الذي فعل هذا، فاستنطقوه وقالوا ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢﴾؟ ﴿هَٰذَا﴾ يعني: جَعْلهم جذاذاً، قال إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾ [الأنبياء: الآيات ٥٧ ـ ٦٣] إلى أن قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥﴾ [الأنبياء: آية ٦٥] أنت تعرف أن هؤلاء جماد، ما عندهم نطق، ولا يتكلمون. وكان هذا هو قصده، فقال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ [الأنبياء: آية ٦٧] فلما أفحمهم بالحجة والبرهان والدليل لجؤوا إلى القوة ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨﴾ فكانت قوة الله أعظم من قوتهم، قال للنار: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾ [الأنبياء: الآيات ٦٨ ـ ٧٠] هذه القصة مكررة في القرآن، ومما بسطها الله فيه: سورة الأنبياء، وذلك معنى قوله هنا في الأنعام: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٧٤﴾ [الأنعام: آية ٧٤] أي: في ذهاب عن طريق الحق بيّن واضح لكل من له أدنى عقل، كيف تتركون عبادة الخالق، الرازق، النافع، الضار، المحيي، المميت، وتعبدون جمادات لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر؟!! هذا هو الضلال المبين الواضح لكل من له أدنى عقل.

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٣٠٢.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام: آية ٧٥] الإشارة في قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما بصَّرنا إبراهيم العقيدة الصحيحة، وعرّفناه إخلاص العبادة لله، حيث وبّخ المشركين، وبيّن لهم أنهم في الضلال المبين، كذلك التبصير والتعريف بالدين الصحيح، وإخلاص العبادة لله، كذلك التعريف والتبصير نُريه ـ أيضاً ـ ملكوت السموات والأرض؛ ليكون من الموقنين في عقيدته ودينه[1]، و (الملكوت): أصله مصدر الملك، إلا أنه تُزاد فيه الواو والتاء، كالرَّهَبُوت، والرَّحَمُوت، والرَّغَبُوت في: الرحمة، والرهبة، والرغبة، وهي مصادر مسموعة في كلام العرب، نزل بها القرآن العظيم[2].

﴿ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: ملك السموات والأرض، وما أبدع الله في ملكه في السماوات والأرض من غرائب صنعه وعجائبه؛ ليكون من الموقنين.

وفي ﴿ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ في هذه الآية الكريمة وجهان لعلماء التفسير معروفان[3]: قالت جماعة كثيرة من العلماء: إن الله فتح له السماوات، فنظر كل ذلك، حتى إلى العرش، وأنه شقّ له الأرضين، وأطلعه حتى الأرض السفلى. وهذا قال به جمع كثير من العلماء، ولكن التحقيق في الآية: أن ﴿ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ التي أراه ليكون بها من الموقنين هو الظاهر من غرائب صنع الله

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٤٧٠)، الدر المصون (٥/ ٥).

(٢) ابن جرير (١١/ ٤٧٠)، ابن عطية (٦/ ٨٨)، القرطبي (٧/ ٢٣)، البحر المحيط (٤/ ١٦٥)، الدر المصون (٥/ ٦).

(٣) انظر: ابن جرير (١١/ ٤٧٠ ـ ٤٧٥)، القرطبي (٧/ ٢٣ ـ ٢٤).

وعجائبه، مما أبدع في أرضه وسمائه حيث جعل السماء سقفاً محفوظاً، تمر عليه آلاف السنين لا يتفطر، ولا يتشقق، ولا يحتاج إلى ترميم، مرفوعاً على غير عمد ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: الآيتان ٣، ٤] أي: ذليلاً من عِظم ما رأى، وجلالة ذلك الصنع، وكذلك الأرض بما أودع الله فيها من غرائب صنعه، وعجائبه، من أنواع الثمار، والجبال، وألوانها، والحيوانات، والناس، واختلاف ألسنتهم، وما أودع فيها من المنافع، والمعادن، والثمار، مما هو آيات تبهر العقول، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مخاطباً لكل الناس الذين لم يشقّ لهم السماوات ولا الأرض ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: آية ١٨٥]، وقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس: آية ١٠١]، ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: آية ١٠٥]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً﴾ [ق: الآيات ٦ ــ ٨] هذه (التبصرة) المذكورة هنا هي (الإيقان) المذكور في قوله: ﴿نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: آية ٧٥] هذا هو القول الصحيح الذي دلّ عليه استقراء القرآن[1]، لا ما زعموا من أنه شُقّت له السماوات إلى العرش، وأنه شُقّت له الأرضون إلى السفلى، وأن الله (جل وعلا) رفعه حتى اطلع على أعمال بني آدم، وكلما رأى

---

(١) وهو ما رجحه ابن جرير (رحمه الله). انظر: جامع البيان (١١/ ٤٧٥)، وابن كثير، كما في التفسير (٢/ ١٥٠).

إنساناً على فاحشة دعا عليه فهلك، وأن الله نهاه عن ذلك، وأخبره أن من أسمائه الصبور. كل هذه مقالات ذكرها كثير من علماء السلف من أكابر المفسرين[١]. والظاهر أن التحقيق خلاف ذلك كله، وهو ما ذكرنا، وهو أن ملكوت (السماوات) والأرض: ما أودع الله فيهما من غرائب صنعه، وعجائبها، مما يدل العقلاء على أن من صنعها هو العظيم القادر على كل شيء، وأنه المعبود وحده، كما قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] وأمثال ذلك من الآيات.

هذا معنى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الظاهر أن ﴿نُرِيٓ﴾ هنا من (رأى) البصرية. وقال بعض العلماء: من (رأى) العلمية. و ﴿نُرِيٓ﴾ عُدّي، أصله مضارع (أَرَيْنَا) بهمزة التعدية؛ ولذا كانت رأى بصرية فعدتها إلى المفعولين[٢].

وقوله جل وعلا: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ فيه الوجهان اللذان ذكرنا في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾[٣] [الأنعام: آية ٥٥] أحدهما: وليكون من الموقنين أريناه ذلك. والمعنى: ولأجل أن يكون من الموقنين أريناه ملكوت السماوات والأرض.

وقال بعض العلماء: نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ليُحَاجِج قومه، وليكون من الموقنين. والمعنى متقارب.

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٤٧٢ ـ ٤٧٣).

(٢) انظر: ابن عطية (٦/ ٨٨)، البحر المحيط (٤/ ١٦٥)، الدر المصون (٥/ ٥).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية المشار إليها. وفي هذه الآية انظر: ابن كثير (٢/ ١٥٠ ـ ١٥١)، البحر المحيط (٤/ ١٦٥)، الدر المصون (٥/ ٧).

و (الموقنون) جمع (الموقن)، و (الموقن) اسم فاعل (الإيقان)، وواوه مبدلة من ياء، أصله (مُيْقِن) (مُفْعِل) من (اليقين)[1]. و (اليقين) هو العلم الذي لا تتطرقه الشكوك ولا الأوهام، لا يقبل التغير بحال[2]. وهذا معنى قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ۝٧٦﴾ [الأنعام: آية ٧٦].

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ﴾ العرب تقول: «جنّ عليه الليل، وجنّه الليل، وأَجَنَّ عليه الليل، وأَجَنَّه الليل». فإذا قالت: «أَجَنَّ» رباعية كان قولها: «أَجَنَّه الليل» أفصح من «أَجَنَّ عليه الليل». وإذا قالت: «جنَّ عليه الليل»، فهو أفصح من «جَنَّه الليل»، والكل معروف في لغة العرب[3]. ومن تعدية (جَنَّ) ـ ثلاثية ـ قول الهذلي[4]:

ومــاءٍ وَرَدْتُ قُبَيْــلَ الكَــرَى   وقــد جَنَّــه السَّــدَفُ الأَدْهَــمُ

وأصل مادة (الجيم، والنون، والنون) (جَنَنَ) أصل هذه المادة في جميع تصرفاتها معناها: الاستتار

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال، ص ٢٩٥.

(٢) انظر: المفردات (مادة: يقن) ص ٨٩٢، التعريفات للجرجاني ص ٣١٦.

(٣) انظر: ابن جرير (١١/٤٧٨ ـ ٤٧٩)، الدر المصون (٥/٨).

(٤) البيت في ابن جرير (١١/٤٧٩)، البحر المحيط (٤/١٦٢)، الدر المصون (٥/٨).

والسَّدَف: الظُلْمة من أول الليل، أو آخره عند اختلاط الضوء.

والأدهم: الضارب إلى السواد.

والتغطية[١]، ومنه (الجِنَّة) وهم ـ مثلاً ـ إبليس وجنده؛ لأنّا لا نراهم. ومنه: (الجنين)؛ لأنه مستتر في بطن أمه، ومنه: (الجُنَّة) للدَّرَقَة؛ لأنها تستر صاحبها وتغطيه عن السهام، ومنه: (جَنَانُ الليل). أي: ظلامه وادْلِهْمَامه. وهذا معروف، كما قال الشاعر دُريد بن الصِّمَّة[٢]:

وَلَولاَ جَنَانُ اللَّيلِ أدرَكَ رَكْضُنَا
بِذِي الرِّمْثِ والأرطَي عِيَاضَ بن نَاشِبِ

هذا أصل المادة، ومعنى ﴿جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أظلم عليه الليل، وأرخى سدوله، حتى غطى الأجرام بسواده؛ لأنه عند ذلك الوقت تظهر الكواكب نيّرة؛ لأنه قبل ادلهمام الليل وظلامه لم تُنر الكواكب. ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أظلم وادلهم وغطّى الأجرام بظلامه.

﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ ﴿رَءَا﴾ معناه: أبصر بعينه ﴿كَوْكَبًا﴾ والكوكب: النجم الكبير، وعلماء التفسير يقولون: إن ذلك الكوكب الذي رآه هو الكوكب المسمى بالزُهرة[٣]. وهو من الإسرائيليات، وغاية ما دلّ عليه القرآن أنه رأى نجماً كبيراً، وهو مُراده بقوله: ﴿كَوْكَبًا﴾، وكان

---

(١) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الجيم، باب: ما جاء من كلام العرب في المضاعف والمطابق أوله جيم. ص ٢٠٠، المجمل، كتاب الجيم، باب ما جاء من كلام العرب أوله جيم في المضاعف والمطابق، ص ١٢٠، المفردات (مادة: جن) ص ٢٠٣.

(٢) البيت في المحتسب (٢/ ٢٩٣).

(٣) انظر: القرطبي (٧/ ٢٥)، البحر المحيط (٤/ ١٦٦)، البداية والنهاية (١/ ١٤٣)، الدر المنثور (٣/ ٢٥).

أبوه وقومه يعبدون معبودات أرضية ومعبودات سماوية، منها الكواكب السبعة[(١)].

قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، قول إبراهيم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ في رؤيته للكوكب، ورؤيته للقمر، ورؤيته للشمس، أصله فيه بحث معروف للعلماء، غلط جماعة في هذا المقام من العلماء، منهم العالم الكبير ابن جرير الطبري، فزعم أن إبراهيم قال هذا ناظراً لا مُناظراً، وأنه قال هذا قبل أن يتيقن الدليل، يظن أن الكوكب ربه. هذا قاله[(٢)] ونقله عن ابن عباس[(٣)]، واستدل عليه بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٧٧] قال: فقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ هذا يدل على أنه قال هذا قبل أن يتيقن الحقيقة، وقبل أن يتم له النظر، فبعد أن تمّ نظره وعلم الحق، قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: الآيتان ٧٨، ٧٩].

والتحقيق بدلالة القرآن والسنة: أن هذا القول لهذه الطائفة من العلماء، منهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري، ورواه عن ابن عباس، أن هذا القول غلط لا شك فيه، وأن إبراهيم لم يظن يوماً في ربوبية كوكب، ولم يشك يوماً واحداً في ربوبية الله، هذا التحقيق الواجب اعتماده، الذي دل عليه كتاب الله وسنة نبيه ﷺ[(٤)]، أما

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١/ ١٤٠).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٤٨٣ ـ ٤٨٥).

(٣) المصدر السابق (١١/ ٤٨٠).

(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج (٢/ ٢٦٦)، القرطبي (٧/ ٢٥)، ابن كثير (٢/ ١٥١)، البداية والنهاية (١/ ١٤٢)، فتح الباري (٦/ ٣٩١).

القرآن: فقد دل على هذا في مواضع كثيرة:

منها: أنه أولاً قال رافعاً لهذا الاحتمال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام: آية ٧٥] فلما أثبت له اليقين قال بعد ذلك مرتِّباً عليه بالفاء: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾ [الأنعام: آية ٧٦].

والثانية: أن الله ذكر أنه قال هذا في سبيل المناظرة والمحاجّة، لا في سبيل النظر بنفسه، حيث قال: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ ﴾ [الأنعام: آية ٨٠]، وقال: ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الأنعام: آية ٨٣] ومن أصرح الأدلة في هذا: أن الله نفى عن إبراهيم كون الشرك في ماضي الزمن مطلقاً، حيث قال في آيات كثيرة من كتابه: ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل: آية ١٢٣] ونَفْي الكون الماضي يستغرق الكون في جميع الزمن كائناً ما كان، وكذلك قوله: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: آية ٦٧] هذا جاء في آيات كثيرة، ونفي الإشراك عنه في الكون الماضي يدلّ بدلالة القرآن ـ دلالة المطابقة ـ على أنه لم يتقدم له كون إشراك البتة. والله يقول: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء: آية ٥١] فَعِلْمُ الله به وبصلاحه يدل على ذلك، هذا هو الحق الذي لا شك فيه.

ولطالب العلم أن يقول: قررتم لنا أن إبراهيم لا يعتقد ربوبية الكوكب، وأن القرآن دل على ذلك، ومن السنة الصحيحة الدالة عليه: ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، اثنتين منها في**

ذات الله . . » الحديث(١) .

وهذا حديث صحيح متفق عليه، وهذه الكذبات الثلاث التي قالها النبي ﷺ يعني أنها في الصورة كصورة الكذب، وهي في نفس الأمر ليست من حقيقة الكذب(٢)، بدليل أنه قال: «اثنتين منها في ذات الله» وكيف يكون الكذب في ذات الله؟ فالذي يأتي في ذات الله هو أحق الحق، وأصدق الصدق.

والكذبات الثلاث التي يعنيها رسول الله ﷺ في حديث أبي هريرة المتفق عليه:

أحدها: قوله لقومه لما أرادوا أن يخرج معهم إلى عيدهم، وهو يريد أن يتخلف عنهم ليتسنى له تكسير الأصنام: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: الآيات ٨٨ ـ ٩٣] فقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ ـ وهو صحيح ـ قال بعض العلماء(٣): يريد أني سقيم عليكم، سقيم القلب لخساسة عقولكم، وأنكم تعبدون مع الله جمادات، وأنكم ذاهبون بفعلكم إلى النار. أو: إني سقيم في المستقبل؛ لأن الإنسان لا بد أن يمرض فيأتيه الموت. وفي المعاريض منادح كثيرة عن الكذب.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾، حديث رقم: (٣٣٥٧، ٣٣٥٨) (٦/ ٣٨٨)، وأطرافه: (٢٢١٧، ٢٦٣٥، ٥٠٨٤، ٦٩٥٠) ومسلم في الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ، حديث رقم: (٢٣٧١) (٤/ ١٨٤٠).

(٢) انظر: الفتح (٦/ ٣٩١).

(٣) انظر: الفتح (٦/ ٣٩١).

الثانية: هي قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: آية ٦٣] وبعض العلماء يقول: إنه قال ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ قصده ليُلجئهم إلى الإقرار؛ لأن كبيرهم لا يفعل، وأنه جماد لا يفعل شيئاً، فكأنه يُعرض ويقول: أنتم تعبدون ما لا ينفع ولا يضر، إلى غير ذلك من الأجوبة(١).

أما الثالثة: فهي أنه لما هاجر من بلاد قومه، لما أنجاه الله من النار، مرّ على ذلك الجبار، في القصة المشهورة الثابت في الصحيحين(٢)، وكانت امرأته ــ سارة ــ من أجمل النساء، فعلم بها ذاك الجبار فطلبها، ولما قال له: **ما هي منك؟** قال: هي أُختي. ولم يقل: هي زوجتي. خوف أن يغار عليه فيلحقه منه بأس، وجاءها وقال لها: يا سارة، إني قلت لهذا الجبار: إنك أُختي، وأنت أُختي في الدين، ليس هنا من يدين بدين الإسلام إلا أنا وأنتِ، فأنتِ أختي في الإسلام، فلا تكذبيني. في القصة المشهورة الثابت في الصحيح فلما أُدخلت عليه، وأراد أن يتناولها بسوء أُخذ، فقال لها: ادع الله لي ولا أعود، فدعت له فبرىء، فهمّ أن يعود فأُخذ أشد من الأول، فقال لخدمه: ما أتيتموني بإنسان، وإنما أتيتموني بشيطان!! وأَخْدَمها هاجر التي أعطتها لإبراهيم، فتسرّاها وكانت أم إسماعيل. ويذكرون في التاريخ ــ وقد دل عليه بعض الأحاديث ــ أن هاجر أصلها بنت ملك القبط ــ ملك مصر ــ أخذها منه هذا الملك الجبار(٣).

---

(١) المصدر السابق (٦/ ٣٩١ ــ ٣٩٢)، وانظر: البداية والنهاية (١/ ١٤٥).

(٢) مضى تخريجه في الصفحة السابقة.

(٣) انظر: الفتح (٦/ ٣٩٤).

هذه الثلاث محل الشاهد من هذا الحديث الصحيح: أن إبراهيم لو كان معناه أن الكوكب رب، وأن القمر رب، وأن الشمس رب، لكان هذا أعظم فرية، وأعظم كذب. فلم يقل النبي: إنه لم يكذب إلا هذه الكذبات، وإن كانت في نفس الأمر ليست بكذبات، إلا أن صورتها كأنها صورة الكذب، وهي في الحقيقة بعيدة من الكـذب، لطالب العلم أن يقول: قد قررتم لنا أن قول إبراهيم: ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ في الكوكب، وفي القمر، وفي الشمس، ليس يظن أن الكوكب رب، ولا يشك في ذلك، ولكن إذاً فما معنى قوله: ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾؟ وأين نصرِف هذا اللفظ عن الاعتراف بربوبية الكوكب، والقمر، والشمس؟؟

الجواب: أن العلماء خرّجوا هذا على وجهين[1]، كلاهما قد يُغني عن الآخر:

الأول: الـذي عليـه الجمهـور: أن المُنـاظِـر إذا أراد أن يُفحـم خصمه سلَّم له مقدمة تسليماً جدلياً ليمكِنه أن يفحمه؛ لأنه إذا نفى المقدمة لا يمكن أن يفحمه. فالمعروف في فنون الجدل: أنه لا بد للخصمين مـن أن يتفقا على قاعدة، وإن اختلفا مِنَ الأول لا يمكن أن يفحمه. وعليه فالمعنى: ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ على التسليم الجدلي، وفي زعمكم الكافر الفاسد كما قال الله جل وعلا: ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ﴾ [النحل: آية ٢٧] فنسب إلى نفسه الشركاء ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ﴾ وليس لـه شـريـك (جـل وعـلا) ليقـرِّعهـم،

(١) انظـر: معـانـي القـرآن للـزجـاج (٢/ ٢٦٦)، القـرطبـي (٧/ ٢٥)، ابـن كثيـر (٢/ ١٥١)، البـدايـة والنهـايـة (١/ ١٤٢)، فتـح البـاري (٦/ ٣٩١)، القـاسمـي (٦/ ٥٨٩ ـ ٥٩٠).

ويوبّخهم، كأنه يقول: هذا ربـي على التسليم الجدلي والتنزّل، وفَرْض المُحال، وتسليم المُحال، على قولكم الكاذب الفاسد، فكيف يكون الرّب وهو يأفل ويسقط؟ فمقصوده بهذا ليُفْحِمَهم، فلو قال لهم عند أول وهلة: الكوكب مخلوق مُسَخَّر، لا يمكن أن يكون رباً. لقالوا له: أنت كذاب، الكوكب رب لا محالة. فلما تنزّل معهم، وسلّم لهم الكذب والمحال، أمكنه أن يُفحمهم، وعلى هذا فمعنى قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ أي: في زعمكم الكافر الفاسد. فمن أين يكون الرب وهو يأفل؟ أي يسقط.

الوجه الثاني: هو ما قاله بعض العلماء: من أن المقرر في علوم العربية أن الجملة إذا صُدِّرت بهمزة استفهام أو همزة تسوية، وكان المقام يدل عليها، أن حذفها جائز، وعليه فالمعنى: أهذا ربـي؟! إنكاراً لهم. وحَذَفَ همزة الاستفهام. قالوا: وحَذْفُ همزة الاستفهام إذا دل المقام عليه، ذهب غير واحد من علماء العربية إلى أنه جائز، وقال باطّراده جماعة من النحويين، منهم: الأخفش، واعتمده ابن مالك في شرح الكافية، وقال به غير واحد[1].

وإذا نظرت كلام العرب وجدته كثيراً فيه، فائضاً فيه، كثرة تعرف منها أنه جائز.

وهو يوجد في كلام العرب على ثلاثة أنحاء ـ أعني حذف همزة الاستفهام إذا دل المقام عليها ـ : يوجد بدون (أَمْ)، وبدون

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٤٨٤)، الكتاب (٣/ ١٧٤)، الصاحبـي ص ٢٩٦، الخصائص (٢/ ٢٨١)، شرح الكافية لابن مالك (٣/ ١٢١٥ ـ ١٢١٧)، الخزانة (٤/ ٤٤٧ ـ ٤٥٠)، القرطبـي (٧/ ٢٦)، الدر المصون (٥/ ١٢)، التوضيح والتكميل (٢/ ١٧٧)، ضياء السالك (٣/ ١٩٧).

ذكر الجواب، ويوجد بدون (أَمْ) مع ذكر الجواب. وهو مع (أَمْ) كثير مُطَّرد شائع.

فمثال وجوده دون (أم) ودون ذكر الجواب: قول أبي خراش الهذلي ــ واسمه خويلد[(١)] ــ:

رَفَوْني وقالوا يا خويلدُ لم تُرَعْ   فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

يعني: أَهُم هُم؟ فحذف همزة الاستفهام، ومن هذا المعنى قول الكُميت[(٢)]:

طربتُ وما شوقاً إلى البِيْضِ أطربُ   ولا لعباً منِّي وذو الشَّيْب يلعبُ؟

يعني: أَوَذُو الشيب يلعب؟! فحذف همزة الاستفهام.

ومنه دون (أم) مع ذكر الجواب على التحقيق: قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي[(٣)]:

أَبْرَزُوهَا مثل المَهَاة تهادَى   بين خَمْسٍ كواعبٍ أترابِ
ثم قالوا: تُحبها؟ قلت بَهْراً   عدد النجمِ والحصى والتراب

فقوله: «تحبها»، يعني: أتُحبها؟؟ وإتيانه مع (أَمْ) لا تكاد تحصيه في كلام العرب وأشعارهم، فَمِن حَذْف همزة الاستفهام قبل

---

(١) البيت في: الخصائص (١/ ٢٤٧)، (٣/ ٣٣٧)، الصاحبي ص ٢٩٦، ابن جرير (١١/ ٤٨٤)، الخزانة (١/ ٢١١).

(٢) البيت في: الخصائص (٢/ ٢٨١)، شرح الكافية (١/ ٣٩٩)، (٣/ ١٢١٧)، الخزانة (٤/ ٤٤٨).

(٣) هذان البيتان يفصل بينهما نحو ستة أبيات من القصيدة. وهما في ديوانه ص ٥٩ ــ ٦٠، الخصائص (٢/ ٢٨١) والمثبت فيهما: «عدد القطر».

(أَمْ) قول عمر بن أبي ربيعة[١]:

بدا لي منها مِعْصَمٌ يوم جَمَّرتْ ... وكفّ خَضِيب زُيِّنت ببنانِ
فواللّه ما أدري وإني لحاسب ... بسبع رميتُ الجمر أم بثمان

يعني: أبسبع أم بثمان.

ومنه بهذا المعنى قول الأخطل[٢]:

كَذَبَتْكَ عينُك أم رأيتَ بواسطٍ ... غَلَسَ الظلام من الرَّبابِ خَيالاً

يعني: أكذبتك، بحذف الهمزة. كما جَوَّزه سيبويه في كتابه خلافاً للخليل[٣]. ومنه بهذا المعنى قول الأسود بن يعفر التميمي[٤]:

فواللّه ما أدري وإن كنت دارياً ... شُعَيثُ بن سَهْمٍ أم شُعيثُ بن مِنْقَرِ

يعني: أشعيث بن سهم؟ ومنه بهذا المعنى قول أُحيحة بن الجُلاح الأنصاري المشهور[٥]:

وما تدري وإن ذَمَّرْتَ سَقْباً ... غيرك أم يكون لك الفصيل

يعني: ألغيرك.

---

(١) البيت في: الكتاب (٣/ ١٧٥)، الصاحبي ص ٢٩٧، شرح الكافية (٣/ ١٢١٥)، الخزانة (٤/ ٤٤٧).

(٢) البيت في ديوانه ص ٢٤٥، الكتاب لسيبويه (٣/ ١٧٤)، الخزانة (٤/ ٤٥٢).

(٣) انظر: الكتاب لسيبويه (٣/ ١٧٤).

(٤) البيت في الكتاب (٣/ ١٧٥)، الخزانة (٤/ ٤٤٨ ـ ٤٥٠) شرح الكافية (٣/ ١٢١٣)، وشطره الأول هكذا:
(لعمرك ما أدري. . .) إلخ.

(٥) البيت من قصيدة لأُحيحة بن الجلاح الأوسي الجاهلي كما في ديوانه، ص ٧٥.

وقول الخنساء الشاعرة[1]:

قَـذىً بعينيـكَ أمْ بـالعيـنِ عُـوَّارُ   أمْ خِلْتَ إذْ أَقْفَرتْ من أهلها الدارُ

وقول امرىء القيس[2]:

تَـرُوحُ مِـنَ الحـيِّ أو تبْتكِـرْ   مَـاذا عَلَيْـكَ بـأنْ تنْتَظِـرْ؟

وهو كثير شائع، قالوا: فعلى هذا فيكون المعنى: أهذا ربي؟ فحذفت أداة الاستفهام، وعلى هذا القول فالقرينة على أداة الاستفهام: إيقان إبراهيم المذكور قبله في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام: آية ٧٥] وتصريح الله بأنه مُحاجّ ومناظر لا ناظر بقوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾ [الأنعام: آية ٨٠] وقوله: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: آية ٨٣] قالوا: ومن حذف الاستفهام في القرآن قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾ [الأنبياء: آية ٣٤] لأن المعنى: أفئن مت أفهم الخالدون بعد موتك؟ في نظائر ذكروها. هذان الوجهان في قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [الأنعام: آية ٧٦].

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أُفول النجم هو سقوطه وغيبوبته، إذا طلع النجم تقول العرب: طلع، وتقول في القمر والشمس: بَزَغ. فإذا غاب تقول العرب: أَفَل، فالأُفُول: الغيبوبة[3]، ومنه قول العرب: أين أَفَلْتَ عنّا؟ أين غِبْتَ عنا؟ فلمّا أَفَل ذلك النجم ـ أي: غاب ـ

---

(١) شرح ديوان الخنساء ص ٣٨، ولفظه في الديوان:

قـذى بِعَيْنِـكِ أمْ بـالعَيـنِ عُـوَّارُ   أمْ ذَرَفَتْ إذْ خَلَتْ من أهلها الدارُ

(٢) ديوان امرىء القيس ص ٦٨.

(٣) انظر: ابن جرير (١١/ ٤٨٥).

قال إبراهيم: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ٧٦﴾ يعني بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ٧٦﴾ لا أحب أن أعبد هذا الساقط المُتَغَيِّر المُسَخَّر؛ لأنه لا يمكن أن يكون هو المُدبرَ لشؤون هذا العالم، الذي بيده النفع والضر، فمن يتصف بصفة الأفول والغيبوبة والسقوط لا يحب عبادته؛ لأنه ليس متصفاً بصفات الرب؛ لأن صفات الرب: العظمة، والقدرة الكاملة، وهذا متصف بصفة نقص وتغير، لا يصلح أن يكون رباً. قال بعض العلماء: ووافق هذا أن في معتقدهم أن الكواكب التي يعبدونها أنها وقت أُفولها يسقط تأثيرها في ذلك الوقت، وأنها تضعف حتى ترجع طالعة، فيرجع لها ما كان لها من التأثير في زعمهم / فوافق هذا أُفوله؛ ولذا قال لهم: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ٧٦﴾. [٧/ب]

فكأنه هنا استنتج لهم إنتاجاً واضحاً أن الكوكب لا يمكن [أن يكون][1] رباً من مقدمتين:

أحدهما: أنه آفل، وكونه آفلاً يدل على أنه مُسَخَّر، أنه جرم مُسَخَّر بقدرة وإرادة غيره.

الثانية: هي أنه لا يحب الآفلين، فكأنه يقول: هذا آفل، وكل آفل كائناً ما كان متصف بصفات النقص لا يمكن أن يكون رباً، فهذا لا يمكن أن يكون رباً.

ثم قال جل وعلا: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: آية ٧٧] أصل البزوغ: أول الطلوع، لمّا رآه طالعاً في أول طلوعه قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على ما بينا في غيره.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب القمر وذهب. ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾. العلماء قالوا: قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى﴾ فيه وجهان من التفسير[(١)]:

أحدهما: أنه تواضع من إبراهيم، كقوله هو وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: آية ١٢٨] يطلب الله أن يجعله من جملة المسلمين تواضعاً لله (جل وعلا). وكقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: آية ٣٥] كل هذا تواضع من الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم)، وإظهارهم للفقر والعجز بين يدي الله (جل وعلا)، ولذا قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٧٧].

الثاني: هو ما قال بعض العلماء: أن هذا تعريض بقومه، يعني من لم يهده الله فإنه ضال، فكيف تضلون وتعبدون من دون الله أجراماً لا تنفع ولا تضر، وليس بيدها شيء؟ والمعنى: من لم يهده الله فلا هادي له، فهو ضال، كأنه تعريض بقومه على هذا القول.

ثم لما رأى الشمس ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ أي: طالعة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: آية ٧٨] والمعنى: هذا الطالع المنير ربي، فعبّر عنها بالمعنى، هذا الطالع المنير ربي[(٢)]. قال بعض العلماء[(٣)]: ووجه تذكيره لأنه لا ينبغي أن يُطلق على الرب اسم أنثى، ولو على لفظه؛ ولذا قال: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ هذا الطالع المنير ربي.

---

(١) انظر: القاسمي (٦/ ٥٩١).
(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٤٨٦)، البحر المحيط (٤/ ١٦٧)، ابن كثير (٢/ ١٥١).
(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٦٧)، الدر المصون (٥/ ١٤)، القاسمي (٦/ ٥٩١).

ثم قال: ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ هذا من التنزّل كالأول، يعني: هذا أكبر من الكوكب ومن القمر، فحذف (مِنْ) وما بعدها[1]، هذا أكبر من الكوكب ومن القمر، ومقصوده بـ ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ هو إسقاط الشمس أيضاً؛ لأن الأكبر الأعظم إذا كان يتصف بصفة النقص فصفة النقص أعظم في الكبير الجليل منها في الصغير الحقير.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ أي: غابت الشمس ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ أقام عليهم الحجة ثلاث مرات، فأظهر حقيقة أمره، وقد قضى وَطَرَه من التنزّل لهم حتى ألقمهم الحجر، فصرح لهم بعقيدته، قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾ أبرأ إلى الله مما تعبدون من دونه.

ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾ [الأنعام: آية ٧٩] أي: أخلصت عبادتي وقصدي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ للقادر النافع الضار الذي هو الخالق الرازق. وقوله: ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ يُشير به إلى أن علامة استحقاق العبادة شيء واحد، العلامة لمن يستحق العبادة شيء واحد، وهو أنه الذي يخلق ويُبرز من العدم إلى الوجود، فمن يبرزك من العدم إلى الوجود هذا ربك الذي يستحق أن تعبده، ومن لا يقدر على إبرازك من العدم إلى الوجود فهو عبد مربوب محتاج إلى خالق يعبده مثلك؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة: آية ٢١]، وقال: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل: آية ١٦] لا والله ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: آية ١٦] وخالق كل شيء هو المعبود وحده.

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٤٨٦).

ومعنى: ﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: آية ٧٩] فطرهما يعني: خلقهما واخترعهما على غير مثال سابق. فـ (الفَطْر) معناه: الاختراع والابتداع على غير مثال سابق، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما كنت أتحقق حقيقة معنى ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: آية ١٤] حتى اختصم إلي أعرابيان في بير، فقال أحدهما: إنها بيري، وأنا الذي فطرتها[1]. يعني: اخترعتها، وابتدأت حفرها. فعلمت أن العرب تطلق هذا على اختراع الفعل وابتدائه. وهذا معنى قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: أخلصت عبادتي وقصدي للذي خلق السموات والأرض.

﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: خلقهما وابتدعهما بما فيهما.

﴿حَنِيفًا﴾ أي: حال كوني حنيفاً، أي: مائلاً عن الدين الباطل إلى دين الحق، أصل الحنيف: (فَعِيْل) من (الحَنَف) بفتحتين،

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (٢/ ١٧٤)، وفي غريب الحديث له (٤/ ٣٧٣)، وابن جرير (١١/ ٢٨٣)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٣١٦)، وفي الأسماء والصفات له ص ٤٤، وابن عبد البر في الاستذكار (٨/ ٣٨٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق. انظر: مختصره لابن منظور (١٣/ ٣١٣)، وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٧)، وعزاه لأبي عبيد، وابن جرير، وابن الأنباري في الوقف والابتداء. ومداره على إبراهيم بن مهاجر، وهو البجلي. قال عنه في التقريب ص ٢٥٦: «صدوق لين الحفظ». اهـ، وانظر ترجمته في: تهذيب الكمال (٢/ ٢١١).

قال الحافظ في الكافي الشاف (ملحق بالكشاف (٤/ ٦١): «بإسناد حسن ليس فيه إلا إبراهيم بن مهاجر». اهـ، وانظر: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزيلعي (١/ ٤٣٤).

و (الحَنَف) أصله في لغة العرب أن يميل مقدم الرجل اليمنى إلى جهة الرجل اليسرى، ويميل مقدم الرجل اليسرى إلى جهة الرجل اليمنى، فيقال للرجل: (أحنف)، وللمرأة: (حَنْفَاء). وقد كان كذلك الأحنف بن قيس المشهور، وقد قالت أمه تُرَقِّصه وهو صغير[(١)]:

والله لولا حَنَفٌ برِجْلِه ما كانَ في فِتْيانكم مِنْ مِثْلِه

فهذا الميل صار حقيقة عُرفية في الميل عن الدين الباطل إلى دين الحق، فمعنى ﴿حَنِيفًا﴾: مائلاً عن كل دين باطل إلى دين الله الصحيح[(٢)].

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ [الأنعام: آية ٧٩] يعني في قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [الأنعام: آية ٧٦] لست أشرك بربي شيئاً، ولا أعتقد ربوبية كوكب، ولا شمس، ولا قمر.

هذا هو الظاهر في هذه الآيات الكريمة أن نبي الله إبراهيم مُنَاظر لا ناظر، وأنه يريد بهذا التنزّل: التوصل إلى إفحام خصومه بدليل قوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾ [الأنعام: آية ٨٠] حاجّه: أصله (حَاجَجَه) من (المُحَاجَجَة)، بأن يُدلي كل منهما بحجته ضد الآخر، وكل كلام يُدلي به خصم ضد آخر يُسمى: (حجة) ولو كان في غاية البطلان، كما قال تعالى في قوم أدلوا بكلام باطل: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: آية ١٦] فهو يطلق على كل ما أدلى به خصم ضد آخر، تقول له العرب: (حجة)[(٣)]، و (المُفَاعَلَة): (حَاجَّ) أصلها: (حَاجَجَ)، على وزن

---

(١) البيت في القرطبي (٢/ ١٤٠)، الدر المصون (٢/ ١٣٧).

(٢) انظر: ابن جرير (٣/ ١٠٤)، المفردات (مادة: حنف) ص ٢٦٠، القرطبي (٢/ ١٣٩ ــ ١٤٠)، الدر المصون (٢/ ١٣٧).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من سورة البقرة.

(فَاعَلَ) أُدغمت إحدى الجيمين في الأُخرى.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ قوم الرجل أصلهم: جماعته، و (القوم) في وضع اللسان العربي يُطلق على الذكور خاصة، وربما دخل فيهم الإناث بحكم التبع[١]. فالدليل على إطلاقه على الذكور خاصة في الوضع العربي قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: آية ١١] فَعَطْفُ النساء عليهم يدل على اختصاص اسم (القوم) بالذكور دون الإناث، ونظيره من كلام العرب قول زهير بن أبي سُلمى[٢]:

وما أَدْرِي وسوفَ إخالُ أَدْري ... أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نِساءُ

والدليل على دخول النساء في اسم (القوم) بحكم التبع قوله تعالى في بلقيس: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾ [النمل: آية ٤٣] دخلت بالتبع، بدليل قرينة السياق.

ومعنى محاجة قومه له: أنهم قالوا له: كيف تدّعي أن المعبود واحد، وأن العالم كله يدبر شؤونه ويسمع نداءه معبود واحد؟ هذا لا يمكن!! كما قال قوم نبينا له: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾ [ص: آية ٥] فقالوا له: من يعبد آلهة متعددة خير ممن يقتصر على واحد؛ لأن هؤلاء المتعددين تتكرر بهم الشفاعة من جهات، وهذا واحد. ومحاجتهم له في توحيد الله؛ ولذا قال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٨٠] دل ذلك على أن محاجتهم في

---

(١) انظر: المفردات (مادة: قوم) ص ٦٩٣، اللسان (مادة: قوم) (٣/ ١٩٥)، الكليات ص ٧٢٨.

(٢) البيت في اللسان (مادة: قوم) (٣/ ١٩٥)، الدر المصون (١/ ٣٦٠).

الله وفي عبادته، قال منكراً عليهم: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء، ما عدا نافعاً وحده، وابن ذكوان عن ابن عامر، وهشام عن ابن عامر ــ بخلاف عنه ــ قرأه كلهم: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ بتشديد النون، وقرأه نافع برواية ورش وقالون وهشام ــ بخُلف عنه ــ عن ابن عامر كذلك ﴿أَتُحَاجُّونِي﴾ بتخفيف النون. والياء مثبتة عند جميع القراء، فهما قراءتان سبعيتان[1] ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ وهذه قراءة الجمهور، وقراءة نافع وهشام ــ في إحدى الروايتين ــ: ﴿أَتُحَاجُّونِي﴾ بنون بعدها ياء، نون مخففة.

أما قراءة الجمهور فلا إشكال في الآية عليها، أصلها تأتي هنا نونان، النون الأولى: نون الرفع، والثانية: نون الوقاية، فأُدغمت إحدى النونين في الأخرى، وهذا لا إشكال فيه[2].

أما على قراءة نافع: ﴿أَتُحَاجُّونِي فِي ٱللَّهِ﴾ وقرأ بها هشام عن ابن عامر ــ في إحدى الروايتين ــ ﴿أَتُحَاجُّونِي فِي ٱللَّهِ﴾ فقد استشكلها بعض العلماء، وذُكر عن بعض علماء العربية أنه قال: قراءة نافع في هذا لحن[3]!! وهذا خطأ، بل هي قراءة فصيحة، ولغة عربية فصحى، قرأ بها نافع في حروف كثيرة من القرآن، في قوله هنا في الأنعام: ﴿أَتُحَاجُّونِي فِي ٱللَّهِ﴾ وفي قوله في الزمر: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: آية ٦٤] وفي قوله في النحل: ﴿أَيْنَ

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٧.

(٢) انظر: حجة القراءات ص ٢٥٧، القرطبي (٧/ ٢٩)، البحر المحيط (٤/ ١٦٩)، الدر المصون (٥/ ١٥).

(٣) انظر: القرطبي (٧/ ٢٩)، البحر المحيط (٤/ ١٦٩)، الدر المصون (٥/ ١٩).

شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونِ فِيهِمْۚ﴾ [النحل: آية ٢٧] وفي قوله في الحجر: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونِ﴾ [الحجر: آية ٥٤] بكسر النون. كل هذه الحروف قرأها نافع على هذه الوتيرة. والتحقيق في هذا: أن هذه لغة فصحى، كما جزم به سيبويه(١) أن من عادة العرب إذا اجتمع مِثْلَان أن يخففوا ويحذفوا أحد المثلين، وأنشد له سيبويه قول عمرو بن معدي كرب الزبيدي(٢):

تــراه كــالثَّغَــام يُعَــلُّ مِسْكــاً   يســوءُ الفَــالِيَــاتِ إذا فَلَيْــنِ

قال: الأصل: فَلَيْنَني. فلما اجتمع نونان حُذفت إحداهما(٣). والتحقيق المقرر في علوم العربية: أن نون الرفع المعروفة في الأفعال الخمسة أنها لها حالات متعددة ـ لها تقريباً خمس حالات ـ في ثلاث حالات يجب حذفها بقياس مُطَّرد، وهذه الثلاث التي يجب فيها حذف نون الرفع(٤):

أولها: ما إذا دخل عليها جازم.

والثانية: إذا دخل عليها ناصب. وقد جمعهما قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: آية ٢٤].

---

(١) انظر: الكتاب (٣/ ٥١٩).

(٢) البيت في: الكتاب (٣/ ٥٢٠) وحجة القراءات ص ٢٥٨، القرطبي (٧/ ٢٩)، الدر المصون (٥/ ١٨).
والثغام: نبت له نور أبيض يُشَبَّه به الشيب.
ويُعلّ: أي: يطيب شيئاً بعد شيء.

(٣) انظر: حجة القراءات ص ٢٥٨.

(٤) انظر: التوضيح والتكميل (١/ ٦٠ ـ ٦١).

الثالثة[١]: إذا دخلت عليها نون التوكيد الثقيلة نحو: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾، فإنها يجب حذفها في هذه الأمور الثلاثة بقياس مُطَّرد. ما إذا تقدمها جازم، أو تقدمها ناصب، أو دخلت عليها نون التوكيد الثقيلة. فتحذف نون الرفع باطراد، وبقاؤها مع الجازم أو الناصب لغات قليلة مسموعة، وبقاؤها مع الجازم كقول الشاعر[٢]:

لولا فوارسُ من نُعْمٍ وأُسْرَتِهِم يومَ الصُّلَيْفَاءِ لم يوفُونَ بالجارِ

فهذه لغة قليلة تُحفظ ولا يقاس عليها. وكبقائها مع الناصب، كقول الشاعر[٣]:

أن تقرآن على أسماءَ وَيْحَكُما منِّي السلامَ وأن لا تُشْعِرَا أَحَدا

هذا أيضاً كذلك.

أما الموضع الرابع: فهو يجوز فيه حذفها وإبقاؤها بقياس مُطَّرد، كأن تجتمع نون الرفع مع نون الوقاية ـ كهذه الآيات التي ذكرنا ـ فإنها يجوز إثبات نون الرفع كقراءة الجمهور، ويجوز حذفها كقراءة نافع، وقد غلِط من ظن أن النون المحذوفة أنها نون الوقاية، فالمحذوفة نون الرفع[٤].

---

(١) انظر: الكتاب لسيبويه (٣/ ٥١٩)، المصدر السابق (٢/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩).

(٢) البيت في المحتسب (٢/ ٤٢)، الخصائص (١/ ٣٨٨)، الخزانة (٣/ ٦٢٦).
والصُّليفاء: مصغَّر صلفاء، وهي الأرض الصلبة. ويوم الصلفاء: من أيام العرب. وقد صغّره الشاعر هنا. وهو لهوازن على فزارة وعبس.

(٣) انظر: الخصائص (١/ ٣٩٠)، أوضح المسالك (٣/ ١٦٦)، الخزانة (٣/ ٥٥٩).

(٤) انظر: القرطبي (٧/ ٢٩)، الدر المصون (٥/ ١٦).

الموضع الخامس: هو أن تُحذف نون الرفع لغير واحد من الأسباب الأربعة ـ لأَنْ لا يدخل عليها ناصب، ولا جازم، ولا تكون مع نون التوكيد الثقيلة، ولا مع نون الوقاية ـ فحَذْفها في مثل هذا شاذ يُحفظ ولا يُقاس عليه، كقول الراجز(١):

أبيتُ أَسْرِي وتبيتِي تَدْلُكي وجهكِ بالعَنبرِ والمِسْك الذَّكِي

فالتحقيق أن قراءة نافع في هذا الحرف وفي غيره أنها على لغة عربية فصحى.

ومعنى الآية الكريمة: أتحاجونني، أتجادلونني في الله، وأني لا أعبده وحده، والحال قد هداني ربي، وشرح صدري بما أوحى إليّ، وبما أراني من ملكوت السموات والأرض حتى صرت من الموقنين، أَبَعْدَ هذا من العلم واليقين الذي أعطاني الله، تحاجونني وتجادلونني في الله، في أنه المعبود وحده؟ هذا مما لا يكون ولا يصح. ثم إنهم قالوا له على عادة الكفار: ترى أنك عِبت آلهتنا وأصنامنا، وعبتها وكسرتها، وقلت: إنها لا تنفع ولا تضر. ترى أنها ستصيبك ببرص أو جُذام أو تُخَبِّلك فتجننك(٢)!! وهذه عادة الكفار، يخوفون أنبياء الله من أصنامهم. فأجابهم إبراهيم قال لهم: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ قال لهم: لا أخاف ما تشركون به؛ لأنه لا ينفع ولا يضر، ولا يُترقب منه خوف ولا نفع، فلا أخافه أبداً.

---

(١) البيت في الخصائص (١/ ٣٨٨)، الخزانة (٣/ ٥٢٥)، الدر المصون (٥/ ١٧).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٤٨٩).

والتحقيق في الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ أنه استثناء منقطع. هذا هو التحقيق[١]، والمعنى: لكن إن شاء ربـي أمراً مَخُوفاً أوقعني فيه، أمّا أصنامكم فليس منها خوف، وليس منها نفع؛ لأنها جمادات لا تنفع ولا تضر. وهذا هو التحقيق، خلافاً لقوم زعموا أن الاستثناء متصل، وقالوا: لا أخاف من معبوداتكم إلا أن يشاء الله أن يجعل لي منها ضرراً، كأن يُسقط عليّ قطعة من القمر الذي تعبدون، أو من الشمس الذي تعبدون، وأن يخلق في الحجارة عقولاً وقوة تبطش بـي بها[٢]. هذا كله خلاف التحقيق.

والتحقيـق أن الاستثنـاء منقطـع، وأن المعنـى: ولا أخـاف مـا تشركون به شيئاً، فلا أخاف ما تشركون به، ثم إنه لما نفى الخوف عن نفسه استثنى مشيئة الله، إلا أن يشاء الله أن يخوفني بما شاء، فله في ذلك ما شاء، والاستثناء استثناء منقطع، والتحقيق: أن الاستثناء المنقطع جائز في لغة العرب، وفي كلام العرب، خلافاً للمقرر في أصول الإمام أحمد بن حنبل، فالمقرر في الأصول[٣] عند ثلاثة من الأئمـة: مـالـك، والشـافعـي، وأبـي حنيفـة، أن الاستثنـاء المنقطـع صحيح، وأنه جائز في القرآن وفي كلام العرب، خلافاً للمقرر في

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٤٨٩)، القرطبي (٧/ ٢٩)، ابن كثير (٢/ ١٥٢)، البحر المحيط (٤/ ١٦٩)، الدر المصون (٥/ ٢٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٧٠).

(٣) في هذه المسألة راجع: ابن جرير (٢/ ٢٦٤)، (٨/ ١٣٦، ١٣٧)، (٩/ ٣١)، البحر المحيط في أصول الفقه (٣/ ٢٧٧)، شرح الكوكب المنير (٣/ ٢٨٦)، المذكرة في أُصول الفقه ص ٢٢٦، نشر الورود (١/ ٢٨١)، أضواء البيان (٤/ ٣٣٦ ـ ٣٣٩).

أصول الإمام أحمد بن حنبل أن الاستثناء المنقطع لا يجوز؛ لأن غير ما دخل لا يمكن أن يُخرج بالاستثناء، وحجة الجمهور ورود الاستثناء في القرآن وفي كلام العرب، ومن ورود الاستثناء المنقطع في القرآن: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: آية ١٥٧] فاتباع الظن ليس من جنس العلم، وكقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠﴾ [الليل: الآيتان ١٩، ٢٠].

فليس من جنس نعمة لأحد عنده، وكقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: الآيتان ٢٥، ٢٦] فالسلام ليس من جنس اللغو. وهو كثير في كلام العرب، ومن أمثلته في كلام العرب قول نابغة ذبيان(١):

وقفتُ فيها أصيلاناً أُسائلها ... عَيَّت جواباً، وما بالرَّبْع من أَحَدِ
إلا الأَواريَّ لأْياً ما أُبيِّنُها ... والنُّؤي كالحوض بالمظلومة الجَلَدِ

فالأواري التي هي مرابط الخيل ليست من جنس الأحد. وكقول الراجز(٢):

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ ... إلا اليعافيرُ وإلا العيسُ

(١) البيت الثاني مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة، وهما في ديوان النابغة ص ٩، وقوله: (أُصيلاناً) أي: عند الأصيل. و (عيت جواباً) أي: عجزت عن الإجابة. و (الأواري) مفردها الآري، وهي الآخيّة التي تشد بها الدابة. و (اللأي) الشدة. و (النؤي) ما يُحفر حول الخيمة لعدم تسرب الماء أو غيره إلى داخلها. و (المظلومة الجلد) أي: الأرض الشاقة التي أُقيم فيها حوض على غير استحقاق منها لذلك.

(٢) البيت لجران العود. وهو في الخزانة (١٩٧/٤)، الدر المصون (٣٣/١١) واليعافير: جمع يعفور، وهو الظبي بلون التراب، أو عام.

وذلك ليس من جنس الأنيس. وقول الفرزدق[١]:

وبنت كريم قد نكحنا ولم يكن   لها خاطب إلا السنان وعامله

فالسنان ليس من جنس الخاطب.

وينبني في الأصول على الخلاف في الاستثناء المنقطع: ما لو قال رجل في إقراره: أُقر لزيد أن له علي ألف دينار إلا ثوباً. فالذين قالوا بجواز الاستثناء المنقطع، قالوا: تسقط قيمة الثوب من الألف. وعلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ـ المانع للاستثناء المنقطع ـ لا يسقط من الألف شيء؛ لأن الثوب ليس من جنس الدنانير التي أقر بها.

وعلى هذا فالمعنى: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ لا أخاف الأصنام التي تشركونها بالله (جل وعلا). فالتحقيق في الضمير في (به) أنه عائد إلى الله[٢]. (تشركونها بالله) أي: به (جل وعلا). لا أخافها لأنها لا تنفع ولا تضر. ثم استثنى وقال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ لكن إن شاء ربي مخوفا أن يوقعني فيه فله (جل وعلا) ما شاء، فالاستثناء منقطع، وليس المراد أنه استثنى مخافة من الأصنام أبداً؛ لأنها جماد لا ينفع ولا يضر، والاستثناء منقطع، كما جزم به غير واحد من المحققين، وقد غلط من جعله متصلاً، كمن قال: إن الله قادر على أن يخلق في الأصنام عقولاً وبطشاً تضره به، وقادر على أن يسقط عليه فلقة من القمر الذي يعبدون فتضره!! هذا بعيد من

---

(١) البيت في المقاصد النحوية (٣/ ١١٠).

(٢) انظر: القرطبي (٧/ ٢٩)، البحر المحيط (٤/ ١٦٩)، الدر المصون (٥/ ٢٠).

كلام العرب، والظاهر ما ذكرنا. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ﴾ يخوفني به فمشيئة الله نافذة كائنة ما كانت.

﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ﴾ ﴿عِلْمًاۗ﴾ تمييز مُحَوَّل عن الفاعل[1]. والمعنى: وسع علمه كل شيء، فهو عالم بكل شيء، وعلمه المحيط بكل شيء إذا أحاط بأنه يجعلني في مخافة فذلك حقيق، فلما نفى الخوف من الأصنام تدارك وقال: لا يمكنني أن أنفي الخوف، بل أُنيطه بمشيئة الله، إذا شاء أن يخيفني أخافني، وإلا فلا. هذا معنى الكلام.

ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتعظون وتعلمون أنني لا ينبغي لي أن أخاف من جمادات لا تنفع، مع أنكم لا تخافون من شديد البطش، ملك السماوات والأرض، حيث تكفرون به، وتصرفون حقوقه لغيره.

ولذا أتبعه بقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ [الأنعام: آية ٨١] في غاية الإنكار، كيف أخاف هذه الجمادات التي أشركتموها بالله، لا تنفع ولا تضر، وأنتم لا تخافون جبار السماوات والأرض، حيث تكفرون به، وتشركون به غيره؟

﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ (ما) موصولة، وهي في محل المفعول لـ: ﴿أَشْرَكْتُمْ﴾[2] أي: أشركتم بالله الشيء الذي لم ينزل به سلطاناً. أي: حجة.

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٧٠)، الدر المصون (٥/ ٢١).

(٢) انظر: الدر المصون (٥/ ٢١).

وهذه الآية الكريمة تدل على أن نفي الشيء لا يدل على إمكانه؛ لأن نفي السلطان عن الآلهة لا يدل على إمكانه، كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ [البقرة: آية ٥٧] فنفيه ظلمهم عنه لا يدل على إمكانه(١)، فهذا يدل على أن نفي الفعل لا يدل على إمكانه، كما قال جل وعلا: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: آية ١١٧] فنفي البرهان لا يدل على إمكان البرهان، إذ لا يقوم عليه برهان أبداً. وهذا معنى قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا﴾ [الأنعام: آية ٨١] أي: حجة واضحة.

ثم قال: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ أي الفريقين أحق بالأمن، أهو الفريق الذي يعبد الله، ويوحد الله، ويطيع الله، الذي بيده النفع والضر، ويُرقب ويُرجى من قِبَله كل شيء، أو هذا الذي يكفر بالله، ويغضبه، ويسخطه، ويصرف حقوقه للجمادات؟ أي هذين الفريقين أحق بالأمن والسلامة من الآخر؟ الجواب: أن فريق الله الذي يعبده ويوحده ويطيعه لا شك أنه أحق بالأمن.

ولذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنعام: آية ٨٢] وهم إبراهيم ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وقد ثبت في صحيح البخاري، في تفسير هذه الآية الكريمة، أنه لما نزل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال لهم النبي ﷺ: «**ليس الذي تريدون**». ثم تلا قوله: « ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾(٢)

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

[لقمان: آية ١٣] » وبين لهم أن المراد بالظلم هنا: الشرك.

وكان الزمخشري يقول: لا يمكن أن يُفَسَّر الظلم هنا بالشرك؛ لأن الله يقول: ﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ لأن الشرك لا يختلط مع الإيمان؛ لأنهما ضدان(١). وهذا في الحقيقة أمر غير صحيح؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: آية ١٠٦] فإنهم يؤمنون بربوبية الله (جل وعلا)، وبأنه النافع الرازق، ويشركون معه غيره في عبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ وقد جاء في بعض الأحاديث: أن النبي ﷺ خرج في سفر من أسفاره من المدينة، ثم بعد ذلك لحق بهم بدوي راكب على بعير، وقد قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، إني أتيتك من بلادي وتلادي، أُريد أن تعلمني مما علمك الله، وأدخل في دينك، فعلمه النبي شرائع الإسلام، وآمن على يد النبي ﷺ إيماناً صحيحاً، وفي ذلك الوقت سقطت يد بعيره في جحر في الليل، فانكسر عنقه فمات، فقال لهم النبي ﷺ: «**هذا من الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم**». لأنه عندما آمن إيماناً صحيحاً نقياً أخذه الله إليه.

وفي بعض الروايات: فيه أن النبي ﷺ قال لهم: «**إنه رأى ملكاً يدسّ في فيه من ثمار الجنة؛ لأنه مات جائعاً**». جاء هذا في أحاديث مرفوعة، الله أعلم بأسانيدها(٢).

---

(١) عبارة الكشاف: «أي: لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم. وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظُ اللَّبْس». اهـ الكشاف (٢/ ٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩)، والطبراني في الكبير (٢/ ٣١٩ ـ ٣٢٠)، والبيهقي في الشعب (٨/ ٢٥٤)، وفي الحلية (٤/ ٢٠٣)، وابن عدي في الكامل (٥/ ١٨١٤)، وأورده الهيثمي في المجمع (١/ ٤١)، وابن كثير في التفسير (٢/ ١٥٣)، والسيوطي في الدر (٣/ ٢٧)، وعزاه لأحمد، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه، =

وقوله جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ كإبراهيم ومن سار على سيره. ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ على طريق صحيحة.

يُفهم من مفهوم مخالفة الآية: أن الذين لم يؤمنوا، وكانوا يلبسون كل شيء بظلمهم، وكفرهم، وعبادتهم للأصنام لا أمن لهم في الدنيا، ولا في الآخرة، وليسوا مهتدين. هذا معنى الآية الكريمة.

[٨/أ] / قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٨٣ ـ ٩٠].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٨٣].

= والبيهقي في الشعب. من حديث جرير (رضي الله عنه) مع شيء من التفاوت في لفظه، حيث يرويه بعضهم بمثل السياق الذي ذكره الشيخ هنا، وبعضهم يرويه مختصراً.
وللحديث طرق لا تخلو من ضعف ولا يتقوى الحديث بمثلها، والله أعلم. وقد أخرج ابن أبي حاتم في التفسير (٤/ ١٣٣٤) نحوه من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، ومن طريقه أورده ابن كثير في التفسير (٢/ ١٥٣)، والسيوطي ي الدر (٣/ ٢٧)، وعزاه للحكيم الترمذي وابن أبي حاتم.

في هذا الحرف قراءتان سبعيتان[١]: قرأه أربعة من السبعة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿نَرْفَعُ درجاتِ مَنْ نَشاءُ﴾ غير مُنَوَّن مُضافاً إلى (مَنْ)، وقرأهُ الكوفيون ـ عاصم، وحمزة، والكسائي ـ ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بتنوين درجات، وإدغام نون التنوين في الميم.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ اختلف العلماء في المشار إليه بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ فعن مجاهد: أنَّ الحجة المُشار إليها بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ أنها قول نبـي الله إبراهيم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الأنعام: آية ٨١]. قال: لما خوَّفوه أصنامهم، وزعموا أنها تُخَبِّلُه وتستجلب له البرص ونحوه، قال لهم: كيف أخاف أصناماً لا تنفع ولا تضر، وأنتم تشركون مع الله غيره ولا تخافونه؟ قال مجاهد وغيره: هذه هي حجة الله التي آتاها إبراهيم[٢]. والظاهر أن الإشارة في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ راجعة إلى المناظرة كلها[٣]، من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: آية ٧٦]. كما جزم به غير واحد، وهو الصواب، أما عدم الخوف من الأصنام، فهذا أمر حجته أُعطيت لجماعة من الرسل، ولم يخص بها إبراهيم، ألا ترى أن قوم هود قالوا له: إنّ بعض آلهتهم اعتراه بسوء، كما نص الله عليه في قوله: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود:

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٨.

(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٠٥).

(٣) انظر: القرطبي (٧/ ٣٠)، البحر المحيط (٤/ ١٧١ ـ ١٧٢)، أضواء البيان (٢/ ٢٠٢)، آداب البحث والمناظرة (٢/ ٨٢).

آية ٥٤]. قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ يعنون: أنَّ بعض معبوداتهم مس نبي الله هوداً بسوء، حتى جعله مجنوناً مختبلاً، يقول: اعبدوا الله، اعبدوا الله، اعبدوا الله. كأن هذا عندهم هذيان وجنون، وأن آلهتهم خبَّلته، حتى صار يقول هذا.

فأجابهم نبي الله هود: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾ [هود: الآيات ٥٤ ـ ٥٦] وقد بين الله في سورة الزمر، أنهم خوفوا نبينا ﷺ بآلهتهم، ثم أمره أن يقول: إنها لا تنفع ولا تضر، لا تكشف ضراً ولا تستجلب نفعاً. وذلك في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ [الزمر: آية ٣٦] يعني يهددونك بالأصنام أن تضرك كما خوفوا بها إبراهيم وهوداً على الجميع صلوات الله وسلامه عليه.

ثم إن الله أمر نبيه أن يبين أنها لا تنفع ولا تضر، في قوله بعد الآية التي ذكرنا: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ﴾ الآية. [الزمر: آية ٣٨]. وهذا مما يبين أن الحجة التي آتاها الله نبيه إبراهيم هي إفحامه الخصوم، ومناظرته لهم جميعاً؛ ذلك أنهم كانوا يعبدون كواكب مسخرة، ويعبدون أصناماً أرضية، وأجراماً سماوية، فقال لهم في الأجرام الأرضية: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥﴾ [الصافات: آية ٩٥]، ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [الأنبياء: آية ٦٧]، ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣﴾ [الشعراء: الآيتان ٧٢ ـ ٧٣] ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢﴾ [مريم: آية ٤٢] هذا في الأجرام الأرضية، وهي أصنامهم،

وقد أشار له في هذه الآيات بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٧٤] حيث تعبدون ما لا ينفع ولا يضر، وتتركون عبادة الخالق الرازق النافع الضار. ثم ناظرهم في عبادتهم الأجرام السماوية، فلما رأى كوكباً: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: آية ٧٦] فكأنه يتنزل لهم في المناظرة ويُسلِّم لهم مقدمة باطلة، هي مقدمة كفر، يُسلِّمُها لهم على زعمهم الفاسد الكافر[1]؛ ليمكنه إفحامهم، ويبين لهم أن الأُفول صفة نقص محققة، تنافي صفات الربوبية، فاتصافه بالأفول ينافي كونه رباً، كما بينه، وكأنها نتيجة ترتبت على مقدمتين:

إحداهما: كون ذلك المزعوم معبوداً، كونه آفلاً. وهذه في قوله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ لأن أصل المعنى: رأى كوكباً فأفل ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ بحذف الفاء وما عُطفت عليه. فقوله ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ تضمنت مقدمة معناها: هذا الجرم آفل.

ثم رتب المقدمة الأخرى: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ لا أحب أن أعبد من يتصف بصفة الأُفول والغيبوبة؛ لأنها صفة نقص، تدل على النقص والتسخير، فمن كان كذلك لا يستحق أن يكون رباً. فهذا نظر عقلي صحيح، واستنتاج صحيح، وقد تقرر عند عامة النظار أن الاستنتاج العقلي إذا كان على طَرِيقِهِ الصحيحة أنه أمر صحيح. وقالوا: نَوَّه الله بشأنه حيث جعله حجة أضافها لنفسه، وآتاها إبراهيم

---

(١) انظر: الأضواء (٢/ ٢٠١).

على قومه[١]، حيث قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: آية ٨٣].

ومعلوم أن النظر العقلي أنه محصور في أربعة أنواع؛ لأن المُسْتَدَلَّ به: إمَّا وجود وإمَّا عدم والمُسْتَدَلَّ عليه: إما وجود وإما عدم. فتضرب حالتي الدليل في حالتي المدلول، اثنين باثنين: بأربعة. بسطها وتَصْطِيْحُها: استنتاج وجود من وجود، واستنتاج عدم من عدم، استنتاج عدم من وجود، واستنتاج وجود من عدم. هذا معروف.

مثال استنتاج الوجود من الوجود: هو استنتاج وجود خالق هذا الكون من وجود هذا الكون على هذه الأساليب الغريبة العجيبة، الدالة على أن له خالقاً مدبراً هو الرب المعبود وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] فبين أنَّ وجود هذا الكون دليل على وجود صانعه، فهو وجود يلزم منه عقلاً وجود خالق مدبر، هو الرب المعبود.

ومثال استنتاج العدم من العدم: قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: آية ٢٢] فهنا: عدم فساد السماوات والأرض يستلزم عدم تعدد الآلهة. فهو عدم ينتج عدماً، كما في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فعدم الفساد المشاهد يلزمه عدم تعدد الآلهة.

وكذلك ربما يُستنتج عدم من وجود ــ كما في هذه الآية ــ فإن

(١) انظر: آداب البحث والمناظرة (٢/ ٨٣).

أُفول الكوكب صفة وجودية عاينوها بالحس فيه، استنتج منها عدم الربوبية، حيث قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾ [الأنعام: آية ٧٦].

وأما استنتاج الوجود من العدم: فهو معروف باستنتاج عدم النقيض من وجود نقيضه، أو مساوي نقيضه، كما هو معروف.

والشاهد أن نبي الله إبراهيم ناظر قومه مناظرة عقلية، بين لهم فيها أن هذه المعبودات التي يزعمونها أرباباً هي آفلة، وهذه المقدمة ـ التي كون تلك المعبودات آفلة ـ مقدمةٌ قطعية؛ لأنها تُدرك بالحواس، فهم يشاهدون أُفولها بأعينهم، فهي مقدمة لا يمكن إنكارها. ثم رتب لهذه المقدمة المحسوسة مقدمة عقلية ضمَّها معها، أشار لها بقوله ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾ هي أن الأُفول صفة نقص لا شك فيها، تدل على حدوث وتسخير، وهذه تنافي صفات الربوبية، فالآفل لا يمكن أن يكون ربَّاً. ثم قال لهم مثل هذا في الشمس والقمر، حتى ألقمهم الحجر[1]. ثم بعد ذلك بين لهم معتقده، وأظهر حقيقته، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ [الأنعام: الآيتان ٧٨ ـ ٧٩] وكان الله (جل وعلا) أعطى إبراهيم حُسن الحجج والمناظرة، واللطف فيها. من ذلك أنه لما ناظر نمرود، وهو الذي بُعث إبراهيم في زمن ولايته، وكان ملكاً جباراً طاغياً، نمرود بن كنعان بن سنجاري بن كوش بن سام بن

(١) في هذا الموضوع انظر: آداب البحث والمناظرة (٢/ ٧٨، ٨٢ ـ ٨٣).

نوح[1]، الفاجر المعروف، لما قال له: من ربك الذي تدعونا إليه؟ ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: آية ٢٥٨] وكان نمرود جاهلاً، فأخذ رجلين، أحدهما كان محكوماً عليه بالقتل فأطلقه، وأخذ آخر بريئاً فقتله، فقال: هذا كان حياً فأنا أَمَتُّه، وهذا كان سيموت الآن فأنا أحييته[2]!! فلمَا أعطاه الله من الحجة وحسن المناظرة لم يقل له: هذه ليست الحياة التي أُريد، ولا الموت الذي أُريد. بل ترك له هذا كله، ولم يجبه بشيء منه، وقال: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ فزعموا في قصته أنه أولاً أراد أن يكذب وأن يقول: أنا هو الذي آتي بها من المشرق، فقل لربك يأتي بها من المغرب!! فنظر فإذا في المجلس رجال كبار السن، يعلمون الشمس تطلع من المشرق، يطلعها الله قبل أن يولد نمرود، فخاف أن يكذبوه فيفتضح في المجلس، فبُهت الذي كفر. هذه المناظرات التي يُفحم بها الخصوم، كما في آية الأنعام هذه، هي التي نوَّه الله بشأنها، وأضافها إلى نفسه، وقال: إنه آتاها إبراهيم، مُعظِّماً نفسه ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ﴾ تلك الحجة التي أفحم بها الخصوم

(١) في تاريخ ابن جرير (١/ ١٤٧): «نمروذ بن كنعان بن حام بن نوح». وفي التفسير (٥/ ٤٣٠): «نمروذ بن كنعان بن كُوش بن سام بن نوح. وقيل: إنه نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح»، وانظر: البداية والنهاية (١/ ١٤٨).

تنبيه: هناك شيء من الاختلاف بين هذه المصادر في بعض هذه الأسماء، بل هـذا الاختلاف مـوجـود في المصدر الواحد في المواضع المتعددة، فـ (فالخ) في بعض المصادر: (فالح)، وفي بعضها: (فالغ). وهكذا (شالخ) فهو في بعضها: (صالح)، وفي بعضها: (شالح).

(٢) انظر: ابن جرير (٥/ ٤٣٣، ٤٣٦ ـ ٤٣٧).

حجتنا، أضافها الله لنفسه تشريفاً وإعظاماً.

﴿ءَاتَيْنَٰهَآ﴾ أي: أعطيناها ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، فهمناه إياها، وألهمناه إياها ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، هذه الحجة يحتج بها على قومه الكفرة الذين يجادلونه، كما قال: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ [الأنعام: آية ٨٠] حتى يفحمهم ويلقمهم الحجر.

ثم قال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: آية ٨٣] هذه الآية تدل على أنَّ من علَّمه الله الحُجج، ومناظرات الخصوم التي يثبت بها التوحيد، ويدفع بها شُبَه المُبْطِلين، أن هذا رَفْع من الله في درجاته، حيث أتبع قوله: ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أتبعه بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي: كما رفعنا درجة إبراهيم، بما آتيناه من تلك الحجة التي صدع بها بالحق، وقهر بها الخصوم.

أما على قراءة الجمهور: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَنْ نَشَآءُ﴾ بالإضافة، فالدرجات: مفعول به لـ﴿نَرْفَعُ﴾ و﴿مَنْ نَشَآءُ﴾ مضاف إليه ما قبله. ومن رُفعت درجاته فقد رُفع[1]، كقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ وفي الحديث: «**اللهم ارفع درجته**»[2] والدرجة: المرتبة والمنزلة، فإن من رُفعت درجته ومنزلته فقد رُفع، وعلى هذا فمعناه: نرفع رُتب ومنازل من نشاء أن نرفع رتبته ومنزلته.

---

(١) انظر: القرطبي (٧/ ٣٠)، البحر المحيط (٤/ ١٧٢)، الدر المصون (٥/ ٢٦).

(٢) قطعة من حديث أم سلمة عند مسلم (في وفاة أبي سلمة رضي الله عنه). كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حُضر، حديث رقم: (٩٢٠) (٢/ ٦٣٤).

أما على قراءة الكوفيين ــ عاصم، وحمزة، والكسائي ــ[(١)] : ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ فـ ﴿مَّن﴾ الموصولة هي مفعول ﴿نَرْفَعُ﴾ أي: نرفع من نشاء رفعه، نرفعه درجات.

وفي إعراب ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ على هذه القراءة أوجه معروفة للعلماء[(٢)]:

أحدها: أنها ما ناب عن المطلق؛ لأن معنى نرفع من نشاء درجات أي: رفعات عالية، فالدرجة في معنى الرفع، فهي في معنى المفعول المطلق لا بلفظه.

وقوم قالوا: هي منصوبة بنزع الخافض. أي: نرفعه في درجات. إلى غير ذلك من الأعاريب.

ومفعول المشيئة محذوف، (نرفع درجاتٍ من نشاء رَفْعَ درجاته). أو: (نرفع درجاتٍ من نشاء رَفْعَه). فعلى الإضافة: فالتقدير: (نرفع درجاتِ من نشاء رَفْعَ درجاته). وعلى التنوين: فالتقدير: (نرفع درجاتٍ من نشاء رفعه). هذا معناه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ جل وعلا ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ الحكيم في الاصطلاح: هو من يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها. فالله (جل وعلا) حكيم لا يضع أمراً إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه، ولا يأمر إلا بما فيه الخير، ولا ينهى إلا عما فيه الشر، ولا يعذب إلا من يستحق، وهو (جل وعلا) ذو الحكمة البالغة، له الحجة والحكمة البالغة. وأصل (الحكيم): هو المتصف بالحكمة.

---

(١) مضت هذه القراءات عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٧٢)، الدر المصون (٥/ ٢٦).

وأصل (الحكمة): (فِعْلة) من الحُكم. وأصل مادة (الحُكْم) في لغة العرب[١]: أصلها معناها (المَنْع). تقول العرب: «حَكَمَه وأَحْكَمَه» إذا منعه.

أَبَني حَنَيْفَةَ أَحكِموا سُفَهَاءَكم ... إني أخافُ عليكُمُ أن أَغْضَبَا[٢]

لنا في كلِّ يومٍ من مَعَدٍّ ... سبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ

فنُحْكِمُ بالقوافي من هَجَانا ... ونضربُ حين تَخْتَلِطُ الدماءُ[٣]

هذا أصل (الحكم): المنع، ومنه: (حَكَمَة الدابة). لأنها تمنعها من الجري على غير مراد صاحبها. والحِكْمةُ: (فِعْلة) من (الحُكم) بمعنى: المنع. وأظهر تفسيراتها: أنها العلم النافع. لأن العلم النافع هو الذي يحكم الأقوال والأفعال. أي: يمنعها أن يعتريها الخلل. فمن كان عنده العلم الكامل كان لا يضع الأمر إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه؛ لأن كل إخلالٍ في الإحكام إنما هو من الجهل بعاقبة الأمور، فترى الرجل الحاذق القُلَّب البصير يفعل الأمر يظن أنه في غاية الإحكام، ثم ينكشف الغيب عن أن فيه هلاكه، فيندم حيث لا ينفع الندم، ويقول: ليتني لم أفعل، ولو فعلتُ لكان كذا!! كما قال الشاعر[٤]:

أُلامُ على لوٍّ ولو كنتُ عالماً ... بأذناب لوٍّ لم تَفُتْني أوائلُه

---

(١) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الحاء، باب الحاء والكاف وما يثلثهما ص ٢٧٧.

(٢) البيت لجرير، وهو في المقاييس في اللغة ص ٢٧٧، الدر المصون (١/ ٢٦٧).

(٣) البيتان لحسان بن ثابت (رضي الله عنه) وهما في ديوانه، ص ٢٠.

(٤) البيت في الكتاب لسيبويه (٣/ ٢٦٢)، ما ينصرف وما لا ينصرف للزجاج، ص ٦٦، فتح الباري (١٣/ ٢٢٦).

يقولون لي: لو فَعَلْتَ كذا لكان خيراً!! أنا لو كنتُ عالماً بما يصير إليه الأمر لفعلته من أول. فرب السماوات والأرض وحده لا يجري عليه: لو فعلتُ كذا لكان أحسن؛ لأنه عالم بعواقب الأمور، وما تصير إليه، وعالم بما كان، وما يكون، فلا يضع أمراً إلا في موضعه، ومحال عن أن ينكشف الغيب عن أن ذلك الأمر على خلاف الصواب؛ لأنه عالم بعاقبة الأمر، وما يؤول إليه، كما بيناه مراراً.

والعَليم: صيغة مبالغة؛ لأن عِلْمَ الله (جل وعلا) محيط بكل شيء، يعلم خطرات القلوب، وخائنة الأعين وما تخفي الصدور، حتى قدمنا أنه من إحاطة علمه: يعلم المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يوجد، هو عالم أن لو وُجد كيف يكون؛ لشدة إحاطة علمه بالموجودات والمعدومات. وقد بيناه في هذه السورة الكريمة؛ لأن أهل النار لما عاينوا النار، ورأوا الحقيقة، وندموا، تمنوا أن يُردوا إلى دار الدنيا مرة أُخرى ليُصدقوا الرسل، ورَدُّهُم ذلك الذي تمنوه: الله عالم أنه لا يكون، وقد صرح بأن ذلك الرد ـ الذي هو عالم أنه لا يكون ـ صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٢٧] هذا الرد الذي تمنوه هو عالم أنه لن يكون، ثم صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال بعده: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والمُتَخَلِّفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً؛ لِمَا سبق في علم الله من تثبيطهم عنها، والله ثبطهم عنها بإرادته لحكمة ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وخروجهم إلى

غزوة تبوك، الذي ثبطهم عنه، وسبق في علمه أنه لا يكون، صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ الآية [التوبة: الآيتان: ٤٦، ٤٧]. وأمثال هذا في القرآن كثيرة. الله (جل وعلا) محيط علمه بكل شيء. وفي اسميه: (الحكيم، العليم) أكبر مدعاة للعباد أن يطيعوه ويتبعوا تشريعه؛ لأن بحكمته يعلمون أنه لا يأمرهم إلا بما فيه الخير، ولا ينهاهم إلا عما فيه الشر، فلا يوقع لهم أمراً إلا في موقعه، ولا يضعه إلا في موضعه، وبإحاطة علمه: يعلمون أنه ليس هنالك غلط في ذلك الفعل، ولا عاقبة تنكشف عن غير ما أراد، بل هو في غاية الإحاطة والإحكام. وإذا كان من يأمرك عليم لا يخفى عليه شيء، حكيم في غاية الإحكام، لا يأمرك إلا بما فيه الخير، ولا ينهاك إلا عما فيه الشر، فإنه يحق لك أن تطيع وتمتثل.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: آية ٨٤]، صيغة الجمع في قوله ﴿وَوَهَبْنَا﴾ للتعظيم، ومعنى ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾: أعطيناه إياهما. وقد بين الله (جل وعلا) أن هبته إياه إسحاق كانت على كِبَر عظيم منه، وعلى كِبَر من امرأته، بحيث لا يحمل مثلها عادة، وأن الرسل الذين بُعثوا إلى قوم لوط لما نزلوا عنده، وذبح لهم عجله، وأنضجه، ونكِرَهُم لما رأى أيديهم لا تصل إليه وخاف منهم، في ذلك الوقت بَشَّروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق: يعقوب، بشَّروه بأن امرأته تلد إسحاق، وأنه يُولد له يعقوب، حتى تَقَرّ به أعينهما وهما حيان، كما نص الله عليه في سورة هود: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾

[هود: آية ٧١] حتى إن امرأته لشدة تعجبها من أنها تلد وهي عجوز فانية صرخت، وصَكَّت وجهها، كما قال تعالى في الذاريات: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: آية ٢٩] يعني: في صيحة وضجة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ لاستعجابها واستغرابها من هذا الخبر، وكذلك قال عنها في سورة هود: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود: آية ٧٢]. أما إسماعيل فقد أعطاه الله إياه قبل ذلك من سُرِّيته هاجر، كما هو مشهور في التاريخ، ولم يعطه إسماعيل أيضاً إلا بعد أن كبرَ وطعن في السن، كما نص عليه في سورة إبراهيم الخليل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: آية ٣٩]. إلا أن وقت بشارته بإسحاق كان كبيراً كِبَراً شديداً، وامرأته عجوز فانية، أكبر من زمن إيتائه إسماعيل، وإن كان كبيراً عند الوقتين. وهذا معنى قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ﴾ [الأنعام: آية ٨٤].

وآية هود هذه من النصوص الدالة على أنَّ الذبيح: إسماعيل، وليس بإسحاق؛ لأن ذلك دل عليه القرآن في موضعين، وهو الصحيح. إلا أن الإسرائيليين يحكون إسرائيليات كثيرة في أنه إسحاق، اغتر بها بعضٌ من علماء المسلمين، فظن أنه إسحاق، وهو غلط، والتحقيق أن الذبيح: إسماعيل، وأن آية هود التي ذكرنا هي دليل قوي على ذلك، كما دلت عليه آية الصافات.

أما وجه دلالة آية هود لأن الله قال، وهو أصدق من يقول ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: آية ٧١] أي: وبشرناها بأن إسحاق ـ وهو ولدها ـ يلد يعقوب، وهو ولد ولدها، فبعد البشارة بالوحي الصادق أن إسحاق

لن يموت حتى يلد يعقوب فليس من المعقول أن يؤمر بذبحه وهو صغير!! وهذا معروف.

أما الآية الأخرى التي هي في الصافات فهي واضحة جداً في ذلك؛ لأن الله قال: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات: آية ١٠٢] حتى جاء بقصة إسماعيل الذبيح تامة، قال بعدها لما أنهاها: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ﴾ [الصافات: الآيتان ١١٢، ١١٣]. فصار صريح القرآن أن الذبيح غير إسحاق، حيث قال في ذلك الغلام: ﴿ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات: الآيتان ١٠١، ١٠٢] حتى انتهى من قصته، وجاء بقصة إسحاق مستقلة بعدها، حيث قال: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ﴾... [الصافات: الآيتان ١١٢، ١١٣]. وهذه الآية الكريمة يُفهم منها معنى أوضحه الله في سورة مريم؛ ذلك أنه قال هنا إن إبراهيم سفَّه أحلام قومه، وعاداهم وكفَّرهم وضللهم، حتى اضطره ذلك إلى الخروج عنهم، والهجرة إلى بلاد الشام، كما يأتي في قوله: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾ [العنكبوت: آية ٢٦] وكان في قرية بسواد العراق تسمى (كوثى)[1].

لما هجر قومه وخرج من الوطن في الله عوضه الله عنهم قرة عينٍ تؤنسه، وهي الأولاد الصالحون الكرام، يخلفون له الوطن والأقارب؛ لأنه لما ذكر قصته معهم هنا قال بعدها: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ

---

(١) انظر: تاريخ ابن جرير (١/ ١١٩).

﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: آية ٨٤] فهذا يدل على أن إقرار عينه بالذرية الصالحين؛ لأنه هجر الوطن، وخرج عن القرباء والأحباء في الله، وقد أوضح الله هذا في سورة مريم حيث قال: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: آية ٤٩].

ويفهم من هذه الآيات أن من هجر الأوطان والأقارب لله أقر الله عينه من ظهره بما يسليه عنهم[1]؛ ولذا قال هنا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: آية ٨٤] نون التنوين عوض عن كلمة، أي: كل واحد منهم هدينا، و ﴿كُلًّا﴾ مفعول به لـ ﴿هَدَيْنَا﴾. وهذا تمام إقرار العين؛ لأن الولد إذا كان غير صالح لم يكن قرة عين، فهبته والنعمة به إنما تتم إذا كان مهدياً، لا إن كان غير مهدي؛ ولذا قال: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾.

ثم قال: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ لما كانت قصة نوح شبيهة بقصة إبراهيم ذكره معه؛ لأن نبي الله نوحاً نشأ في قوم يعبدون الأصنام، وهو أول نبي أُرسل لقوم يعبدون الأصنام، وجادلوه جداً في الأوثان ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: الآيتان ٢٣، ٢٤] وكان يجادلهم في عبادة الأصنام حتى قالوا له: ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود: آية ٣٢] وكان إبراهيم نشأ في قوم يعبدون أجرام السماء وأجرام الأرض كذلك، وخاصمهم مثل مخاصمة نوح، بيَّن أنه هدى نوحاً من قبل إبراهيم، كما هدى

---

(١) في هذا المعنى انظر: البداية والنهاية (١/١٤٦)، تفسير ابن كثير (٢/١٥٤)، (٣/١٢٤).

إبراهيم، وهذا معنى قوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: آية ٨٤]. (نوح): يسمونه (آدم الصغير)؛ لأنه ليس على الأرض إنسان إلا وهو من ذريته، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: آية ٧٧] ونبي الله إبراهيم لم يكن بعده نبي إلا وهو من ذريته، فالأنبياء الذين ليسوا من ذريته: إما مَنْ سبقه، وإما مَنْ كان معاصراً له، كلوط ابن أخيه، أما مَنْ بعده فهم جميعهم من ذريته، فالأنبياء من ذرية نوح وإبراهيم، فالذي لم يكن من ذرية إبراهيم فهو من ذرية نوح، وإبراهيم من ذرية نوح، كما قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ﴾ [الحديد: آية ٢٦] وقال في سورة العنكبوت في إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ الآية [العنكبوت: آية ٢٧]، ولذا قال: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾، ﴿نُوحًا﴾: مفعول به لـ ﴿هَدَيْنَا﴾ مقدماً عليه.

وأهل التاريخ يزعمون أن (نوحاً) أنه: ابن لمك بن متوشَلَخ بن خنوخ[(١)]. ويزعمون أن خنوخ هو إدريس[(٢)]. هكذا يقولون. ويزعمون أن إبراهيم بن تارح. هذا المعروف في التاريخ، يقولون: إنه ابن تارح بن ناحور بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشد بن سام بن نوح[(٣)]. هكذا يقول المؤرخون، وهي أمور تُذكر

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١/ ١٠٠)، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٦/ ١٩٠).

(٢) انظر: البداية والنهاية (١/ ١٠٠)، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٦/ ١٩٠).

(٣) في تاريخ ابن جرير (١/ ١١٩): «إبراهيم بن تارح بن ناحور بن ساروغ بن =

في التاريخ شبه الإسرائيليات، لم يقم على ضبطها وتحقيقها دليل. وهذا معنى قوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾.

قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أي: وهدينا من ذريته داود. فهذا معطوف على معمول ﴿هَدَيْنَا﴾. أي: وهدينا من ذريته داود.

واختلف العلماء في الضمير في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾[1] قال بعضهم: هو راجع إلى إبراهيم؛ لأنه هو المُحدَّث عنه[2]، وهذا في حِجَاجِه مع قومه، والآيات كلها فيه. وقال بعض العلماء: الضمير راجع إلى نوح. والذين قالوا: «يرجع إلى نوح» عضدوه بأمرين:

أحدهما: أنه هو أقرب مذكور، والضمير يرجع لأقرب مذكور[3].

الثاني: أن هؤلاء الرسل الذين قيل من ذريته ذُكر فيهم لوط، ولوط ليس من ذرية إبراهيم؛ لأنه ابن أخيه، وذُكر فيهم يونس، وأكثر المؤرخين أن يونس ليس من ذرية إبراهيم، وإن زعم قوم أنه منه،

= أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشد بن سام بن نوح».
وهو في البداية والنهاية (١/ ١٣٩) مع بعض الاختلافات (إبراهيم بن تسارخ بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح)، وانظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٣/ ٣٤٤).
وراجع التنبيه المذكور سابقاً في الحاشية عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٠٧)، القرطبي (٧/ ٣١)، البحر المحيط (٤/ ١٧٣)، الدر المصون (٥/ ٢٧).

(٢) انظر: قواعد الترجيح (٢/ ٦٠٣).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٦٢١).

ولا يكاد يختلف المؤرخون أن لوطاً ليس ابن إبراهيم، وإنما هو ابن أخيه؛ لأن لوط بن هاران بن تارح ابن أخي إبراهيم[١]. قالوا: لو كان الضمير لإبراهيم لما ذكر لوطاً؛ لأنه ليس من ذريته. واختار أن الضمير راجع إلى نوح، اختاره ابن جرير[٢] لِذِكْر لوط؛ ولأن نوحاً أقرب إلى الضمير من إبراهيم. وعن ابن عباس: أن الضمير لإبراهيم[٣]، وأن يونس من أنبياء بني إسرائيل، أو من ذرية إبراهيم، خلاف ما يزعمه أكثر المؤرخين، وأن لوطاً جُعل من ذريته تغليباً؛ لأنه ابن أخيه، فجُعل من ذريته تغليباً؛ كما جُعل إسماعيل أباً له تغليباً، لما ذُكرت آباؤه، وهو عمه. هكذا يقولون[٤].

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ أي: وهدينا من ذريته. أي: إبراهيم، أو نوح على الخلاف الذي ذكرنا.

﴿دَاوُۥدَ﴾ هو نبي الله داود، وهو أول من جمع من أنبياء بني إسرائيل بين المُلك والنبوة. وهو داود بن إيشى، يزعمون أنه ابن إيشى بن عوبد. على كل حال لهم أسماء يختلف فيها المؤرخون[٥]،

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (١/ ١٥٠).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (١١/ ٥٠٧).

(٣) ذكره في الدر المنثور (٣/ ٢٨) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) انظر: القرطبي (٧/ ٣١).

(٥) في تاريخ ابن جرير (١/ ٢٤٧) «داود بن إيشى بن عوبد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عمى ناذب بن رام بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»، وانظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٨/ ١٠٥).
وفي البداية والنهاية: (٢/ ٩) «داود بن ايشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن أرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب...».

عجمية، وعلى كل حال داود يقولون: هو داود بن إيشى بن عوبد. يزعمون أنه من سبط يهوذا. هكذا يقولون: ﴿وَسُلَيْمَٰنَ﴾ ولده.

وقوله: ﴿وَأَيُّوبَ﴾ أكثر المؤرخين يقولون: إن أيوب بن موص، وأنه من ذرية عيص بن إسحاق بن إبراهيم. وفيه غير ذلك[1].

﴿وَيُوسُفَ﴾: هو يوسف نبي الله ابن يعقوب. ﴿وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ﴾ معروفان، أبناء عمران، وعمران: ــ يزعمون ــ ابن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب[2].

ويعقوب: بن إسحاق بن إبراهيم. كما هو معروف.

وهؤلاء الأنبياء ــ كل هؤلاء المذكورين ــ لهم قصص معروفة في القرآن، بيَّنها الله جل وعلا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ كما هدينا هؤلاء الرسل الكرام، ووفقناهم لطريق الصواب: كذلك الجزاء نجزي المحسنين، فنهديهم ونوفقهم إلى ما يرضينا. والمحسنون: جمع المُحْسِن، وهو اسم فاعل الإحسان. والإحسان هو: الإتيان بالعمل حسناً. وطريق الإتيان بالعمل حسناً بينها النبي ﷺ في قوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن**

---

(١) في تاريخ ابن جرير (١/ ١٦٥): «أيوب بن موص بن رازح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم» وذكر قولين آخرين، وانظر: تفسير ابن جرير (١١/ ٥٠٨) البداية والنهاية (١/ ٢٢٠) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٥/ ١٠٥).

(٢) انظر: تاريخ الطبري (١/ ١٩٨)، وكذا التفسير له (١١/ ٥٠٨)، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٥/ ٣٠٠).

وفي البداية والنهاية (١/ ٢٣٧): «موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب».

لم تكن تراه فإنه يراك»[١].

والآية تدل على أن من أحسن العمل لله زاده الله هدى؛ لأن التشبيه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ عائد إلى الهدى في قوله: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ أي: وهدينا من ذريته داود. كذلك الهدى والتوفيق نجزي ذلك الجزاء الحسن ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ مثل ذلك الجزاء؛ لأن من آمن بالله وأحسن العمل زاده الله هدى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: آية ١٧].

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: آية ٨٥] يعني: وهدينا أيضاً زكريا ويحيى. قرأه أكثر القراء: ﴿وزكرياء ويحيىٰ﴾ بهمزة. وقرأه بعض الكوفيين ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ﴾ بلا همزة. وهما قراءتان سبعيتان معروفتان[٢].

وأكثر المؤرخين يقولون: إن زكريا بن برخيا[٣]. وهو من ذرية سليمان بن داود (عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام). قص الله قصصه

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) انظر: الكشف لمكي (١/ ٣٤١ ـ ٣٤٢)، الإقناع في القراءات السبع (٢/ ٦١٩)، النشر (٢/ ٢٣٩).

(٣) في تفسير ابن جرير (١١/ ٥٠٨): «زكريا بن إدُّو بن برخيًّا». وفي مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٤٥): «زكريا بن حنا. ويقال: زكريا بن دان. ويقال: زكريا بن أدن بن مسلم بن صدوف». وقيل: زكريا بن برخيا. انظر: البداية والنهاية (٢/ ٤٧).

في سورة مريم[١]، وسورة آل عمران[٢]، والأنبياء[٣]، وغيرها.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥)﴾ يحيى: هو ابن زكريا، وقصته معروفة بيناها في آل عمران، وستأتي في سورة مريم. وعيسى: هو عيسى ابن مريم.

وذِكْرُ عيسى هنا أخذ العلماء منه حكماً فقهياً معروفاً، وهو أنه إذا قال رجل: «هذا وقف على ذريتي». أو أوصى لذريته، أن أولاد البنات يدخلون؛ لأن عيسى ولد بنت؛ لأنه لا يدلي إلى إبراهيم ـ الذي إليه الضمير في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ (أو نوح، على القول بأن الضمير له)[٤]. لا يدلي بواحد منهما ـ إلا ببنته مريم؛ لأنه لا أبَ له. / فالله (جل وعلا) أدرجه في اسم الذرية، ومن هنا يُعرف [٨/ب] أن أولاد البنات من الذرية، وهذه المسألة التي هدد الحجاج عليها يحيى بن يعمر، قال له: أتقول إن الحسن والحسين (رضي الله عنهما) من ذرية النبي ﷺ؟ قال: نعم. وأنه قال له: إن لم تجئني بدليل من كتاب الله فعلت بك وفعلت. قال: أتقرأ في سورة الأنعام؟ قال: نعم، قال: قال الله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ ثم إلى أن قال

---

(١) كما في الآية (٢) من سورة مريم. وهي قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (٢)﴾ والآيات بعدها.

(٢) كما في الآية (٣٨) من سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ والآيات بعدها.

(٣) كما في الآية (٨٩) من سورة الأنبياء وهي قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ والآيات بعدها.

(٤) انظر: القرطبي (٧/ ٣١ ـ ٣٢)، ابن كثير (٢/ ١٥٥)، البحر المحيط (٤/ ١٧٣).

﴿وَعِيسَىٰ﴾ وعيسى ابن بنت[١]. وهذا صريح في دخول ابن البنت في الذرية، وعلى هذا أكثر العلماء[٢]. على أنه لو أوصى للذرية، أو وقف عليهم، أن أولاد البنات يدخلون لهذه الآية.

واختلفوا في البنين والأولاد[٣]، لو قال: «هذا وقف على بنيَّ، أو على ولدي». قال جماعة: يدخل أولاد البنات في لفظ الأبناء؛ لأن النبي ﷺ ثبت عنه في الصحيح أنه قال في الحسن بن علي (رضي الله عنه): «**إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من أمتي**». الحديث المشهور[٤]. قالوا: سماه ابناً، وهو ابن بنت. وقال بعض العلماء: تسميته هنا ابناً ليست على حقيقتها؛ لأن الله يقول: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: آية ٤٠] فالله نفى هذه البنوة، فدل على أنها كقول الرجل للقريب: «يا بني». وكذلك لو قال: «وَقْفٌ على ولدي». أو أوصى لولده. أكثر العلماء على أن أولاد البنات لا يدخلون؛ لأن الشاعر

---

(١) هذا الأثر أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٣٥) ونقله ابن كثير (٢/ ١٥٥)، وهو في الدر المنثور (٣/ ٢٨).

(٢) في هذه المسألة انظر: المدونة (٦/ ١٠٣)، كتاب الوقوف للخلال (١/ ٤٠٧ ـ ٤١٢)، المجموع (١٥/ ٣٥٢)، المغني (٨/ ٢٠٢)، الإنصاف (٧/ ٧٩). القرطبي (٤/ ١٠٤)، (٧/ ٣٢)، ابن كثير (٢/ ١٥٥)، البحر المحيط (٤/ ١٧٣).

(٣) راجع الحاشية السابقة.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي (رضي الله عنهما): «إن ابني هذا سيد...»، حديث رقم: (٢٧٠٤) (٥/ ٣٠٦). وأخرجه في مواضع أخرى من الصحيح. انظر: الأحاديث (٣٦٢٩، ٣٧٤٦، ٧١٠٩).

يقول[١]:

بنُونَا بنُو أبنائِنا وبناتُنا بنُوهُن أبناءُ الرجال الأباعد

ولإجماع من يُعتد به من العلماء في قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء: آية ١١] أنه لم يقل أحد إنه يدخل فيها أولاد البنات فيكونون عاصبين كأولاد الذكور. ومن هنا قالوا: لما قال الله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ ولم يدخل في الميراث أولاد البنات في هذه الآية: عُرف أنه إذا قال: «وَقْفٌ على ولدي، أو: أولادي». لم يدخل فيه أولاد البنات، كما هو معروف.

وقوله: ﴿عِيسَىٰ﴾ هو عيسى ابن مريم الذي خلقه الله بقدرته من غير أب ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ [آل عمران: آية ٥٩]. ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ إسماعيل على التحقيق: هو نبي الله إسماعيل بن إبراهيم، جد النبي ﷺ. وقال قوم: هو نبي آخر من بني إسرائيل[٢]. والذين قالوا هذا قد غلطوا. والتحقيق أنه إسماعيل، وأنه رسول كريم، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤﴾ [مريم: آية ٥٤]. والمؤرخون يقولون: إنه أُرسل إلى قبيلة جرهم من العرب البائدة[٣].

---

(١) البيت في المجموع للنووي (١٥/ ٣٥٣)، المغني (٨/ ٢٠٤)، الخزانة (١/ ٢١٣). ونسبه بعضهم للفرزدق.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٧٤).

(٣) انظر: البداية والنهاية (١/ ١٩٣).

وقوله: ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ المؤرخون يقولون إنه: إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران أخي موسى[١]. هكذا يقولون، والله تعالى أعلم. وقد ذكر الله قصته في آياتٍ من كتابه، وبين أنه رسول كريم، وبين في سورة الصافات محاجته لقومه في قوله: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الصافات: الآيات ١٢٣ ـ ١٢٦] إلى غير ما ذكر من خبره.

وقوله: ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ يعني: ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء الأنبياء الذين هديناهم من ذرية إبراهيم أو من ذرية نوح ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾. والصالحون جمع الصالح، وهو من كانت أعماله ونياته صالحة لله (جل وعلا). والصلاح يتفاوت تفاوتاً كثيراً.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: آية ٨٦]، ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا حمزة، والكسائي: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾. وقرأه حمزة والكسائي: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ واللَّيْسَعَ﴾ بتشديد اللام وسكون الياء وهما قراءتان سبعيتان معروفتان[٢]. أي: وهدينا إسماعيل، وهدينا اللَّيْسَع، وهدينا اليسع.

بعض العلماء يقول: اليسع هو يوشع بن نون. وأكثر المؤرخين

(١) انظر: تاريخ الطبري (١/ ٢٣٩)، والتفسير له (١١/ ٥٠٩)، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٥/ ٢٣).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٨.

يقولون: إنه اليسع بن أخطوب بن العجوز[1]. والله (جل وعلا) ذكره في مواضع من كتابه في جملة الأنبياء.

وقوله: ﴿وَيُونُسَ﴾ هو نبي الله يونس بن متى، أرسله الله إلى مئة ألف أو يزيدون، في بلد (نِيْنَوَى) من بلاد الموصل. وقصته مشهورة، ذكرها الله في آيات كثيرة من كتابه. أرسله الله إلى مئة ألف أو يزيدون، ولم يرسل الله نبياً لقوم إلا كذبوه وأهلكهم الله بعذاب مستأصل، ولم يُسْتَثْنَ من هذا أحد إلا الجماعة الذين أُرسل إليهم نبي الله يونس بن متى (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام). سيأتيكم في مواضع في الصافات، وفي القلم، وغيرها: أن نبي الله يونس لما كذبه قومه وعدهم بالهلاك، وأن العذاب ينزل عليهم، وخرج عنهم، وسافر من قبل أن يأذن له ربه، كأنه ضجر منهم وعجل. وذلك الضجر والعجلة هو الذي نهى الله عنه نبينا محمداً ﷺ في سورة القلم، مؤدباً له بالتأني والحَمْل والصبر، قال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يعني يونس بن متى ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم: آية ٤٨] حيث ضجر وعجل.

زعم بعض المفسرين أنه كان شرعهم ونظامهم أن من جُرِّب عليه الكذب أنهم يقتلونه. هكذا زعموا، وأن نبي الله يونس وعدهم بالعذاب، والله (جل وعلا) جاءهم بالعذاب، فلما أظلهم وعاينوا أوائله خافوا خوفاً عظيماً، وأنابوا إلى الله إنابة صادقة، وتوبة عظيمة، وضجُّوا جميعهم، وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الآدميين

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١١/ ٥١٠)، البداية والنهاية (٢/ ٤) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٨/ ٣٧).

والحيوانات، وصار الجميع يضج مبتهلين إلى الله، فرفع الله عنهم العذاب، ولم يوجد هذا لناس غيرهم أبداً، كما نص الله عليه في سورة يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: آية ٩٨] فقوله هنا ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَآ﴾ الظاهر أنه ما كشف عنهم خزي العذاب في الحياة الدنيا إلا وهو يكشفه عنهم في الآخرة إذا داموا ولم ينكثوا[١]. ويدل عليه الإطلاق في الصافات في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: الآيتان ١٤٧، ١٤٨] فلما سَلِمُوا ولم يأتهم العذاب كان نبـي الله يونس زعم أنه إن رجع إليهم قالوا: قلت: إنَّا نهلك بالعذاب ولم نهلك، فقد جربنا عليك الكذب. فخرج من غير إذن، فدخل في البحر، فلما دخل معهم في البحر وقفت السفينة ولم تمشِ، فقالوا: لعل فيها عبداً آبق على ربه، هنا عبد آبق على ربه، فاجعلوا القرعة نقترع، فإن سقطت القرعة على واحد ألقيناه في البحر، فهو العبد الآبق على ربه. فصاروا كلما اقترعوا تسقط القرعة على يونس. فقالوا: هذا العبد آبق على ربه؛ لأنه خرج بغير إذن[٢]. كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصافات: الآيتان ١٤٠، ١٤١] يعني كان سهمه داحضاً؛ لأنه هو الذي تأتي القرعة أنه يُرمى في البحر. فرموه في البحر ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: الآيات ١٤٢ ـ ١٤٤] كما قص الله قصته في آيات من كتابه، وهو نبـي الله

---

(١) انظر: ابن كثير (٢/ ٤٣٣)، البداية والنهاية (١/ ٢٣٢).

(٢) انظر: تاريخ ابن جرير (٢/ ٤٣).

يونس بن متى. والمؤرخون لا يكادون يصلون له نسباً إلى محله، وهو ابن متى كـ (حَتَّى) أُرسل لجماعة في (نِيْنَوَى) من بلاد الموصل، هكذا يقولون.

وقوله: ﴿وَلُوطًاۚ﴾ هو نبي الله لوط ابن أخي إبراهيم، وقد هاجر معه من بلاد العراق، إلى بلاد الشام، مُهَاجَر إبراهيم، كما قال الله جل وعلا: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ [العنكبوت: آية ٢٦] بعض المؤرخين يقولون: هاجر معه[(١)] وبعضهم يقول: لم يهاجر معه. واستدل بما ثبت في الصحيح أنَّ إبراهيم قال لسارة: ليس على وجه الأرض مسلم غيري وغيرك[(٢)]. وعلى كل حال: الله بين أن لوطاً آمن بإبراهيم. والمعروف في التاريخ أنه هاجر معه إلى الشام، ثم إن الله أرسل لوطاً إلى قرى (سدوم)، كما هو معروف.

﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٦﴾ وكلاً من أولئك الأنبياء فضلنا على العالمين، عالمي زمانهم[(٣)]، فلا يلزم من ذلك تفضيلهم على من بعدهم كالنبي ﷺ، فإنه أفضلهم.

وكان بعض العلماء[(٤)] يقول: آية الأنعام هذه مما استدل به العلماء على أن الأنبياء من الآدميين أفضل من الملائكة؛ لأن الملائكة يدخلون في اسم ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٦﴾، بدليل قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (١/ ١٥٠)، البداية والنهاية (١/ ١٥٠).

(٢) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: ابن جرير (١١/ ٥١٢).

(٤) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٧٤).

وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٢٣، ٢٤] قالوا: والله فضلهم على العالمين، والتفضيل بين الرسل والملائكة معروف عند العلماء[١]، ولم يقم عليه دليل قاطع، ولا حاجة لنا فيه. لو لقي الإنسان ربه وهو لم يبحث في التفضيل بينهم لم يسأله عن ذلك، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. وهذا معنى قوله: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٨٧] قوله: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ﴾ معطوف على معمول (هدينا) أي: وهدينا أيضاً من آبائهم وذرياتهم. ودل بـ (من) على أن مفعول (الهداية) البعض. أي: وهدينا أيضاً بعض ذرياتهم. ﴿وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ﴾ لما بين الله هؤلاء الرسل الكرام ذكر أنه هدى بعض أصولهم وفروعهم، وبعض حواشيهم. فبعض الأصول كآدم وإدريس، وبعض الفروع كأولادهم من الطيبين، وبعض الحواشي كإخوة يوسف ومن جرى مجرى ذلك. أي: وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم.

﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ أي: اجتبينا هؤلاء الرسل المذكورين. والاجتباء: الاصطفاء والاختيار. أي: اخترناهم واصطفيناهم ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾. أي: وفقناهم وأرشدناهم إلى صراط مستقيم. والصراط في لغة العرب: الطريق الواضح[٢].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من هذه السورة.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

والمستقيم: الذي لا اعوجاج فيه[١] ومنه قول جرير يمدح عمر بن عبد العزيز[٢]:

أمير المؤمنين على صراطٍ إذا اعوجَّ المَوَارِدُ مستقيمِ

وهذا الصراط المستقيم، أي: الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه: طريق دين الإسلام، دين الحنيفية السمحة، التي بعث الله بها إبراهيم، وحاصلها: اعتقاد نافع، اعتقاد بجميعه لله (جل وعلا) وما يجب اعتقاده، مع امتثال الأمر، واجتناب النهي بإخلاص، مطابقاً للوجه الذي شرعه الله (جل وعلا).

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنعام: آية ٨٨] ذلك الهدى الذي هدى الله به هؤلاء الأنبياء الكرام المذكورين في سورة الأنعام هو هدى الله، ولا هدى إلاَّ هدى الله، كما قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ ﴾ [البقرة: آية ١٢٠].

﴿ يَهْدِى بِهِۦ ﴾ أي: بهداه من يشاء أن يهديه من عباده. ومفهوم مخالفة الآية: أن من لم يشأ أن يهديه فلا هادي له؛ لأن من هداه الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. فالهداية والإضلال كلها بمشيئته وحده (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ ﴾ ومفعول ﴿ يَشَآءُ ﴾ محذوف. أي: من يشاء هدايته من عباده.

---

(١) السابق.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (١/ ١٧٠)، المحتسب (١/ ٤٣)، الدر المصون (١/ ٦٤).

ثم قال: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ هؤلاء الرسل الكرام الذين هداهم الله لو أشركوا بالله غيره، وعبدوا معه غيره، كما كان أبو إبراهيم يُراود إبراهيم أن يرجع لعبادة الأصنام، لو أشركوا مع الله غيره لحبط عنهم ما كانوا يعملون، فبطل جميع ما عملوه من الخير؛ لأن الشرك كفر يبطل جميع الحسنات، كما قال تعالى مخاطباً لنبينا وغيره من الأنبياء في سورة الزمر: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر: آية ٦٥]، وهذه الآية الكريمة تدل على أن الشرك ــ والعياذ بالله ــ مَحْبَطَةٌ للعمل، وأنه يُبطل جميع أعمال الإنسان[١].

ومن هذه الآية الكريمة أخذ الإمام مالك بن أنس (رحمه الله) فرعاً فقهياً، قال: إن الرجل إذا ارتد بانت منه زوجته[٢]. تارة يقول: بفسخ، وتارة يقول: بطلقة بائنة. لأن ذلك النكاح الذي عَمِلَ مِنْ عَمَلِه، وقد أشرك، وإذا أشرك حبط جميع ما كان يعمل، حتى معاشرته؛ لأنه أخذ تلك المؤمنة بكلمة الله، وبكتاب الله (جل وعلا)، والشرك يحبط ذلك[٣].

وهنا بحث أصولي؛ لأن القاعدة المقررة في الأصول: أنه إذا جاء في كتاب الله نص مطلق، ثم جاء في موضع آخر مقيداً، فالجماهير على أنه يُحمل المطلق على المقيد[٤]. وإحباط الشرك

---

(١) انظر: الأضواء (٢/ ٧، ٢٠٢).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٦٧).

(٣) انظر: القرطبي (٣/ ٤٨)، (١٥/ ٢٧٧).

(٤) انظر: البحر المحيط للزركشي (٣/ ٤١٦)، أضواء البيان (١/ ١٩٦، ١٩٧، =

للأعمال جاء مطلقاً في آيات من كتاب الله، وجاء مقيداً في آية أُخرى، فمن الآيات المطلقات: قوله هنا: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: آية ٦٥] وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة: آية ٥] هذه الآيات تدل على أن الكفر بالله يحبط العمل من غير قيد. وهذا إذا كان مسلماً ثم ارتد. وقد بين في موضع من سورة البقرة أن محل إحباط الإشراك، والرجوع للكفر بعد الإيمان، محل إحباطه للعمل ما إذا مات على ذلك، حيث قال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ [البقرة: آية ٢١٧] فقيد بقوله: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾.

وذهب مالك في جماعة من العلماء إلى أن الآيات المطلقة هنا على بابها، قال: إذا ارتد الإنسان حَبِطَ جميع عمله، وبطلت حَجَّةُ الإسلام ـ إن كان حجها ـ وبانت منه امرأته. وإذا راجع الإسلام ليس عليه قضاء فائت من صوم ولا صلاة؛ لأن جميع أعماله حبطت.

وذهبت جماعة من العلماء، منهم محمد بن إدريس الشافعي (رحمه الله)، إلى أن الكفر بعد الإيمان، والإشراك بعد الإسلام، لا يحبط جميع عمله إلا إذا مات على الكفر[١]. بدليل القيد الذي في قوله: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾.

وقول الشافعي في هذه المسألة أجرى على الأصول؛ لأن المقرر في الأصول: أنه إذا جاء نص من كتاب الله عاماً أو مطلقاً،

= ٢٦٤، ٢٨١، ٧/٢، ٣٠، ١٢٧، ١٣٨)، وغير ذلك من المواضع.

(١) انظر: القرطبي (٣/٤٨)، (١٥/ ٢٧٧).

وجاء مقيداً في موضع آخر، فله عند العلماء حالات[1]: تارة يكون الحكم والسبب واحداً، وتارة يكون الحكم واحداً دون السبب، وتارة يكون السبب واحداً دون الحكم، وتارة لا يتحد حكم ولا سبب.

فإذا كان الحكم والسبب متحدين فجمهور العلماء على أن المطلق يُحمل على المقيد، وأنه يقيد بقيده؛ ولأجل هذا فقد جاءت في تحريم الدم أربع آيات من كتاب الله، ثلاث منها مُطْلَقَات، وواحدة مقيدة:

أما المُطْلَقَات: فقوله في سورة النحل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل: آية ١١٥]، وقوله في سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: آية ٧٣]، وقوله في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: آية ٣] فالدم في آية النحل، وآية البقرة، وآية المائدة، مطلق عن قيد.

وقد جاء في سورة الأنعام هذه مقيداً بالمسفوحية، في قوله: ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: آية ١٤٥] وجماهير العلماء على

---

(١) في هذه المسألة راجع: البحر المحيط (٣/ ٤١٦)، شرح مختصر الروضة (٢/ ٦٣٥)، شرح الكوكب (٣/ ٣٩٥)، المذكرة في أصول الفقه ص ٢٣٢، نثر الورود (١/ ٣٢٣).

أن القيد بالمسفوحية في الأنعام يقيد به إطلاق الآيات في النحل والبقرة والمائدة؛ ولذا أطبق من يُعتد به من العلماء على أن الحُمرة التي تعلو القدر من أثر تقطيع اللحم أنها لا تنجسه؛ لأن ذلك الدم غير مسفوح، خارج بقيد المسفوحية في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [البقرة: آية ١٤٥] وهذا يدل على أن العلماء يحملون المطلق على المقيد، ولو كان المقيد هو السابق نزولاً؛ لأن القيد في آية الأنعام، وهي نازلة قبل البقرة، وقبل المائدة، وقبل النحل. أما نزولها قبل المائدة والبقرة فهو معروف؛ لأن سورة الأنعام نازلة قبل الهجرة بلا خلاف، إلا آيات معروفة منها[1]. والمائدة والبقرة من القرآن المدني بالإجماع، نزلتا في المدينة بعد الهجرة، والمائدة من آخر ما نزل، وفيها: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: آية ٣] بقيت: النحل والأنعام، هما مكيتان على التحقيق، إلا أن القرآن دل في موضعين على أن سورة الأنعام نازلة قبل سورة النحل، وهي التي فيها القيد، والموضعان الذي دل القرآن فيهما على أن الأنعام نازلة قبل النحل: أن الله قال في سورة النحل: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل: آية ١١٨] وهذا المحرم المحال، المقصوص عليه من قبل، في سورة الأنعام بلا خلاف، في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ الآية [الأنعام: آية ١٤٦]. الموضع الثاني: أن الله قال في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: آية ١٤٨] فبين أنهم سيقولون هذا في المستقبل، وأنهم لم يقولوه فعلاً. وبين في سورة

---

(١) انظر: القرطبي (٦/ ٣٨٢)، ابن كثير (٢/ ١٢٢)، مصاعد النظر (٢/ ١١٥).

النحل أن ذلك القول الموعود به في المستقبل أنه وقع فعلاً في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية. [النحل: آية ٣٥] فهذا دل على أن النحل بعد الأنعام. والمائدة والبقرة بعدها بلا نزاع. فتبين أن المطلق يُحمل على المقيد، ولو كان المقيد سابقاً نزولاً. هذا هو المعروف عند العلماء.

أما إذا اتحد حكمهما واختلف سببهما: فكثير من العلماء ـ منهم أكثر الشافعية، والحنابلة، وجماعة من المالكية ـ أن المطلق يحمل على المقيد في هذه.

ومثال ما اتحد حكمه واختلف سببه: قوله (جل وعلا) في كفارة القتل خطأً: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: آية ٩٢] فقيّد الرقبة بالإيمان، وأطلقها عن قيد الإيمان في كفارة اليمين، وكفارة الظهار حيث قال في كفارة اليمين في سورة المائدة: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: آية ٨٩] ولم يقل: مؤمنة. وقال في الظهار في سورة المجادلة: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ [المجادلة: آية ٣] ولم يقل: مؤمنة. فالحكم هنا واحد، وهو التكفير بتحرير رقبة، والسبب مختلف؛ لأن المقيد سببه: القتل خطأً، والمطلق سببه: إما حنث في يمين، وإما ظهار. وأكثر العلماء من الشافعية والمالكية والحنابلة يقولون: يُحمل المطلق هنا على المقيد، فيشترط في كفارة الظهار وكفارة اليمين الإيمان. خلافاً للإمام أبي حنيفة ـ رحمة الله على الجميع ـ قال في مثل هذه: لا يُحمل، ولو أعتق الحانث في اليمين أو المظاهر رقبة غير مؤمنة لأجزأته؛ لأن القيد في كفارة القتل خطأً، وهذه مطلقة.

ومثال عكس هذا: وهو ما إذا اتحد السبب واختلف الحكم، في مثل هذه يخالف الحنابلة، ويقولون: لا حمل في هذه. ويبقى المالكية والشافعية يقولون: فيها الحمل. ومثَّل الحنابلة لهذا، قالوا: الله (جل وعلا) في كفارة الظهار قيَّد بكونها قبل المسيس بالعتق والصوم، قال: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: آية ٣]، وقال في الصوم: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: آية ٤] وأطلق الإطعام عن كونه قبل المسيس، مع أن السبب في الجميع واحد، وهو الحنث في الظهار، والحكم مختلف؛ لأن هذا عتق، وهذا إطعام، وهذا صوم، فلا يُحمل المطلق على المقيد، فيجوز أن يعطي الطعام بعد المسيس، ولا يشترط في الطعام أن يُقال فيه: من قبل أن يتماسا. وقال غيرهم: إن هذا يُحمل فيه المطلق على المقيد. قالوا: ومثاله قوله في سورة المائدة، قال الله جل وعلا: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ﴾ [المائدة: آية ٨٩] فقيد الإطعام بكونه من أوسط ما تطعمون، ثم قال: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ ولم يقيد الكسوة بكونها من أوسط ما تكسون أهليكم. قالوا: فنحمل المطلق على المقيد، ونقول: إن الكسوة من أوسط ما تكسون أهليكم. كما قاله جماعة من العلماء. والحكم هنا مختلف؛ لأن المطلق: كسوة، والمقيد: إطعام، إلا أن السبب واحد، وهو الحنث في كفارة اليمين.

ومحل هذه الأقوال ما إذا كان المُقَيِّدُ واحداً، أما إذا كان هناك مطلق وهناك مُقَيِّدَين بقيدين مختلفين، فلهما حالتان[1]: إن كان

(١) انظر: مذكرة أصول الفقه ص ٢٣٤، نثر الورود (١/ ٣٢٧).

المُقَيَّدَان بقيدين مختلفين ليس أحدهما أقرب للمطلق، فلا يُحمل على واحد منهما. وإن كان أحدهما أقرب للمطلق، فذهبت جماعة من العلماء إلى أن المطلق يُحمل إلى أقرب المُقَيَّدَيْن له، ويقيد بقيده.

مثال ما إذا كان أحدهما أقرب: أن الله (تبارك وتعالى) ذكر صوم أيام اليمين، قال: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ﴾ [المائدة: آية ٨٩] وأيام اليمين لم يقيدها بتتابع ولا بتفريق، مع أنه جاء هنالك صوم مقيد بالتتابع، وهو صوم الظهار في قوله: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [المجادلة: آية ٤] وجاء هناك صوم آخر مقيد بالتفريق، وهو صوم التمتع؛ لأن الله قيده بالتفريق، حيث قال: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ﴾ [البقرة: آية ١٩٦] فقيد صوم الظهار بالتتابع، وقيد صوم التمتع بالتفريق، وأطلق صوم كفارة اليمين، لم يقيده بتتابع ولا بتفريق. وقراءة ابن مسعود: ﴿فصيام ثلاثة أيام متتابعات﴾[1] لم تثبت قرآناً. وإذا لم يأت بها إلا على أنها قرآن، وبطل كونها قرآناً بطل الاحتجاج بها عند من يقول بذلك، خلافاً لجماعة آخرين[2]. قال بعض العلماء في هذه: نحمل الإطلاق في كفارة اليمين على أقربهما لها، والظهار أقرب

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٠/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠).

(٢) في هذه المسألة راجع: المستصفى (١/ ١٠٢)، تفسير القرطبي (١/ ٤٧)، الفتاوى (١٣/ ٣٩٤، ٣٩٧)، (٢٠/ ٢٦٠)، البحر المحيط للزركشي (١/ ٤٧٥)، النشر (١/ ٥٣ ـ ٥٤)، شرح الكوكب المنير (٢/ ١٣، ١٣٦)، أضواء البيان (٥/ ٢٤٨)، المذكرة في أصول الفقه ص ٥٦، قواعد التفسير (١/ ٩٢).

لليمين من التمتع؛ لأن الظهار واليمين كلاهما كفارة، والتمتع أبعد منهما.

ومثال ما لم يكن أقرب لواحد منهما: أن الله قيد صوم الظهار بالتتابع، وقيَّد صوم التمتع بالتفريق، وأطلق قضاء رمضان، ولم يقيده بتتابع ولا تفريق قال: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: آية ١٨٤] ولم يقيد قضاء صوم رمضان الفائت بمرض أو سفر، لم يقيده بتتابع ولا تفريق، حيث قال: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، من غير أن يقول: متتابعات، ولا متفرقات، مع أن صوم الظهار مقيد بالتتابع. وصوم التمتع مقيد بالتفريق. فنقول: قضاء رمضان، الذي هو المطلق عن قيد التتابع أو قيد التفريق ليس أقرب إلى الظهار ولا إلى التمتع، فليس بأقرب لهذا وهذا، فلا نقيده بقيد التفريق ولا نقيده بقيد التتابع، فيبقى مطلقاً، من شاء تابعه، ومن شاء فرقه، إلا أن جماعة من العلماء قالوا: يُندب تتابعه. والله تعالى أعلم.

يقول الله جل وعلا: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: آية ٨٩] قرأه أكثر القراء ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ بالإدغام، وقرأه نافع: ﴿والنبؤة﴾ بتحقيق الهمزة[1].

الإشارة في قوله ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إلى الأنبياء الكرام المذكورين في قوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾

(١) انظر: السبعة لابن مجاهد ص ١٥٧ ـ ١٥٨، الإقناع لابن الباذش (١/ ٤٠٣)، النشر (١/ ٣٨٣)، الموضح لابن أبي مريم (١/ ٢٧٨)، الكشف لمكي (١/ ٢٤٣ ـ ٢٤٥)، إتحاف فضلاء البشر (١/ ٣٩٥ ـ ٣٦٠).

[الأنعام: آية ٨٤] إلى آخر من عدَّ منهم. أولئك الرسل الكرام: نوح، وإبراهيم، ومن ذُكر معهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ أي: أعطيناهم ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: جنس الكتاب، الصادق بصحف إبراهيم، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وزبور داود، ونحو ذلك. وهذا معنى قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الرسل المذكورون ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ أي: أعطيناهم ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: جنسه الصادق بالكتب المنزلة عليهم.

وقوله: ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾، قال بعض العلماء: الحكم هو الفهم في الدين، والفصل بين الخصوم. ومعنى الحكم على هذا: هو فهم الكتاب، والاطلاع على دقائقه[1]، والعمل بما فيه.

وقوله: ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ هو مصدر معنوي، معناه: أن الله جعلهم أنبياء. و (النبوة) أصلها من (النبأ)، و (النبأ) في لغة العرب: الخبر الذي له شأن وخطب. لا تكاد العرب تطلق (النبأ) إلا على الخبر الذي له شأن. تقول: «جاءنا نبأ الأمير». ولا تقول: «جاءنا نبأ حمار الحجام»؛ لأن هذا لا شأن له ولا خطب. فالنبأ أخص من الخبر؛ لأن كل نبأ خبر، وليس كل خبر نبأً؛ لاختصاص (النبأ) عادة بالخبر الذي له شأن؛ وذلك لأن الأنبياء يخبرهم الله عن طريق الوحي أخباراً لها شأن وأمر عظيم، خلافاً لمن زعم أن (النبوة) و (النبي) أنها من (النَّبْوَةِ) بمعنى: الارتفاع؛ لارتفاع شأنهم بما أوحاه الله إليهم. وهذا معنى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾.

ثم قال: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الضمير في قوله: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قال بعض العلماء: عائد إلى النبوة؛ لأنها أقرب

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٥١٤).

مذكور[١]. فإن يكفر بالنبوة، كنبوة محمد ﷺ، التي هي من جنس نبوتهم، كما صرح به في قوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: آية ١٦٣] وقال بعض العلماء: الضمير في ﴿بِهَا﴾ راجع إلى المذكورات الثلاث، وهي: النبوة، والحكم، والكتاب[٢]. ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ﴾ بالثلاثة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كفار مكة، الذين كذبوا النبي ﷺ[٣]. ولا شك أن الله أعطاه النبوة، وأعطاه الحكم، وأعطاه الكتاب. فإن كفروا بنبوته وحكمه وكتابه ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي: بالنبوة، أو بالمذكورات ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ كأن معنى الآية: يقول الله: إن كان هؤلاء تمردوا، وكذبوا رسلي، وكفروا بي، ولم يعبدوني، فلي قوم آخرون غيرهم، يعبدونني ويوحدونني كما ينبغي. وقوله ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي: وفقناهم للإيمان بها. أي: بالنبوة. أو: النبوة والحكم والكتاب. ومعنى وكلناهم بها: أي: وفقناهم لها، وهيأناهم لها، حتى كانوا يقومون بها، ويحافظون عليها، كما يقوم الوكيل بما أُسند إليه. وهذا معنى قوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ بل هم مؤمنون بها بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم.

وهؤلاء القوم المؤمنون ـ الذين هم ليسوا بها بكافرين، الذين وكلهم الله بالإيمان بها ـ للعلماء فيهم أوجه من التفسير، لا يكذب بعضها بعضاً[٤]:

---

(١) انظر: ابن كثير (٢/ ١٥٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (١١/ ٥١٥)، ابن كثير (٢/ ١٥٥).

(٤) انظر: ابن جرير (١١/ ٥١٥ ـ ٥١٨).

أظهرها: أنهم الأنبياء المذكورون. يعني: إن كفر هؤلاء الكفرة، وكفروا بالنبوة، فلنا من صفوة خلقنا أُناس طيبون يؤمنون كما ينبغي، ويعظمون الله كما ينبغي، تظهر بإيمانهم حكمة الله في خلقه الخلق، ليعبدوه ويعظموه. وعلى هذا فالقوم في قوله: ﴿قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ الأنبياء المذكورون. ويدل عليه: أنه قال بعده ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: آية ٩٠].

وقال بعض العلماء: المراد بهؤلاء القوم الذين وُكلوا بها، وليسوا بها بكافرين: المؤمنون من المهاجرين والأنصار، حيث تلقوه بالإيمان والعمل الصالح.

وقال بعض العلماء: هي تشمل كل مؤمن آمن بالله (جل وعلا). وعليه فالمعنى: إن كفر بعض خلقي وتمردوا وكذبوا رسلي فلي بعضٌ آخر من الناس الطيبين وفقتهم للعمل والإيمان، يحصل بهم غرض التشريع، وخلق الخلق؛ لأن الغرض الأكبر من خلق الناس: أن يعبدوا ربهم جل وعلا، ويحسنوا العمل له، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: آية ٥٦] فهؤلاء الطيبون تحصل بهم الحكمة المرادة في قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ ويحسنون العمل لله، فيحصل بهم المعنى المراد في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ﴾ [هود: آية ٧] وهذا معنى قوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

[٩ / أ] / ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٠].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ قرأ هذا الحرف حمزة والكسائي: ﴿فبهداهم اقتدِ﴾ في الصلة بلا هاء، وقرأه غيرهما وغير ابن عامر: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ بهاء السكت وصلاً ووقفاً، وقرأه ابن عامر من رواية هشام: ﴿اقتدهِ﴾ بكسرة مُخْتَلَسَة، وقرأه ابن عامر من رواية ابن ذكوان: ﴿اقْتَدِهي﴾ بكسرة مشبعة.

فتحصَّل أن القراءات فيه متعددة[1]، قراءة الجمهور: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ بهاء السكت الساكنة وصلاً ووقفاً، وقرأه حمزة والكسائي: ﴿اقْتَدِ﴾ بلا هاء في حالة الوصل. ﴿ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ بالهاء في حالة الوقف، وقرأه ابن عامر بهاء مكسورة تُخْتَلَسُ كسرتها في رواية هشام عنه، وتُشبع كسرتها في رواية ابن ذكوان عنه.

هذه هي القراءات: ﴿اقْتَدِ﴾ وصلاً ﴿اقْتَدهْ﴾ وقفاً ﴿ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ وصلاً ووقفاً ﴿اقتدهي﴾ وصلاً ﴿اقْتَدِهِ﴾ وصلاً هذه قراءات القراء السبع في هذا الحرف.

و ﴿اقتد﴾ معناه: فعل أمر من الاقتداء، والاقتداء معناه: الائتساء والاتباع في العمل. يقول العرب: «اقتدى به». إذا ائتسى به وتبعه في عمله.

وقال قوم: إن قراءة ابن عامر هنا ﴿اقتدهي﴾ ﴿اقْتَدِهِ﴾ زعم قوم أنها لحن لا تجوز؛ لأن هاء السكت لا يجوز كسره[2]. وهذا غلط؛ لأن قراءة ابن عامر قراءة صحيحة متواترة، والعلماء خرَّجوها على أن الهاء في قراءة ابن عامر ــ في حرف هشام وابن ذكوان ــ ليست هاء

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٨.

(٢) انظر: القرطبي (٧/ ٣٦).

السكت؛ لأن هاء السكت ساكنة على كل حال[١]، وإنما هي ضمير راجع إلى المصدر.

ومعنى ﴿اقتدهي﴾ أي: الاقتداء فيكون بمعنى اقتدِ اقتداءً بهم. هذا تخريج قراءة ابن عامر[٢].

ومعنى ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ اقتد بهداهم، وافعل كما يفعلون من الهدى.

وهذه الآية الكريمة هي التي أخذ منها جماهير العلماء ـ هي وأمثالها في القرآن ـ أن شرع من قبلنا شرع لنا إن ثبت في شرعنا إلا بدليل يدل على أنه ليس شرعاً لنا.

وهذه مسألة معروفة في الأصول[٣]. اعلم أولاً: أن شرع من قبلنا له ثلاث حالات: تارة يكون شرعاً لنا بلا خلاف، وتارة يكون غير شرع لنا بلا خلاف، وتارة يكون محل خلاف، هو الذي فيه كلام العلماء؛ لأن شرع من قبلنا واسطة وطرفان: طرف هو شرع لنا إجماعاً، وطرف ليس شرعاً لنا إجماعاً، وواسطة هي محل بحث العلماء وخلافهم.

أما الطرف الذي هو شرع لنا إجماعاً: وهو ما ورد في شرعنا أنه كان شرعاً لمن قبلنا، ثم جاءنا في شرعنا أنه مشروع لنا ـ كقتل

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٧٦).

(٢) انظر: حجة القراءات ص ٢٦٠.

(٣) انظر: إحكام الفصول للباجي ص ٣٢٧ ـ ٣٣٢، القرطبي (٧/ ٣٥)، البحر المحيط (٦/ ٤١ ـ ٤٧)، شرح الكوكب المنير (٤/ ٤١٢)، المذكرة في أُصول الفقه ص ١٦١، الأضواء (٢/ ٦٣).

النفس بالنفس قصاصاً، فإن قتل النفس بالنفس قصاصاً كان شرعاً لمن قبلنا، كما نص الله عليه بقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: آية ٤٥]. ثم إن الله بين في كتابنا أنه شرع لنا، حيث قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: آية ١٧٨]، وقال: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: آية ١٧٩]، وقال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: آية ٣٣] ـ فمثل هذا الطرف هو شرع لنا بإجماع.

الطرف الثاني: يكون شرع من قبلنا ليس بشرع لنا إجماعاً، وهذا الطرف له صورتان:

إحداهما: ألاَّ يثبت بشرعنا أصلاً، بأن لا يوجد دليل من كتاب ولا سنة على أنه كان شرعاً لمن قبلنا، وإنما تُلقي عن الإسرائيليات. فهذا لا يكون شرعاً لنا بالإجماع؛ لأن النبي ﷺ نهانا عن تصديق الإسرائيليات وتكذيبها[1] ما لم يقم دليل على صدقها أو كذبها. وما

(١) ورد هذا النهي في عدة أحاديث منها:

١ ـ حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) بلفظ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**...» الحديث وقد أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب التفسير، باب: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، حديث رقم: (٤٤٨٥)، (٨/ ١٧٠) وأطرافه (٧٣٦٢، ٧٥٤٢).

٢ ـ حديث أبي نملة الأنصاري (رضي الله عنه) بلفظ: «**ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم**...» الحديث. وقد أخرجه عبد الرزاق (٦/ ١١١)، (١٠/ ٣١٤)، (١١/ ١٠٩ ـ ١١٠)، وأحمد (٤/ ١٣٦)، وأبو داود في السنن، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، حديث رقم: (٣٦٢٧)، (١٠/ ٧٦)، والدولابي في الكنى (١/ ٥٨)، وابن حبان (الإحسان ٨/ ٥١ ـ ٥٢)، والطبراني (٢٢/ ٣٤٩ ـ ٣٥١)، والبيهقي في السنن (٢/ ١٠)، =

نُهينا عن تصديقه لا يمكن أن يكون شرعاً لنا.

الثاني من هذا الطرف: هو ما ثبت في شرعنا أنه كان شرعاً لمن قبلنا، إلا أنه نُص لنا في شرعنا أنه غير مشروع لنا. ومثال هذا كالآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا، فإن الله بين لنا في كتابنا أنه رفعها عنا، كما قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] ومن هذه الآصار: ما جاء في سورة البقرة من أن عَبَدَة العجل لما أرادوا أن يتوبوا إلى الله لم يقبل الله توبتهم حتى قدَّموا أنفسهم للقتل، كما تقدم في قوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: آية ٥٤]، فهذه الآصار والتشديدات في التشريع كانت شرعاً لمن قبلنا ولم تكن شرعاً لنا؛ لأن الله وضعها عنا بنص قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] والإصر في اللغة: الأثقال. والمراد به: الأثقال الشاقة في التكاليف. وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة أن النبي ﷺ لما قرأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٦]. أن الله قال: «نعم». في رواية

= وفي الشعب (٩/ ٤٢٠ ـ ٤٢١)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ٨٠١ ـ ٨٠٢)، والخطيب في الجامع (٢/ ١١٥)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٦٨)، والآحاد والمثاني (٤/ ١٤٠)، وفي التفسير (٣/ ٤٧٠)، وابن الأثير في أُسد الغابة (٦/ ٣١٥)، والمزي في تهذيب الكمال (٣٤/ ٣٥٤). وهو في ضعيف الجامع (٥٠٥٤).

٣ ـ عن عطاء بن يسار مرسلاً. أخرجه عبد الرزاق (٦/ ١١١)، (١٠/ ٣١٢)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ٨٠٣).

أبي هريرة: قال الله: «نعم». وفي رواية ابن عباس: قال الله: «قد فعلت»[(١)]. وهو حديث صحيح، يصرح بأن الله وضع عنا الآصار والأثقال التي كانت على من قبلنا.

بقيت واسطة هي محل الخلاف بين العلماء، وهي ما ثبت بشرعنا أنه كان شرعاً لمن قبلنا، ولم يثبت في شرعنا أنه شرع لنا، ولا غير شرع لنا. هذا محل الخلاف، وجمهور العلماء ـ وهو المشهور عن الأئمة الثلاثة، مالك وأحمد وأبي حنيفة ـ أن شرع من قبلنا الثابت بشرعنا يكون شرعاً لنا، إلا لدليل يدل على أنه منسوخ عنا. وعن الشافعي في أصح الروايات في أصوله: أنه لا يكون شرعاً لنا إلا بدليل منفصل. واحتج الشافعي بقوله تعالى في الأنبياء والرسل ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة: آية ٤٨] قال: لكل نبي شرعة مستقلة، ومنهاج مستقل.

واستدل الجمهور على أن شرع من قبلنا ـ إن ثبت بشرعنا ـ شرع لنا بأدلة كثيرة، من آيات كثيرة[(٢)]:

قالوا: الله (جل وعلا) لما ذكر الأنبياء في سورة الأنعام، قال لنبينا وهو قدوتنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] وأمْرُ القدوة أمْرٌ لأتباعه. قالوا: والله (جل وعلا) بين أنه ما قص علينا قصصهم إلا لنعتبر بها، فنتباعد عن موجب الهلاك، ونتسارع إلى موجب النجاة، كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق، حديث رقم: (١٢٥، ١٢٦)، (١/ ١١٥ ـ ١١٦).

(٢) انظر: الأضواء (٢/ ٦٣).

﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ﴾ [يوسف: آية ١١١] فصرح بأنه يقص قصصهم للاعتبار والعمل بما تضمنته قصصهم، ووبخ من لم يعقل ذلك، قال في قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾ [الصافات: الآيتان ١٣٧، ١٣٨] وبَّخَ من لم يعقل عن الله وقائعه في الأمم الماضية ليعتبر بها، وفائدة ذلك العمل، وهو أن يكف عن أسباب الهلاك الذي هلك بها الهالكون، ويسارع إلى أسباب النجاة. وقال جل وعلا: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ [الشورى: آية ١٣] وقال في التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ [المائدة: آية ٤٤] والموجود من النبيين عند نزول الآية: محمد ﷺ وحده.

وكان الإمام الشافعي (رحمه الله) يقول: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] المراد بالهدى هنا في قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ والمراد بالدين في قوله ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ خصوص العقائد والأصول، لا الفروع العملية؛ لأن الله قال في الفروع العملية: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة: آية ٤٨].

ونحن نقول: إن هذا الذي يُذكر عن الإمام الشافعي (رحمه الله)، وإن كان هو هو في الجلالة، إلا أن هذا الكلام غير مستقيم؛ لما ثبت في صحيح البخاري عن مجاهد في تفسير سورة (ص) أنه سأل ابن عباس: أفي (ص) سجدة؟ يعني: ومن أين أخذت السجدة في (ص)؟ فقال له ابن عباس: أَوَمَا تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾، ثم قال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ وكان داود ممن أُمر نبيكم أن يقتدي به، فسجدها داود، فسجدها رسول الله

ﷺ[١]. هذا حديث ثابت في صحيح البخاري عن ابن عباس، صرح فيه ابن عباس أن النبي ﷺ اقتدى بداود في سجدة تلاوة، وسجود التلاوة فرع من الفروع كما هو معلوم، لا أصل من الأصول. وكذلك كان الإمام الشافعي (رحمه الله) يقول: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ هذا الأمر الخاص بالنبي ﷺ لا يشمل الأمة. هذا الصحيح في مذهب الشافعي. قال: الأوامر الخاصة بالنبي ﷺ لا تشمل أحكامها الأمة إلا بدليل منفصل. قال: لأن اللفظ الخاص بالرسول ﷺ لم يشمل الأمة بحسب الوضع ومقتضى الصيغة، وإدخالنا في كتاب الله شيئاً لم يتناوله اللفظ لا يجوز إلا بدليل منفصل. وقد بينا فيما مضى أن جماهير العلماء على أن الخطابات الخاصة بالنبي ﷺ أنها تشمل أحكامها الأمة، وإن كان اللفظ لا يتناول الأمة لأدلة خارجية عن مادة اللفظ[٢]، منها: أنه هو القدوة المُشرِّع (صلوات الله وسلامه عليه)، وأَمْرُ القدوة أمْرٌ لأتباعه، والله يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: آية ٢١] أي: اقتداء كريم. وذلك الاقتداء في أفعاله وأقواله وتقريراته ﷺ. والله جل وعلا يقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: آية ٨٠]، ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: آية ٣١] واتباعه يقتضي في كل شيء مما أُمر به،

---

(١) البخاري، كتاب التفسير، (سورة ص)، حديث رقم: (٤٨٠٧)، (٨/ ٥٤٤).

(٢) في هذه المسألة انظر: البحر المحيط للزركشي (٣/ ١٨٦ ـ ١٨٨)، شرح الكوكب المنير (٣/ ٢١٨)، نهاية السول (٢/ ١٠١)، شرح مختصر الروضة (٢/ ٤١١)، الفتاوى (١٤/ ٢٧٤، ٢٧٥)، (١٥/ ٨١ ـ ٨٢، ٤٤٤ ـ ٤٤٥)، (٢٢/ ٣٢٢)، أضواء البيان (١/ ٢١٩)، (٢/ ٦٤ ـ ٦٧، ٢٨٥)، (٣/ ٤٩٤، ٤٩٥، ٦٣٤)، وغير ذلك من المواضع. وراجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

ولو بِأوامر خاصة. وثبت عن عائشة (رضي الله عنها) أنها ردَّت على من زعم أن تخيير الزوجة طلاق لها: بأن النبي ﷺ خير أزواجه فاخترنه، فلم يَعُدَّ ذلك طلاقاً[1]. مع أن الصيغة خاصة به ﷺ في قوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآيتين [الأحزاب: الآيتان ٢٨، ٢٩]. وقد بينا مراراً أن القرآن دل باستقرائه أن الله يخاطب نبينا بصيغة خاصة به ﷺ، ثم يبين لنا أن مراده بالصيغة الخاصة أن يشمل حكمها الأسود والأحمر. هذا كثير في القرآن، يورد الله الخطاب خاصاً بالنبي ﷺ، ثم يبين أن مراده عموم حكم ذلك الخطاب الخاص، كقوله في صدر سورة الطلاق بخطاب خاص به ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ ثم قال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ بصيغة الجمع الشاملة للأسود والأحمر، ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الطلاق: آية ١] فلو لم يكن قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ يُقصد منه شمول الحكم لجميع الأمة لأفرد الخطابات بعده، ولقال: (إذا طلقت النساء فطلقهن لعدتهن وأحصِ) (واتق الله) (لا تُخرج) فلما جاء بها مجموعة تبين أنه أراد إدخال الأمة تحت خطاب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾. ونظير هذا أيضاً في سورة التحريم، في قوله بخطاب خاص به ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: آية ١] ثم بين قصد شمول الخطاب للجميع حيث قال بعده: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ [التحريم: آية ٢] بصيغة الجمع الشاملة للأسود والأحمر. ونظيره أيضاً قوله في صدر سورة الأحزاب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ

---

(١) البخاري، كتاب الطلاق، باب من خيَّر أزواجه، حديث رقم: (٥٢٦٢، ٥٢٦٣)، (٩/ ٣٦٧)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، حديث رقم: (١٤٧٧)، (٢/ ١١٠٣).

ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ ﴾ [الأحزاب: الآيتان ١، ٢]. كل هذه خطابات خاصة به ﷺ، ثم قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بصيغة الجمع الشاملة للجميع، فدل على أن المراد شمول الجميع بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ومن ظواهر هذا في القرآن قوله في سورة يونس: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ﴾. ثم قال بصيغة الجمع الشاملة للجميع: ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ ﴾ [يونس: آية ٦١] وقد بينا أن من أصرح الأدلة في هذا آيتي الأحزاب، وآية الروم. أما آيتا الأحزاب: فالأولى منهما قوله تعالى في قصة زواج النبي ﷺ زينب بنت جحش (رضي الله عنها): ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ فكاف الخطاب في قوله: ﴿ زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ خاصة بالنبي ﷺ؛ لأنه هو وحده الذي زُوِّجها في ذلك الوقت، ثم بين أن هذا الخطاب الخاص به ﷺ أنه يُراد تعميم حكمه للأسود والأحمر حيث قال بعده: ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ ﴾ [الأحزاب: آية ٣٧] وآية الأحزاب الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ ثم قال: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۗ ﴾ [الأحزاب: آية ٥٠]. أي: هذا الحكم يخصك دون أمتك. والخطاب أوله: ﴿ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ فلو لم تكن الأُمة داخلة حكماً تحت اسم (النبي) لما كان لقوله: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۗ ﴾ فائدة، ولَمَا كانت إليه حاجة.

وأما آية الروم: فقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ [الروم: الآيتان ٣٠، ٣١]. فقوله: ﴿۞ مُنِيبِينَ﴾ حال من ضمير الفاعل، المُخَاطَب به النبي ﷺ في قوله: ﴿فَأَقِمْ﴾ أنت يا نبي الله ﴿وَجْهَكَ﴾ في حال كونكم ﴿۞ مُنِيبِينَ﴾، فلو لم تدخل الأُمة تحت الخطاب بقوله: ﴿فَأَقِمْ﴾ لقال: منيباً إليه واتقه، ولم يقل: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ وقد أجمع أهل اللسان العربي على أن الحال الحقيقية ـ أعني الحال التي لم تكن سببية[1] ـ تجب مطابقتها لصاحبها في الإفراد، والجمع، والتثنية، والتأنيث، والتذكير، فلا يقول: «جاء زيد ضاحكين». ولا يجوز أن تقول: «ادخل الدار قائمين». كل هذا لا يجوز[2]. فلما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ في حال كونكم ﴿۞ مُنِيبِينَ﴾ عرفنا شمول الصيغة الخاصة به لجميع الأمة. ومن هنا نعرف أن قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] أنه خطاب للنبي ﷺ، وأن الخطاب الخاص به يشمل حكمه أُمته، كما دل عليه استقراء القرآن.

---

(١) انظر: الأضواء (٢/ ٦٦)، وقد جرت العادة على ذكر هذا التقسيم عند الكلام على النعت، فيقولون: هو حقيقي وسببي. فالحقيقي: هو الذي يدل على صفة في المتبوع نفسه. ومن علامته أن يرفع الضمير المستتر. مثل: جاءني زيد العالم.

والسببي: هو الذي يدل على صفة في اسم ظاهر بعده متعلق بالمنعوت. وعلامته أن يرفع الاسم الظاهر المشتمل على ضمير يعود على المنعوت. مثل: جاءني زيد العالم أبوه.

وعلى ضوء ما سبق تعرف الفرق بين نوعي الحال هنا، والله أعلم.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥)، توضيح النحو (٤/ ٨).

وهنا مسألة تخطر في ذهن طالب العلم، يقول: الله أمر النبي ﷺ في هذه الآية من سورة الأنعام أن يقتدي بهؤلاء الرسل الكرام، وهو سيد الرسل وخيرهم وأفضلهم، فكيف يأمر الأفضل أن يقتدي بمن هو [أقل][1] منه؟

الجواب عن هذا[2]: أن اقتداءه بهم أعلى لظهور فضيلته وأوضح لذلك؛ لأنه إن اقتدى بهم شاركهم في كل ما كانوا عليه من الهدى والخير، وزاد عليهم بأمور عظيمة خصه الله بها لم تكن لديهم. وإذا كان مشاركاً لهم بما عندهم، زائداً عليهم بما ليس عندهم، ظهر بذلك الفضل، كما هو معروف.

والحاصل أن أكثر العلماء على أن شرع من قبلنا شرع لنا، وأن من أدلته: هذه الآية الكريمة؛ لأن الله قال لنبينا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] وما أنزله الله عليهم كله هدى، إلا ما ثبت نسخه، ولم يزل العلماء يستدلون بقصص الأمم الماضية عملاً بهذه الآية وأمثالها في القرآن من جميع المذاهب وفقهاء الأمصار. ومن هنا كان علماء المالكية يقولون: إن القرينة إذا قويت ربما قامت مقام البينة[3]؛ ولأجل هذا لمَّا سُئل مالك بن أنس (رحمه الله) عن رجل استُنْكِهَ فَشُم من فيه ريح الخمر!! أفتى بجلده؛

(١) في الأصل: أفضل.

(٢) انظر: التفسير الكبير (١٣/ ٧٠ ـ ٧١)، محاسن التأويل (٦/ ٦١٨).

(٣) في العمل بالقرائن انظر: الكافي في فقه أهل المدينة ص ٤٧٨، أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٠٧٧، ١٠٨٥)، تفسير القرطبي (٩/ ١٤٩، ١٧٤)، الطرق الحكمية ص ٤ فما بعدها. الإثبات بالقرائن ص ٧٧ وما بعدها، الأضواء (٢/ ٦٩).

لأن ريح الخمر قرينة جازمة على أنه شرب الخمر، إذ لو لم يشربها لما كانت ريحها في فيه[١]. قالوا: لأن الله دل في القصص الماضية ـ بين ما يدل ـ على أن القرائن الجازمة ربما قامت مقام البينات؛ ذلك لأن نبي الله يوسف لما بهتته امرأة العزيز وقالت ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: آية ٢٥] واضطر نبي الله يوسف إلى الدفاع فقال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: آية ٢٦] ولم تكن هناك بينة ولا شيء يصدقه أو يصدقها، فجاء ذلك الشاهد وقال لهم: هذا أمر يقوم مقام البينة، وهي قرينة تبين الحقيقة تركن إليها النفس كما تركن للبينة. قال: انظروا إلى قميص الرجل فإن كان مشقوقاً من جهة وجهه فهو يَرْكُضُ على المرأة، والمرأة تدفعه عن نفسها، وإن كان القميص مشقوقاً من الوراء فهو هارب وهي تَنْتَاشُه من وراء. قال الله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [يوسف: آية ٢٦] يعني من الأمام ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: آيتان ٢٦، ٢٧] ومحل الشاهد قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ لما وجدوا القميص مشقوقاً من دبر جزموا بأنها كاذبة وألزموها، وقالوا: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف: آية ٢٨] والله (جل وعلا) ما ذكر هذه القصة في معرض الاستحسان والتسليم مُبرِّئاً بها ساحة نبيه يوسف إلا أن مثل هذا يجوز أن يُعتمد عليه إذا كانت القرائن واضحة بينة لا تترك في الحق لَبْساً[٢]. وقد أخذها العلماء بالإجماع

(١) انظر: الأضواء (٢/ ٦٩)، (٣/ ٧٠).

(٢) انظر: القرطبي (٩/ ١٥٠)، الأضواء (٣/ ٦٩).

في بعض الأفراد. أجمع العلماء في أقطار الأرض أن الرجل يتزوج المرأة ولم ير وجهها قط، ولم يعرفها، وإنما يسمع أن عند فلان ابنة فيخطبها، ويتزوجها من غير أن يراها. ثم إنها وقت الزفاف تزفها إليه ولائد وإماء لا يثبت بقولهن حقير ولا جليل، فقد أجمع العلماء على أن له بأن يجامعها، وليس عليه أن يتوقف حتى تقوم بينة عدول تشهد أن هذه عين فلانة ابنة فلان التي وقع عليها العقد؛ لأن قرينة العقد، ودَفْع الصداق، والتهيؤ للزفاف، قرائن قامت مقام البينة في هذا الموضوع[1]. والرجل ينزل عند القوم فيأتيه الولد والجارية بطعام القوم، والطعام مال معصوم محترم، وليس عليه أن يتثبت حتى تقوم بيِّنة على أنهم أذنوا له في الأكل؛ لأن القرينة تقوم مقام ذلك[2].

وقد أخذ علماء المالكية وغيرهم من قصة يعقوب وأولاده أن القرينة تبطلها قرينة أقوى منها[3]. وهو أَخْذٌ صحيح من كتاب الله؛ ذلك أن أولاد يعقوب لما أرادوا أن يجعلوا يوسف في غيابة الجب ذبحوا سخلة، ولطَّخوا قميصه بدم السخلة، ليكون الدم قرينة لهم على صدقهم بأن يوسف أكله الذئب، ونسوا أن يشقوا القميص!! فلما جاؤوا بالليل إلى يعقوب بالقميص عليه الدم تأمل في القميص، فإذا هو ليس فيه شق، وهو صحيح سليم، فقال: سبحان الله!! متى كان الذئب حليماً كيِّساً؟ يقتل يوسف ولا يشق قميصه؟! فجزم بأنهم

---

(١) انظر: قواعد الأحكام (٢/ ١٣٦ ـ ١٣٩)، الأضواء (٢/ ٦٩)، (٣/ ٧٠).

(٢) انظر الأضواء (٢/ ٦٩)، (٣/ ٧٠).

(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٠٧٧)، القرطبي (٩/ ١٤٩)، الأضواء (٢/ ٦٩)، (٣/ ٧٠).

كاذبون. كما نص الله عنه في قوله: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾ [يوسف: آية ١٨] وحكى غير واحد إجماع العلماء[١] على أن مستند يعقوب في قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ أنه عدم شق القميص، وتيقن أن الذئب لو كان أكله لا بد أن يكون في القميص شق من نابه أو ظفره، كما هو معروف.

وكذلك أخذ المالكية ضمان الغُرْم من قوله في قصة يوسف وإخوته: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ [يوسف: آية ٧٢][٢].

وأخذ بعض الشافعية ـ مع أنهم يقولون: إن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا ـ أخذوا ضمان الوجه المعروف في الاصطلاح بـ (الكفالة) من قول يعقوب لأولاده: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ [يوسف: آية ٦٦][٣].

وأخذ علماء المالكية وغيرهم أن القاضي إذا توجه حكمه إلى أحد الخصمين لا بد أن يُعذر إليه بـ: (أبَقِيَتْ لك حجة)؟ أخذ هذا من قوله في قصة الهدهد: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل: آية ٢١] أي: ما لم يكن عنده مَدْفَع وعُذر يدفع به عن نفسه[٤].

---

(١) نقله القرطبي (٩/ ١٥٠)، وانظر: الأضواء (٣/ ٧١).

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٠٩٦)، القرطبي (٩/ ٢٣٣)، الأضواء (٢/ ٧٠).

(٣) انظر: القرطبي (٩/ ٢٢٥)، الأضواء (٢/ ٧٠).

(٤) انظر: الأضواء (٢/ ٧٠).

وأخذ علماء المالكية وغيرهم أن القاضي إذا انتهت الآجال والتَّلَوُّمات للخصوم ينبغي له أن يستظهر لمن توجه عليه الحكم بثلاثة أيام، أخذاً من قوله في قصة صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ﴾ [هود: آية ٦٥][١].

وأخذ علماء الحنابلة جواز طول مدة الإجارة من قوله في موسى وصهره شعيب أو غيره: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ﴾ الآيات [القصص: آية ٢٧][٢].

أما الذين قالوا: إن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا ــ وهو أصح الروايات في الأصول عن الإمام الشافعي ــ فتمسكوا بظاهر قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة: آية ٤٨] وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**إنا معاشر الأنبياء أولاد عَلَّات، ديننا واحد**»[٣]. وأولاد العلَّات: هم أولاد الرجل الواحد إذا كانت أمهاتهم شتى مختلفة. يعني أن العقيدة والأصل واحد، والفروع تختلف، أما اختلاف الفروع الذي أشار إليه النبي بقوله: (أولاد عَلَّات) وبيَّنه الله بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ فهو لا ينافي

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: المغني (٨/ ١٠)، حاشية الروض المربع لابن قاسم (٥/ ٣١٦)، الأضواء (٢/ ٧٠).

(٣) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦]، حديث رقم: (٣٤٤٢)، (٦/ ٤٧٧)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب: فضائل عيسى (عليه السلام)، حديث رقم: (٢٣٦٥)، (٤/ ١٨٣٧).

ما ذكرنا؛ لأن بعض الشرائع يكون فيها نسخ لم يكن فيما قبلها، ويُزاد في بعض الشرائع أحكام لم تكن موجودة فيما قبلها، وبواسطة نسخ بعض الأحكام السابقة، وزيادة بعض الأحكام التي لم تكن، تختلف الشرائع بهذا الاعتبار، ويكون لكلٍّ شريعةٌ ومنهاج؛ لأنها لم تتحد في كل شيء. وهذا معنى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] العائد إلى الصلة هنا محذوف، والأصل: أولئك الذين هداهم الله، فحذف الضمير العائد على الصلة[1] لأنه منصوب بفعل، وإذا كان منصوباً بفعل أو وصف فَحَذْفه مطَّرد، كما هو معروف.

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۝٩٠﴾ [الأنعام: آية ٩٠] قل لهم يا نبي الله: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ أي: لا أطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على هذا التبليغ الذي بلغتكم به ما فيه لكم خير الدنيا والآخرة، لا أطلب منكم في مقابلته جُعلاً، ولا أجرة أنتفع بها في الدنيا، لا، وكلا، إنما أجري في ذلك على الله، وهذه عادة كل الأنبياء، يُبَلِّغون العلم من غير أن يأخذوا عليه جُعلاً ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ [يس: الآيتان ٢٠، ٢١] ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ﴾ [سبأ: آية ٤٧]. وقد ذكر الله قصص الأنبياء في سورة الشعراء[2]، قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، كل واحد يقول: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٩﴾ [الشعراء: آية ١٠٩] وذكر في (هود) عن نوح: ﴿وَيَٰقَوْمِ

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/ ٣١).

(٢) كما في الآيات (١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠).

﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [هود: آية ٢٩] وهذه عادة الرسل، يبلغون ويبذلون العلم والنصائح والخير مجاناً من غير عوضٍ في ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ لا أطلب منكم جُعلاً في مقابلة هذا الذي أتيتكم به، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرًا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٦﴾ [القلم: آية ٤٦] والله (جل وعلا) منع على الأنبياء أن يأخذوا جُعلاً في مقابلة التبليغ؛ لأنهم لو أخذوه لكانوا يتهمونهم ويقولون: يأتي بهذه الدعوى التي جاء بها لأجل أن يأخذ؛ ولئلا تثقل الناس من المغارم؛ لأن النفوس مجبولة على بغض المغرم، كما قال: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرًا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٦﴾ [القلم: آية ٤٦] ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ [سبأ: آية ٤٧] أما قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: آية ٢٣] فالتفسير الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين، وأكثر علماء السلف(١): أن النبي ﷺ له في كل فخذ من قريش قرابة. ومعنى الآية: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ على هذا الذي جئتكم به من الفضل ﴿أَجۡرًاۖ﴾، جُعلاً ولا شيئاً ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ إلا أن تودوني في قرابتي منكم، وتراعوا فيَّ حق القرابة، فلا تؤذوني. وهذا مضمون للأسود والأحمر.

وفي الآية أقوال: منها ما رُوي عن جماعة من آل البيت، وجماعة من العلماء، أن المعنى: إلا أن تودوني في قرابتي، فتراعوني فيهم(٢). هذا الوجه الآخر في الآية، والأول هو المشهور، وبقية الأوجه ضعيفة. وإذا كان لا يطلب أجراً إلا الشيء المبذول للأسود والأحمر من مودة كل قريب لقريبه تبين أنه لا يطلب أجراً،

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٥/ ٢٣).

(٢) انظر: القرطبي (١٦/ ٢١)، الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمي ص ٢٥٨.

كما قال ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: آية ٤٧] وهذا معنى قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٠] يعني: ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ (ذكرى): اسم مصدر بمعنى التذكير، مؤنث بألف التأنيث المقصورة تأنيثاً لفظياً. فما هو إلا ذكرى. أي: تذكير وعظة للعالمين، يتذكرون ويتعظون بما فيه من الغرائب والعجائب والمواعظ، وما كان بهذه المثابة لا يحسن ولا يجمل أن يؤخذ عليه جُعل أو أجر، لا، وكلا[1].

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: آية ٩١].

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ذهبت جماعة من العلماء إلى أن هذه الآية نزلت في مالك بن الصيف، وهو حبر من أحبار اليهود، ذكروا في قصته: أن النبي ﷺ ناشده: «**أَوَجَدْتَ في التوراة أن الله يُبغض الحبر السمين؟**» وأنه قال: نعم. وأنهم قالوا له: أنت حبر سمين!! فغضب، وقال: «ما أنزل الله على بشر من شيء»[2]. مع أن أثر: «**إن الله يبغض الحبر السمين**» لم يثبت من طريق صحيح، إلا أن هذا ذكره بعض العلماء في سبب نزول هذه الآية. والذين قالوا هذا قالوا: هذه آية مدنية من سورة مكية؛ لأن سورة الأنعام مكية، نزلت قبل الهجرة

---

(١) انظر: القاسمي (٦/٦١٩ ـ ٦٢٢).

(٢) أخرجه ابن جرير (١١/٥٢١)، وابن أبي حاتم (٤/١٣٤٢)، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٢٠، من طريق سعيد بن جبير مرسلاً. وعزاه في الدر (٣/٢٩) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

وفي سنده ـ إضافة إلى الإرسال ـ (يعقوب القمي) و (جعفر بن أبي المغيرة) وكلاهما قال عنه الحافظ في التقريب ص ٢٠١، ١٠٨٨: «صدوق يهم». اهـ.

إلا أن فيها آيات مدنية، منهن عند بعض العلماء هذه الآية[١]. قالوا: نزلت في مالك بن الصيف اليهودي، والتي بعدها نزلت في مسيلمة والأسود العنسي. أعني قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: آية ٩٣] وأن آخرها: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] أنه مما نزل في المدينة، هكذا قال بعض العلماء.

والمعنى كما ذكره المفسرون: أن هذا اليهودي لما قال: ما أنزل الله على بشر من شيء.

وقال قوم: هذه المقالة لكفار مكة والآية مكية، من سورة مكية[٢]. وعلى كل حال فالذين قالوا هذه المقالة سواءً قلنا إنه مالك بن الصيف، أو غيره من اليهود، أو كفار مكة الذين قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، هؤلاء ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ يعني ما قدروا الله حق قدره: ما عظموا الله حق تعظيمه، ولا عرفوه حق معرفته، حيث نفوا إنزال الله الكتب السماوية على الأنبياء.

ولطالب العلم أن يقول: إذا نفوا عن الأنبياء إنزال شيء، فأي شيء في هذا من عدم تعظيم الله؟

الجواب: أن هذا نزَّه الله نفسه عنه في سورة (قد أفلح المؤمنون) وبين أنه لا يليق به؛ لأن الحكيم الخبير خلق هذا الخلق، وأبدع هذا الكون، كيف يفعل هذا إلا لِحِكَم بالغة؟ وهو أنه يمتحنهم ويجازيهم، ويكلفهم ويجازيهم. فهذا هو الذي نزَّه الله عنه نفسه، إذ

---

(١) انظر: القاسمي (٦/ ٦٢٤، ٦٢٧).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٢٤)، ابن كثير (٢/ ١٥٦).

لو كان يخلق الخلق ولا يكلفهم ولا يجازيهم كان خلقه إياهم كأنه من العبث، ومن ظن أن الله يفعل هذا لا لحكمة فويل له من النار، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: آية ٢٧]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: الآيتان ٣٨، ٣٩] وقال جل وعلا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: آية ١١٥] ثم نزّه نفسه عن هذا ـ وهو محل الشاهد ـ فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: آية ١١٦] تعالى وتقدس وتنزّه عن أن يخلق هذا العالم عبثاً من غير تكليف ولا جزاء، لا يكون ذلك أبداً.

ومن هنا لما قالوا: لم ينزل الله على بشر من شيء، وليست هنالك كتب على ضوئها التكاليف والجزاء، بين الله أنهم ما قدروه حق قدره، ما عظّموه حق عظمته، ولا عرفوه حق معرفته، حيث يترك هذا العالم سُدى عبثاً ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: آية ٣٦] لا، وكلا. ثم قال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿تُمْنَى﴾[١] ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة: الآيات ٣٦ ـ ٣٨] فهؤلاء الذين نفوا إنزال الكتب على الرسل وتكليف الخلائق ومجازاتهم، هؤلاء ظنوا بالله أنه خلق الخلق عبثاً، ولم يخلقه للحِكَم البالغة، فما عظموه حق عظمته، ولا عرفوه حق قدره ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ حين قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: آية ٩١] المعروف عند جماعة المفسرين: أن مالك بن الصيف لما قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ قالوا: إن قومه قالوا: كيف تنكر إنزال شيء على أحد

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٤٥٣.

من البشر وأنت تعلم أن التوراة أُنزل على موسى[١]؟ يذكرون في قصته أنه كان حبرهم، وأنهم خَرَّجوه بسبب هذا، ووضعوا بعده كعب بن الأشرف، أو عبد الله بن صوريا الأعور، كما هو مذكور في التاريخ.

والعلماء في هذا يقولون: إن مناظرة هذا اليهودي أو غيره، أنها متطبقة على المناظرة الاصطلاحية تماماً؛ لأن هذا اليهودي قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ فهذه المقدمة التي جاء بها هي التي تسمى في الاصطلاح: (كلية سالبة). ولا شك أنه حذف مقدمة أُخرى، وأنه يقصد: أنت يا محمد من جملة البشر، والبشر جميعهم ـ بالعنوان الأعم الذين أنت من جملتهم ـ ما أنزل الله عليهم من شيء. ينتج من ذلك: أنت لم ينزل عليك شيء، حيث كنت داخلاً في جملة البشر، وحيث إن البشر بالعنوان الأعم حُجِبَ عن جميعهم إنزال شيء. ينتظم من المقدمتين: أنت لم ينزل عليك شيء!! وقد تقرر في فنون المناظرة: أن (السالبة الكلية) إنما تنقضها (مُوْجَبَة جزئية). فالخصم إذا أراد نقض كلام خصمه؛ إذا كان مبنى كلام خصمه على (سالبة كلية)؛ إنما ينقضها بـ(مُوْجَبَة جزئية)، كما هو معروف. قالوا: ولذا قال الله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ أنت قلت: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ من هو الذي أنزل الكتاب الذي هو التوراة على موسى؟! فهذا في قوة: موسى بشر، وأنتم يا يهود تُسَلِّمون بشرية موسى، موسى أُنزل عليه الكتاب، وهو التوراة، فأنتم تُسَلِّمون بشريته، ونزول الكتاب عليه. ينتج:

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٢٢).

بعض البشر ــ وهو موسى ــ أُنزل عليه الكتاب[1].

إلا أن هـذا فـي الاصطـلاح يتطـرقـه سـؤال، قـد يكـون بعـض الحاضرين لا يفهمه؛ لأنه يقال: هذا اليهودي بنى دليله على (كلية سالبة) ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ وأن الله لما نقض عليه، كان النقض في قوةِ (مُوْجَبَةٍ جزئية)؛ لأن معنى قوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام: آية ٩١] هو في قوة: موسى بشر، موسى أُنزل عليه كتاب. ينتج: بعض البشر أُنزل عليه كتاب.

العارف باصطلاحات هذه الفنون يقول: هذا الميزان من الشكل المعروف بـ :(الشكل السالب) وأهله يشترطون فيه كلية إحدى المقدمتين، وهما هنا: شخصيتان.

والجواب عن هذا هو: ما هو مقرر: أن كل ما تُنتج فيه الكلية تُنتج فيه الشخصية؛ لأن المراد أن لا يبقى شيء من أفراد الموضوع الداخلة تحت العنوان، سواء حصرها سُوْرٌ، أو حصرها مجرد الوضع[2]. وعلى كل حال فهذا اليهودي أو غيره قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ فالله ألزم اليهود، وقال لهم: من هو الذي أنزل الكتاب على موسى؟

[٩/ب] / وهم يعترفون ببشرية موسى، أنه بشر، وأن الله أنزل عليه الكتاب، يلزم من ذلك أن بعض البشر أُنزل عليه الكتاب. وهو نقض لمقالتهم، وتكذيبٌ لهم في قولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ أي: وهو التوراة.

---

(١) انظر: آداب البحث والمناظرة (٢/ ٧٨ ــ ٨٠).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٧٩ ــ ٨٠).

وقوله: ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ قوله: ﴿نُورًا وَهُدًى﴾ كلاهما حال. أي: جاء به موسى في حال كونه نوراً يكشف ظلام الجهل، والشك، والشرك ﴿وَهُدًى﴾ يُهتدى به من الضلال. الجواب: أنزله الله (جل وعلا)، والله (جل وعلا) لم يَكِل هذا إليهم؛ لأنه قال لنبيه: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)﴾ [الأنعام: آية ٩١] قل لهم يا نبي الله: أنزله الله. وهو محل الشاهد. وإذا كان الجواب: أنزله الله على موسى. أي: هذا الكتاب أنزله الله على موسى، وهو بشر، تبين كذب مقالتهم ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ وهذا معنى قوله: قل لهم يا نبي الله ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ من هو الذي أنزل الكتاب ﴿الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ في حال كونه ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ هذا السؤال في قوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾. أمر الله نبيه أن يجيب بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)﴾ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ معناه: قل أنزله الله جل وعلا ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ فيه قراءتان سبعيتان[١]، قرأه أكثر السبعة: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾. وقرأه بعض السبعة: ﴿يَجْعَلُونَه قَرَاطِيسَ يُبْدُونها ويُخْفُون كَثِيراً﴾ أما على قراءة: ﴿تَجْعَلُونَهُ﴾ فهو خطاب لليهود[٢]. وسياق الكلام يُعَيِّنُ أن الآية نازلة في اليهود لا في مشركي مكة، كما قاله بعض العلماء. ومعنى: ﴿يَجْعَلُونَه﴾ أي: اليهود. أو ﴿تَجْعَلُونَهُ﴾ أنتم أيها اليهود.

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٨.

(٢) انظر: حجة القراءات ص ٢٦١، القرطبي (٧/ ٣٧).

وقوله: ﴿قَرَاطِيسَ﴾ (القراطيس) جمع (قرطاس)، و(القرطاس): الورقة. كما هو معروف؛ لأن نسخة التوراة الكبيرة كلها فيها الحق، فإذا أرادوا التحريف أخذوا أوراقاً مفرقة، وكتبوا فيها أشياء متعددة مما يريدون أن يحرفوه، وتركوا نسخة الكتاب الكبيرة غير حاضرة، فإذا أرادوا التحريف قالوا: هذا القرطاس نقلنا فيه من محل التوراة في المحل الفلاني كذا وكذا، وهذا نصه!! وهو محرف، ولم يأتوا بأصل الكتاب؛ لأنه لو جاء لظهرت الحقيقة فيه. وهذا معنى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا﴾ أي: القراطيس المحرفة على أهوائكم ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ وجعله بهذه القراطيس ليستعينوا بها على إخفاء ما يحبون وإبداء ما يحبون؛ لأنه لو جاءت نسخة الكتاب كاملة لعُرف الحقيقة فيه؛ ولذلك يكتبونها كُتباً مُحرَّفة، كما قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧٩]. وقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: آية ٧٨] وهذا معنى قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا﴾ محرفة للناس ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ في النسخة الكبيرة لا تُظهرونه. كانوا يخفون صفات النبي ﷺ، فيجدونه في التوراة: (أبيض مُشْرَباً بحُمْرة)، فيكتبون لوناً غير ذلك. يجدون: (رَبْعَة)، يكتبون: (طويلاً مُشَذَّباً). (جَعْد الشعر): يكتبون: (سَبْط الشعر) ويغيرون الحقائق؛ ولذا قال تعالى: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ﴾ أظهر

الأقوال فيها: أن المراد: بهم اليهود الذين أنزل عليهم التوراة، أن الله علمهم بواسطة القرآن من غرائب ما في التوراة وعجائبه ما كانوا جاهلين به؛ لأن القرآن مهيمن على الكتب، وكانت أشياء غامضة عليهم لا يعرفونها، فبينها القرآن حتى عرفوها، وعلموا بواسطة القرآن من أسرار التوراة ما لم يكونوا يعلمونه، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: آية ٧٦] وقال الله جل وعلا: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: آية ١٥] إلى غير ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾ أي وعُلِّمتم الشيء الذي لم تعلموه أنتم ولا آباؤكم من قبل، علمكم الله إياه بواسطة القرآن العظيم؛ لأنه مهيمن على الكتب يبين ما فيها، كما قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: آية ٧٦] مما كانوا لا يعلمونه.

ثم قال جل وعلا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ جواب للاستفهام في قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ قل لهم: من هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس، ثم أمره بالجواب: قل لهم: أنزله الله (جل وعلا). ثم بعد أن تفحمهم ﴿ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ ﴿ذَرْهُمْ﴾ معناه: اتركهم.

ومعنى: ﴿فِى خَوْضِهِمْ﴾ أي: في خوضهم في الباطل، والكفر، والتكذيب بآيات الله ﴿يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ يتخذون ذلك لعباً واستهزاءً.

وهذا الأمر قال بعض العلماء: هي مُتَارَكَةٌ منسوخة[1]؛ لأن أهل الكتاب كان النبي ﷺ مأموراً بتركهم، حيث قال ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [البقرة: آية ١٠٩] ثم جاء الله بأمره فقال: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: آية ٢٩].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢﴾ [الأنعام: آية ٩٢] لما قال اليهود: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ وأن الله (جل وعلا) كذبهم تكذيبتين: الأولى: قوله: ﴿مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ ثم قال في جواب هذا الاستفهام: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ الله أنزله. وهذا تكذيب صريح لقولهم: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء. ثم كذبهم التكذيبة الأخرى: أن الله أنزل على محمد ﷺ أعظم كتاب، وهو الكتاب المبارك، حيث قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ وهذا أيضاً كتاب آخر غير الذي أُنزل على موسى، أنزلناه على بشر تكذيباً لقولكم ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ وصيغة الجمع في قوله ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ للتعظيم؛ لأن منزل هذا الكتاب عظيم جداً، فهو جدير بالتعظيم.

وقوله: ﴿مُبَارَكٞ﴾ أي: كثير البركات والخيرات، فهذا القرآن كله بركات وخيرات؛ لأن الله قال إنه مبارك. والمبارك: كثير البركات؛ لأن فيه خير الدنيا والآخرة، يعتقد الإنسان عقائده، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ويتأدب بآدابه، ويعتبر بأمثاله وقصصه،

---

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (٢/ ٣٢١).

فيكون على أكمل حال في الدنيا والآخرة. فهو فيه البركات والخيرات لمن وفقه الله ـ للعمل به ـ (جل وعلا)؛ ولذا بينا مراراً أنه أعظم نعمة أنزلها الله على خلقه؛ ولذا علمهم أن يحمدوه على هذه النعمة والبركات في هذا القرآن العظيم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الكهف: آية ١] وبيَّن أن إيراثه علامة الاصطفاء، وبيَّن أن ذلك فضل كبير من الله حيث قال في (فاطر): ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فبين أن إيراث هذا الكتاب أنه لا يكون إلا لمن اصطفاه الله. ثم قال في معرض التنويه به: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢﴾ [فاطر: آية ٣٢] أي: إيراثنا الكتاب إياهم عن نبيهم هو الفضل من الله الكبير عليهم، كما قال هنا إنه ﴿مُبَارَكٌ﴾.

وقوله: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ معناه: أن القرآن العظيم مصدق للكتب السماوية التي قبله، وتصديقه لها من جهات متعددة منها[1]: أنه لا يخالفها. أن العلامات التي قامت عن النبي وعن كتابه الذي ينزل عليه جاءت كلها مطابقة، وأن ما تدعو إليه الكتب السماوية من التوحيد وطاعة الله ومكارم الأخلاق كذلك جاء القرآن آمراً به. ومن تصديقه للكتب السماوية: أنه يهيمن عليها ويمنعها من التحريف، كلما أرادوا أن يحرفوا منعهم القرآن، كما قال: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: آية ٤٨] وبين الله ذلك في مواضع من كتابه حيث قال: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: آية ١٥] ولما أنزل الله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: آية ١٦٠] قال اليهود: لم يُحرم علينا إلا ما كان محرماً من الطعام على أبينا إسرائيل. وهو

---

(١) انظر: القاسمي (٢/ ١١٥).

يعقوب. فالقرآن كذبهم وألقمهم الحجر حيث قال: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [آل عمران: آية ٩٣][(١)]. والمفسرون يقولون: إن هذا الذي حرم على نفسه هو لبن الإبل ولحمها. قالوا: إنه أصابه مرض (عِرق النسا) وأنه نذر لله إن شفاه الله ليُحَرِّمن لله أحب الطعام والشراب إليه، وأن ذلك كان جائزاً في شرعه، فشفاه الله، فحرم لبن الإبل ولحمها. هكذا يقولون[(٢)]. ومحل الشاهد قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: آية ٩٣] فهذا إلقام الحجر أنهم كاذبون على كتاب الله؛ ولذا قال هنا: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

وقوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يقول بعض العلماء[(٣)]: المُعَلَّل محذوف ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أنزلنا إليك هذا الكتاب. وبعض العلماء يقول: هو معطوف على معنى ما قبله. والمعنى: كتاب أنزلناه إليك لأجل البركات المشتمل عليها؛ ولتصديق الذي بين يديه؛ ولتنذر أُم القرى. وأكثر العلماء على أن المُعلل محذوف، والمعنى: ولتنذر أم القرى أنزلناه إليك. و (أم القرى) هي مكة المكرمة حرسها الله. ومعنى ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ لتنذر أهلها.

وقوله: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني: ومن حول أُم القرى.

---

(١) انظر: ابن جرير (٧/ ٧).

(٢) انظر: ابن جرير (٧/ ١٣ ـ ١٥).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٧٩).

وبقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ تمسك جماعات من اليهود، قالوا: لم يُرسل محمد ﷺ إلا إلى جزيرة العرب؛ لأنه قال له: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ في موضعين[1].

وقد أجمع العلماء، ودل القرآن العظيم، والسنة الصحيحة، وإجماع العلماء، أن رسالة نبينا ﷺ شاملة عامة للأسود والأحمر[2]. وعليه يقول السائل: ما الجواب عن قوله ﴿أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ والاقتصار على هذا هنا، وفي قوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾؟

للعلماء عنه جوابان[3]:

أحدهما: أن ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ صادق بالدنيا كلها؛ لأن الدنيا عند الله شيء بسيط كأنها نقطة.

وقال بعض العلماء: غاية ما في الباب أن هذه الآية الكريمة اقتصرت على إنذار أم القرى ومن حولها، وسكتت عما سوى ذلك، وجاءت آيات أخر صرَّحت في الإنذار بالتعميم، كقوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: آية ١]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: آية١٥٨] وقال جل وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: آية ٢٨]،

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: ابن كثير (٢/ ١٥٦ ـ ١٥٧)، القاسمي (٦/ ٦٢٩).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٧٩)، ابن كثير (٢/ ١٥٦)، فتح القدير (٢/ ١٣٩)، القاسمي (٦/ ٦٢٩)، أضواء البيان (٧/ ١٥٨)، دفع إيهام الاضطراب (مطبوع في آخر الأضواء) (٩/ ١١٩).

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: آية ١].

والآية على هذا الوجه الأخير الذي ذكرنا كقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: آية ٢١٤] فليس لنا أن نقول: ليس مرسلاً إلا لعشيرته الأقربين؛ لأن الله قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ لأنه في هذه الآية أمره أن ينذر عشيرته، وعمم الإنذار في آيات أخر، كذلك في هذه الآية: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: آية ٩٢] وعمم الإنذار في آيات أخر.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩٢﴾ [الأنعام: آية ٩٢] وفي بعض القراءات: ﴿عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ قد بينا مراراً أن معنى (الآخرة) أنها لا دار بعدها يُنتقل إليها؛ ولذلك سُميت (آخرة). والإنسان قبل أن يصل إليها ينتقل من طَور إلى طَور. وقد بينا أن رحلة الإنسان يجب عليه النظر فيها؛ لأن الله أمره بذلك. وأن مبدأ رحلة الإنسان أنه تراب بلَّه الله بماء، ثم صار طيناً، ثم ذكر عن هذا الطين أطواراً صار فيها حمأً مسنوناً، ثم يُبِّس فصار صلصالاً كالفخار، ثم إن الله بقدرته خلق من هذا الطين بشراً سوياً في غاية الجمال، اسمه آدم، ثم خلق من ضلعه امرأة، ثم كان بين هذا الرجل والمرأة ما يكون بين الرجل والمرأة. فالطَّور لنا جميعاً: هو ذلك التراب، والطَّور الثاني: هو تلك النطفة الأمشاج من ماء الرجل وماء المرأة،

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٨٠).

والطَّور الثالث: هو الدم الجامد، المُعبَّر عنه بـ (العَلَقَة)، والطَّور الـذي بعد ذلك: هو طَور (المُضْغَة)، وهو استحالة الدم مضغة، قطعـة لحـم، ليس فيهـا تخطيـط، ولا تشكيـل، ولا رأسٌ، ولا يـدٌ، ولا رِجْـل، ثـم إن الله (تبـارك وتعـالـى) يقلـب تلـك المضغـة هيكـل عظام، والله جل وعلا يرتب تلك العظام بعضها ببعض على هذا الأسلوب الغريب العجيب، في غاية من الإِحكام، ثم إن الله (جل وعـلا) بعـد أن يصنـع هيكـل العظـام يكسـوه اللحـم، ويجعـل فيـه العروق، فيفصِّله ويخططه، ويفتح فيه العينين، والأنف، والفم، والأذنين، ويجعل فيه الأعضاء، ويضع كل عضو في محله، ويضع الكبـد فـي محلـه، والطحـال، والكليتيـن، إلـى غيـر ذلـك، ويجعـل الإِنسان على هذا الأسلوب الغريب العجيب الهائل، الذي لو شُرِّح منه عضو واحد لحارت عقول العقلاء بما أبدع الله فيه من غرائب صنعه وعجائبه، فليس في بدن الواحد منا موضع إبرة إلا والله أودع فيـه مـن غـرائب صنعه وعجائبه ما يبهر العقول، وكل هذا فعله فينا لـم يشـق أمهـاتنـا، لـم يشـق طبقـة بطنهـا السفلـى، ولا الـوسطـى، ولا العليا، ولم يخطها، ولم يُبَنِّجْها، ولم يُنومها في صِحِّية. يفعل في بطنها هذه الأفعال الهائلة الغريبة العجيبة وهي لاهية تفرح وتمرح، لا تدري عن شيء من ذلك، بكمال قدرته وصنعه. والله يُلفت أنظارنا إلى هذا ونحن نُلفت أنظار إخواننا إليه دائماً؛ لأن الله يقول: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: آية ٦] يعني: بعد النطفة علقة، وبعد خلق العلقة مضغة، وبعد خلق المضغة عظاماً، إلى آخره. وهو يقول: ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ يعني: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة التي هي على الولد في داخل

الرحم. لم يحتج إلى أنْ يزيحها أو يسلط عليها أشعة كهربائية. العلم والبصر نافذ لهذا الصنع الغريب العجيب في بطن أمه ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران: آية ٦] ولذا لما قال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾.

قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ ثم قال ـ وهو محل الشاهد ـ : ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: آية ٦] أين تصرفون؟ أين تذهب عقولكم عن هذه الغرائب والعجائب التي يفعلها فيكم خالق السماوات والأرض؟ ثم إن الله (جل وعلا) يخرجه من بطن أمه، ويسهل له طريق الخروج ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ [عبس: آية ٢٠] ويكون في هذه المحطة التي نحن فيها، فكل ما قبلها جاوزناه، ثم إنه عن قريب ينتقل الجميع من هذه المحطة إلى محطة القبور، فيمكثون فيها ما شاء الله، ثم ينادي خالق السماوات والأرض أن يرحلوا من القبور ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم: آية ٢٥] فيجيبون داعي الله مهطعين إلى الداعي، فيجمعهم في صعيد واحد، صعيد المحشر، ينفذهم البصر، ويُسمعهم الداعي، ثم يمكثون ما شاء الله، ثم يتفرقون كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: آية ٦] متشتتين متفرقين، وهذه الأشتات في سورة الزلزلة أوضحها الله في سورة الروم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: الآيات ١٤ ـ ١٦] فبعد ذلك يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وعند ذلك تُلقى عصى التسيار، ويُذبح الموت، ويقول:

يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. وهو معنى قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: آية ٣٩].

بهذا تعرفون حقيقة معنى (الآخرة)؛ لأن الأطوار قبلها كلها ينتقل من طور إلى طور، بعد التراب نطفة، وبعد النطفة علقة، وبعد الدنيا قبر، وبعد القبر بعث. أما في الآخرة فالدار التي يحلها الإنسان ليس بعدها انتقال آخر إلى شيء، ومن هنا قيل لها (الآخرة)؛ لأنها ليس بعدها شيء، والمنزل في ذلك إما غرفة من غرف الجنة، وإما سجن من سجون النار.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: آية ٩٢] بهذا القرآن العظيم. كل من يؤمن باليوم الآخر يؤمن بهذا القرآن العظيم، لوضوح أدلته. أما الذي لا يؤمن باليوم الآخر فهو لا يخاف من عقاب، ولا يرجو ثواباً، فلا يؤمن بشيء.

ثم خص الصلاة لعظم مكانتها[1]، قال: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٣].

نزلت هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام في مسيلمة الكذاب،

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٧٩).

وكذاب صنعاء: الأسود العنسي[(١)]، كلٌّ منهما ادعى أنه نبي كذباً وافتراءً على الله، فبين الله (جل وعلا) أنه لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله، أو يدعي أن الله أوحى إليه وهو لم يوح إليه.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الاستفهام إنكاري. والمعنى: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾.

وقد بينا في هذه الدروس مراراً: أن مثل هذه الآية فيه سؤال معروف؛ لأن معنى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ معناه: لا أحد أظلم، وإذا كان المعنى في قوله هنا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً. فإن هذا تُشكل عليه آيات أُخر كقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: آية ١١٤]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: آية ٥٧] إذ يصير المعنى: لا أحد أظلم ممن افترى، لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، لا أحد أظلم ممن ذُكِّر بآيات ربه فأعرض عنها. فينشأ من هذا سؤال، فيقول طالب العلم: كيف يقول: لا أحد أظلم من هذا، ثم يقول في موضع

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٣٣)، أسباب النزول للواحدي ص٢٢٠، الدر المنثور (٣/ ٣٠).

قال ابن عاشور تعقيباً على هذا القول: «وهذا يقتضي أن يكون مسيلمة قد ادعى النبوة قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة؛ لأن السورة مكية. والصواب: أن مسيلمة لم يدَّع النبوة إلا بعد أن وفد على النبي ﷺ في قومه ــ بني حنيفة ــ بالمدينة سنة تسع طامعاً في أن يجعل له رسول الله ﷺ الأمر بعده، فلمَّا رجع خائباً ادعى النبوة في قومه. وفي تفسير ابن عطية أن المراد بهذه الآية مع مسيلمة الأسود العنسي المتنبىء بصنعاء. وهذا لم يقله غير ابن عطية، وإنما ذكر الطبري الأسود تنظيراً مع مسيلمة. فإن الأسود العنسي ما ادعى النبوة إلا في آخر حياة رسول الله ﷺ». اهـ التحرير والتنوير (٧/ ٣٧٥).

آخر: لا أحد أظلم من هذا، في شيء آخر؟

وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة معروفة[١]، أشهرها اثنان، فيهما الكفاية:

أحدهما: أنه لا معارضة البتة بين الآيات، وأن هؤلاء المذكورين لا يوجد أحد أظلم منهم، وهم متساوون في مرتبة الظلم، فلا يكون هنالك تعارض، كما لو قلت: لا أحد أعلم في هذا البلد من زيد، ولا أحد أعلم فيه من عمرو. فيكون زيد وعمرو مستويين في العلم، ولا يفوقهما أحد فيه، فيكون كِلاَ المقالين حق.

الوجه الثاني: أن هذه المواضع تتخصص بِصِلاَتِها. ومعنى (تتخصص بِصِلاَتها): أن كل واحد منها تُفَسِّره صلة موصوله، فيكون المعنى هنا: لا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذباً، ولا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله، ولا أحد من المعرضين أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها، إلى آخره.

وقوله ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ افتراء الكذب: اختلاقه. والكذب في أصح معانيه: هو عدم مطابقة الخبر للواقع[٢]، فالكفار كذابون، خبرهم لا يطابق الواقع، وإن ظنوا في نفس الأمر أنه خير وسداد، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: آية ٣٠] وقال جل وعلا: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى

---

(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (١/ ٣٥٧، ٤١٥)، البرهان للزركشي (٤/ ٧٤ ـ ٧٥)، أضواء البيان (٤/ ١٤٣ ـ ١٤٤)، دفع إيهام الاضطراب (ملحق في آخر الأضواء ٩/ ٢٥)، قواعد التفسير (٢/ ٥٢٨).

(٢) انظر: التعريفات للجرجاني ص ٢٣٤.

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٠٤﴾ [الكهف: آية ١٠٣، ١٠٤] فقوله: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ كمن ادعى لله الشركاء، أو ادعى له الأولاد، أو ادعى أنه حرم ما لم يحرمه، أو أحل ما لم يحلله، أو قال: أوحي إلي. هذا داخل في افتراء الكذب، إلا أنه عطفه عليه بـ (أو) لأنه من أعظم أنواع الافتراء، كأنه لعِظَمه صار قسماً مقابلاً للافتراء وهو من أشنع أنواع الافتراء.

﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ أي: قال: إن الله أوحى إليه، كمسيلمة الكذاب (رحمٰن اليمامة)، وكالأسود العنسي (صاحب صنعاء)، ويدخل في حكمهم غيرهم من المتنبئين، حيث قال كل من هؤلاء: إنه أُوحي إلي.

وذكروا في تاريخ مسيلمة أنه أرسل رسولاً إلى النبي ﷺ ـ يُذكر أنه ابن النواحة الذي قتله بعد ذلك ابن مسعود، أرسله إليه ـ بكتاب فيه: «من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله، إن الأرض نصفان، نصفها لي، ونصفها لك، ولكن قريشاً قوم يعتدون». فأجابه النبي ﷺ: **«من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»**[(١)].

ومعلوم أن ما يدعي أنه قرآن بالغ من التفاهة والسقوط ما لا يخفى على أحد، كقوله: «والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، فالفاردات فرداً، فاللاقمات لقماً». وغير ذلك من الترهات والخرافات.

---

(١) انظر: السيرة لابن هشام (٤/ ١٤٥٦ ـ ١٤٥٧)، زاد المعاد (٣/ ٦١١).

الذين يدعون النبوة ـ كمسيلمة والأسود العنسي ـ لا أحد أظلم منهم، حيث قالوا: إن الله أوحى إليهم ـ ولم يوح إليهم ـ ظلماً وعدواناً. وهذا معنى قوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ والحال: ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾.

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (من) في قوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذا كله معطوف على المجرور في قوله: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ولا أحد أظلم ممن قال: أُوحي إلي، ولا أحد أظلم ممن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله.

وقوله: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذه نزلت في عبد الله بن سعد بن سرح، على قول أكثر المفسرين[(١)]. أسلم أولاً، وكان من كُتَّاب الوحي للنبي ﷺ، ولما أنزل الله في سورة (قد أفلح المؤمنون): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: الآيات ١٢ ـ ١٤] عجب عبد الله بن سعد بن أبي سرح من تفصيل الله هذا لخلق الإنسان فقال: «فتبارك الله أحسن الخالقين» فقال له النبي ﷺ: «**هكذا أُنزلت**» فشك في كلام النبي ﷺ، قال: إني أُوحي إلي مثل ما أُوحي إليه، إن كان صادقاً فقد أُوحي إلي مثل ما أُوحي إليه، وإن كان كاذباً فقد جئت بمثل ما جاء به. وارتد عن الإسلام ـ والعياذ بالله[(٢)] ـ وهو ممن أمر النبي ﷺ بقتلهم يوم فتح مكة،

---

(١) انظر: المستدرك (٣/ ٤٥)، ابن جرير (١١/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤)، أسباب النزول للواحدي ص ٢٢٠، لباب النقول ص ١١٩، الدر المنثور (٣/ ٣٠).

(٢) هذا الخبر بهذا التفصيل لم أقف عليه بسند صحيح. وإنما ورد في بعض =

وكان أخاً لعثمان بن عفان (رضي الله عنه) من الرضاعة، فأخفاه عثمان عنده حتى سكنت الحركة واستأمن النبي ﷺ له فأمَّنه[1]، وحَسُن إسلامه، وكان والياً لعثمان على جهة مصر، وهو الذي فتح إفريقية، وقتل ملكها (جرجير)، والذي تولى قتله عبد الله بن الزبير كما هو معروف في التاريخ[2]. أنزل الله فيه عندما ارتد: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ٩٣] ونظيره قول بعض الكفار: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال: آية ٣١].

ثم إن الله (جل وعلا) لمّا بين أنواع الكفرة الظالمين باجترائهم على الكذب، كادعائهم لله الأولاد والشركاء، وكقول بعضهم: إنه أُوحي إليه، وكقول بعضهم: إنه قادر على أن يُنزل مثل ما أنزل الله. بين وعيده لهؤلاء الكفرة، قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا نبي الله ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حين الظالمون كالذين يفترون على الله الكذب، ويقولون: إنهم أُوحي إليهم. أو يقولون: سنُنزل مثل ما أنزل الله. لو ترى حين الظالمون أمثال هؤلاء حين هم ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ غمرات

= المراسيل، فالله تعالى أعلم. قال ابن عاشور معقباً على القول بأنها نزلت في عبد الله بن أبي السرح: «وهذا أيضاً مما لا ينثلج له الصدر؛ لأن عبد الله بن أبي السرح ارتد بعد الهجرة ولحق بمكة، وهذه السورة مكية». اهـ التحرير والتنوير (٧/ ٣٧٥).

(١) سنن أبي داود، كتاب الحدود، باب الحكم فيمن ارتد، حديث رقم: (٤٣٣٦، ٤٣٣٧)، (عون المعبود) (١٢/ ١٢ ـ ١٣)، النسائي في تحريم الدم، باب: توبة المرتد، حديث رقم: (٤٠٦٩)، (٧/ ١٠٧)، والحاكم (٣/ ٤٥)، وانظر: صحيح سنن أبي داود (٣/ ٨٢٣ ـ ٨٢٤)، صحيح سنن النسائي (٣/ ٨٥٣).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤، ٣٧١).

الموت: سكراته وشدائده وكرباته. وأصل (الغَمْرَة) هي ما يغمر الشيء، كالماء الذي يغمر الوادي فيغطيه، كل ما غمر شيئاً حتى غطاه وستره[١]. المصدر من ذلك: (غَمْراً) والمراد بـ (غمرات الموت): شدائده وسكراته وكرباته، حين هم في سكرات الموت وشدائده وكرباته. والحال ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ باسطو أيديهم: يعني باسطوها إليهم بالضرب الوجيع، والأذى الفظيع. والعرب تكني عن السوء بـ (بسط اليد)، كقوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ [المائدة: آية ٢٨]، وكقوله: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة: آية ٢] والدليل على أن بسط الملائكة أيديهم إليهم أنه للأذى والضرب الوجيع: آيات جاءت في ذلك، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: آية ٥٠] فضَرْبُهم هذا لوجوههم وأدبارهم هو الذي بسطوا إليهم أيديهم به في قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ هذا هو الأظهر[٢]، خلافاً لمن قال: إنهم يمدون أيديهم إليهم ليأخذوا أنفسهم وأرواحهم من أبدانهم، كما يمد الغريم يده لغريمه ليأخذ حقه عليه بشدة وعنف.

وقوله: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ أخرجوا أنفسكم: فيه وجهان معروفان من التفسير[٣]:

أحدهما: أن المعنى: أخرجوا أيها المُحتضَرون أنفسَكم من

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٣٨)، القرطبي (٧/ ٤١)، الدر المصون (٥/ ٤١).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩)، القرطبي (٧/ ٤١)، الأضواء (٢/ ٢٠٣).

(٣) انظر: القرطبي (٧/ ٤٢).

هذه الكربات إن كانت لكم قدرة. والمعنى: لا تقدرون على الخروج عما يريد الله أن يفعله فيكم.

القول الثاني: أن روح الكافر إذا علمت بما لها عند الله من العذاب الشديد تفرقت في جسده وامتنعت من الخروج، فهم يقولون: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ قدموا أرواحكم وأخرجوها من أبدانكم لنأخذها.

ثم قال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الهون: هو أشد الهوان، وهو الذل والخزي ـ والعياذ بالله ـ وإنما أضاف العذاب إلى (الهون) لأنه عذابٌ موصوف بأن صاحبه يقع عليه أعظم الهوان وأشده، كقولك: رجل سوء، وعذاب هون، وما جرى مجرى ذلك[١].

وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ لأن الله بين أن الذين يفترون على الله الكذب لا أحد أظلم منهم في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

ثم بين أنهم عند الاحتضار تتوفاهم الملائكة، ويبسطون أيديهم إليهم بضرب الوجوه والأدبار. ثم بين علة ذلك: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في دار الدنيا ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ كادعائكم له الأولاد والشركاء، وأنه حرم ما لم يحرمه، وأحل ما لم يحلله، وكقول بعضكم إنه أُوحي إليه ولم يُوح إليه شيء، وكقول بعض الكفار: إنه سينزل مثل ما أنزل الله. كل هذا من افتراء الكذب على الله، الذي بين الله أنه سبب لعذابه وضرب الملائكة إياه، حيث بيّن العلة بقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ من افتراء الكذب بادعاء الأولاد والشركاء، وما

(١) انظر: الدر المصون (٥/ ٤٣).

جرى مجرى ذلك ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٩٣﴾ وكنتم عن آياته (جل وعلا) إذا تُليت عليكم تستكبرون، تتكبرون عنها وتأنفون من اتباعها؛ لأن قادة الكفار ورؤساءهم كانوا إذا تُلي عليهم القرآن ودُعوا إلى الدين قالوا بجهلهم: نحن الآن رؤساء متبوعون، كيف نتنازل ونكون أتباعاً مأمورين مرؤوسين؟ لا يكون ذلك!! ولذا أجرى الله العادة أن من يُناصب الرسل بالعداوة هو أشراف الناس، والمترفون منهم، كما صرح الله به في آيات من كتابه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٤﴾ [سبأ: آية ٣٤] وفي حديث هرقل مع أبي سفيان الثابت في الصحيح: أن ملك الروم (هرقل) لما سأل أبا سفيان: أأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. قال: أولئك أتباع الأنبياء[1]. أجرى الله العادة بذلك، ومما يوضح هذا أن أول الأنبياء الذين بُعثوا إلى الأرض بعد أن وقع الكفر والإشراك بالله: هو نوح (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام)، كان أتباعه من ضعفاء قومه؛ ولذا قال له قومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ۝١١١﴾ [الشعراء: آية ١١١] وقالوا له: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: آية ٢٧] وآخرهم نبينا ﷺ. كذلك قدمنا في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأنعام ـ أن رؤساء الكفرة قالوا له: لا نجالسك حتى تطرد عنا هؤلاء النتنى، يعنون ضعفاء المسلمين. وقد قدّمنا ما أنزل الله فيهم في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي، باب (٦)، حديث رقم: (٧)، (١/ ٣١)، ومسلم في الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، حديث رقم: (١٧٧٣)، (٣/ ١٣٩٣).

[الأنعام: آية ٥٢] وأنه ﷺ لما نُهي عن طردهم كان يجلس معهم، فإذا كانت له الحاجة قام عنهم، فأنزل الله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: آية ٢٨] حتى صاروا يقولون: قوموا عن النبي ﷺ ليمكنه أن يقوم لحاجته. ولما أجرى الله العادة بأن أول من يكذب الرسل ويُناصبهم بالعداوة الرؤساء المترفون، قال هنا فيهم: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)﴾.

[١٠/أ] / ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)﴾ [الأنعام: آية ٩٤].

لما بين الله (جل وعلا) في هذه الآيات من سورة الأنعام أنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، ولا أحد أظلم ممن ادعى الوحي كذباً، ولا أحد أظلم ممن ادعى أنه قادر على إنزال مثل ما أنزل الله، وبين الله (جل وعلا) أن هؤلاء الظالمين الذين قالوا هذه المقالات أنهم إذا حضرتهم الوفاة بسطت الملائكة أيديهم إليهم بالعذاب والنكال، وقالوا لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: آية ٩٣] بيَّن حالتهم التي يُبْعثون عليها، وشدة ضعفهم وعدم قوتهم التي كانت هي سبب تمردهم في الدنيا.

وقوله في هذه الآيات: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يدخل في معناه: من ادعى أنه ينظم للبشرية ما يغنيها عن نظام الله (جل وعلا) الذي وضعه، ومن اتبع هذا ـ والعياذ بالله ـ فقد اتبع أحداً لا أظلم في الدنيا منه ـ والعياذ بالله ـ فالذي ينزله الله لا يقدر أحدٌ على أن ينزل مثله. ومن ادعى أنه ينزل مثله صَرَّح الله في هذه الآيات الكريمة أنه لا أحد البتَّة أظلم منه.

وبهذا تعلمون أن الذين يتنطعون ويدَّعون أنهم ينظمون للبشرية نظاماً أحسن مما أنزل الله، أنهم يدخلون في هذه الآية، وأن الملائكة ستضربهم عند الموت. ستضرب وجوههم وأدبارهم، وتقول لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: آية ٩٣] ومعلوم أنه لا تشريع إلا للسلطة العليا. فالسلطة العليا الحاكمة على كل شيء هي التي لها الأمر والنهي. فهؤلاء الذين يتمردون على نظام السماء، ويحاولون قلب الحكم السماوي لو جاء أحد يريد أن يقلب الحكم عليهم ويحكم بغير ما شَرَّعوا لقتلوه شرَّ قتلة، مع أنهم يتجاهرون بأن نظام خالق السماوات والأرض الحكيم الخبير، الذي نظّم فيه علاقات الدنيا، وأوضح فيه طرق الخير في الدنيا والآخرة، وأتبع فيه متطلبات الروح بالتربية والتهذيب، ومتطلبات الجسم على الوجوه الشرعية، يقولون: إنه لا يصلح، ولا ينظم الحياة، ولا يساير التطور الحالي للحياة. الذين يقولون هذا والذين يتبعونهم، لا شك أنهم داخلون في هذا الوعيد في قوله: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾. لأن من أعظم ما أنزله الله: وَضْعُ النظام البشري الذي يمشي عليه البشر ليؤاخي بينهم، وينشر بينهم العدالة، والطمأنينة، والرخاء، والمساواة في الحقوق الشرعية.

قد قدمنا في هذه الدروس مراراً كثيرة[1]: أن من ادَّعى أن هنالك تنظيماً ينظم الحياة البشرية في الدنيا مثل تنظيم الله أو أحسن من تنظيم الله، أن هذه الدعوى كفر بواح، لا يشك فيه من له أدنى عقل، والآيات المُصَرِّحة بذلك بإيضاح كثيرة في القرآن العظيم[2]،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من هذه السورة.

(٢) انظر: أضواء البيان (٣/ ٤٣٩).

منها: أن الشيطان لما جاء تلامذته من كفار قريش، وجاءهم بوحي الشياطين، وقال لهم: سلوا محمداً ﷺ عن الشاة تصبح مَيِّتَة، من هو الذي قتلها؟ فلما أجاب وقال: «الله قتلها». أوحى إليهم الشيطان أن قالوا: ما ذبحتموه بأيديكم ـ يعنون المُذَكَّى ـ تقولون: حلال. وما ذبحه الله بيده الكريمة ـ يعنون الميتة ـ تقولون: هو حرام؟ فأنتم إذاً أحسن من الله؛ حيث كانت ذبيحتكم أحلّ من ذبيحته[1]!! فهذه قضية اختلف الحق والباطل فيها في مضغةٍ لحم شاةٍ ماتت ولم تُذَكَّ، فجاء تشريع الشيطان بأنها: حلال؛ لأن الله هو الذي ذبحها، وجاء نظام الإسلام، وتشريع السماء، على لسان سيد الخلق: أنها حرام؛ لأنها لم تُذَكَ، ولم يُذكر عليها اسم الله، فصرّح الله (جلَّ وعلا) بأن الذين يتبعون قانون إبليس، ونظام الشيطان، ويحلّلون لحم الميتة الذي حرمه نظام السماء، أنهم كفرة مشركون؛ ولذا قال الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني الميتة. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾، ثم قال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ يجادلوهم بوحي الشيطان: ما ذبحتموه حلال وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذاً أحسن من الله. هذا معنى قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾. ثم قال ـ وهو محل الشاهد ـ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: آية ١٢١] وإن أطعتموهم في نظام إبليس في تحليل تلك اللحمة التي حللها إبليس على لسان أتباعه ـ بدعوى شبهة أنها ذبيحة الله، وحرمها الله في تشريعه السماوي على لسان نبيه ﷺ ـ صرح الله بأن من اتبع نظام إبليس وأحل تلك الميتة، وترك نظام الله الذي هو تحريمها: أنه مشرك بالله،

(١) انظر: ابن جرير (١٢/ ٧٨)، ابن كثير (٢/ ١٧١).

كما قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ لأن الرب هو الذي يحلل ويحرم، فمن اتبعت تحريمه وتحليله فقد جعلته ربك. وهذا الشرك: شرك طاعة، ونظام، وقانون في التحريم والتحليل، وسيوبِّخ الله مرتكبيه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، ويبين مصيرهم الفظيع الشنيع من النار؛ وذلك أن الله يقول لمن كانوا يتبعون نُظم الشيطان وقوانينه التي شرعها على ألسنة أوليائه، تاركين نظام السماء الذي أنزله خالق الخلق على لسان نبيه، يقول الله لهم: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا﴾ [يس: الآية ٦٠] يعني: باتباع نظامه وتشريعه وقانونه ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ والجِبِلُّ الكثير الذي أضله: هم الذين يتبعون تزيينه في المعاصي، وتشريعه، ونظامه المخالف لتشريع السماء، ونظام خالق الكون ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ لا عقول لكم حيث تتبعون نظام إبليس، وتتركون نظام خالقكم (جل وعلا)، ثم قال: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: الآيات ٦٠ ـ ٦٥] وقال الله (جل وعلا) عن نبيه إبراهيم أنه يقول لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ يعني بقوله: ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ لا تتبع نظامه وتشريعه بالكفر والمعاصي، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: آية ٤٤].

وقد سمّى الله (جل وعلا) الذين يُطاعون في معصية الله، سماهم (شركاء) في هذه السورة الكريمة، سورة الأنعام، في قوله جل وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٣٧] فسماهم (شركاء) لمّا

أطاعوهم في التحليل من قتل الأولاد، وقال جل وعلا: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: آية ١١٧] يعني: ما يعبدون إلا شيطاناً مريداً. وعبادتهم له هي: اتباع تشريعه، وقد بين النبي ﷺ هذا البيان لما سأله عدي بن حاتم (رضي الله عنه) عن قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: آية ٣١] قال عدي للنبي: كيف اتخذوهم أرباباً؟. قال: «**ألم يُحلوا لهم ما حرم الله، ويحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم؟**» قال: بلى، قال: «**بذلك اتخذوهم أرباباً**»[(١)].

وقد صرّح الله (جل وعلا) في سورة النساء أن من يدعي الإسلام ويزعم أنه مؤمن، ثم يريد التحاكم إلى الطاغوت من تشاريع الشيطان، أن دعواه للإيمان مع ذلك بالغة من الكذب والبطلان ما يستوجب التعجب منها، وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: آية ٦٠].

والآيات بمثل هذا كثيرة، وعلى كل حال فعلينا جميعاً نحن المسلمين أن نعرف ونعتقد أنه لا تشريع إلا لخالق السماء والأرض، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرّمه الله، والدين ما شرعه الله، والأمر أمر الله، والنهي نهي الله، والحسن ما حسّنه الله، والقبيح ما قبّحه الله، وكل نظام وتشريع غير تشريع السماء وبال وويل على صاحبه ــ والعياذ بالله جل وعلا ــ ولذا أولئك يدخلون في قوله هنا: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ٩٣].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة.

وقد بين (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة، أن أولئك المستكبرين في دار الدنيا، الذين يستكبرون عن آياته، الذين كان لهم في الدنيا خدم، وحشم، وأتباع، وأُبَّهة، أنهم يوم القيامة يُبعثون ويُعرضون إلى ربهم لا أتباع لهم، ولا حشم، ولا خدم، حتى ولا نعال، ولا ثياب، كل واحد بمفرده ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: آية ١١١]، ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: آية ٩٤] لأن الإنسان يخرج من بطن أمه وحيداً فريداً، لا مال له، حافياً، عارياً، لا نعال له، ولا لباس، غير مختون، لا خدم له، ولا حشم، كذلك يخرج من قبره وحيداً فريداً متجرداً من الأُبَّهة التي كان فيها، ليس معه خادم، ولا وزير، ولا مال، ولا نعل، ولا لباس، يحشرون يوم القيامة حفاةً عُراةً غُرلا. أي: غير مختونين؛ ولذا يقول الله للذين يستكبرون ويكفرون ـ كانوا يجمعون في دار الدنيا بين أمرين: التكبر، والتعاظم، وعدم الإذعان لآيات الله والإيمان به، ويزعمون أن الأصنام التي يعبدونها من دون الله أنها تشفع لهم يوم القيامة، وتنجيهم من كربات يوم القيامة، فوبخهم الله هذا التوبيخ العظيم ـ قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ هو مجيئهم يوم القيامة محشورين معروضين على خالقهم (جل وعلا) ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ الفُرادى: جمع فَرْد أو فَرَد. خلافاً لمن قال: إن واحده (الفَرْدَان) كالسكران والسكارى. وواحده في الحقيقة: الفَرْد والفَرَد، وتقول: هو فَرْد وفَرَد، إذا كان واحداً[1]. وربما قيل فيه: فَرِد، ويُروى بهما معاً قول نابغة ذبيان[2]:

---

(١) انظر: الأضواء (٢/ ٢٠٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧١) من سورة البقرة.

كَـأَنَّ رَحْلِـي وقَـدْ زَالَ النَّهـارُ بِنَـا بِذِي الجَليلِ على مُسْتَأْنَس وَحَدِ
من وَحْشِ وَجْرَةَ مَوْشي أكارعُه طاوي المصير كسيفِ الصَّيْقَلِ الفَرَد

ويروى: الفَرِد[1]، والفَرَد: هو الوحيد الذي لا شيء معه، ﴿جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ كل واحد منكم فرداً بمفرده، ليس معه مال، ولا ولد، ولا حشم، ولا خدم، حتى إنه حاف عارٍ ليس بمختون[2]. وهذا معنى: ﴿كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾.

وفي إعراب (الكاف) من (كما خلقنا) وجهان من الإعراب[3]:

أحدهما: أنه في محل نصب نعتاً لمصدر. والمعنى: جئتمونا مجيئاً مشابهاً لخلقنا لكم أولاً في التجرد عن المال، والأعوان، والحشم، والخدم.

الثاني: أنه في محل الحال. أي: جئتمونا فرادى في حال كونكم مشابهين حالتكم الأولى التي ولدتم عليها، لأن الواحد منكم يخرج من بطن أمه فرداً لا مال له، ولا ولد، ولا حشم، ولا خدم. وهذا معنى ﴿كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾.

﴿وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ العرب تقول: «خوَّله» إذا أعطاه وأنعم عليه، ﴿مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ﴾: أي: ما أعطيناكم، وأنعمنا عليكم به من المال والخَوَل، والخدم، تركتموه وراءكم، أي: خلفكم، حيث مُتّم عنه ولم يأتِ معكم.

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٤٣ ــ ٥٤٤)، المفردات (مادة: فرد) ص ٦٢٩، القرطبي (٧/ ٤٢)، الدر المصون (٥/ ٤٤ ــ ٤٥).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٤٣)، البحر المحيط (٤/ ١٨٢)، القرطبي (٧/ ٤٢ ــ ٤٣)، الأضواء (٢/ ٢٠٤).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٨٢)، الدر المصون (٥/ ٤٥).

ثم قال: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ الشفعاء الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لنا فيكم، وأن نصيباً لهم من حقوقنا، وتعبدونهم معنا، وتزعمون أنهم يشفعون لكم، ما نراهم معكم. وهذا توبيخ لهم ــ والعياذ بالله ــ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: آية ١٨].

وقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ فيه قراءتان[1]: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾، ﴿لقد تَّقطَّعَ بيْنُكم﴾ فعلى قراءة: ﴿لَقَد تَقَطَّعَ بيْنُكم﴾ فـ(البَيْنُ) من الأضداد، يطلق على البُعد، وعلى الوصل. والمعنى: تقطع وصلكم، والوصالات: الاتصالات التي كانت بينكم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: آية ١٦٦]، الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا تنقطع يوم القيامة، كما قال الله في سورة العنكبوت: ﴿مَوَدَّةً بَيْنِكُمْ فِي الحياةِ الدُّنيا﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الآية [العنكبوت: آية ٢٥][2]. وعلى قراءة: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ فبعض العلماء يقول: فاعل الفعل هو المصدر (لقد تقطع هو) أي: التقطع، أي: وقع التقطع بينكم، وبعض العلماء يقول: أصله (لقد تقطع ما بينكم)، وهو في بعض القراءات الشاذة[3].

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٩.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٣٤٤. وفي الآية قراءات أخرى غير ما ذُكر.

(٣) انظر: حجة القراءات ص ٢٦١ ــ ٢٦٢، ابن جرير (١١/ ٥٤٩)، القرطبي (٧/ ٤٣)، البحر المحيط (٤/ ١٨٢)، الدر المصون (٥/ ٤٨).

ومعنى القراءتين واحد[(١)]؛ ذلك لأن العابدين والمعبودين يوم القيامة يتعادون غاية المعاداة[(٢)]، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)﴾ [مريم: الآيتان ٨١، ٨٢]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)﴾ [الأحقاف: الآيتان ٥، ٦] وهذا هو معنى قوله هنا: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)﴾.

قد بيّنا مرارا[(٣)] أن (الضلال) في القرآن وفي لغة العرب يُطلق على معان متعددة، منها: يطلق الضلال على (الغَيْبُوبَة والاضمحلال)، كما هنا. فكل ما غاب واضمحل تقول العرب فيه: (ضل). ومنه قوله هنا: ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)﴾ أي: غاب واضمحل، ولم يوجد معكم، كما قال: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: آية ١٠] يعنون: أن الأرض أكلت عظامهم فاختلطت بها، فذهبت بها، واضمحلت فيها، كما تقول العرب: ضل السمن في الطعام. وهو معنى مشهور في كلام العرب، ومنه قول الأخطل[(٤)]:

كُنْتَ القَذى في موجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ قَذَفَ الأتيُّ به فضلَّ ضلالا

أي غاب واضمحل، وهذا معروف في كلام العرب، ومنه تقول

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٤٩)، القرطبي (٧/ ٤٣).

(٢) انظر: الأضواء (٢/ ٢٠٤).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من هذه السورة.

العرب للدفن إضلالاً، تقول: أضلوه إذا دفنوه، ومنه قول الشاعر[1]:

وآب مُضِلُّوهُ بعَيْنٍ جَلِيَّةٍ وغُودِرَ بالجَوْلَانِ حَزْمٌ ونَائِلُ

وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أي: غاب، وذهب، واضمحل عنكم، ما كنتم تفترونه من أن هذه الأصنام أنها تشفع لكم، وتنقذكم من كربات يوم القيامة. وهذا توبيخ من الله (جل وعلا)، وهذا التوبيخ وبخهم الله بمثله في سورة الكهف، وزاد توبيخهم بأنهم كانوا يُنكرون هذا البعث، كما قال: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: آية ٤٨].

ثم بيّن أنه إذا جمعهم فُرادى يجدونه مَحْصِياً عليهم جميع أعمالهم، كما قال بعده: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: آية ٤٩] فالناس يوم القيامة يُحشر كل واحد منهم بمفرده، لا مال معه، ولا خدم، ولا حشم، والدليل على أن (الفُرَادَى) واحده فَرْد أو فَرَد: قوله في سورة مريم: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: آية ٩٥]، دل ذلك على أنه واحدُ قولِهِ هنا: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والعرب تقول: تركت هذا وراء ظهري. يعني: خلفي. أي: تركتم ما خولناكم خلفكم، أي: وراء ظهوركم حيث ارتحلتم عنه في الدنيا، فعلى الإنسان أن لا يترك ــ أعني خلف ظهره ــ ما خَوَّله الله، وأن ما أعطاه الله يقدمه لآخرته بصرفه في وجوه الخير، والاستعانة به على ما يرضي الله جل وعلا.

---

(١) السابق.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٩٥ ـ ٩٧].

يقول الله جل وعلا: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٩٥، ٩٦].

بيّن الله (جل وعلا) في هذه الآيات عجائب صنعه الدالة على أنه المعبود وحده، القادر على كل شيء. وهذه مع أنها آيات، فهي نِعَم عِظَام، فهو يُذكِّر الخلق بنعمه العِظَام، وآياته العظام.

وقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: آية ٩٥] الفَلْقُ في لغة العرب معناه: الشّق(١). وفي هذه الآية ثلاثة أوجه معروفة من التفسير(٢):

أشهرها وعليه الجمهور، وهو ظاهر القرآن العظيم الذي دل عليه بعض القرائن أن معنى قوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ إن الله (جل وعلا) فالق الحب، يفلق حب القمح ـ مثلاً ـ إذا بُذِرَ في الأرض يفلقه ويشقه عن سنبلة فيها مئات الحب، ويفلق النواة.

---

(١) انظر: المفردات (مادة: فلق) ص ٦٤٥، الدر المصون (٥/ ٥٦).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٥٠)، القرطبي (٧/ ٤٤)، البحر المحيط (٤/ ١٨٤).

﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾ جمع نواة، وقيل: هو اسم جمع[١] للنواة[٢]، كنوى التمر وغيره، فكل ثمر في داخله عجم يسمى: نوى. فإن الإنسان يبذر النواة في الأرض ــ نواة النخلة مثلاً، وهي صلبة قاسية ــ فيشقها الله، ويُخرج منها هذه النخلة، هذه الشجرة العظيمة، ذات الخوص، وذات العيدان، وينبت من تلك النخلة تمراً أيضاً، فالذي يشق الحبة إذا بذرت في الأرض، ويُخرج منها سنبلة، ويشق النواة، ويُخرج منها نخلة، أو شجرة أخرى ــ إذا كانت نواة غير نواة النخل ــ من يفعل هذه الأفعال التي تشاهدونها فهو العظيم القادر على كل شيء، وهو الرب وحده، المعبود وحده (جل وعلا)، فعلى هذا الوجه الذي عليه جمهور المفسرين يذكرنا الله بعظمته، وكمال قدرته، حيث ينبت السنبلة من الحبة، والنخلة من النواة، فمن يفعل هذا فهو عظيم قادر على كل شيء، وكأنه يشير إلى أن ذلك السنبل الذي يفلق عنه الحبّة هو معيشتنا التي لا نستغني عنها، فكما أنه من باهر آياته فهو من نعمه العظمى علينا، وقد أوجب الله على كل إنسان منّا أن ينظر في هذا؛ لأن الله قال بصيغة أمر تقتضي الوجوب، في سورة عبس قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ [عبس: آية ٢٤] فأوجب على الإنسان بصيغة الأمر النظر إلى طعامه، ومعناه: كأنه يقول: أيها الإنسان انظر إلى طعامك، انظر إلى الخبز الذي تأكله، من هو الذي خلق الماء الذي أنبته الله بسببه؟ أيقدر أحد غيره على أن يخلق الماء؟! لا، هب أن الماء خُلق، من يقدر على إنزاله على هذا

---

(١) في عمدة الحفاظ ص ٥٩٩، والدر المصون (٥/ ٥٧): (اسم جنس).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٥٠)، القرطبي (٧/ ٤٤)، الدر المصون (٥/ ٥٧)، عمدة الحفاظ (مادة: نوى) ص ٥٩٩.

الأسلوب العجيب رشاشاً يُسقي الأرض من غير أن يضر بأحد، لا يقدر على هذا إلا الله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ يعني المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: آية ٤٣] من فتوق السحاب ومخارجه رشاشاً؛ لأنه لو نزل مجتمعاً لأهلك ما سقط عليه. هبْ أن الماء خُلق، وأنه أُنزل إلى الأرض على هذا الأسلوب الغريب العجيب حتى شربت الأرض ورويت، من هو الذي يقدر على شق الحبة عن السنبلة أولاً، ثم على شق الأرض وإخراج مسمار النبات منها؟ هبْ أن مسمار النبات خُلق؟ من هو الذي يقدر أن يُخرج منه السنبلة؟ هبْ أن السنبلة خرجت، من هو الذي يقدر على تنمية حبها، ونقله من طَور إلى طَور، حتى يصير صالحاً مُدْركاً، صالحاً للأكل؟ ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾ [الأنعام: آية ٩٩] هذا ذكره الله بقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥)﴾ وفي القراءة الأُخرى: ﴿إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥)﴾[1] [عبس: الآيتان ٢٤، ٢٥] يعني: فسقينا به الأرض، ثم شققنا الأرض عن النبات شقاً بعد أن شققنا الحبة عن السنبلة، كما قال هنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ هذه غرائب صنع الله وعجائبه يبينها لخلقه، ويذكرهم بنعمته ليعلموا عظمة من خلقهم (جل وعلا) فيعبدوه وينيبوا إليه.

هذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ﴾ يعني: فالق الحب عن السنبل، وفالق النوى عن الشجر، كالنخل مثلاً. هذا من غرائب صنعه وعجائب قدرته، ومن نعمه العظمى عليكم، حيث أنبت لكم الحبوب والثمار لتأكلوا منها.

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٤٦٢.

وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ هذا التفسير هو الذي عليه جمهور المفسرين، وهو المعروف عن علماء السلف والخلف، وفي الآية قولان آخران:

أحدهما: أن معنى كونه فالق الحب والنوى: أن حبة القمح مثلاً فيها شبه شق في بعض جوانبها، والنواة فيها شق في جانبها، أنه هو الذي جعل ذلك الشق في الحب، وجعله في النوى ليُري الناس كمال قدرته.

الوجه الثاني: هو ما ذكره بعض أهل العلم: أن الفلق والفطر والخلق كلها مترادفة. فمعنى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ أي: خالق الحب والنوى وغير ذلك.

والأول هو أشهرها.

وقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ فقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ لأن الحبة اليابسة كأنها ميتة، وكل شيء ينمو ويتزايد تُسميه العرب حيّاً؛ ولذا يُسمون النبات حياً؛ لأنه ينمو، ويُسمون اليابس منه ـ الذي لا ينمو ـ يسمونه ميْتاً. ومن هنا كانوا يقولون للأرض الجدبة القاحلة: ميتة؛ لأن نباتها يابس لا ينمو، فإذا نبت فيها النبات الأخضر النامي سمّوها: حية. كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ [يس: الآيات ٣٣ ـ ٣٥]. ولذا قال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الحي هنا: هو السنبل الأخضر النامي، والنخل، والشجر الأخضر النامي يُخرجه الله من

ذلك الميت اليابس الذي لا ينمو، وهو الحب اليابس، أو النوى اليابس، وكذلك يخرج الله النطفة ـ وهي ميتة ـ يُخرجها من الحي الذي هو الإنسان، والبيضة من الدجاجة. فقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي يخرج النامي من النبات والحيوانات من الميت وهو بذر النبات اليابس الذي لا ينمو بذاته، وكذلك ما يخرج من الإنسان، كالنطفة فإنها لا تنمو بنفسها إلا أن الله (جل وعلا) يُخرج منها الحي، كما قال: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ المعنى: أن الله (جل وعلا) يخرج الحي النامي كالنخلة، والسنبلة من الحبة، والنوى، ويخرج الإنسان من النطفة، والدجاجة من البيضة مثلاً، كما أنه يخرج الميت من الحي، يخرج أيضاً ذلك الزرع الميت من الحي الذي هو النبات، ويخرج الثمر من الشجر الذي هو النامي، كما يخرج أيضاً النطفة والبيضة من الحي الذي هو الإنسان والدجاجة.

هذا معنى قوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ وهذا هو الذي عليه جمهور المفسرين، خلافاً لمن قال: إنه يخرج الكافر من المؤمن، والمؤمن من الكافر، وما جرى مجرى ذلك[1]. القول الأول هو المشهور.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربي: وهو أن يقول طالب العلم: قال ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ بصيغة المضارع، وعطف عليه قوله: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ بصيغة اسم الفاعل، فما النكتة العربية في عطف اسم الفاعل هنا على المضارع؟ ولِم لا يُعطف عليه مضارعاً آخر؟ كما فعل في سورة آل عمران حيث قال: ﴿تُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٥٣)، القرطبي (٤/ ٥٦)، (٧/ ٤٤).

﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَىَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَىِّۖ﴾ [آل عمران: آية ٢٧].

عن هذا السؤال للعلماء وجهان[1]:

أحدهما: أن قوله: ﴿وَمُخۡرِجُ﴾ معطوف على اسم الفاعل، وعليه فالمعنى: إن الله فالق الحب والنوى، ومخرج الميت من الحي. فهو اسم فاعل معطوف على اسم فاعل؛ لأن قوله: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَىَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ كأنه تفسير لقوله: ﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ فجاء باسم الفاعل في ﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ وفسّره بأن معناه: يخرج الحي من الميت. أي: يخرج النخلة التي هي نامية حيّة من النواة التي هي ميتة، والسنبلة التي هي نامية حيّة من الحبة التي هي ميتة. وإذا كان قوله: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَىَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ يكون قوله: ﴿وَمُخۡرِجُ﴾ عطفاً على ﴿فَالِقُ﴾ فهو اسم فاعل معطوف على اسم فاعل. وعلى هذا فالتقدير: إن الله فالق الحب والنوى. أي: مخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي.

الوجه الثاني: هو أن عطف اسم الفاعل على الفعل، وعطف الفاعل على الاسم المشتق، كلها أساليب معروفة في القرآن وفي لغة العرب. ومن أمثلة عطف الفعل على اسم الفاعل: قوله جل وعلا: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ [الملك: آية ١٩] لم يقل: وقابضات، وقوله: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ۝٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝٤﴾ [العاديات: الآيات ١ ـ ٤] ولم يقل:

---

(١) انظر: ملاك التأويل (١/ ٢٩٥)، البحر المحيط (٤/ ١٨٥)، الدر المصون (٥/ ٥٧).

فالمثيرات. وكذلك عكسه، وهو: عطف الاسم على الفعل ـ اسم الفاعل على الفعل ـ أمر معروف موجود في كلام العرب، ومنه قول الراجز(١):

بـات يُغَشِّيهـا بِعَضْـبٍ بـاتـرٍ   يَقْصِـدُ فـي أَسْـوُقِهـا وجـائِـرِ

فقوله: «جائر» معطوف على «يقصد» بمعنى: قاصد وجائر. وهذا أسلوب معروف في كلام العرب.

﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ ثم إن الله لما نبهنا على عظمته وكمال قدرته، وأنك أيها الإنسان [تشاهد أنك](٢) تبذر حبة في الأرض، فيُخرجها لك سنبلة خضراء فيها مئات الحب، وتبذر نواة في الأرض فيُخرج لك منها نخلة ذات أغصان، وذات خوص وجريد، وذات ثمر، وهذا من أبدع صنعه (جل وعلا)، دال على أنه الرب وحده. قال بعد هذه الآيات: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أين تُصرفون عن النظر في هذا؟ كيف تشاهدون غرائب صنعه وعجائبها الدالة على كمال قدرته، وتسوّون به غيره، وتعبدون معه ما لا ينفع ولا يضر؟ أين تصرفون؟ وأين تذهب عقولكم عن أفعال ربكم العظيمة الدالة على أنه المعبود وحده؟

و ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ مضارع مبني للمفعول، من (أَفَكَه يَأْفِكُه) إذا قلبه، العرب تقول: «أَفَكَ الأمر يَأْفِكُه» إذا قلبه، ومنه قيل لقرى قوم لوط: (المؤتفكات) لأن جبريل أفكها، أي: قلبها فجعل عاليها سافلها، ومن هنا قيل للكذب: إفك؛ لأن الإفك أسوأ الكذب؛ لأنه صرف للكلام عن وجهه الحقيقي إلى وجهه الباطل. فمعنى:

---

(١) البيت في البحر المحيط (٤/ ١٨٥)، الدر المصون (٣/ ١٧٨).

(٢) في الأصل: «تشاهدك».

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أين تصرفون وتقلبون عن هذه البراهين والآيات العظيمة الدالة على عظمة ربكم وجلاله، وأنه المعبود وحده جل وعلا.

/ ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٦]. [١٠/ب]

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ قرأ هذا الحرف القراء السبعة ما عدا الكوفيين: ﴿وجاعِلُ الليل سكناً﴾ وقرأه الكوفيون ـ حمزة والكسائي وعاصم ـ: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ بصيغة الفعل الماضي[١].

وإعراب ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ فيه للعلماء ثلاثة أوجه لا يُكذّب بعضها بعضاً[٢]:

أحدها: أنه خبر مبتدأ محذوف. أي: هو (جل وعلا) فالق الإصباح.

الثاني: أنه نعت للرب في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾، الله فالق الإصباح. فهو نعت لاسم الجلالة.

وقال بعض العلماء: هو خبر آخر لقوله: ﴿إِنَّ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ والخبر يتعدد للمبتدإ، وإذا دخلت (إن) على مبتدإٍ متعدد الخبر: تعددت الأخبار لها، والمعنى كله على هذه الأعاريب الثلاثة معنى واحد.

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٩.

(٢) انظر: فتح القدير (٢/ ١٤٣).

ومعنى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ الإصباح: أصله مصدر (أَصْبَحَ يُصْبِحُ إِصْبَاحاً)، إذا جاء ضوء النهار من بعد ظلام الليل(١).

وعامة القراء السبعة قرؤوا: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ بكسر الهمزة. مصدر (أَصْبَحَ، يُصْبِح، إِصْبَاحاً). وهو مصدر سُمّي به، [والعرب](٢) تقول للصبح: إصباحاً، وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول امرىء القيس(٣):

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انْجَلِ بصبحٍ وما الإِصباح فيك بأمثلِ

فبيّن أنه يقصد بالإِصباح: الصبح، فأصله مصدر (أصبح، يصبح، إصباحاً).

وهناك قراءة شاذة قرأ بها الحسن وغيره: (فالق الأَصباح وجاعل الليل سكناً) هذه شاذة غير سبعية، هي معروفة عن الحسن وغيره(٤). ومعنى هذه القراءة: (الأصباح) بفتح الهمزة جمع (صبح)، والعرب تقول: «أصباحٌ، وأَمْساء». جمع (صبح، ومساء). و«إصباح وإمساء»، مصدر (أصبح، وأمسى) وهو كلام معروف في كلام العرب، ومنه قول الراجز(٥):

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٥٤)، القرطبي (٧/ ٤٤)، البحر المحيط (٤/ ١٨٥)، الدر المصون (٥/ ٥٨).

(٢) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين زيادة يتم بها المعنى.

(٣) ديوان امرىء القيس ص ١١٧.

(٤) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٥٦)، القرطبي (٧/ ٤٥)، البحر المحيط (٤/ ١٨٥)، الدر المصون (٥/ ٥٨).

(٥) البيت في البحر المحيط (٤/ ١٨٥)، الدر المصون (٥/ ٥٩)، وشطره الأول فيهما هكذا: «أفنى رياحاً وبنى رياح».

أَرْبَى رَبَاحاً وبني رَبَاحِ   تَنَاسُخُ الأَمْسَاءِ والأَصْبَاح

ويروى:

....   تَنَاسُخُ الإِمْسَاءِ والإِصْبَاحِ

وعلى قراءة الجمهور: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ معناها: مُبدي ضوء الصبح بعد ظلام الليل.

وفي هذا المعنى سؤال معروف، لطالب العلم أن يقول: الله ذكر هنا أن الإِصباح هو الذي يفلقه الله. والذي يُفلق في الحقيقة: الظلام، هو الذي يُفلق ويُشق عن نور الصباح، أما كون نور الصباح هو الذي يُفلق ويُشق فهذا فيه إشكال، فيه سؤال معروف للعلماء.

وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة(١):

منها قول بعضهم: الكلام على حذف مضاف: فالق ظلمة الإِصباح. وأنه حذف المضاف إليه، ولا يخلو من بُعد؛ لأن هذا المضاف لم تحتف به قرينة.

وقال بعض العلماء: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ لأن الإِصباح يبدأ شعاع الصبح أولاً وتحته ظلام، ولم يُسفر إسفاراً تاماً يكشف الظلام كشفاً كلياً، ثم ينصدع ذلك الإِصباح انصداعاً كلياً عن ضوء النهار كما ينبغي، وهذا معروف ومنه قول أبي تمام(٢):

وأزرقُ الفجرِ يبدو قَبْلَ أَبْيَضِهِ   وأولُ الغَيْثِ قَطْرٌ ثم ينسكبُ

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٨٥)، الدر المصون (٥/ ٦٠).

(٢) البيت في مشاهد الإنصاف (ملحق بالكشاف ٤/ ١١)، الدر المصون (٥/ ٦٠).

فعلى هذا القول: أن الإصباح يبدو أولاً وهو مختلط بغَلَس الظلام، ثم إن الله يشق ذلك الإصباح الذي بدأت أوائله مختلطة بالظلام شقاً واضحاً عن وَضَح النهار، وهذا هو المعروف، أن الظلام سواء كان ظلاماً دامساً، أو ظلاماً مختلطاً ببعض ضوء الصبح، هو الذي يُشقُّ عن الصباح كما هو معروف، ومنه قول أبـي نواس[1]:

تردَّت به ثم انفرى عن أَدِيْمِها ... تفـرِّي ليـلٍ عــن ضيـاء نهـارِ

هذا هو المعروف، وهم إما يُقَدِّرون مضافاً فيقولون: فالق ظلمة الإصباح. أي: شاقها بضوء الصبح، أو ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾. أي: أوائل الإصباح المختلطة بغَلَس الظلام، فالقها وشاقها عن النور، نور النهار الحقيقي.

وقوله: ﴿وجاعِلُ الليلِ سكناً﴾ على قراءة: ﴿وجَاعِلُ الليلِ سكناً﴾ فلا إشكال، اسم فاعل معطوف على اسم فاعل. وعلى قراءة: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾[2] هو مما كنا نقول: إن الاسم إذا كان مشتقاً ــ كاسم الفاعل هنا ــ يُعطف عليه الفعل، ويُعطف هو على الفعل، كما قال في الخلاصة[3]:

واعطِفْ على اسمٍ شبهِ فعلٍ فعلاً ... وعكسـاً استعمِـلْ تجـدْهُ سهـلاً

---

(١) البيـت فـي مشـاهـد الإنصـاف (ملحـق بـالكشـاف ٤/ ٤٥)، البحـر المحيـط (٤/ ١٨٥)، الدر المصون (٥/ ٦٠)، وفي هذه المصادر: «عن بياض....» إلخ.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٩، حجة القراءات ص ٢٦٢، ابن جرير (١١/ ٥٥٦)، القـرطبـي (٧/ ٤٥)، البحـر المحيـط (٤/ ١٨٦)، الـدر المصـون (٥/ ٦٠).

(٣) الخلاصة ص ٤٨، وانظر: شرحه في التوضيح والتكميل (٢/ ١٨٩).

ومثاله في القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: آية ١٩] وقوله جل وعلا: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١)﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤)﴾ [العاديات: الآيات ١ ـ ٤] كما قال هنا: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ فيه للعلماء وجهان[١]:

أحدهما: أنه جعله سكناً أي: شيئاً يسكن الناس فيه؛ لأن الناس في النهار يكدحون في أعمالهم، ثم يروحون في تعب، فيجدون ظلام الليل مناسباً للهدوء والراحة. وعلى هذا فهو من السكون الذي هو ضد الحركة. يسكنون فيه وينامون لينقطع عنهم تعب الكدّ بالنهار، كما في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [الفرقان: آية ٤٧] من (السَّبْت) بمعنى القطع. يعني: يقطع عنهم تعب الكد في النهار، ومما يدل على هذا: أن الله في سورة القصص لما بيّن أن الليل والنهار آيتان من آيات الله العظام، بيّن أيضاً أنهما نعمتان من نعم الله العظام، وجعل السُّكنى في الليل من ذلك الإنعام حيث قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يعني في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: الآيات ٧١ ـ ٧٣] من طلب حوائجكم وأرزاقكم بالنهار، وهذه الآية تبين أن

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٥٧)، القرطبي (٧/ ٤٥)، البحر المحيط (٤/ ١٨٦)، الأضواء (٢/ ٢٠٤).

السكن هنا: أي محلاً تسكنون فيه مُلائماً للسكنى؛ لأن الليل ظرف مناسب للسُّكنى.

وعلى هذا: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ جعله ساجياً مظلماً مناسباً للسُّكنى، كما قال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى: آية ٢] أي: إذا صار ساجياً مظلماً، صالحاً للسكنى، ملائماً للهدوء، وعدم الحركة.

وقال بعض العلماء[1]: السكن في لغة العرب: هو كل ما ترتاح إليه وتحبه فتسكن إليه؛ ولذا قيل لامرأة الرجل: (سَكَنُه) لأنه يأوي إليها، وكل شيء أويتَ إليه وارتحت إليه فهو سكن لك. والمعنى: شيء يستريحون إليه، ويأوون إليه، لمناسبته للراحة والهدوء. وهذا معنى قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ **﴿وجاعِلُ الليل سكناً﴾**.

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾ الحُسْبَان هنا: هو من (الحِسَاب) على أشهر التفسيرات.

قال بعض العلماء[2]: هو جمع حِسَاب، كشهاب وشُهبان، وحِسَاب وحُسْبَان.

وقال بعض العلماء[3]: هو مصدر (حَسَب) بفتح السين،

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٨٦).
(٢) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٥٩)، القرطبي (٧/ ٤٥)، البحر المحيط (٤/ ١٨٦)، الدر المصون (٥/ ٦٤).
(٣) انظر: ابن جرير (١١/ ٥٥٩)، القرطبي (٧/ ٤٥)، البحر المحيط (٤/ ١٨٦)، الدر المصون (٥/ ٦٤).

(يَحْسِب) [بكسرها][١]، (حِسَاباً وحِسَابَة وحُسباناً)، إذا عدّ الشيء، والمعنى: جعل الشمس والقمر حُسْبَاناً يعني: خلقهما بحُسْبَان، يحسب حركتهما وسيرهما بأسلوب متقن لا يتغير في السَّنَة؛ لتعلموا بذلك الحساب عدد السنين والأشهر والأيام. وهذه من نتائج الشمس والقمر التي ذكرها الله (جل وعلا)؛ لأنهم يعرفون بها الشهور والأيام والأعوام، فيعرفون من ذلك شهر الصوم، وشهر الحج، ويعرفون عِدد النساء، وآجال الديون، وما جرى مجرى ذلك، هذه من فوائد الشمس والقمر التي أكثر الله (جل وعلا) من ذكرها.

ومعلوم أن أصحاب النبي ﷺ ـ كما قدمناه في هذه الدروس في سورة البقرة ـ أنهم تاقت نفوسهم إلى هيئة القمر، فقالوا للنبي ﷺ: ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم لم يزل يكبر حتى يستدير بدراً[٢]؟ وهذا سؤال عن هيئة القمر، والنبي ﷺ أُرسل ليبين للناس

---

(١) في الأصل: (بفتحها)، وهو سبق لسان.

(٢) الروايات الواردة في أن الآية نزلت بسبب سؤالهم عن الأهلة متعددة، ومن ذلك:

١ ـ ما أورده الواحدي في أسباب النزول ص ٥٣، ـ من غير إسناد ـ أن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) قال: يا رسول الله، إن اليهود تغشانا ويُكثرون مسألتنا عن الأهلة، فأنزل الله... الحديث. وذكره الحافظ في العُجَاب (١/ ٤٥٣) وقال ص ٤٥٤: «لم أر له سنداً إلى معاذ، ويُحتمل أن يكون اختصره أولاً، ثم أورده مبسوطاً». اهـ.

٢ ـ ما أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٣/ ٢٦٩)، وابن عساكر في تاريخه (مختصر ابن منظور ١/ ٢٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت في معاذ بن جبل، وثعلبة بن عَنَمَة ـ وهما رجلان من الأنصار ـ قالا: يا رسول الله، ما بال الهلال... فنزلت... الحديث. وقد أورده ابن الأثير في =

. . . .

= أُسد الغابة (١/ ٢٩٢)، والسيوطي في الدر (١/ ٣٠٢) وقال: «أخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس... إلخ. كما أورده في لُبَاب النقول ص ٢٨، وعزاه لأبـي نعيم، وابن عساكر.

وقد أورده الواحدي في أسباب النزول ص ٥٣، ــ من غير إسناد ــ والحافظ في الإصابة (١/ ٢٠١)، عن الكلبـي من غير ذكر الواسطة، وهما: أبو صالح الذي يرويه عن ابن عباس، كما أورده الحافظ في العُجاب (١/ ٤٥٥)، وقال: «وأما أثر الكلبـي فلعله في تفسيره الذي يرويه عن أبـي صالح عن ابن عباس، وقد وجدتُ مثله في تفسير مقاتل بن سليمان بلفظه، فلعله تلقاه عنه». اهـ، وقال المُناوي في الفتح السماوي (١/ ٢٣٢): «إسناده واهٍ». اهـ.

٣ ــ ما أخرجه ابن أبـي حاتم في التفسير (١/ ٣٢٢)، وابن جرير (٣/ ٥٥٤) من طريق العوفي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت... الحديث. وقد أورده السيوطي في الدر (١/ ٢٠٣)، ولُباب النقول ص ٢٨، وإسناده ضعيف أيضاً.

٤ ــ ما أخرجه ابن جرير (٣/ ٥٥٣)، عن قتادة مرسلاً. وذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٥٣، ــ من غير إسناد ــ والسيوطي في الدر (١/ ٢٠٣)، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير، وانظر: تفسير ابن أبـي حاتم (١/ ٣٢٢)، كما أورده الحافظ في العُجَاب (١/ ٤٥٣)، وقال ص ٤٥٤: «أخرجه يحيـىٰ بن سلاَّم عن شعبة عنه بهذا اللفظ، وأخرجه الطبري...». اهـ.

٥ ــ ما أخرجه ابن جرير (٣/ ٥٥٣)، عن الربيع بن أنس مرسلاً. وذكره الحافظ في العُجاب (١/ ٤٥٤)، والسيوطي في الدر (١/ ٢٠٣).

٦ ــ ما أخرجه ابن جرير (٣/ ٥٥٤)، عن ابن جُريج مرسلاً. وذكره الحافظ في العُجاب (١/ ٤٥٤).

٧ ــ ما أخرجه ابن أبـي حاتم (١/ ٣٢٢)، عن الربيع عن أبـي العالية مرسلاً. وذكره الحافظ في العُجاب (١/ ٤٥٥)، والسيوطي في الدر (١/ ٢٠٣)، ولُباب النقول ص ٢٨. =

كل ما لهم فيه فائدة، وما يحتاجون إلى بيانه من آيات الله، وغرائبه، وعجائب صنعه، فأنزل الله جواباً لسؤالهم: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾ [البقرة: آية ١٨٩] فبين أنها مواقيت، وهذه المواقيت إنما كانت مواقيتَ لأنها بحساب معين مقدر نظمه العزيز العليم (جل وعلا). ومشارق الشمس ومغاربها معروفة في كل يوم من السنة، وكذلك منازل القمر معروفة، وفي هذه المشارق والمغارب ـ التي تُشرق منها الشمس وتغرب، ومنازل القمر ـ يعرف الناس بها عدد السنين، والشهور، والحساب، ويعرفون شهر صومهم، وشهر حجهم، وعِدَدَ نسائهم، وآجال ديونهم، وما جرى مجرى ذلك. أما غير ذلك، فقد بين القرآن أنه مما ليس لهم فيه جدوى ولا فائدة. ومعلوم أن القرآن العظيم يبين للناس كل ما يحتاجون إليه، والنبي ﷺ بين كل ما يُحتاج إليه. ونحن نقول هذا، ونقول: إن الله (جل وعلا) لم يجعل لخلقه في القمر أشياءَ غير ما هو مُشاهد من عدد السنين والحساب، ومما جعل الله في الشمس والقمر بمجاري عادته وقدرته من المنافع للنباتات، والثمار، والمعادن، وغير ذلك.

نحن نتكلم على هذا القرآن ولا نرضى لأحد أن يُؤَوِّله بغير

= وقد رُوي عن جماعة غير هؤلاء كعطاء، والضحاك، والسدي، كما أشار لذلك ابن أبي حاتم في التفسير (١/ ٣٢٢).

قال الحافظ في العُجاب (١/ ٤٥٥): «وقد توارد من لا يد لهم في صناعة الحديث على الجزم بأن هذا كان سبب النزول مع وهاء السند فيه، ولا شعور عندهم بذلك، بل كاد يكون مقطوعاً به لكثرة من ينقله من المفسرين وغيرهم». اهـ.

تأويـلـه، ولا أن يعطفه على آراء الكفرة الفجرة، في الوقت الذي نعلم فيه أن دين الإسلام يأمر بالتقدم في جميع ميادين الحياة. دين الإسلام يـأمر المجتمع بالتقدم في جميع ميادين الحياة. والإخلادُ إلى الأرض، والتواكـلُ والكسلُ: مُخَالفة للأمر السماوي الذي يأمر بـه خـالـق السمـاوات والأرض؛ لأن الله يقـول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: آية ٦٠] فهذا أمر. فالمتواكل المُخْلِد إلى العجز والاستسلام، ولم يُعِد ما يُستطاع من قوة، فهو مخالف لأمر الله في قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ وبهذا يُعلم أن التقدم، والكفاح، والإعداد للقوة: كل هذا أوامر القرآن العظيم، ونظام السماء، وأن العاجز المتكاسل المخلد إلى الأرض مخالف لأوامر الله، والله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: آية ٦٣] وعلى كل حال فلا شك أن دين الإسلام، وهذا القرآن العظيم، ينظم للإنسان جميع ميادين الحياة في دينه، ودنياه، هذا هو الحق. ودين الإسلام دين تقدم، ودين كفاح في الميدان، ودين قوة، وإذا قرأتم آيات من كتاب الله عرفتم ذلك واضحاً، إذا قرأتم مثلاً آيتين من سورة النساء يقول الله فيهما: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: آية ١٠٢] هذا وقت التحام الكفاح المسلح، والمفروض أن الرجال تنزل رؤوسهم عن أعناقهم، والقرآن في هذا الوقت الضنك الحَرِج، ترونه يُنَظِّم الخطة العسكرية على أحسن الوجوه، وأبدعها، وأحصنها

من العدو، في الوقت الذي يأمر فيه بالاتصال[1] بخالق هذا الكون، والتأدب بالآداب الروحية السماوية، التي هي الصلاة في الجماعة، هكذا أوامر القرآن، الاتصال بالله، وتربية الأرواح وتهذيبها على ضوء النور السماوي، مع القوة الجسمية المادية في جميع مظاهرها مهما تطورت، وتسمعون الله يقول في سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)﴾ [الأنفال: آية ٤٥] قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ يعني: إذا التقى الصفان وقت التحام الكفاح المسلح، وقوله: ﴿فَاثْبُتُوا﴾ هذا تعليم عسكري سماوي عظيم، معناه: الصمود في الخطوط الأمامية من خطوط النار، عند التقاء الصفين، وفي هذا الوقت يقول الله جل وعلا: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ وهذا مما يدل أن دين الإسلام دين كفاح، ودين قوة، ودين عظمة وتقدم في الميدان، ودين تربية الأرواح على ضوء تعاليم خالق هذا الكون، والاتصال بخالق هذا الكون (جل وعلا)؛ لأن الإنسان المسكين إذا فقد حظه من ربه خسر كل شيء، وماله في الحياة فائدة.

فعلينا جميعاً معاشر المسلمين أن نعلم أن الدين ـ ديننا ـ أنه تراث سماوي عظيم، وأنه يأمر بالتقدم والقوة في كل الميادين، وأن الإخلاد إلى العجز والضعف خلاف أوامر القرآن، وأنه مع هذا يُهذّب أرواحنا على ضوء تعليم السماء، ويقربنا من ربنا (جل وعلا). وقد بين لنا القرآن في مواضع منه: أن من كان متمسكاً بهذا الدين كما ينبغي، وكانت صلته بالله قوية كما ينبغي، ذا روح مُربى على ضوء

---

(١) في الأصل: على الاتصال.

نور القرآن، أنه ولو بلغوا من القلة لا يمكن أن تقهرهم قوة، ولا أن يغلبهم غالب؛ لأن الله الذي اعتمدوا إليه، وصاروا من حزبه: قوي قاهر، لا يغلبه شيء. ونضرب لكم بعض الأمثال بهذا:

أنتم تعلمون في التاريخ، وتاريخ القرآن، أن النبي ﷺ وأصحابه عام غزوة الأحزاب ـ غزوة الخندق ـ لما حاصره المشركون ذلك الحصار العسكري التاريخي العظيم، الذي نوّه الله به معظّماً أمره: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١] هذا لقوة ذلك الحصار العسكري، وهم في ذلك الوقت، جميع من في الأرض يقاطعونهم في السياسة، والاقتصاد، ليس بينهم روابط سياسية، ولا اقتصادية مع أحد، وهم في فقر، وقلة، وجوع، وسيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه) في ذلك الوقت يطوي حزامه على الحجارة من الجوع، هم في هذا الوقت من الجوع وشدة الأعداء، وقوة الحصار العسكري، وكل من في الأرض أعداء لهم يقاطعوهم سياسة، واقتصاداً، ما العلاج؟ وما قاوموا به هذا الأمر العظيم، وهذا الحصار العسكري؟

الجواب: أنه قوة الإيمان بالله، وصدق الالتجاء لخالق هذا الكون، كما نص الله على ذلك في قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢﴾ [الأحزاب: آية ٢٢] هذا الإيمان والتسليم لله، وقوة الإيمان به، والاستسلام له (جل وعلا)، كان من نتائجه ما قص الله علينا في سورة الأحزاب ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى

ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: من حصونهم ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: الآيات ٢٥ ـ ٢٧] يعني: إن كنتم ضعافاً عاجزين فمن توكلتم عليه وآمنتم به وكنتم عباده حقاً ليس بعاجز، بل هو قادر على كل شيء؛ ولذا ختم القصة بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

ونظير ذلك ما قصه الله في سورة (الفتح) عام الحديبية، لما نزلت سورة (إنا فتحنا) عام ست من الهجرة، رجوع النبي ﷺ من عمرة الحديبية، لما عقد الصلح مع قريش، وأنزل الله عليه سورة (الفتح). كان لما بلغهم أن قريشاً قتلوا عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وبايعوا النبي ﷺ تحت سمُرة من شجر الحديبية، بايعوه بيعة الرضوان، عند هذه البيعة علم الله من قلوبهم الإخلاص، والإيمان الكامل، والصدق كما ينبغي، ونوّه بإيمانهم الذي علمه في قلوبهم قال: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: آية ١٨] فنوّه عن إيمانهم بالاسم المُبْهَم الموصول. أي: ما في قلوبهم من الإيمان بالله (جل وعلا) كما ينبغي، عدّد نتائج هذا الإيمان الخالص الكامل، عدّد نتائجه عليهم، ثم ذكر من نتائجه أن قال: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ فصرح بأن إمكانياتهم العددية والعُددية لم تُقدرهم عليها. ثم قال: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ﴾ فأقدركم عليها. وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفتح: آية ٢١] كما قال في (الأحزاب). يعني: إن كنتم في ضعف فهو قوي قادر.

وعلى هذا تعلمون أن دين الإسلام أولاً يأمر بالقوة والتقدم في كل الميادين، وقهر الكفار، والعظمة والقوة في كل الميادين، مع أن أهله منصورون من خالق السموات والأرض (جل وعلا)، فالإسلام هو هو، وصلته بالله هي هي، وقوته [هي هي، إلا أن أعداء الإسلام عملوا على التفريق بين هذه العقيدة][(١)] وأهلها، فنجحوا في ذلك بعد عشرات القرون، نجحوا فيه عن طريق تعليم النشء، يأخذون أولاد المسلمين ويغرسون في قلوبهم ما شاؤوا من الكفريات، والإلحاديات، وتصوير الإسلام ورجال الإسلام العظام بصور مُشَوَّهة مُنَفِّرة، بعيدة من الحقيقة بُعد الشمس من اللمس، واليوم نجحوا نجاحاً باهراً، فصار جميع شباب المسلمين ـ إلا من شاء الله ـ ينظرون إلى الإسلام بعين عوراء لا تعرف الحقيقة، يتصورونه بصورة مشوهة خسيسة، بعيدة عن الحقائق كل البعد ـ والعياذ بالله ـ وبهذا فصلوا المسلمين عن شرعهم وتراثهم، حتى صاروا يُحَكِّمون قوانين إبليس، وفصلوهم عن مجدهم، وعن قوتهم بالله جل وعلا.

ونحن دائماً نذكر أمثال هذا لنُوَجِّه المسلمين إلى قوة الإسلام، وقوة صلته بالله، وأن أعداء الله إنما توصلوا لإهانتهم وتشتيتهم بعد أن حالوا بينهم وبين الدين بكل الوسائل.

فعلى المسلمين أن يعلموا أن خالق السماوات والأرض هو الذي له التشريع، وأن تشريعه هو التشريع الذي يقوم بالمصالح

---

(١) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل. وللشيخ رحمه الله كلام بنحو هذا في تفسير سورة الأنعام، الآيات (١١٥، ١٥٥)، الأعراف (٣، ٣٨)، الأنفال (٣٠، ٤٥، ٦٠)، التوبة (٣٠)، وفي الرحلة إلى أفريقيا. وما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام.

البشرية في الدنيا، يربي الأرواح، ويعطي الأجسام حقوقها، وينير الطريق للإنسان في جميع ميادين الحياة الدنيا، والحياة الأخروية.

والمسلمون إذا ألهمهم الله الرجوع إلى دينهم ذلّ لهم كل شيء، وخضعت لهم رقاب كل جبار في الدنيا؛ لأن دين الإسلام دين لا يُغلب المتمسك به حقيقة ولا يُقهر؛ ولذا كان من علامات دين الإسلام: أن الطائفة الضعيفة القليلة المتمسكة به تغلب الطائفة القوية الكثيرة التي لم تتمسك به؛ ولأجل هذا سمّى الله (يوم بدر) سماه (فرقاناً)، وسمّاه (بيّنة)، وسماه (آية)؛ لأنه برهان فارق بين الحق والباطل. قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: آية ٤١] يعني بقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾: يوم بدر؛ لأنه يوم فرق الله فيه بين الحق والباطل؛ لأن الفئة الضعيفة القليلة لا يمكن أن تقهر الفئة القوية الكثيرة إلا بتوفيق ونصر من الله. وقال (جل وعلا) في يوم بدر: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: آية ٤٢] وقال في يوم بدر أيضاً في سورة آل عمران: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: آية ١٣] وهذه الآية ـ التي هي لهم ـ والعبرة: أن الفئة القليلة الضعيفة غلبت الفئة القوية الكثيرة، وهذا لا يكون إلا بنصر الله كما قال الله جل وعلا.

﴿ذَٰلِكَ﴾[1] المذكور من فَلْقِ الحب عن السنبل، والنوى عن النخل مثلاً، وفَلْقِ الإصباح عن ضوء النهار، وجَعْلِ الليل ساجياً مظلماً ملائماً للسكون، وتسيير الشمس والقمر بحساب متقن، وليعرف الناس بها عدد السنين والحساب، وغير ذلك من الحِكَم،

(١) هذا رجوع إلى تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

كل هذه الغرائب والعجائب ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٩٦﴾ تقديره الذي قدّر هذا؛ لأن كل شيء عنده (جل وعلا) بمقدار.

و ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: معناه الغالب الذي لا يغلبه شيء؛ لأنه لا يقدر على هذه الأفعال العظيمة إلا الغالب القاهر الذي لا يغلبه شيء.

والعزّة في لغة العرب: الغَلَبَة. ومنه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الغَلَبَة، وفي الذِّكْر الحكيم: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ۝٢٣﴾ أي: ظلمني في المخاصمة. ومن أمثال العرب: (من عَزَّ بَزَّ)[1] يعنون مَنْ غَلَبَ اسْتَلَب. ومنه قول الخنساء الشاعرة[2]:

كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا حِمىً يُخْتَشَى إذِ النـاسُ إذْ ذَاكَ مَـنْ عَـزَّ بَـزَّا

وربما أطلقت العرب نادراً العزة على (قلة الوجود وصعوبته)، فيقولون: «الشيء الفلاني عزيز». أي: قليل الوجود وصعب المنال، إلا أن (العزيز) في أسمائه (جل وعلا) معناه: الغالب الذي لا يغلبه شيء.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ المحيط علمه بكل شيء (جل وعلا)؛ لأن الله (جل وعلا) عِلْمُه محيط بكل شيء، ومن أراد أن يعلم عظمة علم الله (جل وعلا) فلينظر إلى الحُجَّاج يوم جمرة العقبة، يجد هذا العَالَم على اختلاف ألوانه، وأشكاله، ونواحيه، وألسنته، يجده كله مصبوباً صبة واحدة، الأنف مجعول هنا، والعينان هنا، والفم هنا، ومع هذا لم يضق العلم حتى يكون اثنان مصبوبين في قالب واحد، كل واحد منهما مُغايَر بينه وبين الآخر، لا يلتبس منهم اثنان، حتى إن آثارهم

(١) انظر: الأمثال لأبي عبيد ص ١١٣.

(٢) ديوان الخنساء ص ٥٩٠، وفيه: «حِمىً يُتَّقَى».

في الأرض، وبصماتهم في الأوراق، وأصواتهم، كل هذا لا يشتبه منه شيء، وكل هذا أحاط به العلم قبل أن يوجد!! فعِلْمُ الله محيط بهذا قبل أن يوجد، وكلٌّ يُوضع ويُطبع ويُخلق على ما سبق به العلم الأزلي، فالله (جل وعلا) عِلْمُه محيط بكل شيء.

وقد قدمنا مراراً: أن الله (جل وعلا) يحيط علمه بالشيء وغير الشيء؛ لأن (الشيء) لا يُطلق في الاصطلاح إلا على (الموجود)، في مذهب أهل السنة؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: آية ٩] فقوله: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ دليل على أن العدم ليس بشيء[1]. وقد دلت على هذا آيات أُخر، والله (جل وعلا) يعلم المعدوم الذي هو ليس بشيء، وقد بينا في هذه السورة الكريمة فيما مضى أمثلة كثيرة من ذلك؛ لأن الله قال في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأنعام ـ : ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ فالكفار إذا رأوا العذاب يوم القيامة وعاينوا الحقيقة ندموا على تكذيب الرسل، وتمنوا الردّ مرة أُخرى إلى الدنيا فقالوا ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ يعنون إلى الدنيا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧﴾ [الأنعام: آية ٢٧] يعني: ليتنا رُدِدْنَا ونحن نصدق الرسل ولا نكذبهم كالمرة الأولى، هذا الردّ الذي تمنوه: الله (جل وعلا) عالم بأنه لا يكون، ومع علمه بأنه لا يكون فقد صرّح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨﴾ [الأنعام: آية ٢٨] وقد قدمنا مراراً: أن المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين لن يحضروها أبداً؛ لأن الله هو الذي ثَبَّطَهُم عنها بإرادته لحكمة، كما قال: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟

(١) انظر: شرح الطحاوية ص ١١٨.

لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ ﴾ [التوبة: آية ٤٦] وخروجهم هذا الذي كرهه وثبطهم عنه هو عالم بأنه لا يكون، ومع ذلك صرَّح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال: ﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ ﴾ [التوبة: آية ٤٧] إلى آخر الآيات، والآيات القرآنية كثيرة دالة على هذا. فالله يعلم الجائزات، والواجبات، والمستحيلات، والمعدومات، والموجودات، ويعلم المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يكون، يعلم أن لو كان كيف يكون، يعلم ما تخفي الضمائر، ويعلم خطرات القلوب، وكيف يجهل خطرات القلوب خالق خطرات القلوب؟ ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: آية ١٤] وقال جل وعلا: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق: آية ١٦].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنعام: آية ٩٧]، ﴿ وَهُوَ ﴾ أي: الله جل وعلا.

﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ ﴾ أي: خلق لكم النجوم.

﴿ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا ﴾ كل هذا من غرائب صنعه وعجائبه؛ لأن النجوم يهتدي بها الناس في ظلمات الليل، سواء كانوا في بر أو بحر، وقد يكون الناس مُلَجِّجين في البحر لا يعرفون جهة قصدهم إلا بالنجوم، وكذلك تأتيهم الظلمات في فيافي الأرض الواسعة فيستدلون بالنجوم، وربما كانوا في مسافة بعيدة إذا جاءهم غيم هلكوا، فإذا رأوا النجوم فرحوا كل الفرح؛ لأنهم يعرفون بها الجهات، ويستدلون

بها على قصد الطريق، كما قال الشاعر(١):

يُهِلُّ بالفرقدِ رُكبانُها كما يُهِلُّ الراكبُ المُعْتَمِر

يذكر فيفاء من الأرض إذا رأى ركبانها الفرقد بعد أن غاب عنهم: أَهَلُّوا يصيحون بالفرقد فرحاً منهم أنهم رأوه؛ لأنهم يهتدون به، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: آية ١٦].

وقد بيّن القرآن العظيم ثلاثاً من حِكم خلق النجوم، ثلاثة أشياء(٢):

منها: أنها يهتدي بها الضالّون في ظلمات البر والبحر، يعني: ظلمات الليل الكائنة براً أو بحراً كما قاله غير واحد.

الثاني: أن الله زيّن بها السماء كما قال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: آية ٥].

الثالث: أنها تُرجم بها الشياطين كما قال: ﴿رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك: آية ٥].

هذه الحِكَم الثلاث: مِنْ رَجْم الشياطين بالنجوم، وتزيين السماء الدنيا بها، واهتداء الناس بها في ظلمات البر والبحر، هي حِكَم ثلاث ذكرها الله من حِكَم خلقه للنجوم.

والنجوم: هي الكواكب التي تُرى في السماء. قيل: سُمّي

(١) البيت لابن أحمر، وهو في القرطبي (٢/ ٢٢٤).

(٢) انظر: ابن كثير (٢/ ١٥٩)، فتح القدير (٢/ ١٤٣)، معارج القبول (١/ ٤٢٨)، الأضواء (٢/ ٢٠٥).

النجم نجماً لأنه يطلع، والعرب تُسمي الطلوع نجماً، تقول: «نَجَم النبات». إذا طلع[١].

وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إنما أضاف الظلمات إلى البر والبحر لأن المسافرين قد يكونون في ظلمات الليل تارة في برّ، وتارة في بحر، فأضاف الظلمات إلى مكانها من بر أو بحر للملابسة بينهما[٢].

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: الدلالات الواضحة على قدرتنا وكمالنا، وأنه ليس لأحد أن يعبد غيرنا.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ وهذه الآيات التي فَصَّل كما ذَكَر من أنه يفلق الحب عن السنبل، والنوى عن النخل، وأنه (جل وعلا) يأتي بالليل بدل النهار، والنهار بدل الليل، وأنه (جل وعلا) يُسَخِّر الشمس والقمر، وأنه (جل وعلا) خلق النجوم، وبيّن من حِكمها: اهتداء الخلق بها، هذه الآيات الباهرة القاهرة قد فَصَّلناها لقوم يعلمون.

وإنما خصّ القوم الذين يعلمون لأنهم هم المنتفعون بها[٣]، ومن أساليب القرآن العظيم: أن يُخصص بالكلام المُنْتَفع به[٤]، كقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: آية ٤٥] وهو مُذكِّر

---

(١) انظر: المفردات (مادة: نجم) ص ٧٩١.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ١٨٨).

(٣) انظر: القرطبي (٧/ ٤٦)، البحر المحيط (٤/ ١٨٨)، وراجع ما مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

للأسود والأحمر، وكقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ﴾ [يس: آية ١١] وهو منذر للأسود والأحمر، ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: آية ٤٥] ونحو ذلك.

وقد بينَّا فيما مضى[1] أن (الآيات) جمع (آية)، وأنها عند المحققين من علماء العربية، أصلها: (أَيَيه) على وزن (فَعَلَة). وقع الإعلال بموجبه الأول، فأُبدلت الياء الأولى ألفاً، فقالوا: (آية).

والآية في لغة العرب تُطلق إطلاقين، وتطلق في القرآن العظيم إطلاقين، أما الإطلاقان في لغة العرب فأشهرهما: أن العرب تطلق (الآية) على (العلامة)، تقول: «آية كذا»، أي: علامته. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ [البقرة: آية ٢٤٨] أي: علامة أن الله مَلَّك طالوت عليكم: أن يأتيكم التابوت. وهذا أشهر اصطلاح الآية. وقد جاء في شعر نابغة ذبيان ــ وهو عربي قح جاهلي ــ تفسير الآية بالعلامة، حيث قال[2]:

تَـوَهَّمْـتُ آيـاتٍ لهـا فعَـرَفْتُهـا   لستـةِ أَعْـوامٍ وذا العـامُ سـابـعُ

[ثم بين][3] أن مراده بالآيات: علامات الدار وآثارها، حيث قال[4]:

رَمَـادٌ كَكُحْـلِ العيـنِ لأيـاً أُبِيْنُـه   ونؤيٌ كجذمِ الحوضِ أَثْلَمُ خاشعُ

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٣) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وقد أتممتُ النقص من كلام الشيخ ــ رحمه الله ــ عند تفسير الآية (٩) من سورة الأعراف.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

المعنى الثاني من إطلاق الآية في اللغة: أن العرب تطلق الآية على الجماعة، تقول: جاء القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم. ومنه قول بُرج بن مسهر[(١)]:

خَرَجْنَا من النَّقْبَينِ لا حَيَّ مِثْلُنا   بآيتنا نُزجي اللِّقَاحَ المَطَافِلاَ

أي: بجماعتنا.

إذا عرفتم أن (الآية) في لغة العرب تطلق على (العلامة)، وتطلق على (الجماعة)، فاعلموا أن (الآية) في القرآن تطلق إطلاقين[(٢)]:

أحدهما: الآية الكونية القدرية.

الثاني: الآية الشرعية الدينية.

أما الآية الكونية القدرية فهي العلامة التي نصبها الله كوناً وقدراً، ليبين بها لخلقه أنه الرب وحده، المعبود وحده، كَفَلْقِهِ الحَبَّ عن السُّنْبُل، والنوى عن النخل، وكإتيانه بالليل بدل النهار، والنهار بدل الليل، وكتسخيره الشمس والقمر، وكخلقه النجوم ليُهتدى بها، هذه آيات كونية قدرية، وضعها خالق هذا الكون كوناً وقدراً، جعلها علامة لخلقه أنه القادر على كل شيء، المعبود وحده، والآية الكونية القدرية في القرآن هي من الآية اللغوية التي بمعنى (العلامة) لا غير.

الثاني من إطلاقي الآية في القرآن: الآية الشرعية الدينية،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

كقوله: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق: آية ١١] أي آياته الشرعية الدينية، كآيات هذا القرآن العظيم.

أما الآية الشرعية الدينية فقد قال بعض العلماء: هي من (العلامة) لغة أيضاً؛ لأنها علامات على صدق من جاء بها لِمَا فيها من الإعجاز.

وقال بعض العلماء: الآية الشرعية الدينية من الإطلاق اللغوي الآخر، أي: بمعنى الجماعة؛ لأن الآية: جماعة من كلمات القرآن اشتملت على بعض ما اشتمل عليه القرآن من الإعجاز، والعقائد، والحلال، والحرام(١).

وهذا معنى قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾. أما القوم الذين لا يعلمون فتفصيل هذه الآيات لا ينفع فيهم؛ لأنهم لا يفهمون عن الله شيئاً، فهم كالأنعام؛ لأن الحمير والبغال والبعير لا يفهمون هذه الآيات عن الله، والله (جل وعلا) فضّل عليهم الأنعام، قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: آية ١٧٩] ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الفرقان: آية ٤٤] فالكفار ــ والعياذ بالله ــ أنزل درجة من الأنعام، وإيضاح ذلك: أن البغل ــ مثلاً ــ والبعير، البغلة التي تعطيها الشعير وتُعلفها إذا رأتك صَهَلَت إليك، وظهر عليها الفرح إذا رأتك، الكافر يُغدق الله عليه نِعَمَه، وهو يرتكب مساخطه، ويناصبه بالعداء جل وعلا!!

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

تمَّ المجلد الأول من «العذب النمير»
من مجالس الشنقيطي في التفسير
ويليه المجلد الثاني بإذن الله

فهرس الموضوعات

● ● ●

الفهرس العام